الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء السابع و العشرون

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 5

الجزء السابع و العشرون‏

سورة الأحقاف- مكية- و آياتها خمس و ثلاثون‏

[سورة الأحقاف (46): الآيات 1 الى 14]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (4)

وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ وَ هُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ (5) وَ إِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَ كانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ (6) وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى‏ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (8) قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَ لا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى‏ إِلَيَّ وَ ما أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (9)

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى‏ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11) وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً وَ هذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرى‏ لِلْمُحْسِنِينَ (12) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (14)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 7

حم. تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ‏ «حم» .. هذه و سائر مفاتيح السور التي افتتحت بأمثالها من حروف مقطعة، إنها رموز غيبية بين اللّه و رسوله، و هي مفاتيح كنوز القرآن، لا نعلم منها شيئا إلّا ما قد يلوح من القرآن، أو ما أبداه لنا الذين بأيديهم هذه المفاتيح من الراسخين في علوم القرآن، الموجهة إليهم خطاباته الرسالية: أصليا كالرسول و فرعيا كالأئمة من آل الرسول‏ «1».

و «حم» هذه، تتقدمها حواميم ست، إلّا الشورى الزائدة على الحرفين «عسق» و ما هو رمز تتابع هذه الحواميم السبع و كلها مكية «2»؟ اللّه أعلم! فهذا رمز فوق هذه الرموز لا سبيل لنا إلى الاطلاع عليها إلّا ان يطلعنا اللّه بالقرآن نفسه، أو بأصحابها، و

قد يروى عن الرسول (ص) قوله: «الحواميم تاج القرآن» «3».

و كما يوحي تتابع ذكر الكتاب أيضا بعد «حم» في هذه السبع، ان رمزه يناسب القرآن كلّه، إنزالا و تنزيلا، بيّنا و مبينا «4» و كما يعقبها ذكر من كتاب التكوين، إيحاء بتجاوب الكتابين و تلائمها، كما هما مع الحواميم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تجد البحث المفصل عن هذه الرموز و ما قيل أو يحق ان يقال فيها، في مواضيع اخرى في هذا التفسير لا سيما سورة البقرة.

(2) المؤمن- السجدة- الشورى- الزخرف- الدخان- الجاثية- الأحقاف.

(3) المجمع عن انس بن مالك عن النبي (ص).

(4) ففي الأحقاف هنا و في الزمر بعد السبع‏ «تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» و في السجدة تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏ و في المؤمن‏ تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ‏ و هذه ناضرة الى النزول التدريجي و كما في الشورى‏ كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ‏ و الزخرف‏ وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ‏ ثم الدخان ينظر الى النزول الدفعي‏ وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ ثم الزخرف‏ قُرْآناً عَرَبِيًّا ناظرة الى انه بيان، و الدخان‏ وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ‏ الى انه مبين، فهذه السور هي على دعائم كون الكتاب بيانا و مبينا و منزلا و منزلا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 8

و قد تعني‏ «حم» في كلّ غير ما تعنيه في سواها مع اشتراكها في مغزى شامل ام ماذا؟ اللهم لا علم لنا إلّا ما علمتنا إنك أنت العزيز الحكيم:

هنا نلمس العلاقة الحكيمة بين الكتاب المنزل تشريعا، و الكتاب المبدع تكوينا، و الكتابان معروضان على البصائر و الأبصار، يتجاوبان في تفسير بعضهما البعض، و لأنهما معا من عند اللّه العزيز الحكيم؛ كما نرى أن كتاب التدوين يأمر بالنظر إلى كتاب التكوين، و من ثم التكوين يصدق التدوين التشريع دون تفاوت و اختلاف.

ثم‏ «حم» قد تكون مبتدء خبره تنزيل الكتاب أو إنزاله، فهي إذا رمز شامل للكتاب جملة و تفصيلا، أو أن المبتدأ تنزيل الكتاب و خبره من اللّه العزيز الحكيم، و «حم» غير داخلة في نطاق التركيب الجملي كما هي خارجة عن العموم الدلالي. و كما اللّه تعالى بحكمته و عزته أحكم الكتاب إنزالا له في ليلة مباركة، كذلك بعزته و حكمته نزّله طوال ثلاث و عشرين سنة، فهو كتاب يحمل عزته تعالى و حكمته: «وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (41: 42) «ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ» (3: 58) «تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ» (10: 1) و كذلك اللّه في خلق الأرض و السماوات:

ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ‏.

ما خلقنا .. إلّا «ملابسا بالحق» واقعا، و مستقبلا هو «وَ أَجَلٍ مُسَمًّى» و حال ان: «الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا» من تخلفات في الحياة الدنيا، و من خلفياتها المقدمات للأخرى «معرضون»: إعراضا عقيديا للنشأتين و أيضا عمليا في الأولى.

فلو لم تكن للسماوات و الأرض نهاية و قيامة لكان خلقها عبثا و باطلا: «وَ ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 9

خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ» (38: 27) كان باطلا بما فيه من تسوية بين المتقين و الفجار:

«أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ» (28) .. و هذه لعبة جاهلة و لهوة باطلة ان يخلق هذا الكون الشاسع دونما حساب: «وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ. لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ. بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ» (21: 18) «ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ. ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ. إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ» (44: 40).

إن السماوات و الأرض هنا و هناك تعني الكون كله، فله أجل مسمى عند اللّه و ساعة معلومة لا يجليها لوقتها إلا هو.

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ». «قل» للذين كفروا، المعرضين عما أنذروا «أَ رَأَيْتُمْ»: أبصرتم و عرفتم‏ «ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» كأنهم آلهة إلا اللّه، فلو أنهم آلهة في رأيكم فليكونوا خالقين كما اللّه‏ «أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ» فقط غمضا عن السماوات. فإذ لا خلق لهم في الأرض فكيف بالسماوات؟ «أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ» مع اللّه‏ «فِي السَّماواتِ»؟ و ليس في الأرض و هو أهون، فإذ لا تجدون لهم خلقا في الأرض أو شركا في السماوات، و لعلّه خفي عنكم‏ «ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا»: الكتاب الأخير المهيمن على ما قبله من كتاب، يدل على هذا الشرك بلسان الوحي «أو»- و لا أقل- «أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ»: بقية منه تروى و تؤثر، أو علامة منه عليها أثر من علم، علم مسنود إلى حس أو نقل أو عقل أو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 10

أي كان، ما كان من علم، أو أثرة منه آثركم اللّه به فائتوني .. إن كنتم صادقين:

أنّ لما تدعون شرك في الأرض أو السماوات‏ «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ» «من خلقهم» «لَيَقُولُنَّ اللَّهُ»: «لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» «فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» «1» و هذه الادلة المطلوبة لإثبات ما يزعمون، بدء من الحسية و ختاما لأثارة من علم، يتوسطها كتاب من اللّه الشامل لكل دليل، إنها فقط هي التي يمكن الحجاج بها لاثبات ما يرام، و إذ لا يجدون منها أثرا او أثارة فأنّى يؤفكون!.

«كتاب او اثارة من علم»؟:

هنا الثقلان: الكتاب- و السنة: العترة- يحصر ان الادلة في أنفسهما:

كتاب وحي، او اثارة من علم منه، و الأثارة كما سبق هي البقية من علم، التي عليها اثر العلم، بقية ذات علامة تروى و تؤثر عن مصدر العلم: الكتاب، فانما هو الكتاب، المحور الأوّل و الأخير لاثبات الحق المرام، إذ يجمع ادلة الحس و العقل و العلم بوحي خالص يخطّئ اخطاءها: و يزيد في أضوائها، و يزودها بعلم اللّه الذي لا نقص فيه و لا خطأ.

لذلك ان الادلة الحسية المسبقة قبل الكتاب لا تتكرر هنا، لأنها مطوية في الكتاب. و ما أحسنه و أجمله تفسيرا لأثارة من علم ما

يروى عن الرسول (ص) انه‏، «حسن خط» «2»

و ما الخط الا تعبيرا عن الواقع، و ما حسنه و جماله الا فيما يحمل من معنى قبل زبره و صورته، و انه فقط حملة علامة العلم الكتاب و أثره، مهما لم يصل الى درجة العلم.

فالعلم المستفاد من كتاب الوحي هو الأساس، ثم أثارة منه، تحمل علامة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). (31: 25 و 43: 87 و 43: 9 و 43: 87).

(2) الدر المنثور 6: 38- اخرج ابن مردويه عن أبي سعيد عن النبي في الاثارة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 11

العلم، و يحملها اولوا العلم، فكما ان متن الأثارة يطمئن بملائمة الكتاب، كذلك سندها الناقل لها يطمئن، و مرافقة المتن هي أهم عند اولي العلم، و الحاجة الى السند لغيرهم في الأكثر، و الجمع امتن و أمكن لاثبات العلم.

فإذ

يقول الرسول (ص) «اني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه و سنتي- مرة- و عترتي- اخرى،

فهو ينظر الى أثارة العلم من زاويتين: المتن (سنتي) و السند (عترتي) فالعترة هم السنة المحمدية القاطعة التي لا ريب فيها، لأنهم يحملونها دون جهل او غفلة او خطأ، فما تسمعه منهم سليما دون تقية فهو علم او اثارة قطعية من علم، و ما يؤثر لك من غيرهم عنهم او عن النبي (ص) فلا حجة فيه الا إذا كانت أثارة من علم الكتاب، تحمل اثر الكتاب حيث يتصادقان.

و هنا يأتي دور

المروي متواترا عن النبي (ص) «ما وافق كتاب الله او سنتي فخذوه و ما خالف كتاب الله او سنتي فاتركوه» «1»

فان السنة هنا هي القاطعة، مسموعة عنه (ص) او مأثورة عن أهل بيته المعصومين، فالذي يعرض على الكتاب و السنة هي الأثارة: المأثور غير القاطع، فلو حملت علامة العلم بما وافقت الكتاب أو السنة القاطعة، فهي أثارة من علم، و إلا فهي أثارة لا من علم، مهما كان ظنا او سواه‏ «إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً».

و بما أن الأثارة من الأثرة فقد تعني فيما عنت أثرة من علم: أن آثرهم اللّه بشي‏ء من علم لم يوح الى نبي في كتاب او سواه، و لم يلهم الى عقل!:

«ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ»: بقية تحمل أثرا من علم الكتاب كدليل حيث لا دليل، او ما آثركم اللّه به من علم يفوق كل دليل، «ائْتُونِي‏ ... إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ»!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و من أهمها ما

رواه الفريقان عن النبي «ص» انه قد كثرت على الكذابة و ستكثر فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، فما جاءكم من حديث يوافق كتاب اللّه فأنا قلته و ما جائكم من حديث يخالف كتاب اللّه فلم أقله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 12

فيا للّه عطفا بهؤلاء الحماقى الجهال ان يطالبهم بدليل على ما يدعون، و إن كان أثرة كما قد يزعمون، و أنى لهم ان يأتوا به إلا أهواء و ظنونا عليها يعكفون! ترى و ما هو موقف «من» في «من علم»؟ علها جنسية تعني كون الأثارة من جنس العلم: عاليا كالأثرة، أو نازلا كما تحمل علامة منه، او نشوية تعني كون الأثارة البقية صادرة عن مصدر العلم، اثارة كائنة من علم، صادرة عن علم، و علهما هنا معنيان و ما أجمل جمعهما و أكمله! و ما أحسن الأثارة التي هي علم و تحمل علامة العلم، دليلا ثانيا بعد الكتاب؟! فالظن غير المسنود الى علم، الذي لا يحمل علامة العلم، إنه لا يغني من الحق شيئا «1».

و من ثم أخيرا و بصيغة اخرى‏ «أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ» قد تعني فيما تعني شيئا يستخرج من العلم بالكشف و البحث و الطلب و الفحص فتثور حقيقته، و تظهر خبيئته، كما تستثار الأرض بالمحافر فيخرج نباتها و تظهر نثائلها، او كما يستثار القنص من مجاثمه و يستطلع من مكامنه.

ثم إذ لا شرك لها في الخلق، فلا شرك إذا في التقدير و التدبير و لا العبادة- و أحرى-! فأنى تصرفون:! وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ وَ هُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ. وَ إِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَ كانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ‏.

اللّهم إنه لا أضل منهم، فالمدعو في مثلث الخيبة لهم منذ الدنيا ليوم الدين، اثنان يوم الدنيا: «مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ وَ هُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ» و واحد يوم الدين يحمل استجابة عليهم و استجاشة لشعورهم بأشد تأنيب: «وَ إِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَ كانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع سورة النجم، تفسير الآية وَ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 13

و ترى كيف تنسب الغفلة الى الأصنام يوم الدنيا و هي من حالات ذوي الشعور، و اكثر منها عداءها و كفرها بعبادتهم؟ يوم الدين!.

أقول: هذه مما تلمح بشعور غير ذوي الشعور- عندنا- يوم الدنيا، كآيات اخرى في مغزاها، كما و تصرح كأنها تصبح من ذوي العقول يوم الاخرى، فإذا كانت غافلة في الاولى من عبادتها، فهي تعاديهم بعبادتهم لها و تكفر بها في الاخرى: «وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ» (25: 14) «تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ» (28: 63) و انما أهواءهم كانوا يعبدون. «فَكَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ» (10: 29).

و كما ترجع إليهم ضمائر العقلاء: «مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ‏ .. هُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ‏ .. كانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ»! فيوم الدين تحدّ الأبصار أكثر مما كانت يوم الدنيا و كما الناس مع سواهم على سواء: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ».

و طبعا هذه الغفلة ليست من المعبودين ذوي العقول، فان الصالحين منهم كالملائكة و النبيين عارفون و معارضون ما عاشوا، و الطالحين منهم كالطواغيت هم داعون الى أنفسهم: «لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهَاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ» (26: 29) فما هم إذا عن دعاءهم غافلين، و انما غير ذوي العقول هي الغافلة عن عبادتها، ثم هي و إياهم يتشاركون في عداوتهم و نكران شركهم و حتى الشيطان: «وَ قالَ الشَّيْطانُ‏ .. إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ» (14: 22)!.

و ترى ان كفر المعبودين بشركهم يعني انهم ما عبدوهم؟ و قد عبدوا و عقلاءهم عارفون! كما الشيطان يكفر بما اشركوه من قبل؟ او أن ذلك النكران من غير العقلاء: «فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 14

(10: 28) او ان زوال الغشاوات و الغباوات بينهم يبين لهم انهم أخطئوا فيما كانوا يعبدون، فقد عبدوهم زعم انهم شفعاء و ما هم بشفعاء، او انهم و كلاء و ما هم بوكلاء، او انهم بدلاء ام ماذا من شؤون الالوهية و ما لهم شأن من هذا و ذاك فلما زيّل اللّه بينهم يوم الدين علموا انهم ما كانوا يعبدون الا أسماء لا تحمل معاني كانوا يبغون، فيصدق القول‏ «ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ» و كذا القول‏ «إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ» نكرانا لأصل العبادة و تنديدا بما كانوا يعبدون.

ظلمات بعضها فوق بعض!.

ترى و لماذا «لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ» و هم فيه أيضا لا يستجيبون؟

علّه لان الاستجابة المقصودة، ليست إلّا للحياة الدنيا و فيها، إذ ينكرون الأخرى، و لان يوم القيامة كالاستجابة فيه كذلك ليس سكوتا بخلاف الاولى، و انما استجابة ضدهم حين يتحاورون‏ «كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَ كانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ»!.

و ما أخذ له و آلمه المعاداة بين العبدة و المعبودات هناك، خلاف ما كانوا يأملون أنهم لهم يستجيبون، هيهات هيهات لما يأملون.

إنه يرجع التنديد الى المشركين أنفسهم انهم انما عبدوا أهواءهم، و ان كان طواغيتهم شركاءهم في العذاب بما كانوا يفعلون فسبحانه و تعالى عما يشركون.

هكذا يوقفهم اللّه امام حقيقة دعواهم الباطل يوم الدين بالشهود اليقين، بعد ما أوقفهم امام الكون و الادلة الكونية و العقلية و الكتابية يوم الدنيا لتأتي عليهم حجة يوم الدين، و هكذا يكون مثال كل عابد و معبود من دون اللّه أصناما و طواغيت، مهما تصلبوا متعنتين خلاف الحق و لحد القول إنه سحر مبين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 15

وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ‏.

أ فسحر هذه لأنها خلاف ما يهوون، و هي آيات الكتاب المبين؟ آيات بينات دون ريبة و لا خفاء، فبأي برهان إذا يستندون، فما هي مقومات السحر؟ و ما هي مقومات الآيات؟ و هل توجد فيها إلا بينات قاطعات تشبع الحسن و العقل و الفكر و القلب نورا و جلاء، اللهم إلا من عميان القلوب، فانها لا لبس فيها و لا غموض و لا خداع، فهي تزول و القرآن لا يزال و لا يزول، و السحر يبطل بالآيات المعجزة و القرآن لا يبطل و انما يبطل السحر و كافة الدعاوي الزور.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى‏ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» إن دعوى افتراء القرآن كدعوى سحره فارغة لا تملك و لا شائبة برهان، فلنفرض- رغم هذا- انه مفترى، فلما ذا اللّه لا يمحو باطل دعواه و هو بالمرصاد على من افتراه: «قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَ أَنَا بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ» (11: 35) و من مخلفاته محوه و الختم على قلبي: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى‏ قَلْبِكَ وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ» (42: 24) فهل انا مختوم على قلبي و القرآن في زوال؟ فلو ختم او زال‏ «فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» فلما ذا أفترى على اللّه و اضطهد به لصالحكم؟ أ لأنكم تملكون كشف الضر عني، ام ماذا؟!.

«هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ»: خائضين في آيات اللّه‏ «كَفى‏ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» و شهادته تعالى على وحيه بارزة فيه، دون شبهة تعتريه: «لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً» (4:) 166).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 16

فاللّه شهيد بعلمه في كلامه بكلامه، فهل إنه بعد مفترى؟! «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» «فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» (10: 38- 11: 13) فهل انه بعد عيّكم عن الإتيان مثله و شهادة اللّه لوحيه، هل هو بعد سحر او مفترى!.

فان افقتم عن غفوتكم، «هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» و ان أصررتم على ضلالتكم- «وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ»-.

ثم و ليس هذا بدعا تحارون فيه، لا انا و لا كتابي و لا سنني و لا ..:

قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَ لا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَّ وَ ما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ‏.

آية وحيدة في صيغة التعبير، دفاعا عن هذا البشير النذير، تستأصل آخر التهم المزعومة الموجهة اليه: انه بدع من الرسل و اختلاق من الرسالة: «أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْ‏ءٌ عُجابٌ‏ ... ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ» (38: 7) وي كأنهم ما قرعت آذانهم. دعوات التوحيد المتواصلة من رسل اللّه: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» (21: 25). اللهم إلا ان يعنوا من الملة الآخرة ذوي العلة من الشرك و الضلال، حيث عاشوا جوها الضال، كأن لا ملة اخرى غيرهم، فظلوا يعجبون من دعوة التوحيد بكل ضلال و دلال!.

«قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ»: لا في رسالتي و كتابي، و لا في سنتي و دعوتي، و لا في اي من واجبات الرسالة او راجحاتها، او محرماتها و محظوراتها، فأنا بشر رسول كمن قبلي، لا ملك و لا إله و لا ابن اللّه، و لا املك من اللّه شيئا لحد:

وَ ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَ لا بِكُمْ‏: و ما يفعله بي ربي و لا سواه، من خير أو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 17

سواه، اللهم الا وحيا من اللّه: إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَ‏: و في الكتاب ام سواه، فكياني كرسول وحي ليس إلا إياه، و هو الغيب الذي يرتضيه اللّه لمن يرضاه: «عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى‏ غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى‏ مِنْ رَسُولٍ ..» «1» (72: 26)

فليس هو كل الغيب، و انما ما تتطلبه الرسالة تثبيتا و واقعا، دون فوضى و اشتهاء:

«قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ» (7: 188) «قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَّ» (6: 50) «وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ» (11: 123).

فالغيب المكشوف بالوحي الرسالي محدود بحدود الرسالة، كما الغيب المستغرق كافة الغيوب للّه لا محدود باللامحدودية الالهية، و الغيب المكشوف أحيانا للعباد الصالحين او المرتاضين خارج عن الحدين: الإلهي و الرسالي، فهو للصالحين حسب درجاتهم و لمن سواهم كالمرتاضين حسب محاولاتهم، و لن يكشفوا عن غيب اللّه المخصوص به، و لا غيب الوحي الخاص برسله.

و ليس استكثار الخير و دفع السوء، اللذان لا يمتّان بصلة للحفاظ على الرسالة و تبليغها، انهما ليسا من الغيب المكشوف لرسل اللّه: «وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ» و كما نرى ان الرسول و الأئمة من آل الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا يغلبون كما يغلبون، و كانوا يسمّون أو يقتلون كما كانوا يقتلون، فلو كانوا يعلمون مواقع السوء لم يمسسهم، و لو كانوا يعلمون مواضع الخير لاستكثروا منه، اللهم الا فيما عرّفهم به اللّه و ليس سنة شاملة لهم، و انما كفلتات فيها الحفاظ على كراماتهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع سورة الجن ج/ 29 من هذا التفسير تجد فيه تفصيلا عن علم الأنبياء بالغيب نفيا و اثباتا.

(الفرقان- 2)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 18

و ليس التطاول و التغالي في انهم يعلمون الغيب كله الا تماديا في الضلال، و تغاضيا عما تصرح به هذه الآيات البينات، و إذ لا يتبع الرسول الا ما يوحى اليه، فأحرى بنا ان نتبع بشأنه ما اوحي اليه، و لقد اوحي في عشرات من آياته البينات انه- مبدئيا- لا يعلم الغيب: «فَلا يُظْهِرُ عَلى‏ غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى‏ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ عَدَداً»: يعني من الغيب المستثنى الوحي الرسالي و لزاماته.

و كما انني لست بدعا من الرسل بينهم، كذلك لست بدعا بين المرسل إليهم، فأهل الكتاب الذين يتلونه حق تلاوته يعرفونني و كتابي، فلو ان الادلة المسبقة لم توصلكم الى العلم اليقين، فلا اقل من الشك انه من عند اللّه ثم يكمله شهادة شاهد منكم:

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى‏ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ‏ ترى من هم المخاطبون في «أرأيتم .. و كفرتم .. و استكبرتم»؟ و من هو الشاهد من بني إسرائيل؟ و ما هو المشهود عليه «على مثله»؟.

علّ المخاطبين هم كافة الناكرين للرسالة الاسلامية، من مشركين و كتابيين، زمن الرسول و بعده إلى يوم الدين، و ان كان المنطلق الاول لهذا الخطاب كامثاله هم المعاصرين لصاحب الرسالة.

و «وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ» علّه جنس الشاهد، من جنود الشهود الاسرائيليين، من نبيين و سائر المؤمنين الشاهدين، قبل الرسول و زمنه و إلى يوم الدين: مثلث الشهادة الصادقة الصارمة، من زاويته الاصيلة: النبيين الإسرائيليين، منذ موسى و حتى المسيح و من بينهما (ع) إذ شهدوا في كتاباتهم «على مثله»:

مثل القرآن، كهذه الكتب أنفسها، او مثل نبي القرآن كما يشهد به النبيون أنفسهم،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 19

او مثل ما يشهد به اللّه في القرآن: «كَفى‏ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» شهادات على المماثلة بين الشهادتين و الكتب و النبيين.

و من زاويته الثانية زمن النبي (ص) كالبعض من أهل الكتاب الذين شهدوا على مثله في العهد المكي، انطلاقا من الايمان و الزاوية الاصيلة. بما كان لها من موقعها القيم و وقعتها الصارمة في الوسط المكي العارم و لأن السورة مكية.

و من شهد منهم في العهد المدني كرأس اليهود عبد اللّه السلام‏ «1» و مكية السورة لا تنافي مدنية هذه الآية، فكم من مدنية أقحمت بين المكيات، او مكي دخلت بين المدنيات. بأمر صاحب الرسالة منذ تأليف القرآن، و كما تظافرت به و بذلك الروايات.

و من زاويته الثالثة: كافة الشهود الاسرائيليين منذ رحلة النبي (ص) الى يوم الدين، مثلث الشهادة الناصعة «على مثله».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 39- اخرج ابو يعلى و ابن جرير و الطبراني و الحاكم و صححه بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي قال‏ انطلق: النبي (ص) و انا معه حتى دخلنا على كنيسة اليهود يوم عيدهم فكرهوا دخولنا عليهم فقال لهم رسول اللّه (ص): اروني اثني عشر رجلا منكم يشهدون ان لا اله الا اللّه و ان محمدا رسول اللّه يحبط اللّه عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه فسكتوا فما أجابه منهم احد ثم رد عليهم فلم يجبه احد فثلث فلم يجبه احد فقال: أبيتم فو اللّه لأنا الحاشر و انا العاقب و انا المقفي آمنتم او كذبتم ثم انصرف و انا معه حتى كدنا ان نخرج فإذا رجل من خلفه فقال: كما أنت يا محمد! فأقبل فقال ذلك الرجل اي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود فقالوا و اللّه ما نعلم فينا رجلا اعلم بكتاب اللّه و لا افقه منك و لا من أبيك و لا من جدك قال: فاني اشهد باللّه انه النبي الذي تجدونه في التوراة و الإنجيل- قالوا: كذبت ثم ردوا عليه و قالوا شرا فقال رسول اللّه (ص) كذبتم لن يقبل منكم قولكم فخرجنا و نحن ثلاث: رسول اللّه (ص) و انا و ابن سلام فأنزل اللّه: «قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ...».

أقول: قد اخرج نزول الآية بشأن ابن سلام. البخاري و مسلم و النسائي و ابن المنذر و ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص و جماعة آخرون عن آخرين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 20

و ضمير الغائب في «مثله» هو الغائب في‏ «كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» و في‏ «كَفَرْتُمْ بِهِ» فهو القرآن، و هو نبي القرآن المذكوران مسبقا: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ‏ ... قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ» فلا القرآن بدع من كتب السماء، و ان كان بديعا بينها، و لا رسول القرآن بدع من الرسل، مهما كان بديعا بينهم، «شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ» يشهد «على مثله» في مثلث الزمان بمثلث الشهادة:

«شَهِدَ .. عَلى‏ مِثْلِهِ» كما اللّه شاهد على القرآن بالقرآن، تشهد هؤلاء الشهود للقرآن على مثله و هو العهدان، فهما كما نزلا و القرآن يتشابهان في صيغة الوحي و صبغته و كيانه فالمماثلة هنا بين الشهادتين.

او «على مثله»: مثل القرآن او نبي القرآن، فالقرآن يماثل سائر كتب الوحي، كما ان نبي القرآن يماثل سائر رجال الوحي: «وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى‏ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ..» من مثل عبدنا: سائر النبيين- او مثل ما نزلنا كسائر ما انزل على النبيين.

فالشاهد الاسرائيلي المؤمن، نبيا او سواه، يشهد على مثل شهادة القرآن، و على مثل القرآن و نبي القرآن لاثبات وحي القرآن و نبيه، «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ» (2: 146): معرفة الرسول، كما يعرفون القرآن عرفانهم بالتوراة و الإنجيل، و كما في كتاب اشعياء: «كي بلعجي شافاه و بلاشون أحسرت يدبر إل ها عام هذه» (اشعياء 28: 10):

لأنه بلهجة لكناء بشفاه عجمية و بلسان غير لسانهم يكلم هذا الشعب» «1» فهذه شهادة على مثل القرآن و هو من العهد العتيق.

و من «مثله» المشهود عليه له، موسى بن عمران الذي ينص التوراة بمماثلته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في هذه البشارة نجد مواصفات القرآن و منها انه بلسان آخر غير عبراني .. راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص 108.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 21

هذا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كما يقول: «نابى‏ء آقيم لاهم مقرب إحيحم كموشه ..»

أقيم لهم من أقرباء أخيهم كموسى ..» (سفر التثنية 18: 17) «1».

و من أفضل الحنان على مؤمني اهل الكتاب: شهود الرسالة المحمدية، قرن شهادتهم بشهادة اللّه كما هنا و كما: «قُلْ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ» (13: 43) كعبد اللّه بن سلام‏ «2».

«قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ» القرآن و نبيه‏ «مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ» حال انكم‏ «كَفَرْتُمْ بِهِ وَ» حال انه‏ «شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى‏ مِثْلِهِ»: شهادة و كتابا و نبيا «فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ» فمن أخسر منكم و اظلم‏ «إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ‏.

قولة فارغة لاهية أخرى من الكافرين، كأنهم سابقون في كل خير، فإذ سبقهم المؤمنون بالايمان فليكن شرا و إفكا قديما يؤمن به المتأخرون المسبوقون طوال التاريخ الرسالي، و لأن هؤلاء السابقين! لم يهتدوا بهذا القرآن، و هم المهتدون الى كل خير! فالمؤمنون هم الضالون الآفكون!: «وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ» (8: 59) «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ» (29: 4)!.

ان السابقين الى الإيمان- و على طول الخط- هم الفقراء العادمون في الأكثر، الضائعون المظلومون تحت رحمة و وطأة الأقوياء الأغنياء الجبارين، و الرسالات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا (رسول الإسلام).

(2) الدر المنثور 6: 39- اخرج الترمذي و ابن جرير و ابن مردويه عن عبد اللّه بن سلام قال: نزلت فيّ آيات من كتاب اللّه، نزلت فيّ و شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ..

و نزل فيّ‏ «قُلْ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 22

الإلهية لهم خير مأمن و مؤمّن، يجنحون إليها بغية الفرار عن حكم الظالمين، و القرار الى حكم اللّه رب العالمين، و هذه مغمزة في نظر الكبراء المستكبرين ان‏ «لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ» «1». ف «لو» لا «إن» تشير الى مدى استبعادهم لكون القرآن خيرا لحد الاستحالة، و لحد يتحاشون أن يخاطبوهم بهذه القولة الهاوية، فاعتبروهم غيّبا: «ما سَبَقُونا إِلَيْهِ» و هم حضور! و لأنهم غيّب عن المثل العليا و هم حضور، و قولهم لهم يعني ما يرجع لهم بغير خطاب ان يخاطبوا أضرابهم بهذه القولة المضللة كيلا يفكروا في الإيمان ابدا.

و إنها الهوى و الادعاءات الهباء، يتعاظم بها أهل الغنى و الكبرياء، يجعلون من أنفسهم الخواء محورا للحياة كلها، كأنهم هم و لا سواهم الأحياء المتقدمون السابقون في خيراتها، فيعتزون بالثقافات اللاهية الجوفاء، و بالأجداد و الآباء، و بسائر ما إليها من اعتبارات فارغة غثاء، فيغمضون و يلتهون عن الحق باختلاق المعاذير، و افتلاق المحاظير على الحق و اهله، كأن كل ما يهوون فهو الحق، و ما لا يهوون فهو الباطل، أسماء فارغة يسمونها، متغافلين عن براهين الحق الناصعة، و أدلته الناصحة، فويل لهم مما يأفكون‏ «وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ» كأن ليست فيه هدى إذ لم يهتدوا به، كالأعمى الناكر لضوء الشمس لأنه لا يهتدي به.

«إِفْكٌ قَدِيمٌ»!: مصروف عن وجه الحق، مختلق سابق: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ وَ أَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً. وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى‏ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا، قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً» (25: 6).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور: 6/ 40- اخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال: كانت لعمر ابن الخطاب امة أسلمت قبله يقال لها زنيرة فكان عمر يضربها على إسلامها و كان كفار قريش يقولون: لو كان خيرا ما سبقتنا اليه زنيرة فأنزل اللّه هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 23

وليتهم نظروا الى القرآن بعين البصيرة و الاعتبار، ام و لا اقل من قران له بسواه باختبار، ام الى كتب قبله تشهد عليه كما هو شاهد لنفسه:

وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً وَ هذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرى‏ لِلْمُحْسِنِينَ‏.

أ هذا إفك قديم؟ «وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏» و لماذا كتاب موسى و هو قبل القبل، لا كتاب عيسى و هو القبل؟ لأنه الأصل في التشريع‏ «1»» «إِماماً وَ رَحْمَةً»: لكتاب عيسى و هو الفرع: إماما له و للمسيح، فضلا عنهم و هم من أتباع موسى و المسيح فليتبعوه، و هو يحوي إشارات و بشارات بحق القرآن و نبيه!.

أ هذا افك قديم‏ «وَ هذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ»: يصدق كيانه كوحي تصديقا بنفسه دون حاجة الى سواه، و يصدق ما قبله من كتاب‏ «مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً» و غيره من كتاب أوحي الى من قبله من النبيين، المصدقة له، الحاملة بشاراته إنه بينة من ربه لنبيه، كما نبيه بينة من ربه حيث التصديق الذاتي و التصادق:

«أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ» (11: 17).

هذا كتاب موسى إماما لهم أمامهم يصدق القرآن في بشارات، و كما يصدقه في صيغة التعبير و صبغة الوحي لبشير نذير، فليس القرآن إفكا قديما مصروفا عن وجه الحق، لا عن كتابات الوحي و لا سواه، فان له كيانا يستقل عن سائر الكيان، مهيمنا على ما قبله من كتاب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و تضاهيه مقالة الجن: «إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى‏» اي القرآن لا «بعد عيسى» مما يؤكد اصالة التوراة قبل القرآن، و سوف نوافيكم به في آخر السورة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 24

فأنى للآفكين القولة الفارغة الهراء ان القرآن إفك عن التوراة، صرف عن وجهه معنى و تعبيرا، فهو نسخة عربية عن التوراة فهو إمام القرآن‏ «1»: «وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً»؟ «وَ هذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا ..»!.

إن هيمنة القرآن على ما قبله من كتاب، تدل على إمامته الشاملة على كل نبي و كل كتاب، فلا تعني إمامة التوراة في آيتيها إلّا لأتباع شريعة التوراة، إذ تحملهم على تصديق الكتاب المهيمن الإمام، و تحمّلهم مسئولية حمل هذه الأمانة الكبرى المسرودة في آيات البشارات: «وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ ..» (5: 48) هيمنة على سائر كتب اللّه، كما اللّه مهيمن على سائر الخلق: «الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ ..» (59: 23).

«.. لِساناً عَرَبِيًّا» هذا كتاب مصدق حال كونه لسانا عربيا: واضحا بينا بيانا لا غموض فيه رغم ما فيه من رموز «لسانا» لا «لغة» ف «عربيا» يعني واضحا لا تعقيد فيه، و إذ كان بلغة عربية، فهو عربي بعربية.

«لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا» عربا أم سواهم‏ «وَ بُشْرى‏ لِلْمُحْسِنِينَ» كذلك، فالتبشير و الإنذار اللذان يحملهما القرآن عربيّان لكل عربي و سواه، لا يكلفه إلا ترجمة أو تفسيرا: لغويا أم سواه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما يتقوله الأستاذ حداد في هرطقات له سماها القرآن و الكتاب و مما تقوّله:

«هنا لك تصاريح من القرآن ان بينه و بين العهدين اتصال و نسب حيث: 1- التوراة إمامه. 2- و هو في زبر الأولين. 3- و هو تفصيل و تعريب للكتاب المقدس. 4- و هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم و هم علماء اهل الكتاب. 5- و يجب ان يقتدي محمد في قرآنه بالكتاب و اهله. 6- و إذا شك فيه فليسأل اهل الكتاب ليعلموه.

و لو كان الحداد يفهم اللغة العربية ما سمح لنفسه ان يفتري هذه الهراءات على القرآن- راجع كتابنا (المقارنات ص 134).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 25

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ. أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ».

.. قالوا ربنا اللّه- لا سواه- ثم تحولت مقالتهم هذه إلى واقع الاستقامة عليها، و إنه لجمع جميل بين توحيد الربوبية و هو خلاصة العلم، و الاستقامة فيه و في مخلفاته العقائدية و العملية و هو منتهى العمل: و إنها استقامة في إقامة الوجه للدين حنيفا: و هو دين الفطرة القيم: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (30: 30) و دين الطاعة للّه المسنونة في شرعة اللّه. و من ثم الاستقامة في كل ما تتطلبه‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» في كافة مجالات الحياة.

هؤلاء «فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» عما تورطوا في مخاوف لوجه اللّه إذ لا يخافون إلا اللّه، و لا هم يحزنون على ما فاتهم من شي‏ء فان أجرهم على اللّه، يحتسبون عناءهم عند اللّه، و هكذا يبشرهم ملائكة اللّه: «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ. نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ» (41: 32) و ما ألذّها بشارة من اللّه فبشارة من ملائكة اللّه!.

فالخوف عما هم فيه و ما يستقبلهم، و الحزن على ما فاتهم فيما مضى: هما عنهم منفيان، في الحياة الدنيا و في الآخرة و هي أحرى، إذ تكشف فيها الغطاء.

هؤلاء نفوسهم مطمئنة إلى اللّه و ليست إلى الحياة الدنيا المتزعزعة المزعزعة باهلها الراكنين إليها، فلا تضطرب بهم في الهوّاة، اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة كأهل الدنيا، المضطربين فيها، المتأرجحين بها.

إن أهل اللّه لا يحسبون في حياتهم حسابا لأحد سوى اللّه، فهو هو الميزان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 26

الوحيد لهم في كافة الموازين و الحسابات.

إنه ليست الاستقامة في اللّه بعد قولهم‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» دونما فصل أو شرط، فهنا الإيمان الراسخ في الوسط، تثبت فيه هذه المقالة المؤمنة و ترسخ، و من ثم الاستقامة في نفس الإيمان، ثم تتحول إلى الاستقامة في اللّه بكافة زوايا الحياة، كما و توحي لهذه الوسائط «ثم» فإنها للتراخي.

«ثُمَّ اسْتَقامُوا» تطلّبوا القوام على‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» حتى و كأنهم أصبحوا بذواتهم و صفاتهم و أفعالهم و حالاتهم‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» ف «ثم» بعد قولة الحق هذه، تضرب في أعماق الحياة كل الحياة، غورا بعيدا و سفرا غريبا يحمل معه فيه‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» يجعله زاده في و وعثاء السفر، فليست الاستقامة امرا واحدا تتفرع على قولتها كدلالة اللفظ على معناه، و إنما درجاتها المتتابعة التي تحصل تلو بعض، و ينتج بعضها البعض اعداد البعض للبعض، فاستعداد الآخر لما يتلوه، اعدادات و استعدادات في محاولات دائبة قلبا و قالبا، ظاهرا و باطنا، فردا و مجتمعا، و في كافة معارك الحياة المتنازعة، فلا يتغير لونه عن‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» و لا كونه عن‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» و إنما يغير غيره إلى‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» فليست هي إذا لفظة تلفظها الشفاه، و لا عقيدة سلبية بعيدة عن واقعيات الحياة و بيناتها.

ثم الزاد الوحيد في الاستقامة على الطريقة المثلى ليستقوا ماء غدقا، إنما هو ذكر اللّه: القرآن الكريم: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» (81: 28) استقامة إلى اللّه: «أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ..»

(41: 6) لاستقامة الحياة مع اللّه، و في الدعوة إليه: «فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ» (42: 15).

فالقائلون ربنا اللّه، المؤمنون باللّه، المستقيمون للّه و إلى اللّه، هم الصفوة المختارة بين عباد اللّه، كالجبال الراسخة: لا تحركهم العاصفة، و لا تزيلهم القاصفة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 27

مهما كانوا في ذلك درجات، كما المتزعزعون دركات، الذين لو شهدوا ب «رَبُّنَا اللَّهُ» فلا تتعدى شفاههم إلى عقولهم، أو منها إلى قلوبهم، أو منها إلى أعمالهم، فلا ترى آثار هذه القولة الكريمة في حياتهم، فشفاههم- إذا- جوفاء، و قلوبهم مقلوبة خاوية هباء، فقولتهم منافقة خواء، و اللّه تعالى منهم براء.

فالقائل‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» دون اعتقاد، منافق في اللّه، ثم قائلها دون استقامة رغم الاعتقاد أخف نفاقا، فقد بلغ أدنى درجات الإيمان، ثم قائلها مع استقامة في أية مرحلة و مدرجة أكمل ايمانا حسب الدرجات، حتى يستوفي درجات الاستقامة كل الدرجات، و يتعالى عن دركات الفشل و اللااستقامة كل الدركات، فهناك العصمة غير الكاملة حتى يعصم اللّه، و هنا لك العصمة الكاملة لو عصم اللّه، و هي أيضا درجات، فالطرق إلى اللّه بعدد أنفاس الخلائق.

فالقائلون‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» المستقيمون في اللّه‏ «أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ» لا بما يقولون، فالقائلون كثيرون و العاملون قليلون، فإنما القائلون العاملون أعمالا في قلوبهم ثم إعمالا لها في قوالبهم، أعمالا قلبية و قالبية بمراتبهما: «وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ» (6: 132) «.. وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ» (46: 11).

[سورة الأحقاف (46): الآيات 15 الى 20]

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى‏ والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ نَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (16) وَ الَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَ تَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَ هُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ما هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (18) وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (19)

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 28

. هناك من أحسن الأعمال، التي يكفّر بها عن السيئات، هو الإحسان بالوالدين: «أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ نَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ ..»

و هنا من أسوئها التي تحبط شطرا من الحسنات هو الاساءة إليهما: «أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ» و بينهما متوسطات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 29

«وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً ..»: وصية عظيمة من اللّه بالوالدين، فهناك الموصي هو اللّه، و الموصى اليه هو الإنسان، و الموصى له: الوالدان اللذان هما مجريا الخلق و التربية، و الموصى به: الإحسان بهما، فيا لها من وصية عظيمة من اللّه العظيم، لالتقاء آصرة الايمان بأسرة النسب في آصرة الوالدين، تبنيا للحياة الجماعية من منطلقها الاوّل، و كأنها من اصدق مصاديق: «رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا» و بعد تكملة الايمان عقائديا و عمليا باللّه، و لأنهما اجرى مجاري الربوبية أن خلق الإنسان بهما، فأحرى بهما أحرى مراتب الإحسان، و دونما شرط أيا كان، و انما كونهما و الدين، و كما الإنسان لا يصحب شرطا في دين الفطرة و شريعتها الا انه انسان: «وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ».

ثم الوصية لا تعني فقط الأمر الإيجاب، او فرض الكتاب، فلم يقل أمرنا و لا كتبنا، و انما «وصينا» تدليلا على المدى البعيد العال من اللّه المتعال في هذا الأمر، إذ ينبثق من اعماق فطرة الإنسان، ثم ينطلق موكّدة منضبطة مبرمة من خالق الإنسان، تحكيما لدين الفطرة فانها أمر تصاحبه الموعظة المؤكدة، و من ثم يضرب الى اعماق المجتمع متبنيا له كأفضل و أعلى ما يكون في بناء المجتمع السليم، لإراحة الإنسان، و ازاحة المشاكل التي تحول بينه و بين رقيّه كإنسان.

«.. الإنسان» إنما الإنسان و الإنسان فقط، رغم شمول التكليف له و للجانّ و اضرابهما من المكلفين، لأن الإنسان هو الأصل في ذلك، و من ثم يشمل من سواه، و انه فعلان من الأنس.

فأنسه و انسانيته يقتضيان الإحسان بالوالدين الذين يبذلان من عصارة حياتهما له ليحيى آمنا مرتاحا، ما لا يبذله ايّ كان ممن تحسن إليه و تضحي له.

انها وصية للإنسان قائمة على أساس فطرته الانسانية، دون حاجة الى غيرها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 30

من صفات ذاتيات او مكتسبات، كما و ان صفة الوالدية الحنونة الرحيمة المطلقة دونما بغية جزاء او شكور، هذه الصفة تزيد تأكيدا في توفير حنان الأولاد كأقل جزاء لهم و شكور، حنانا مطلقا دون شرط إلا الوالدية.

«بِوالِدَيْهِ إِحْساناً» لا-: الى والديه، حيث الإحسان بهما يوحي بكمال الحنان و القرب في الإحسان، كما احسن اللّه بيوسف (ع): «وَ قَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَ جاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ» (12: 100): إحسانا مصاحبا ملاصقا ليوسف، فضلا من اللّه و رحمة، فالإحسان بالوالدين، احسان مصاحب ملاصق دون اي بعد و لا امتنان، و لأنه احسان بسبب الوالدية، و اما احسان اللّه بالمحسنين فملاصق مصاحب كاقرب و احسن ما يكون، و ان كان بامتنان بسبب الربوبية لا العبودية اللهم الا فضلا.

و اما الإحسان «الي» فقد يوحي ببعد في الإحسان، و بين المحسن و المحسن اليه، بعد الإحسان: كأن يكون للامتحان الامتهان كما الى قارون: «وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ» (28: 77) ام بعدا في الإحسان، كالذي يصاحبه الامتنان من محسن الى من يستحق الإحسان، فهو احسان سي‏ء لمكان الامتنان: «لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى‏» (2: 264).

فالإحسان بالوالدين يعني أحسن الإحسان و أقربه «بالوالدين»: بسبب الوالدية، و إحسانا ملاصقا مصاحبا لهما دون فصل او فضل‏ «1» بل و على الأولاد ان يخفضوا لهما جناح الذل في الإحسان و ان أساءا: «وَ قَضى‏ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما وَ قُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذا إذا كانت الباء متعلقة ب «إحسانا» فهي إذا للمصاحبة الملاصقة، او السببية و الجمع هنا أجمل، و اما إذا تعلقت بالوصية فلا، اللهم الا ان «قضى ..» في غيرها يبعده، فالقضاء اما له أو عليه و ليست به، فالباء في آيات الوصية تتحمل كلا التعلقين: وصية و إحسانا:

وصية بوالديه و إحسانا بوالديه، بسبب الوالدية مصاحبا ملاصقا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 31

وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً» (17: 24): فأحرى لهما الإحسان بهما ان أحسنا!.

«بوالديه» المتشاركين في ايلاده، مهما تفاضلا فيه ام في سواه، فللفاضل فضله بمزيد الإحسان:

«إحسانا» كما هنا و في غيرها و «حسنا» كما في ثالثة: «وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما ..» (29: 8) و الحسن هو الفعل الحسن المبالغ في الإحسان لحد كأنه الحسن ذاته، تدليلا على مدى الإحسان الواجب بهما، أنه لأعلى المستويات قدر المستطاع، دونما قيد او شرط، مما يوحي بان «إحسانا» ايضا يعنيه، بما فيه تنوين التنكير، لا تحقيرا، و انما تعظيما و تكثيرا لحد لا يعرف مداه، فانه احسان لا يقطعه قاطع، حتى‏ «وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» فلا يبدل الإحسان هنا بالإساءة، و إنما ترك الطاعة في الإشراك باللّه، مع الحفاظ على المعروف من صحبتهما: «وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ‏ ... وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى‏ أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ..» (31: 14- 15).

فلقد أريد من الحسن و الإحسان هنا و هناك أحسن الإحسان، و كما انهما بذلوا لك من الإحسان أحسنه، و حينما لم تك تملك لنفسك شيئا!.

نرى الوصية بالإحسان تكرر في القرآن بحق الوالدين دون الأولاد- اللهم إلا نادرة بشأن الميراث- لأن الفطرة الوالدية وحدها تتكفل برعايتهما للأولاد، رعاية ذاتية لا تحتاج إلى وصية و اثارة، بل و قد تزيد على المسموح و الواجب إذ تصل الى حد التضحية في سبيل الحفاظ على حياة الأولاد او صالحهم، دون أي منّ أو رغبة في جزاء أو شكور، اللهم إلا شذرا نذرا، دون الأولاد، فقليل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 32

هؤلاء الناشئون الذين يتحننون للوالدين، و انما يتحيّنون الفرص لاستغلالهما في سبيل تبني حياتهم المستقبلة، فهم و هم فقط بحاجة الى إيقاظ فطرة الحنان و الطاعة و الإحسان بالوالدين، بكل تبشير و إنذار، و بصورة مطلقة لا يحجزها اي حاجز مادي و لا نفسي، اللهم إلّا ان يحملاه للاشراك باللّه، فترك الطاعة فيه باحترام دونما اخترام مع استمرارية المصاحبة الطيبة في دنياهما، مهما خسرا أخراهما، على ان الإحسان بهما لا يختص بالنواحي الظاهرية المادية، فأحرى لهما النواحي النفسية و الروحية، فمحاولة الأولاد- بوسائط أو دون وسائط- لاهداء الوالدين ان كانا ضالين، إنها أحرى ما يكون من الإحسان بهما، أن تضمن اسعادهما في الحياتين.

ثم و حق الولد على الوالدين أن يعلما انه منهما و مضاف إليهما في عاجل الدنيا و آجله بخيره و شره، فليعملا في أمره عمل من يعلم انه مصاب على الإحسان اليه معاقب على الاساءة اليه.

ثم الوالدة أحق من الوالد في واجب الإحسان بها لأنها تتحمل و تعمل اكثر من الوالد في الأكثر، يوحي بذلك ذكر متاعبها فقط بعد الوصية بحقهما جميعا كما هنا: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً» و في غيرها:

«وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى‏ وَهْنٍ وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ» (31: 14).

«حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً ..» عرفنا كره الوضع أنه شاق بأي وضع، فما هو كره الحمل؟ هل هو حمله بعد الثقل؟ أم و حمله منذ اللقاح و إلى الثقل؟ أقول: إن بداية الحمل للباكر كره إذ تفتضّ و تجرح، رغم اللذة التي معها «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً» ثم كره آخر منذ الحمل و حتى الوضع هو حمله و امتصاص الحمل في كافة أدواره من رمق الأم، غذاء و دماء أم ماذا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 33

فعلى ضوء تقدم علم الأجنّة يكشف لنا في عملية الحمل طرف جسيم ضخم نبيل في صورة حسية مؤثرة:

«.. إن البويضة منذ تلتقي لقاحا بالخلية المنوية تسعى للالتصاق بجدار الرحم، مزودة بخاصية أكّالة تمزّق جدار الرحم الذي تلتصق به و تأكله، فيتوارد دم الأم إلى موضعها حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائما في بركة من دم الأم الغني بكل ما في جسمها من عصارات و خلاصات، و تمتصه لتحيا به و تنمو، و هي كأكلة دائبة الأكل لجدار الرحم، دائمة الامتصاص لمادة الحياة، فالأم تأكل و تشرب و تهضم لتصبّ هذا كله دما نقيا غنيا لهذه البويضة الأكالة، و في فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الأم، فهي تفتقر إلى جير بعد جير، حيث تعطي محلول عظامها في الدم ليقوم به هذا الهيكل الصغير، و هذا قليل من حملها الكثير.

و قد يوحي تنوين التنكير هنا ل «كرها» بنكارة الحمل في زاويتيه هاتين، و عله المعني من: «وَهْناً عَلى‏ وَهْنٍ» هناك: و هن الثقل على ذلك الوهن، بعد الذي ذاقته حين الحمل، و لأنه مجبور باللذة لم يحسب هنا له حساب فلم يثلث الوهن، و إنما «وَهْناً عَلى‏ وَهْنٍ»: «كرها»! «وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً»: كرها تكره فيه الأم حتى نفسها، دون أن تكره ثمرتها، رغم أنها تذوى و تموت و تتمزق و تذوب، و لكنها أم، حنونة عطوفة لحملها، لحد قد ترضى أن تموت و الحمل لا يموت، أو تتأذى هي و الحمل سليم.

فيا لهذه الوالدة التي تحمل حملها كرها: «وَهْناً عَلى‏ وَهْنٍ» و تضعه كرها، مثمرة حملها في مثلث الوهن، و مربّعة لوهنها في رضاع الحمل، أن تمتص ثمرة قواتها، و حصيلة طاقاتها بعد الوضع، و كما كان قبل الوضع، فهل له أن يجازيها أقل جزاء و لو بأكثر الإحسان، كلا ثم كلا.

(الفرقان- 3)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 34

و لقد صدق الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما

يقول: «لا و لا بزفرة واحدة! و قد جاءه رجل كان في الطواف حاملا أمه يطوف بها فسأله صلى الله عليه و آله و سلم هل أديت حقها؟» «1»

«وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً»:

انها توحي بأقل الحمل انه: (ستة أشهر) حيث الفصال- و هو انفصاله عن الرضاع- في غيرها بعامين: وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ (31: 14) و حولين كاملين:

وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ (2: 233) فلا يبقى من الثلاثين إلا ستة أشهر، فلو وضعت المرأة حملها عندها لم يكن بذلك البعيد، فضلا عن أن تتهم فترجم كما فعله الخليفة عثمان‏ «2» و لكن الخليفة عمر سأل أهله فانتبه فلم يرجم‏ «3»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رواه الحافظ ابو بكر البزاز باسناده عن بريدة عن أبيه.

(2)

الدر المنثور 6: 40- اخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن بعجة بن عبد اللّه الجهني قال: تزوج رجل من امرأة من جهينة فولدت له تماما لستة أشهر فانطلق زوجها الى عثمان بن عفان فأمر برجمها فبلغ ذلك عليا (ع) فأتاه فقال: ما تصنع؟ قال: ولدت تماما لستة أشهر و هل يكون ذلك؟ قال علي (ع): أما سمعت اللّه تعالى يقول: «وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً»؟

و قال: «حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ» فكم تجده بقي الا ستة أشهر؟ فقال عثمان: ما فطنت لهذا عليّ بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها و كان من قولها لأختها يا أخية لا تحزني فو اللّه ما كشف فرجي احد قط غيره، قال: فشب الغلام بعد فاعترف الرجل به و كان أشبه الناس به، قال: فرأيت الرجل بعد يتساقط عضوا عضوا على فراشه.

هذا! و لقد نسي الخليفة هذا الحكم حينما رفعت امرأة اخرى اليه ولدت لستة أشهر، فقال عثمان: انها قد رفعت الي امرأة ما أراها إلا جاءت بشر فقال ابن عباس إذا كملت الرضاعة كان الحمل ستة أشهر و قرأ «وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً» فدرأ عثمان عنها. أخرجه عبد الرزاق و عبد بن حميد عن أبي عبيدة مولى عبد الرحمن بن عوف (6: 40)

. (3)

الدر المنثور 6: 40- اخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر من طريق قتادة عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي قال: رفع الى عمر امرأة ولدت لستة أشهر فسأل عنها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 35

تحقيقا لأمر اللّه: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ‏.

حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

إن الأربعين هنا هو أبلغ الأشدّ، كما الأشد جمع الشّد: هو الاستحكام في طاقات نفسية و بدنية تجعل الإنسان مستقلا في حياته الفردية و الجماعية، فللإنسان أدوار أربعة: الطفولة و بلوغ الشد و الأشد و الشيخوخة: ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً (40: 67) فالطفل هو الطفيلي المتطفل في حياته، المتكفّل بها في شئونها من قبل الوالدين أو غيرهما، حيث لا يستوي في حياته دون كافل، ثم إذا يبلغ أشده-: لا فقط شده- يستقل، فلا يعني هنا شدّ العضلات و البنية الجسدانية فحسب و إنما أَشُدَّهُ‏ و أقلها مثلث: العقل، و الحكمة و الجسم بحيث يستطيع الإصلاح في ماله: وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ (6: 152): و في حاله: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً (12: 22) الحال الجامعة- لأقل تقدير- بين العقل و الحكمة ثم في الأشد المزيد.

و إذا استمرت الأشد في التعامل و التكامل، تصل إلى الأبلغ في كمال السن:

. وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً كأصدق مصاديق الأشد، ثم بين الأشدين بداية و نهاية متوسطات، و ليس أولها بداية التكليف، فإن بلوغ العقل و الجسم،- بل العقل فقط- كاف في جري قلم التكليف، اللهم في الجسم الذي لا يتحمل حمل بعض التكاليف البدنية، كالصوم أم ماذا، فلا يجري قبل السن المحدد للتكليف، و لكنما العقل، و العقل فقط، إذا بلغ شدّه، فصاحبه مشدود بحبل التكليف، ثم إذا أضيف اليه شد الرشد و الحكمة، فلا يكلف أحد في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اصحاب النبي (ص) فقال علي (ع): لا رجم عليها، ألا ترى انه يقول: «وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً» و قال: «وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ» و كان الحمل هنا ستة أشهر فتركها عمر، قال: ثم بلغنا انها ولدت آخر لستة أشهر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 36

حفظ ماله و حاله، و إنما هو القائم فيها: «حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ» (4: 6) فبلوغ النكاح هو بداية التكليف، و ليس يكفي لتسليم أمواله إلا بعد إيناس رشد، فبلوغ الأشد يتراوح بين بلوغ شد التكليف أو شدّيه‏ «1» و بين الأربعين، ان يحصل له ثالث هو شد الرشد و الحكمة، ثم تتعامل فتتكامل أشده الثلاثة او ما زاد، و لحد البلوغ الكامل: الأربعين، فالأربعون هي- عادة- غاية الرشد، إذ تتكامل فيها كافة القوى، و في هذه السن تتجه الفطرة السليمة الى عمق الحياة، الحاضرة و المستقبلة، و لكي تستصلحها بما يصلحها.

هذا هو السير العادي في أدوار السن، و ليس لزاما دون استثناء، فقد نبئ يحيى عند الصبا: «وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» و كان من أكمل الوحي، و كما آمن علي (ع) عند الثانية عشرة من عمره، عند بزوغ الوحي على الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فكان أكمل الايمان‏ «2» و إنما آية الأربعين تعني السيرة الأغلبية، دون العموم‏ «3»، و دون شخص أو أشخاص خصوص، ثم انها توحي بمدى حاجة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). شد العقل، او شدي العقل و الجسم.

(2)

اصول الكافي باسناده عن علي بن أسباط قال‏ رأيت أبا جعفر (ع) و قد خرج عليّ فأخذت انظر اليه و جعلت انظر الى رأسه و رجليه لأصف قامته لأصحابنا بمصر فبينا انا كذلك حتى قعد فقال: يا علي ان اللّه احتج في الامامة بمثل ما احتج به في النبوة فقال: «وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» «حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً» فقد يجوز ان يؤتى الحكمة و هو صبي و يجوز ان يؤتى الحكمة و هو ابن أربعين سنة.

(3)

الخصال للصدوق عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه الصادق (ع): إذا بلغ العبد ثلاث و ثلاثين سنة فقد بلغ أشده و إذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه فإذا طعن في واحد و أربعين فهو في النقصان و ينبغي لصاحب الخمسين ان يكون كمن كان في النزع.

و

في التهذيب باسناده عن عبد اللّه بن سنان عن أبي عبد اللّه (ع) قال: سأله أبي و أنا حاضر عن قول اللّه عز و جل‏ «حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ» قال: الاحتلام.

أقول: يبعده ان ليس في الاحتلام الا شد واحد او شدين الا نادرا، و ان قوله: و بلغ أربعين سنة بعد «أشده» يوحي بأن سن الأشد قبيل الأربعين فيناسب الرواية الاولى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 37

الأولاد إلى كفالة الوالدين، و إلى حد الأربعين أيضا، فضلا عما قبله و قبله و منذ الولادة فالطفولة .. فهل للأولاد أن يجازوا الوالدين و لو أقل جزاء؟ اللهم لا! إلا أن يستمدوا في ذلك برب العالمين!:

قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى‏ والِدَيَّ ..

«.. أوزعني»: ألهمني، و ليس فقط إلهام الإعلام و الإفهام، فكثيرون هؤلاء الملهمون علما الملهون عملا، و القصد هنا «ان اشكر ..» لا ان أفكر، و إنما هو الهام عملي، او افهام يتبعه العمل: دعوة صارمة تدفع للعمل: «أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ..»

نعمتان هما من اللّه كسائر النعم: 1- «الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ» أن تربّيت منذ كنت جنينا و لأبلغ الأشد: «الأربعين». 2- «وَ عَلى‏ والِدَيَّ»: أن ربياني صغيرا و كفلاني كبيرا: ان أشكرك في نعمتك علي بأداء واجب طاعتك و عبادتك، و أشكرك في التي أنعمت على والدي ان أقوم قومة حسنة في الإحسان بهما، فإنه ايضا من عبادتك، «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

«ان اشكر ..»: قوليا و واقعيا: علميا إيمانيا و من ثم عمليا، شكرا في هذا المثلث الميمون المنتهي إلى نتاج رأس الزاوية: العمل الصالح المرضي:

وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ‏ كأنه الشكر فقط و الأولان يهيئان له فيتقدمانه:

أقول شكرا و أؤمن شكرا لأعمل شكرا: «اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ» (34: 13)، فالعمل الصالح لجناب الربوبية و ساحته، المرضي عند حضرته، هو الشكر لنعمته حقا، دون المقاولات و المحاولات التي لا تعدو الشفاه و القلوب إلى الواقع.

«صالِحاً تَرْضاهُ» شكرا لنعمتك التي أنعمت علي و على والدي، صالحا يضم إلى شكر اللّه شكر الوالدين شكرا للّه دون سواه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 38

«وَ أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي‏: ان يكونوا لي كما كنت لوالدي اضافة إلى سائر الصلاح، كجزاء متتابع لكل ولد بما فعل من الإحسان بوالديه، أن يحسن به ولده كما أحسن هو بوالديه .. أصلح لي في ذريتي كما أصلحت لوالدي فيّ، إصلاحا عدلا متتابعا جماعيا يتبنى إصلاح المجتمع على قواعده الأصيلة «الوالدان و الأولاد».

و إنما فِي ذُرِّيَّتِي‏ لا ذُرِّيَّتِي‏ ككل، حيث الإصلاح (في) يعني البعض و هو الممكن المعقول، و أما الكل فلا، كيف و هو يشمل كافة الأنسال الناسلة منه بينه و بين القيامة و هذا مما لا يكون، و من أدب الدعاء رعاية الإمكان عقليا و واقعيا، فلا نجد أحدا من النبيين يدعو: وَ أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي‏ إذ الظالمون لا يأهلون الصلاح، و كما عن إبراهيم‏ قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ‏! و لا يصلح اللّه تعالى إلا من يستصلح، دون فوضى و بلا شروط.

و هذه سنة إلهية أن يجازي الأولاد بما فعلوا بالوالدين و بالعكس في الأولى قبل الأخرى، إن خيرا فخيرا و إن شرا فشرا: وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً (4: 9).

و لماذا هذه الطائلة في الدعاء، الشاملة له و لأبويه و ذريته؟ إصلاحا لهم جميعا، بما يوزعه اللّه أن يعمل صالحا يرضاه؟:

لأنه تاب و أسلم: إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ‏: توبة إلى اللّه ثم إسلام للّه، فلا إسلام قبل التوبة، كما لا استجابة لدعاء قبل الإسلام و التوبة، و ترى انه الإسلام القولي: أن يشهد الشهادتين؟ و هو أدنى الإسلام الذي لا يضره عدم التوبة بل و لا الكفر في الباطن كما المنافقون بهذا المعنى مسلمون!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 39

كلّا: انه إسلام الوجه للّه قلبا و قالبا: وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ (4: 125)، و كل درجة منه درجة بعد الإيمان، بل هو ناتج عن الإيمان، فما لم يكن إيمان فلا إسلام! و هذا الإسلام هو الإيمان و العمل الصالح للإيمان بعد التوبة: إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (19: 60).

أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ نَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ‏:

أولئك الأكارم، التائبون نصوحا، المسلمون حقا، الصالحون أعمالا، الشاكرون للّه، المحسنون بالوالدين، أولئك الذين يتقبل اللّه عنهم أحسن ما عملوا من هذا و ذاك، و يتجاوز عن سيئاتهم: المعاصي الصغيرة: تركا لصغائر الواجبات، و فعلا لصغائر المحرمات، فإنها كلها سيئات، و يتجاوز عنهم سيئاتهم كل سيئاتهم، و قد يبدل سيئاتهم حسنات إذا أحسنوا التوبة و الإسلام و العمل الصالح: إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ‏ (25: 70).

نتجاوز .. في أصحاب الجنة، و هم درجات، فالتجاوز أيضا درجات و لحد تبديل السيئات حسنات:

وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ» في آيات أخرى و هي تترى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ (29: 7). إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً (4: 31) ففعل أحسن الحسنات كما هناك، و ترك أسوء السيئات كما هنا، هما من أشفع الشفعاء عند اللّه لتكفير سائر السيئات: إيجابية في فعلها، و سلبية في ترك صغائر الواجبات فإنه من السيئات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 40

ثم يقابل هؤلاء الصالحين بجماعة طالحين عاشوا حياتهم كفرا باللّه و كفرانا بالوالدين، فحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم:

وَ الَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَ تَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَ هُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ‏.

.. الإنسان الذي سامح عن إنسانيته، أن عزب ضميره و غرب عقله و هربت عاطفته، و حتى بالنسبة لوالديه المؤمنين الذين يحذرانه الوعد الحق! هذا اللاإنسان- إذ عبر عنه ب «الذي» لا الإنسان-:

«.. قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما ..»: كلمة تبرم إظهارا للتسخّط و التوجع، لا لشي‏ء إلا أنهما وعداه- بما وعد اللّه-: الخروج من قبره يوم الخروج، تحذيرا له عن الكفر و الفسوق، حنانا عليه لما بعد الموت، كما يحنّان له قبل الموت.

«قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما ..» تزجّرا منهما لمّا وعدا، و زجرا لهما عمّا وعدا، مقابلة الحسن بالسوء! رغم أن أفّه محرم لهما و حتى إذا كبرا و ساءت أخلاقهما: «إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما وَ قُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً. وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ» (17: 24) حتى و إذا كفرا و أمراه بالكفر: «وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى‏ أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً ..» (31: 15)!

فكيف إذا حسنت أخلاقهما و أحسنا إليك في الأولى و الأخرى: أن وعداك الخروج للحياة الأخرى، ليقفوك على حد العبودية في الأولى، فهل لك أن تجابه هكذا إحسان من والديك بأسوء السوء؟: بتأفف جارح وقح: «أُفٍّ لَكُما أَ تَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ»؟ و لا ريبة في وعد الخروج إلا استغرابك: «وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي»: أن لو كان الخروج حقا صادقا لخرج من القرون قبلي و لو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 41

واحد، و لم يخرج و لا واحد، فالخروج إذا أسطورة!.

و ما أحمق هذا المسكين أن يستدل بعدم الخروج إلى الحياة الدنيا على عدمه في الحياة الأخرى، و ليس الخروج الموعود إلا للحياة الحساب الجزاء، لا الحياة التكليف البلاء، و رغم أن جماعات من القرون الأولى خرجوا إليها بإذن اللّه تدليلا على إمكانية الخروج بعد الموت.

ثم الخروج من الأجداث في الأولى ليس لعبة فوضى أن يبعث جيل مضى في عهد جيل أتى، إنما هو الحساب الجماعي الختامي للرحلة كلها «لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏».

و إذ لا يعقل و يفهم هذا الولد الغبي لغة الإنسان و لا حجة الرحمان، فما ذا يصنع الوالدان بهذا الحيوان إلا:

وَ هُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌ‏.

ان وعد الخروج- حق: ثابت بكافة صنوف البراهين، عقلية و عدلية و حسية أم ماذا، و لأنه وعد اللّه، فيرجع عليهما ثانيا بكلمة جوفاء و قلب خواء:

فَيَقُولُ ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ‏. «لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ» (27: 68): خرافاتهم و أوهامهم المختلقة المسطرة التي تتنقل للتفكه و المسخرة! فيا عجباه من هذا الحمق العميق أن يعكس أمر الحق و الباطل هكذا، فيدلج الحق في الأساطير، و يدلج الباطل في الحقائق؟ فهل ان الحياة الحساب العدل أسطورة مع ما تملك من براهين، و الفوت اللاحساب الفوضى ليس بها و هو لا يملك أية براهين؟.

ثم: «الذي» هذا ليس يعني شخصا بعينه كما يدعى‏ «1»، بل هو كل من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 41- اخرج البخاري عن يوسف بن ماهك و عبد بن حميد و النسائي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 42

يعق والديه كافرا باللّه و اليوم الآخر هكذا، و هم جماعات و ليس واحدا و كما يقول اللّه:

أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ‏:

«أولئك» من حماقى الطغيان‏ «الَّذِينَ حَقَّ»: ثبت‏ «عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ»: كلمة العذاب «في امم»: جماعات و قرون «قد خلت»: مضت و غبرت‏ «مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ» فهم و إياهم شرع سواء إذ كانوا معا في شرعة سوداء «إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ» دينهم و دنياهم، أولاهم و أخراهم، و أية خسارة أخسر من خسارة الأمن و الإيمان دنيا، ثم خسارة النعيم و الرضوان عقبى؟!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و ابن المنذر و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن محمد بن زياد- هما عن مروان و اخرج ابن جرير عن ابن عباس و ابن أبي حاتم عن السدي- كلهم ان الآية نزلت في عبد الرحمان بن أبي بكر (رض).

أقول: لكن الآية تأبى عن ذلك لمكان الجمع في تاليتها: «أُولئِكَ الَّذِينَ ..» و ان عبد الرحمان هذا أسلم فكيف يحق عليه القول في امم في النار، و كما اخرج ابن أبي حاتم عن السدي «ثم اسلم فحسن إسلامه» و إليكم بعض الأثر عن الحجاج في ذلك:

اخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن عبد اللّه قال: اني لفي المسجد حين خطب مروان فقال: ان اللّه قد ارى امير المؤمنين (معاوية) في يزيد رأيا حسنا و ان يستخلفه فقد استخلف ابو بكر و عمر، فقال عبد الرحمان بن أبي بكر: أ هرقلية! ان أبا بكر و اللّه ما جعلها في احد من ولده و لا احد من اهل بيته و لا جعلها معاوية إلا رحمة و كرامة لولده، فقال مروان: أ لست الذي قال لوالديه أف لكما؟ فقال عبد الرحمان: أ لست ابن اللعين الذي لعن أباك رسول اللّه (ص)؟

قال: و سمعتها عائشة فقالت: يا مروان! أنت القائل لعبد الرحمن كذا و كذا؟ كذبت و اللّه ما فيه نزلت، نزلت في فلان ابن فلان.

أقول: لا عبد الرحمان و لا فلان بن فلان أيا كان، و انما كل من كان بهذه الصفة، عبد الرحمان و غيره، و لكن ليس عبد الرحمان و لا يشمله لأنه أسلم فلم يبق على كفره و نكرانه للآخرة، فلا يحق عليه وعد اللّه في أمم قد خلت من قبله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 43

ثم و ليس أولاء و هؤلاء على شرع سواء في الجزاء ثوابا و عقابا- بل:

وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ‏:

«و لكل» من الفريقين: صالحين و طالحين «درجات»: للمؤمنين حسب مراتبهم درجات، و لغيرهم كذلك دركات، و ليست فوضى و بلا حساب و إنما «مِمَّا عَمِلُوا»: سعوا- في أعمال الإيمان و عقائده و أقواله، في مثلث الإيمان درجات و كما في كل زاوية منه درجات، كذلك و ثالوث اللاإيمان دركات كما في كل زاوية منه دركات‏ «وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ».

و كما أن درج المؤمن و الكافر في درجة واحدة ظلم، كذلك درج كل من الفريقين في درجة واحدة، رغم اختلاف درجاتهم: ظلم: «أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ. هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ» (3: 163) «ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى‏ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها غافِلُونَ. وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ» (6: 132).

ثم هنا درجات حسب الصالحات و الطالحات‏ «مِمَّا عَمِلُوا» و هناك درجات الاستعدادات ليست مما عملوا، و إنما ابتلاءات من اللّه: «وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ» (6: 165) «وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا» (43: 32).

و إنما الجزاء الحساب يوم الحساب حسب الدرجات مما عملوا، لا ما خلقوا عليها بلاء و امتحانا، مهما أملوا! كما و ان من الدرجات هي العلى‏ «فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى‏» (20: 75) و منها الدرجات الدنا التي هي دركات و «إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وَ إِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَ يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً» (4: 40) «وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى‏ إِلَّا مِثْلَها وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ» (6: 160).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 44

«هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ» (3: 163): «وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا» لماذا؟ .. وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ‏ فعطف الواو هنا يعطف بنا إلى المحذوف من غايات الدرجات، فأعمالهم هي التي تجعلهم عند اللّه و بإذنه درجات، و إن كانت الحسنات بفضله مضاعفات، و إن كانت بعض السيئات بفضله مكفرات، و لكنما الأصل المذكور هنا: وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ‏ توفية عدل، و إن كان هناك فضل فوق عدل، و ليس هنا ظلم دون عدل.

ثم إن توفية الأعمال؟ هي الوفاء الكامل للعاملين بنفس الإعمال: إبرازا لصورها و أقوالها المسجلة في مختلف السجلات الكونية: من أرض بفضائها، و من أعضاء العاملين لهما أم ماذا يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً (3: 30).

فهي تشهد لك أو عليك يوم يقوم الإشهاد، فتعذب بها نفسيا أو تتلذذ على رؤوس الاشهاد، ثم هي تتحول بإذن اللّه إلى ملكوتها و حقائقها الشريرة أو الخيرة فتعذب بها نفسها أو تثاب: هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (27: 90) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ‏ لا ينقصون: عما عملوا من طاعة أو عصيان، و إنما جزاء عدلا وفاقا في العصيان، و مع فضل من اللّه في بعض العصيان تكفيرا و عفوا، و مع الفضل كل الفضل في الطاعات، إذا فلا نقصان لا في طاعة و لا عصيان.

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ‏.

هنا معرض السيئات بعد أن قضي الأمر و أتى دور الحساب: يُعْرَضُ الَّذِينَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 45

كَفَرُوا عَلَى النَّارِ كأنهم متاع للنار هي تشتريه، و كما يجاء بجهنم‏ وَ جِي‏ءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ (89: 23) و تعرض هي أيضا للكافرين: وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ‏: (18: 100) فانها أيضا متاع للكافرين هم مشتروها. فبعد أن كملت المعارضة تكمل المعاملة المخالطة، دون مماكثة أو مماكسة، إذ زالت الموانع من الجانبين المتاعين‏ «1» بتمام العرض مع بعض و كمال الملائمة، حيث الطينة السجينية لا تلائم إلا السجين، فالنار لا تشتري و تحرق إلا الكفار كما الكفار لا يشترون إلا النار جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ!.

عرض و عرض و لكن دون اي خفاء في أي منهما كمتاع، فأنتم‏ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى‏ مِنْكُمْ خافِيَةٌ (69: 18) عرضا لصوركم بسيركم و أعمالكم و أقوالكم، لا تخفى خافية من سيئة ظاهرة أو باطنة، و أما جهنم‏ وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً (18: 100): حقيقيا لا تخفى منها خافية، فلا مباغتة هنا و هناك و لا مباغتة يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ (46: 34)؟ وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ .. (42: 45).

فلما تمت المعارضة الحجة الذاتية في المتاعين المعروضين، حقت كلمة العذاب، و بعد مصارحة الحجة من رب العالمين:

«أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها ..»

.. «وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ» (40: 64):

طيبات خلقت لكم و أحلت لتكسبوا بها حسنات، و تنموها لعقبى الحياة، و لكنكم اذهبتموها في دنيا الحياة، مستمتعين بها في الشهوات، مستغلين إياها للموبقات، فلم تبق لكم- إذا- طيبات، و إنما خبيثات نتنات، اللهم الا من تمتع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). العرض هو اظهار لعدم المانع من تلبس شي‏ء بشي‏ء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 46

بالطيبات المحللات و أمتع، و استفاد من زينة اللّه التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق حسب شريعة اللّه، فإن ذلك ليس من اذهاب الطيبات‏ «1» و إنما الذي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد يكون اذهاب الطيبات اخلادا الى الدنيا فهو كفر، او يكون تمتعا بالحلال دون غفلة عن الآخرة «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» و لكن القدوة من اهل اللّه أحيانا يتركونها، لا تحريما لها، و انما زهدا في الدنيا و تسكينا للفقراء و كما

يروى عن عمر بن الخطاب قال: استأذنت على رسول اللّه (ص) فدخلت عليه في مشربة أم ابراهيم و انه لمضطجع على حفصة و ان بعضه على التراب و تحت رأسه و سادة محشوة ليفا فسلمت عليه ثم جلست فقلت: يا رسول اللّه! أنت نبي اللّه و صفوته و خيرته من خلقه و كسرى و قيصر على سرر الذهب و فرش الديباج و الحرير، فقال رسول اللّه (ص):

أولئك قوم عجلت طيباتهم و هي و شيكة الانقطاع و انما أخرت لنا طيباتنا.

و

عن أمير المؤمنين علي (ع) في بعض خطبه: و اللّه لقد وقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها، و لقد قال لي قائل: ألا تنبذها؟ فقلت: اعزب عني: فعند الصباح يحمد القوم السرى.

و

في الدر المنثور 6: 43- أخرج احمد و البيهقي في شعب الايمان عن ثوبان (رض) قال: كان رسول اللّه (ص) إذا سافر كان آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة و أول من يدخل عليه إذا قدم فاطمة فقدم من غزاة له فأتاها فإذا بمسح على بابها و رأى على الحسن و الحسين قلبين من فضة فرجع و لم يدخل عليها فلما رأت ذلك فاطمة ظنت انه لم يدخل من اجل ما رأى فهتكت الستر و نزعت القلبين من الصبيين فقطعتهما فبكى الصبيان فقسمته بينهما فانطلقا الى رسول اللّه (ص) و هما يبكيان فأخذه رسول اللّه (ص) منهما فقال: يا ثوبان! اذهب بهذا الى بني فلان اهل بيت بالمدينة و اشتر لفاطمة قلادة من عصب و سوارين من عاج فان هؤلاء اهل بيتي و لا أحب ان يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا.

و

في نور الثقلين‏ انه لما دخل العلاء بن يزيد بالبصرة يعود عليا (ع) قال له العلاء: يا امير المؤمنين! أشكو إليك أخي عاصم بن زياد، لبس العباء و تخلى من الدنيا، فقال (ع): عليّ به، فلما جاء قال (ع): يا عديّ نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك و ولدك؟

أ ترى اللّه أحل لك الطيبات و هو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على اللّه من ذلك! قال: يا أمير المؤمنين! هذا أنت في خشونة ملبسك و جشوبة مأكلك؟ قال: ويحك، اني لست كأنت، ان اللّه تعالى فرض على أئمة الحق ان يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا تبيغ بالفقير فقره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 47

يستمتع بها اخلادا إلى الحياة الدنيا فيقال لهم:

ها أنتم لم تدخروا من هذه الطيبات شيئا تعيشون بها في الأخرى، إذ لم تحسبوا لها حسابا، و إنما حسبتم أنها الأولى و الأولى فقط، فأذهبتم فيها كل الطيبات، غافلين عن الأخرى كأن لم تكن شيئا مذكورا: «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7).

ترى و ما هي الطيبات الذاهبة الفانية في الحياة الدنيا، التي كان من المفروض إبقاءها و استثمارها للحياة الأخرى، و الدنيا بما فيها فانية لا تبقى؟!.

إن الطيبات هي طيبة الحياة: روحا انسانية و عقلا؛ حالا و مالا، و كل ما رزقك اللّه من مظاهر الحياة، روحية و مادية، التي تتبنى لك حياة سعيدة في العاجل و الآجل. و لكنك أذهبتها في هذه الدنيا مبصرا إليها كأنها الحياة فقط، لا مبصرا بها عمق الحياة، و لكي تستغلها للأخرى، مستقلا لها في الأولى و مستكثرا للأخرى، فأنت أنت الأحمق الأطغى أغمضت عين العقل فأذهبت طيباتك في حياتك الدنيا، و بدلت نعمة اللّه كفرا، و استمتعت بها كأنها فقط للأولى، و لإشباع غريزة الشهوات، فلم تبق لك أية طيبات، اللهم إلا خبيثات و خبيثات‏ «لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى‏ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» (8: 37): «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ» (42: 45).

إنكم‏ «اسْتَمْتَعْتُمْ بِها» بدل أن تستمتعوها، لتشتروا بها الحياة الأخرى، فلا متعة لكم منها فيها حيث اذهبتموها في متع الأولى، و هذه إهانة لنعم اللّه و مهانة للطيبات تجزون بها جزاء وفاقا:

فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ‏: استكبار يخلفه اذهاب الطيبات في الحياة الدنيا تغافلا عن الأخرى،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 48

و كما أنه يخلف فسوقا: خروجا عن طاعة اللّه، فمعظم الفسوق من مخلفات الاستكبار كما ان الاستكبار من خلفيات الإخلاد إلى الحياة الدنيا: ظلمات بعضها فوق بعض.

إن الاستكبار فسوق عن طاعة اللّه، و مروق عن عبادة اللّه، فإن الكبرياء ليست إلا للّه، فالجزاء، العدل، الوفاق الفرض، لمن استكبر في الأرض، ليس إلا عذاب الهون: هونا على هون، فمن عذاب ما ليس على هون رغم أنه في نفسه هون، و ذلك للفاسق غير المستكبر.

و قد توحى آية الفسوق هذه بأن الكفار مكلفون بالفروع، مؤاخذون عليها كما الأصول، حيث الفسوق بالاستكبار ليس إلا عمل المعاصي و ترك الطاعات، كما الاستكبار في الأرض، نكران للأصول، و استبداد على اللّه و على عباد اللّه، فلو اختص عذاب الهون بالاستكبار، لم يك لذكر وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ‏ مجال، إذا فهم معذبون بالكل، دون اختصاص بالجل: الكفر و الكفر فقط: بل و المعاصي أيضا.

صحيح ان الطاعات لا تقبل إلا الايمان، فالصالحات ممتنعة مع الكفر، إلا أنها امتناع بالاختيار، و الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار.

[سورة الأحقاف (46): الآيات 21 الى 28]

وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22) قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (23) فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْ‏ءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى‏ إِلاَّ مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25)

وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً فَما أَغْنى‏ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (26) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى‏ وَ صَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27) فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذلِكَ إِفْكُهُمْ وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (28)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 49

... تسليات عاليات لخاطر الرسول الأقدس محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): بما جرى على هود (ع) و على قومه بما خانوه و أهانوه و كانوا هم أقوى منهم و اظلم و أطغى، فلم (الفرقان- م 4)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 50

تغن عنهم قوتهم و لا طغواهم و ثروتهم شيئا، و بأحرى هؤلاء الذين ابتلي بهم الرسول محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ‏ «1» وَ اذْكُرْ زادا في سبيل الدعوة، و حيادا عن الفشل في الحصول على البغية اذْكُرْ أَخا عادٍ: هودا (ع) أخا عاد الأولى، و لا خبر لنا عن الثانية و إنما الأولى:

«أَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى‏» (53: 50) مما يوحي بأنهم كانوا أقوى منهم و أظلم و أطغى، فلقد كانوا أقوى الأقوياء و أشد الأشداء في التاريخ.

«اذْكُرْ أَخا عادٍ»: اخوة في الإنسانية و القومية و الإقليمية و القرابة أم ماذا إلا صالح العقيدة، فهي بحذافيرها لا تنفع ما لم تكن اخوة الإيمان كما لم تنفع أخا عاد و كذلك أنت مع قومك.

«أذكر ..» ماذا لقي من اخوته من كفر صارم، و تكذيب عارم، ثم ماذا لقوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ ... فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى‏ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ (69: 8) و هم كانوا أقوى من قومك مكنة و رذالة، و أنت أقوى منه مكانة و رسالة.

أَذْكُرَهُ‏ ما طاب لك و طيّب خاطرك و لقد ذكر كما أمر

بقوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) (يرحمنا الله و أخا عاد) «2»

اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ‏ و ترى أين الأحقاف، و هي الكتب المرتفعة من الرمال المعوجة حيث كانت منازل عاد؟ هل هي‏ إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ (89: 7) و قد كانت مبنية على الأحقاف: أراضي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 30 ص 309- 310.

(2) الدر المنثور 6: 43- اخرج ابن ماجه و ابن مردويه عن ابن عباس (رض) قال:

قال رسول اللّه (ص) ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 51

الرمول و الصخور، المبنية عليها ارم ذات العماد، و هي بالشامات، و علّها قلعة بعلبك، أو انها نموذج من تلكم العماد الحجرية المنقطعة النظير في تاريخ الإنسان؟

ام هي واد بين عمان و مهرة؟ «1» أو رمال بين عمان و حضر موت؟ «2» أو رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن‏ «3» أو منزل في طريق مكة من القادسية «4» أم ماذا؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يروى عن ابن عباس كما عنه و الضحاك انه جبل بالشام.

(2) نقله في مجمع البيان: و قيل رمال فيما بين عمان الى حضر موت.

(3) عن قتادة قال: ذكر لنا ان عادا كانوا احياء باليمن اهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر.

(4) نور الثقلين 5: 18 نقلا عن الخرايج و الجرايح ان المهدي الخليفة أمر بحفر بئر بقرب قبر العبادي: (منزل في طريق مكة من القادسية الى العذيب) لعطش الحاج هناك، فحفروا اكثر من مائة قامة فبينما هم يحفرون إذ خرقوا خرقا و إذا تحته هواء لا يدرى قعره و هو مظلم و للريح فيه دوي، فأدلوا رجلين فلما خرجا تغيرت ألوانهما فقالا: رأينا هواء و رأينا بيوتا قائمة و رجالا و نساء و إبلا و بقرا و غنما و كلما مسسنا شيئا رأيناه هباء فسألنا الفقهاء عن ذلك فلم يدر أحد ما هو!

فقدم ابو الحسن موسى بن جعفر (ع) على المهدي فسأله عن ذلك فقال:

هؤلاء اصحاب الأحقاف، و هم بقية من قوم عاد، ساخت بهم منازلهم و ذكر على مثل قول الرجلين.

و

عن تفسير علي بن ابراهيم القمي قال حدثني أبي قال: امر المعتصم ان يحفر بالبطانية بئرا فحفروا ثلاثمائة قامة فلم يظهر الماء فتركه و لم يحفره، فلما ولي المتوكل امر ان يحفر ذلك البئر ابدا حتى يبلغ الماء فحفروا حتى وضعوا في كل مائة قامة بكرة حتى انتهوا الى صخرة، فضربوها بالمعول فانكسرت فخرج منها ريح باردة فمات من كان يقربها فأخبر المتوكل بذلك فلم يدر ما ذاك فقالوا: سل ابن الرضا (ع) و هو ابو الحسن بن محمد العسكري (ع) فكتب اليه يسأله عن ذلك فقال ابو الحسن (ع): تلك بلاد الأحقاف و هم قوم عاد الذين أهلكهم اللّه عز و جل بالريح الصرصر.

أقول: و لم يثبت احد من هذه الوجوه لأنها قيلات او اخبار آحاد اللهم الا ما يوحيه القرآن كما بينا ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 52

القدر المسلم قرآنيا ان الأحقاف هي أودية «1» الأراضى التي بنيت عليها ارم ذات العماد، و إذا كانت باقية حتى الآن فقد تكون قلعة بعلبك، العماد المنقطعة النظير في تاريخ الإنسان، و قد يوحي ببقائها: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْ‏ءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى‏ إِلَّا مَساكِنُهُمْ»: السورة- أن دمرت الصرصر العاتية أشياعهم بأشيائهم إلا مساكنهم عبرة للمعتبرين، إلا أن‏ «لا يُرى‏ إِلَّا» هنا، لا تضمن بقاء الرؤية إلى زمن نزول القرآن، فضلا عن الآن، فقد تختص بوقت العذاب، و لفترة بعد تدميرهم، كما قد توحي له: فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ (69: 8)؟ كلا! لا أشخاصا و لا آثارا، الا دمارا و مخازي و آصارا!: وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. ما تَذَرُ مِنْ شَيْ‏ءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (51: 42) ثم المساكن هي محال السكن: أعم من البيوت، فقد تعني محال البيوت، الأودية الأحقاف المبنية عليها ارم ذات العماد، فلو كانت هي البيوت لذكرت كما في ثمود: أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا .. (27: 52). و لكن البيوت قد يعبر عنها بالمساكن فقد تعني هي أيضا البيوت: وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ .. (29: 38) فها هي مساكنهم مبينة زمن نزول القرآن و مرئية، و لا تتميز مساكن المعذبين إلا ببقاء بقايا من بيوتهم الخاوية، لا أرضا مستوية أو عوجاء! فعلها قلعة بعلبك أم ماذا! مبيّنة لحد الآن و مرئية و لا نجد مساكن لهم غيرها تناسب أن تكون ارم ذات العماد.

و بما أن الغرض هنا لا يتعلق بمكان الأحقاف ارم ذات العماد، و إلا لصرح به، فلنسكت عما سكت اللّه عنه، إلا ما نعرف من أنهم ألأم حماقى الطغيان،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقوله تعالى: «فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ» فلتكن الأحقاف هي الاودية التي بنيت عليها ارم ذات العماد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 53

فأحقافهم من أشر الوديان‏ «1» ثم لا نتأكد من بقاء أثر من عاد.

وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ‏ و ترى ماذا يعني بين يديه و من خلفه؟ هل هم الرسل الذين خلوا قبله‏ مِنْ خَلْفِهِ‏ و خلوا في إنذارهم زمنه‏ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ‏: إذ عاصروه؟: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ. إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. (41: 14) و الرسل هنا هم النذر هناك.

فكما لا يعني‏ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ‏: هنا الرسل الذين أتوا من بعدهم، إذ لم يأتوهم و إنما أتوا من بعدهم، و إنما هم الذين كانوا في زمنهم، و لا مِنْ خَلْفِهِمْ‏ يعنيهم، و إنما الذين أتوا قبلهم، فإنذارهم من قبلهم من آباءهم إنذار لهم.

فكذلك الرسل من بين يدي هود و من خلفه، دون الذين أتوا من بعده، إذ لا صلة لمن بعده به و لا بهم و لا حجة له و لا لهم، و إنما الذين أنذروهم حاضرين ثم الذين أنذروا آباءهم، فلينذروا برسلهم حاضرين، أو غابرين حاذرين، فهم أقرب إلى الهدى ممن لم ينذر آباءهم فهم غافلون، كقومك اللّدّ: لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (36: 6).

و دعوة الرسالات الماضية و الحاضرة- و كذا المستقبلة هي في صيغة واحدة:

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ‏ دعوة واحدة إلى إله واحد دونما أي خلاف و اختلاف، دعوة مركزة واحدة ثم إنذار واحد: إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ‏.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور- اخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي اللّه عنه قال: خير واديين في الناس وادي مكة و وادية ارم بأرض الهند، و شر واديين في الناس وادي الأحقاف و واد بحضر موت يدعى برهوت يلقى فيه أرواح الكفار و خير بئر في الناس زمزم و شر بئر في الناس برهوت و هي ذاك الوادي الذي بحضر موت.

أقول: «ارم» هنا لا يعني ارم ذات العماد، و إلا كان مطروحا مكذوبا على الامام علي إذ لا يقول ما ينافي القرآن: فان ارم فيه هي بالأحقاف.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 54

و يَوْمٍ عَظِيمٍ‏ في هذه الإنذارات هو القيامة الكبرى، و بالنسبة لعاد يضاف يوم الصرصر يوم نحس مستمر، فيوم عذابهم عظيم في الدنيا كما هو عظيم في الآخرة.

إِنِّي أَخافُ .. كما هي مقالة سائر المنذرين بين أيديهم و من خلفهم، كذلك هي مقالة هود لعاد إذ يخوفهم بعذاب الدنيا قبل الآخرة و كما قالوا:

قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ‏.

توحي أن وعد عذاب يوم عظيم يختصهم كما طلبوه، و كما يعمهم و سواهم كعذاب عام يوم الآخرة، فقد يعني اليومين العظيمين معا، أو يختص في وعد هود يوم الدنيا، بعد ما وعدهم مرارا و تكرارا عذاب الآخرة.

فيا لهذا الحمق الصارم و الكفر العارم أن عادا يعكفون على آلهتهم كأنها الحقة القاطعة، دونما خوف من عذاب يوم عظيم، لحد يتهددون نبيهم: «فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ». فلو ان عندهم احتمالا لصدق ذلك الوعد لعدلوا عن آلهتهم، و لكنما القلوب خاوية مقلوبة بما ظلموا، فهم في نظرة العذاب، و يزعمون أن هودا هو الآتي بالعذاب، و كأنه إله مع اللّه!.

«قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا» تصرفنا كذبا و افتراء «عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا» من عذاب يوم عظيم‏ «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» في نبوتك و انباءك:

قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ‏ «قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ»: لا يعدوه إلى سواه و ان كان نبي اللّه، «إِنَّمَا الْعِلْمُ»: علم العذاب الموعود: ما هو؟ كيف هو؟ متى هو؟ كل ذلك‏ عِنْدَ اللَّهِ‏! وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ‏ من وعد العذاب و الوعد فقط، فلست أعلم ما هي حقيقة العذاب الموعود؟ و لا شكله و كيفيته؟ و لا متى يحين حينه، إنما وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ‏: بلاغا و إنذارا و عذابا أم ماذا!: و كما في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 55

نوح و أضرابه: قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ‏ (11: 23).

و هذه هي السنة العامة في معجزات المرسلين، انها من أفعال اللّه الخاصة و ليست من أفعالهم، و انما تجري بإذن اللّه على أيديهم أم بوعدهم تثبيتا للحجة، و إيضاحا للمهجة، اللهم إلا ما يظهر اللّه تعالى على غيبه من يشاء منهم، و كما أرى ابراهيم كيف يحيي الموتى أم ماذا «1».

إِنَّمَا الْعِلْمُ‏ علم المعجزات، كل العلم و بكل المعجزات‏ عِنْدَ اللَّهِ‏ و ليس عندي.

(و) انما أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ‏: من وعد العذاب و وعده فقط:

وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ‏:

فيا لآية العلم هذه من زوايا ثلاث، قارعة حجتهم الداحضة: أولا بانحصار علم العذاب الآية باللّه، ثم انه ليس الا مبلغا عن اللّه، و أخيرا وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ‏!: تجهلون لا عن جهل قاصر: الجاهل جهله، و انما عن تجاهل مقصر، و هكذا الأكثرية الساحقة من الكافرين، أنهم متجاهلون تقصيرا، لا جاهلون قصورا:

وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى‏ وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (6: 111) إذا فأقلهم جاهلون و هم القاصرون!.

إنه ليس في حجتي ما ترتابون، و لا عندكم ما به تحتجون‏ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ‏ في كل ما تقولون و تقترحون من أقوالكم و أفعالكم، متخبطين فيها: وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا (27: 14)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد نشبع البحث عن المعجزات حقه في محالها الأنسب إنشاء الله تعالى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 56

وَ تِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (11: 60).

أراكم تجهلون و حتى مصالحكم في الحياة الدنيا، إذ تطالبون أخاكم المرسل إليكم بكل رفق و حنان، تحقيق وعد العذاب عاجلا غير آجل، متهددين إياه: لو لم يأت به فهو كاذب في وعده!.

ترى كيف تجهلون مدى و عدي؟ فلم يكن إلا وعدا غير موقت، و أن اللّه يأتي به إذا شاء لا أنا، و لكنكم قوم تجهلون لغة الإنسان، فتستعجلون إلى ما تهوون غضا عما توعدون، ثم تكذبونني سلفا إن لم آت بما تقترحون، و إن في ذلك جهالات و حماقات:

1- وعدتكم ان اللّه يأتي بعذاب، و أنتم تطلبونه مني: فَأْتِ بِها! 2- و لم يكن الوعد مؤقتا و أنتم تستعجلون: فَأْتِ بِها و إذا لم استعجل فتكذبون: «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»: ثالوث الحماقة الجهالة!. داحضة بمثلث الحجة البالغة «إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ» و ليس عندي علم لا بإتيان العذاب و لا بوقته‏ «وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ» من رسالات اللّه و من وعد العذاب من اللّه غير موقوت: «وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ»! فلنفرض انني ما جئت بالعذاب، فكيف أكون كاذبا و ليس التعذيب من شأني؟ أو أجّل عنكم العذاب فكيف لا أكون صادقا و ليس التعجيل من شأني؟.

ثم و في تعجيل العذاب كما عجل به عجالة دماركم فما ذا تربحون، أ فآلهتكم هي التي تنجيكم من بأس اللّه، «أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ»! كما و لستم في تأجيله تخسرون و تكذّبون، إذ لم يكن الوعد كما تستعجلون، فأنتم أنتم الخاسرون في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 57

عاجل العذاب و آجله، فكيف تحمقون في مجابهة رسولكم الناصح الأمين، متهددين إياه بالتكذيب لو لم يأت بما تهوون، مواجهة الحجة بالتهديد الهاتك، و التشديد الفاتك .. «وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ»! فلو وقفتم عند حد فيما تجهلون! و لكنها مستمرة و حتى إذا جاءكم تحسبونه عارضا يمطركم:

فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ‏.

«فَلَمَّا رَأَوْهُ»: العذاب الموعود، و المستعجل به رأوه «عارضا» سحابا يعرض في الأفق ثم يطبق في السماء «مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ»: تستقبل مخازن مياههم و كأنها موجهة لها لتمطرها و تملأها ماء، و ذلك بعد ما أصابهم حر و عطش شديد «قالوا»: استبشارا بعارض ممطر بعد جدب، و استهزاء بهود: «هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا» تنديدا برسولهم و تكذيبا، فإذا بهم يسمعون منه بإعراض عن عارضهم الممطر «بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ» من عذاب موعود: «ريح» و ليس سحابا عارضا، و إنما من ثخنها و تكاثفها خيّل إليهم انها سحاب‏ «رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ»:

تحمل أليم العذاب.

... و إنها «ريح صرصر عاتية. سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى‏ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ» (69: 8).

«وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ما تَذَرُ مِنْ شَيْ‏ءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ» (51: 42) و هي ريح: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْ‏ءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى‏ إِلَّا مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ»:

تستقبلهم عاصفة مدمرة مزمجرة، و قد بلغوا في حمقهم لعمقهم أن حسبوها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 58

عارضة ممطرة، و هم أولاء ضحايا الزمجرة، فانحسموا حسوما صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية، و رمم بالية «فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ»؟ اللهم لا إلا باغية!.

إن الصرصر العاتية دمرتهم- كما تدمر كل شي‏ء- بحيث لا يرى إلا مساكنهم:

الأحقاف المبنية عليها ارمهم و بيوتهم، فالتدمير الاستئصال هو من طبيعة الريح الصرصر العقيم العاتية «ما تَذَرُ مِنْ شَيْ‏ءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ» فهل إنها ما أتت بيوتهم حين أتتهم؟! او أنها لم تكن شيئا حتى تدمره، او أنها في غير رميمها تحولت معهم رميما فلا يرى إلا الرميم، مساكن و أجسادا، او بقيت من مساكنهم ما تدل على تدمرهم و تذمرهم، و عله أولى لما قدمناه‏ «1».

و من عجيب الأمر انها

«خرجت في مثل خرق الإبرة ..»

او

«مثل الخاتم» «2»

فدمرت أشياءهم و إياهم و «كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ» في دنياهم، فأولى لهم في أخراهم!.

و ترى هل كان هؤلاء الأغبياء ضعفاء و لذلك حسموا؟ كلا! و إنهم كانوا أقوى الأقوياء و أقوى منكم:

وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً فَما أَغْنى‏ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تناصرا من آيتي المساكن المرئية لحد الآن و الثانية: «وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ» اللهم الا ان يعني تبين البيان القرآني، لا الأبصار العياني.

(2) روى الاول ابن بابويه القمي في من لا يحضره الفقيه عن رسول اللّه (ص) و الثاني في الدر المنثور 6: 44- اخرج الطبراني و ابو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (ص). أقول: راجع ج 30 آيات عاد في سورة الفجر و ج 29 من سورة الحاقة.

(3) لقد ذكرت عاد في 24 موضعا من القرآن، و هذا دليل ان لهم موضعا عظيما من الكفر و العناد، و من العذاب الشديد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 59

آية التمكين هذه توحي أن عادا كانوا أمكن من هؤلاء و اسمع و ابصر و افأد، و لأنهم كانوا يجحدون بآيات اللّه و يستهزءون ما أغنت عنهم ما فضلوا به من مكنة السمع و الأبصار و الأفئدة و سواها، و حاق بهم ما كانوا به يستهزءون، فأولى لهم أولاء: قوم الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ألا تغني عنهم مكنتهم و هي أضعف و اقل قدرا، فما هي مكنتهم الأقوى؟ و ما هي قوتهم في الثلاثة الاخرى؟

انهم- مع الآخرين المهلكين- كانوا احسن أثاثا و رءيا: «وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً» «1» (19: 73) و أشد قوة و آثارا: «أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ» (40: 21).

و لأن عادا ألعن حماقى الطغيان فليكونوا هم من أشدهم قوة و آثارا في الأرض، و أحسنهم أثاثا و رءيا، فأشدهم عذابا في الآخرة و الأولى.

هنا نتبين ان «إن» تنفي عن الحاضرين زمن وحي القرآن المكنة التي كانت عند عاد، فقولة من قال: انها زائدة، فارغة زائدة، إذ تنافي بلاغه القرآن و فصاحته، و لا تلائم الآيات الاخرى التي تؤكد أن عادا كانوا أشد و أقوى، على أن المساواة في المكنة بين الغابرين و الحاضرين لا تفيدهم عبرة.

ثم المكنة الأشد في عاد تعني القوى العقلية و العلمية و الجسمية: «أَشَدَّ قُوَّةً» و قوى الجمال و المال و الأثاث: «أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً» و من ثم الآثار أية آثار:

«أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ»: «وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ».

و لعل آثار بعلبك من تلكم الآثار، التي تحدّث عن آصارهم في حمل هذه الآثار: فكم من ضحايا رضخوا بدمائهم حمل هذه الصخور الضخمة، و كم من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الرءي هو الجمال و المنظر الحسن‏ كما عن الامام الباقر (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 60

أشلاء فرشت لكي تقوم تحتها هذه العماد في إرم عاد؟!.

و لقد جمعوا الكمال عقلا و جسما، و الجمال رأيا و رءيا، أكمل من هؤلاء و أجمل، فلم تك تغن عنهم لا مالهم و لا مالهم من رأي أو رءي، و لا قوتهم في العقل و المال و الجسم .. و لأنهم أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا و استمتعوا بها ..

ثم الثلاثة الاخرى: السمع و الأبصار و الأفئدة، لا بد و أنها- كذلك- أقوى و لكي تزيدهم قوات إلى قوات، و إلا لم يكن لذكرها مجال، و بعد التمكين في الأرض قوة و آثارا، لأنهم و الحاضرين و معهم الناس، هم مشتركون في أصول هذه الثلاث، و إنما الاختلاف في الدرجات: «وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ» (6: 165): درجات في مختلف الطاقات: سمعا و أبصارا و أفئدة أم ماذا، و قد تحول إلى دركات كقوم عاد، الذين بدلوا نعمة اللّه كفرا «إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ» و لم يستفيدوا من هذه الدرجات إيمانا بالآيات‏ «وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» و كان حقا عليهم ما حاق بهم!.

إنهم كانوا أسمع من هؤلاء بآذان مداركهم، و أبصر بأبصارها، و أفئد بقلوبهم المتفئدة: المتوقدة بأنوار العلوم المادية «فَما أَغْنى‏ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ»: ما أغنت عنهم في دفعهم إلى الإيمان إذ لم يستعملوها في التسمع للآيات و التبصر بها و التفوءد لها، و إنما أخلدوا بها إلى الحياة الدنيا فجمعوا لها غافلين عن الاخرى، فما أغنت عنهم في دفع العذاب، كما لم يندفعوا بها إلى الصواب و الثواب.

كذلك و الحاضرون المتحضرون، الذين بلغوا من المكنة، و في السمع و الأبصار و الأفئدة- بلغوا قمتها، فيسمعون الأصوات من مشارق الأرض و مغاربها من الإذاعات، و يبصرون صورها من التلفزيونات، و يعقلون و يعلمون مختلف العلوم و الاختراعات بالأفئدة: المتوقدة بأنوار العلم، و على أضواء هذا المثلث تمكنوا فيما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 61

لم يمكّن فيه انسان التاريخ فيما نعلم.

كذلك هؤلاء لا تغني عنهم حضاراتهم بحذافيرها من شي‏ء، ما هم مكذبون بآيات اللّه و جاحدون، و سوف يحيق بهم ما كانوا به يستهزئون: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ. وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ» (84: 23).

فالعبرة التي يستفيدها كل ذي مكنة، و كل ذي سمع و بصر و فؤاد، ألا يغتر ذو قوة بقوته، و لا ذو مال بماله، و لا ذو علم بعلمه، فإنها قوى من قوى الكون، لو لم تجر في مجاريها، و السنن التي سنها اللّه، لرجعت عذابا و تبابا تدمر كل شي‏ء، كما فعلت بعاد و ثمود! فتلك عاد تذمروا و تدمروا، تسمعون أخبارهم و ترون آثارهم، و لكي تعتبروا بهم و باضرابهم:

وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى‏ وَ صَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ‏ ترى ما هي الصلة بين‏ «أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ» و «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» ف «هم» أولاء قوم عاد و «كم» هم الحاضرون في الخطاب؟ ثم و كيف يرجع المهلكون بعد هلاكهم اللهم إلا إلى اللّه يوم الدين؟.

إن «ما حولكم» تشمل قرى عاد و سواهم من المهلكين، و لقد صرف اللّه لهم من آياته قبل أن يهلكهم‏ «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» فلما بقوا على ما طغوا و لم يرجعوا أهلكهم اللّه.

و من ثم في‏ «أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ»: المخاطبين بوحي القرآن، تذكير لهم بما جرى على القرون من قبلهم قبلهم لعلهم يرجعون، و إلا فثم الهلاك الدمار كما أهلك ما حولكم فما لكم لا تؤمنون؟

و تصريف الآيات هو صوغ آيات النبوات و سائر الآيات في صيغ مختلفة حسب البيئات أو الطلبات، آيات تتوارد و تترى‏ «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» عن غيهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 62

و لكنهم ... صرفناها لهم لينصرفوا، إلا أن صيغة الكفر المعاند لا تنصرف، إلا إلى جهنم و بئس المصير.

«أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ» كعاد بالأحقاف- ارم ذات العماد، و ثمود بالحجر، و سبأ باليمن و في مدين أم ماذا، و هي من القرى التي كانت حول أم القرى، قريبة منها أو بعيدة عنها، فإنها أم القرى كلها، كما الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) أرسل‏ «لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى‏ وَ مَنْ حَوْلَها»: كل القرى فإنها أيا كانت فهي حول المركز الرئيسي للدعوة الإسلامية العالمية.

و لكنما القرى الهالكة حولكم، القريبة تكفي عما هي بعيدة عنكم و منها الأحقاف و منها .. «فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ»؟ .. و هل نصرتهم آلهتهم أم ضلت عنهم و ألهت؟:

فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذلِكَ إِفْكُهُمْ وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ‏.

و كيف ينصرونهم في بأسهم و هم أولاء كانوا لهم جندا محضرين، يكفّون عنها بأس الحاضرين لكسرها، فهؤلاء الآلهة القربان‏ «ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏» كيف لم تقرب عابديها إلى اللّه أو تشفع لهم أو تنفعهم حين بأسهم كما كانوا لها جندا محضرين؟.

«بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ»: حين البأس: ضلالا عن كونها إذ دمرت بتدميرهم، و عن كيانها- باحرى- إذ ضلت الوهيتها المؤتفكة: واقعيا إذ ما أثرت، و في ظنهم: إذ عرفوا أنهم خاطئون، فحين البأس الموت تكشف الحقائق، ثم البرزخ معرض الكشف التام، ثم في القيامة الأتم: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» متحللا عن الكلل التي كانت من علل منك أو من حجاب الحياة الدنيا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 63

(و ذلك) المشهد المهين حين الهلاك- انه حقيقة إِفْكُهُمْ وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ‏ حيث الافك و الفرية، الظاهر ان يوم الدنيا بمظهر الحق، سوف يبرزان بالمظهر الحق: يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ (86: 9) فلا تخفى منهم خافية.

وَ ذلِكَ إِفْكُهُمْ‏: ضلال آلهتهم و ضلالهم- إذ يظهر ان بمظهر الحق و لحدّ هم يصدقون: حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَ شَهِدُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (7: 37).

وَ ذلِكَ‏ الدمار المخزي البعيد- على تبين ضلالهم بضلال آلهتهم‏ ذلِكَ‏ حقيقة إِفْكُهُمْ وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ () عف الطالب و المطلوب)- يوم تظهر الحقائق دون حجاب، فلأهل الحق الثواب، و لهؤلاء الآفكين المفترين التباب!.

لقد انتهى يوم الفوضى الضلال، الذي كان يعيشه الضالون بكل رعونة و دلال، تحسبونهم انهم أهل الحق و سائر الناس ضلّال، لكنهم: وَ ذلِكَ إِفْكُهُمْ وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ‏!.

[سورة الأحقاف (46): الآيات 29 الى 35]

وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى‏ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى‏ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ إِلى‏ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (31) وَ مَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (32) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى‏ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى‏ بَلى‏ إِنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (33)

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى‏ وَ رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34) فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (35)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 64

.. جولة جديدة فيها استماع الجن للقرآن فرسالتهم إلى سائر الجن، تجدّ بالإنسان السير نحو التصديق بالقرآن الذي جاء له كأصل و للجن فرعا، فمشهد الفرع المصدق للقرآن يدفعنا للايمان أكثر مما كان.

وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى‏ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ‏.

الصرف هو رد الشي‏ء من حالة إلى أخرى أو من مكان إلى آخر، مما يصرفنا عن القول: إنه كان وحيا للجن أن ينصرفوا إلى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لاستماع القرآن، و انما هو إلهام لهم إلهي: أن ينصرفوا من حالتهم السابقة، البعيدة عن الرسول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 65

صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى قربه، و أن يحضروا محضر قرآنه المبين ليتبينوا، و إذ ليس الوحي لأم موسى: «أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» ليس هذا وحيا رساليا يحمل رسالة إلهية يحملها المرسلون، فبأحرى ألّا يكون صرف الجن وحيا رساليا و إن كانوا قبل الإسلام أنبياء مرسلين إلى قومهم، حيث الوحي بحذافيره انقطع عن غير محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منذ بزوغه له و حتى القيامة الكبرى، اللهم إلا إلهامات تخص المؤمنين حسب الدرجات و منهم رسل الجن، إذ بعثهم الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى قومهم منذرين، و قد كانوا يلمسون السماء لاستماع الوحي و محادثات الملأ الأعلى، قبل هذه الرسالة الأخيرة ثم منعوا: «وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً. وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً» (72: 9) «1».

و من لطيف التعبير هنا و في غيره‏ صَرَفْنا ام ما يؤدي معناه، دون (أوحينا) و إن كان كوحي الأرض او النحل او أم موسى أم ماذا و من ذا؟

تأكيدا لختم الوحي بخاتم المرسلين، فلا يؤتى حتى بلفظه، الشامل للوحي الرسالي و الإلهام، و لكي يسد كل ثغرة من فكرة الوحي بعد الإسلام! فلا تجد صيغة الوحي لما ألهم إلى ايّ من الملهمين بعد الإسلام على جلالة أقدارهم، رغم ما تجدها لما قبل الإسلام، و حتى بالنسبة للنحل و للأرض! اللهم إلا وحي الشر من اهله إلى اهله‏ وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى‏ أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ‏ (6: 121) تأشيرا ان كل وحي يدّعى بعد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإنما هو من شيطان إلى شيطان و ليس من اللّه في شي‏ء!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التفصيل الى سورة الجن ج 29 من الفرقان.

(الفرقان- م 5)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 66

ثم النفر من الجن هنا هم النفر الذين فصّلت نفرهم سورة الجن: انزعاجا من الجو الطائش الفوضى إلى أمان وحي القرآن، فلم يكن مصادفة عابرة، و انما صرفا من اللّه لهم مقصودا، و لأنهم كانوا من أصفى الأصفياء بين الجن، و إلا لم يصرفوا لحمل رسالة القرآن من الرسول إلى قومهم، دون سواهم.

لقد صرفوا إليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو يقرأ القرآن في (حجون) بمكة و كما

يروى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: (بت الليلة أقرأ على الجن رفقا بالحجون) «1»

دون أن ينصرف هو صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إليهم رغم ما قد يروى‏ «2» حيث‏ إِذْ صَرَفْنا دون (صرفت)!.

و ترى كم عدد المصروفين من نفر الجن- علما بأن النفر لا يقل عن ثلاثة و لا يزيد عن عشرة-؟ انهم جماعة من رجال الجن يمكنهم النفر لتلقّي هذه الرسالة السامية، و ليرجعوا إلى قومهم منذرين، و بما أن النفر يضمّن معنى الجهاد، فليكن في صرفهم إلى الرسول جهاد، مصروفين إليه و منصرفين عنه، و هل تكفي ثلاثة و اضرابها لذلك النفر الجهاد، و ضد الجن الكافرين؟ لعله و بنصر اللّه! و لكنما الحال تقتضي أن يكونوا أكثر عدد تحملهم لغة «النفر» و هم تسعة أنفار،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 44- أخرجه عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود (رض) قال سمعت رسول اللّه (ص) يقول: .. و

أخرج ابن مردويه في الدلائل و البيهقي عنه‏ انه سئل اين قرء رسول اللّه (ص) على الجن فقال: «قرأ عليهم بشعب يقال له الحجون».

أقول: و أنا أفسر هذه الآيات في شعب الحجون بمكة المكرمة حيث الآن بيتي، بمقربة مسجد الجن، و

قد يروى عن علي عليه السلام و ابن مسعود و ابن عباس‏ انه بطن نخلة،

و عن كعب الأحبار انهم انصرفوا من بطن نخلة الى قومهم منذرين فخرجوا بعد وافدين إلى رسول اللّه (ص) فانتهوا الى الحجون، مما يدل على انهما شعب واحد ياسمين اشهرهما الحجون كما هو الآن «شعب الحجون».

(2)

الدر المنثور 6: 44- اخرج عبد بن حميد و احمد و مسلم و الترمذي عن علقمة في حديث عن ابن مسعود (رض) انه (ص) قال: اتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 67

كما و يصدقه صحيح السنة و قد سماهم الإمام علي (ع) «1» و إن كان العدد هنا ليس غرضا يقصد و لو كان لبان، و إن كان قد تؤيده آية اللّبد «2» إذ تجمعوا على الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يستمعون القرآن بعضهم لصق بعض كلبد الأسد، كناية عن كثرتهم، لكنها ليست أكثر من عشرة لمكان النفر خلاف ما قد يروى‏ «3».

«صَرَفْنا .. يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ» فلم يكن الصرف إليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلا لاستماع القرآن، و لا الانصراف إلا للإنذار بالقرآن، و لأنه الحجة الوافية لإثبات وحيه، و رسالة نبي القرآن.

«فَلَمَّا حَضَرُوهُ»: القرآن و نبي القرآن، فهما هنا معا محتملان، إذ صرفوا إليه هو، يستمعون القرآن‏ «فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا»: لاستماعه، إنصاتا بألسنتهم فلا يتكلموا، و بقلوبهم فلا ينشغلوا، لكي يستمعوا القرآن بأسماع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي عن امير المؤمنين (ع) في حديث .. فأقبل اليه من الجن التسعة من اشرافهم واحد من جن نصيبين و الثمان من بني عمرو بن عامر من الأحجة منهم شضاة و مضاة و الهملكان و المرزبان و المازمان و نضاة و هاصب و هاضب و عمرو، و هم الذين يقول اللّه تبارك اسمه فيهم: «وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً»

و في الدر المنثور 6: 44- اخرج ابن أبي شيبة و ابن منيع و الحاكم و صححه و ابن مردويه و ابو نعيم و البيهقي معا في الدلائل عن ابن مسعود في حديث قال: و كانوا تسعة، و اخرج مثله الطبراني و الحاكم و ابن مردويه عن صفوان بن المعطل. و مثله- اخرج الواقدي و ابو نعيم عن كعب الأحبار.

(2) هي قوله تعالى: «وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً» ان رسل الجن هم كانوا من لبد الخير في سائر اللبد (راجع تفسير سورة الجن) و قد أخرجه في الدر المنثور عن عدة طرق عن الزبير.

(3) كما أخرجه ابن جرير و الطبراني و ابن مردويه عن ابن عباس (رض) قال: كانوا تسعة عشر، و ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية قال: هم اثنا عشر ألفا من جزيرة الموصل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 68

آذانهم، و منها إلى قلوبهم، حتى يعوه و يحفظوه استعدادا للإنذار «فَلَمَّا قَضى‏» القدر الذي قضي لهم باستماعه‏ «وَلَّوْا إِلى‏ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ»:

فليكن القرآن الذي سمعوه قرآنا جامعا لما يتطلبونه: حجة الرسالة، و هكذا كل القرآن! مخاطبا إياهم في خطاباته و إيحاءاته، فليكن منه سورة الرحمان‏ «1» و لذلك تراهم- لما قضي- «ولوا إلى قومهم منذرين، تحمل قلوبهم و مشاعرهم ما لا تطيق إلا تصديقه و الإسراع في إبلاغه، و إنها لهي حالة امتلاء الضمير بما يملي عليه املاءه للآخرين، فيا له من قول غلاب قاهر بليغ، تدخل حشاشته القلوب، فتقلبها إلى مقلب القلوب!.

و ما هي صيغة الإنذار، الغلابة الخلابة، المحركة لقلوب المنذرين، دونما آية اخرى، إلا هي نفسها؟ إنها:! قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى‏ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ إِلى‏ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ» ...: «فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً» «2».

كيف- و القرآن أنزل من بعد عيسى، قالوا-: «أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى‏»؟ أ لأنهم كانوا هودا ناكرين إنجيل عيسى؟ و هذا مس من كرامة مرسلي الجن أن يكونوا كفارا، و المرسلون هم المصطفون! فليكونوا ممن آمن بنبوات تترى، فإيمانا بعيسى (ع) بعد موسى، ثم انصرافا إلى خاتم الأنبياء! أم لأن القرآن يشابه كتاب موسى (ع) إذ يحمل شريعة الناموس كأساس،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في مجمع البيان روى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد اللّه قال: فلما قرأ رسول اللّه (ص) الرحمان على الناس سكتوا فلم يقولوا شيئا فقال رسول اللّه (ص): الجن كانوا أحسن جوابا منكم، فلما قرأت عليهم: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» قالوا: «لا و لا بشي‏ء من آلائك ربنا نكذب».

(2) راجع تفسير سورة الجن (الفرقان ج 29 ص 132).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 69

و كتاب عيسى لا يحملها، و إنما يدعو إلى كتاب موسى دون زيادة إلا دعوات أخلاقية، و تحليلات لبعض ما حرم ابتلاء في كتاب موسى‏ «1»، فلأن الإنجيل لا يحمل شريعة جديدة تنسخ شريعة التورات و إنما تكملها أخلاقيا، اعتبره رسل الجن هنا استمرارا لشريعة موسى، إذا فالقرآن كتاب أنزل من بعد موسى، و هذا هو حق المعنى في انتقالهم إلى القرآن بعد كتاب موسى، تلميحا مليحا أنه الشريعة المفصلة المستقلة بعد التورات‏ «مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ» من الإنجيل و التورات‏ «يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ»: الشرع الثابت الذي لا حول عنه و لا تحويل‏ «وَ إِلى‏ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ» على طول الخط بيننا و بين القيامة الكبرى، لا عوج فيه‏ «لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»!.

و لا يعني تصديق القرآن لما بين يديه، تصديق الموجود من كتب الأنبياء، المحرفة عن جهات إشراعها، و إنما «بَيْنَ يَدَيْهِ» مما أوحي إليهم، تصديقا لوحيها، لا تثبيتا للعمل بها، اللهم إلا الأحكام التي لم تنسخ منها.

و ترى كيف عرفوا أن القرآن نزل ككتاب موسى؟ لأنهم آمنوا من قبل بكتاب موسى، بالآيات الكبرى التي أتى بها موسى، ثم قايسوا ما سمعوه من القرآن إلى كتاب موسى، فأدركوا صلة عريقة بينهما في أصول الدعوة و جماع من فروعها، و أنها من تلك النبعة التي نبع منها كتاب موسى، بل و أحرى، فإذا كان كتاب موسى وحيا و ليس فيه آيات النبوة إلا قليلا، فليكن القرآن وحيا و هو كله آيات للنبوة: «وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى‏ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ..» قياس ناجح بين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و كما يقول تعالى حكاية عن عيسى (ع): «وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» و هو الذي حرّم عليهم ابتلاء لا أصلا يبقى: «وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 70

القرآن و كتاب موسى، دون حاجة في القرآن إلى بينة سواه، مهما احتاجت التوراة إلى بينات سواها!.

فالإيمان بالقرآن، فبمن أنزله و من أنزل عليه، إنه استجابة طبيعية مستقيمة لسماع القرآن، وعيا في النفس لمن استقامت فطرته، دون حاجة إلى حجة سواه، بل هو حجة الحجج تدل لوحيها بنفسها كالشمس في رايعة النهار!.

يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ‏:

«داعِيَ اللَّهِ» هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بكتاب اللّه، فهما- إذا- هما داعيا اللّه:

و أما رسول اللّه ف: «قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى‏ بَصِيرَةٍ ..» (12: 108)

«قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّي وَ لا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً» (72: 20) «إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَآبِ» (13: 36) «وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (23: 73) فهو يدعو الناس بكتاب اللّه إلى اللّه: «يُدْعَوْنَ إِلى‏ كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ» (3: 23) دعوة بإذن اللّه: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً. وَ داعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً» (33: 46).

و أما كتاب اللّه، فهو هو الأصل في مادة الدعوة، لو لاه لم تكن رسالة و لا دعوة، فإنه بينة الداعية و حجة الدعوة: «وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ» (27: 92) «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ» (50: 45).

و إن دعوة اللّه لا سواه، بينة في رسول اللّه و في كتاب اللّه، داعيتان تحملان بينات من اللّه مع بعض، كما يشهد بعضها لبعض، فرسول اللّه هو هو كتاب اللّه، كما كتاب اللّه هو رسول اللّه‏ «يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ»: داعيا اللّه!.

أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ‏ إجابة الدعوة إسلاما بإقرار، و إيمانا بها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 71

تصديقا بالجوانح و الجوارح، فلا فحسب إسلام الإقرار، و لا إيمان التصديق، بل و إيمان العمل أيضا: مثلث الإجابة: لسانا و قلبا و أركانا بدرجاتها:

يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ‏ و إنما مِنْ ذُنُوبِكُمْ‏: بعضا- لا ذُنُوبِكُمْ‏:

كلا- لأن الذنوب تشمل ما تقدم قبل الاستجابة و ما تأخر بعدها، و ليس اللّه ليغفرها كلها بمجرد الاستجابة للداعية و الايمان أيا كان! و إنما يغفر ما تقدم أصل الايمان الاستجابة: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ‏ و يغفر بعض ما تأخر لذلك الأصل، و لأنه من أكبر الحسنات‏ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ‏ ثم يغفر سيئات بمكفرات أخرى بعد الايمان الاستجابة:

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً أم ماذا!.

... وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ‏ على ضوء الاستجابة الايمان و هي درجات، فغفران بعض الذنوب و إجارة العذاب أيضا درجات بدرجات دونما فوضى اللّاحساب، و إنما بحساب عدل ثم فضل‏ يا قَوْمَنا أَجِيبُوا:

وَ مَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ»! وَ مَنْ لا يُجِبْ‏، و هو يعرف أنه داعي اللّه، فقد ترك إجابة اللّه، و التارك إجابة اللّه‏ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ‏: لا يعجز اللّه في أرضه و لا دعوة اللّه و لا داعي اللّه: لا رسولا و لا كتابا لا في أرضه، فكيف إذا في سماءه؟: وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (29: 22).

و إنما يعجز و يظلم نفسه أن ترك الداعية، و عرض نفسه لشفا جرف هار فانهار به في نار جهنم‏ «وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ»: يشفعون له، أو يحولون بينه و بين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 72

بأس اللّه‏ أُولئِكَ‏ الحماقى البله عائشون حياتهم‏ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ‏ ف (في) إيحاء لطيف لغرقهم بضلال، مهما مشوا في دلال و كأنهم على هدى، يحسبون المجيبين لداعي اللّه في ضلال!.

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى‏ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى‏ بَلى‏ إِنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ.

إن حماقى الطغيان قد يرون ترك اللّه لهم يوم الدنيا إعجازا في الأرض فعجزا له عن عذابهم، ثم و لا يقدر أن يحيي الموتى للجزاء رغم وعده، و لكنهم‏ «أَ وَ لَمْ يَرَوْا» مع ما يرون من آثار قدرته و سلطانه‏ «أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ» كما هم معترفون: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» (31: 25): ثم‏ «وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ»- «أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ» (50: 15) فالخلق الأول هو في الاولى، و الثاني هو الإعادة خلقا في الاخرى- و العي بالأمر هو العجز بسببه بعد وقوعه أو مصاحبا عجزا معرفيا أو في القدرة، فالذي لم يعي بخلق السماوات و الأرض، فهل يعيى أن يحيي الموتى، و قد أحياكم و لم تكونوا شيئا مذكورا! أو لم يروا أنه‏ بِقادِرٍ عَلى‏ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى‏ و هو أهون عليه و أدنى:

لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ (40: 57) (بلى) إنهم رأوا و هم ناكرون‏ بَلى‏ إِنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ من هذا و ذاك‏ قَدِيرٌ.

إن نفي العيّ بالخلق هنا تعريض بنكران المشركين: كيف و انه خالق الكون، عاجز عن إحياء الموتى؟ و كذلك بما تسرّب في التورات من هذه الأساطير الواهية: أنه تعالى استراح في اليوم السابع من خلقه، كأنه عيي بخلقه و لغب: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ‏ (50: 38).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 73

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى‏ وَ رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ‏.

عرض لهم على النار في الاخرى لتشتريهم، كما شروا أنفسهم بموجباتها في الاولى، ثم تعريض بكلمة لاذعة: «أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ» ثم تحويل لهم إلى النار و بئس القرار: فهم إذا في ثالوث العذاب جزاء من ربك عذابا وفاقا، كما كانوا في الاولى يعرضون أنفسهم على نيران الشهوات، و يعرضون عن الموعظات تعريضا بتفكهات، و يذيقون أهل الحق بمختلف العذاب: نفسيا و جسدانيا، فيوم العرض يجمع لهم بين رؤية العذاب- و هو حقيقة أعمالهم- و بين واقعه: يتوسطها سؤال قارع نفوسهم، عذابا فوق العذاب، ثم جواب يلوي أعناقهم و يلدغ أعماقهم: «قالُوا بَلى‏ وَ رَبِّنا»! بكل مذلة و ارتياع، يحلفون بربهم الذي كانوا به يكفرون، إن عذابه هو الحق الذي كانوا ينكرون، و هنا لك الجواب مع انتهاء الحوار البوار: أن وقع الحق و بطل ما كنتم تهرئون و اليه تهرعون: «فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ».

هذه نهاية الحجة الدامغة القارعة على الذين كفروا، بعرض البراهين كلها و لحد كأنهم يشهدون مشهد العرض يوم العرض، و من ثم تصبير للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تسكين لخاطره الشريف عما يلقاه من أذيات، تصبرا في سبيل الدعوة على عزم كما صبر اولوا العزم:

فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ‏ ألا يا أيها الرسول! إنه لطريق شاق مرير، فيه دماء تسيل من أشلاء تفرش فيه ألوان الأذيات و الحرمانات، و فيه ما لا يتصبر عليه إلا أولوا العزم الراسخ و بعون اللّه «فاصبر»:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 74

صبرا يصمدك في وجه الطغيان، صبرا يقدمك في اجتياز تلك العقبات، فانظر إلى سيرة أولي العزم من الرسل ماذا تحملوا من المشاق و العقوبات‏ «فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ»: و لقد صبر كما أمر على مكروهها و محبوبها «1».

و ترى من هم أولوا العزم من الرسل؟ من الواضح أنهم أفضلهم قبل أن نعرف معنى عزمهم، لمكان «من»: فهم بعضهم، و أن خاتمهم- و هو أفضلهم أجمع- لا يؤمر إلا بتصبر البعض الأفضل، بل و أفضل منهم، و لأنه يحمل أفضل الشرائع و أعظمها و أعزمها.

ثم العزم هو الثبات و الجد و الفرض و الصبر و الحزم: أن سبقوا الأنبياء في إقرارهم باللّه، و ثباتهم دون تفلت في الدعوة إلى اللّه‏ «2»، و حزمهم في سبيل الدعوة إلى اللّه، و عموم شرعتهم إلى عباد اللّه‏ «3» و استقلالها عمن مضى من يوم، لقاء اللّه فبقاء شريعتهم و عزمها حتى يأتي ولي عزم آخر من اللّه أم إلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 45- اخرج ابن أبي حاتم و الديلمي عن عائشة قالت: ظل رسول اللّه (ص) صائما ثم طوى ثم ظل صائما ثم طوى ثم ظل صائما قال: يا عائشة! ان الدنيا لا تنبغي لمحمد و لا لآل محمد يا عائشة! ان اللّه لم يرض من اولي العزم من الرسل الا بالصبر على مكروهها و الصبر على محبوبها ثم لم يرض مني الا ان يكلفني ما كلفهم فقال: فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل- و اني و اللّه لأصبرن كما صبروا جهدي و لا قوة إلا باللّه.

(2)

بحار الأنوار ج 11 ص 33 ج 30 عن الامام الصادق (ع) في معنى أولي العزم «أي انهم سبقوا الأنبياء الى الإقرار بالله و أقروا بكل نبي كان قبلهم و بعدهم و عزموا على الصبر مع التكذيب لهم و الأذى».

(3)

المصدر ج 25 عن الامام الصادق (ع) «بعثوا الى شرق الأرض و غربها» «و جنها و أنسها» كما في ج 61 ص 56.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 75

أنبياء اللّه‏ «1».

فهم إذا أصحاب عزم في طاعة اللّه ثباتا على عهده، لا كآدم (ع): «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» (20: 115): في عهدنا إليه ألا يطيع الشيطان: «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏» (20: 131).

و أصحاب عزم في الدعوة إليه، لا مثل ذا النون: «إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى‏ فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» (21: 87): من المنتقصين في الدعوة!.

ثم و أصحاب عزم في شعاع الدعوة أن تشمل المكلفين أجمع دون تفلت أحد فانه خلاف العزم الشامل! و عزم في أصل الدعوة استقلالا عمن سبق، و عزم في بقاء الدعوة لفترة طالت أم قصرت ثم تنسخ أم إلى يوم القيامة، و في صيغة واحدة: عزم في كل ما تتطلبه الدعوة و الداعية و المدعو إليهم، في مثلث حازم عازم صارم!.

و لقد دلت آيات، و من ثم روايات أنهم سادة النبيين و المرسلين: من دارت عليهم الرحى:

«نوح و ابراهيم و موسى و عيسى و محمد (صلى الله عليه و آله و سلم)» «2»

:\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2)

اصول الكافي باسناده عن سماعة بن مهران قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (ع) في قول اللّه عز و جل: فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل: فقال: نوح و ابراهيم و موسى و عيسى و محمد (ص) قلت: كيف صاروا أولوا العزم؟ قال: لأن نوحا بعث بكتاب و شريعة، و كل من جاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح و شريعته و منهاجه حتى جاء ابراهيم بالصحف، و بعزيمة ترك كتاب نوح لا كفرا به، فكل نبي جاء بعد ابراهيم أخذ بشريعته و منهاجه و بالصحف حتى جاء موسى بالتوراة و شريعته و منهاجه و بعزيمة ترك الصحف، فكل نبي جاء بعد موسى أخذ بالتوراة و شريعته و منهاجه حتى جاء المسيح (ع) بالإنجيل، و بعزيمة ترك شريعة موسى و منهاجه، فكل نبي جاء بعد المسيح أخذ بشريعته و منهاجه حتى جاء محمد (ص) فجاء بالقرآن و بشريعته و منهاجه، فحلاله حلال الى يوم القيامة و حرامه حرام الى يوم القيامة فهؤلاء أولوا العزم من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 76

الذين أخذ اللّه عليهم خصوص العهد بعد عمومه: «وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً. لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً» (32: 8).

و الذين شرع لهم من الدين دون سواهم: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» (42: 15).

ثم و «محمد- صلى الله عليه و آله و سلم-» آخرهم مبعثا و أو لهم ميثاقا، فبعثه إلى أرواحهم في الروح كما توحي آية الميثاق: «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ: أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى‏ ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» (3: 81) فهو رسول مصدق لما معكم: «النبيين» جاءكم في الروح قبل مجيئه بسواه: جاءكم رسولا فأنتم كأمته: لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ‏! و لم يؤمر أي نبي أن يؤمن بآخر و ان كان أفضل منه، و هو من أولي العزم- إلا تصديقا بسواه و ان كان أدنى منه- اللهم إلا إيمانا بعد تصديق بخاتم المرسلين‏ «1». لذلك تقدمه في ميثاق النبوة آية الميثاق الأخرى: وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ .. رغم تأخره في البعثة! و تفرده آية الشرعة ب الَّذِي أَوْحَيْنا دون تعميم ب (ما أوصى) كأن شرعته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الرسل. و مثله في عيون أخبار الرضا عنه (ع) بزيادة: و هم أفضل الأنبياء و الرسل و شريعة محمد (ص) لا تنسخ الى يوم القيامة و لا نبي بعده الى يوم القيامة فمن ادعى بعده نبوة أو أتى بعد القرآن بكتاب فدمه مباح لكل من سمع ذلك منه.

و

الكافي باسناده عن ابن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول: سادة النبيين و المرسلين خمسة و هم أولوا العزم من الرسل و عليهم دارت الرحى: نوح و ابراهيم و موسى و عيسى و محمد صلّى اللّه عليه و على آله و على جميع الأنبياء.

(1). التفصيل الى محله في تفسير آية الميثاق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 77

فقط هي الوحي (الذي) تدور عليه الرحى دون غيرها، ايحاء بأن الشرائع كلها شرعة من‏ الَّذِي أَوْحَيْنا تحمل (ما أوصى) الى نوح و سائر الأنبياء الذين دارت عليهم الرحى، توصيات تنحو نحو الَّذِي أَوْحَيْنا فما تقدّمها على‏ الَّذِي أَوْحَيْنا الا كتحضيرات بخطوات، تمشي بها تعبيدا لطريقها و تعويدا عليها.

فهي هي كلها و زيادات: نسخا لشي‏ء من أحكامها الموقتة، و استمرارية التكملة لها كلها لحد لا تنسخ إلى يوم لقاء اللّه، مشعّة وضاءة على قلوب و أفكار العالمين: «1»: «وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ» (5: 48) هيمنته الإمام على المأمومين، و كما اللّه مهيمن على العالمين: الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ (59: 22).

من هذا المثلث البارع في براعة الرسول نعرف أن عزمه أعزم من عزمهم، و أعظم، كما شرعته أعظم من شرعتهم و أعزم، فلا يعني التشبيه: «كَما صَبَرَ» إلا أصل المشابهة، لا المساواة في عزمهم، فإن لكل داعية و دعوة عزما يناسبها «فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ» و من فروعه:

وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ‏: العذاب رغم ما يستعجلون. «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ» إذا هم من أجداثهم إلى ربهم يحشرون‏ كَأَنَّهُمْ‏ ... لَمْ يَلْبَثُوا: في الحياة الدنيا و في البرزخ‏ إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ إذ يستقلون الأولى- مهما كانت طويلة- يجنب الأخرى‏ «2»: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

اصول الكافي باب الشرايع علي بن ابراهيم باسناده عن أبي عبد الله (ع) قال: ان الله تبارك و تعالى أعطى محمدا (ص) شرايع نوح و ابراهيم و موسى و عيسى .. و فضله بفاتحة الكتاب و بخواتيم سورة البقرة و المفصل.

(2) راجع ج 30 من الفرقان ص 103 حول الآية «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 78

(10: 45) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ. وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى‏ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (30: 56) فمهما كان لبثهم قليلا فليس ساعة من نهار و إنما لبث إلى يوم البعث برزخا و قبله، فهو قلة ليست كتلك القلة: ساعَةً و إنما بجنب الأخرى! (فما بين الأولى و الأخرى إلا غمضة عين) «1» فاغمض عينك في الأولى عما تهوى حتى تقر في الأخرى فيما تهوى- و ذلك:

بَلاغٌ‏ للناس أجمعين، و للناكرين‏ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ‏:

الخارجون عن طاعة اللّه، بما خرجوا عن حكم العقل و الفطرة، إذا فليبصر الداعية، و ليصمد في الدعوة، فما هي إلا حياة خاطفة أياما قلائل تنقضي فيعذبون بها طويلا فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً ثم و تنعم أنت و المؤمنون طويلا!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

روضة الواعظين للشيخ ابن القتال: قيل للنبي (ص) كم ما بين الدنيا و الآخرة؟ قال:

غمضة عين، قال اللّه عز و جل: كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 79

(سورة محمد- مدنية- و آياتها ثمان و ثلاثون)

[سورة محمد (47): الآيات 1 الى 15]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (1) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى‏ مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بالَهُمْ (2) ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ (3) فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (4)

سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بالَهُمْ (5) وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (6) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (7) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (8) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (9)

أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكافِرِينَ أَمْثالُها (10) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى‏ لَهُمْ (11) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (12) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ (13) أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (14)

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَ أَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَ أَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَ لَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ (15)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 81

إنها سورة «محمد» إذ تفتتح بفرض الإيمان به كشرط أصيل للإيمان باللّه و العمل الصالح، و إلا: ف- «أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ» و هي أيضا سورة «القتال» إذ تحمل لفظة القتال: «وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ» و علها تعنيها، و كما تحمل معناه:

«فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ» و هي- أخيرا- سورة: «الَّذِينَ كَفَرُوا» فإنها الآية البادية لها «1». فهي إذا سورة: محمد- القتال: الذين كفروا- تبرز محمدا (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) كمقاتل مقدم يقود حزب اللّه في حرب أعداء اللّه!.

هذه السورة تحمل سيرة المؤمنين و الذين كفروا في الدنيا و مصيرتهم في الاخرى بما تصف من أعمالهم، ففريق في الجنة و فريق في السعير و لا يظلمون من نفير:

الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ‏.

«الَّذِينَ كَفَرُوا» هم «و صدوا» أنفسهم و غيرهم‏ «عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أن سدوا هذه السبيل عن عباد اللّه، فصدوهم عن سبيل اللّه: منعا للناس عن الاتصال برسول اللّه، و تضليلا للواصلين كيلا يواصلوا سيرهم إلى اللّه، أو يرجعوا فيكفروا كما هم كفروا فيكونوا سواء في الكفر باللّه، و هم يأملون النجاح بما يعملون‏ «2» اهتداء إلى بغيتهم في ضلالهم و في إضلال عباد اللّه- هؤلاء: أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ‏:

أَضَلَ‏ اللّه‏ أَعْمالَهُمْ‏ بما أضل كفرهم و صدهم عن سبيل اللّه‏ «3» فأعمالهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في كتاب ثواب الأعمال باسناده الى أبي عبد اللّه (ع) قال: من قرء سورة «الَّذِينَ كَفَرُوا»

و في الدر المنثور 6: 46 عن عبد اللّه بن الزبير قال نزلت بالمدينة سورة «الَّذِينَ كَفَرُوا» و فيه عن ابن عباس روايتان: أنزلت سورة القتال بالمدينة .. سورة محمد ..»

(2) فالكفر و الصد عن سبيل اللّه يحملان أملا هادفا، ثم الضلال يعني قطع هذا الأمل عن هكذا عمل.

(3) ما أجمله الجمع بين فاعلين ل «أضل» هما: اللّه و كفرهم و صدهم عن سبيل اللّه، فان اللّه لا يزيغ الا من زاغوا «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ».

(الفرقان- م 6)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 82

في كفرهم و صدهم لا تهتدي إلى آمالهم، فهم مع اعمالهم و آمالهم هواء هباء، لا ينتهون و تنتهي إلا إلى حبط و ضياع، فاللّه تعالى منهم براء وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ (2: 213) وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (2: 264).

فالذي ينوي صالحا و يعمل صالحا فيأمل بينهما صالحا فاللّه يهديه إلى ما يأمل في أولاه أم أخراه، و أما من ينوي صالحا و يعمل غير صالح، فقد يهديه بنيته او يضله بعمله فمرجى أمره إلى اللّه و لا سيما الجاهل بمرضاة اللّه قاصرا غير مقصر، و اما «الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أَضَلَ‏ كفرهم‏ أَعْمالَهُمْ‏ و أضل اللّه بها، فلا يهتدون في اعمالهم و آمالهم سبيلا إلا سبيل جهنم و أولئك هم وقود النار.

و لقد صدق قول اللّه للذين كفروا و صدوا من مشركي مكة في دنياهم قبل أخراهم بفتح مكة!.

و إن كان‏ «الَّذِينَ كَفَرُوا» يعمهم و أضرابهم أيا كانوا و أنى و أين؟ فانما هو الكفر و الصد عن سبيل اللّه. من غابرين أو من يستقبل أو حاضرين، و كما نلمسه على طول الخط إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً.

و كما أن الكفر و الصد عن سبيل اللّه دركات، كذلك ضلال الأعمال دركات فالذي يكفر مستضعفا فيصد بكفره- دون قصد- آخرين من أمثاله، فضلال أعماله ضعيف كضعفه، و الذي يستكبر و يستضعف، و يصد- هادفا- عن سبيل اللّه بشتى المحاولات، و الدعايات؟ فضلال أعماله أضعاف، و بينهما متوسطات.

كما و ان ضلال اعمالهم لا تختص بكفرهم و صدهم، بل و الصالحات التي تصدر عنهم أحيانا، فانها أيضا غير صالحة فحابطة إذ لا تقوم على أساس الايمان و النية الصالحة فهي إذا فلتة عارضة، أو نزوة طارئة لأنها ليست من نبعة فائضة، فلا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 83

تجري إلى مجاري الحياة و الإنبات، و إنما غور و ممات.

ام- و لا أقل- هي حابطة في الأخرى، مهما كانت ناتجة ناجحة في الأولى:

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ‏ (11: 16) .. هذه صالحاتهم فكيف بطالحاتهم؟!.

إذا فالكافرون الصادون عن سبيل اللّه هم في مثلث أعمالهم ضالون فلا يهتدون سبيلا «1». و أما المؤمنون:

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى‏ مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بالَهُمْ‏ مثلث الصالحات قبال ثالوث الطالحات يستوجب من اللّه رحمات: فلا فحسب أن اللّه يهدي أعمال الذين آمنوا و عملوا الصالحات في صالحاتهم، بل و في تكفير سيئاتهم، و لحدّ قد يبد لها حسنات، ثم و يصلح بالهم: شأنهم و قلبهم و حالهم، إذا فهم في مثلث الهداية، بينما اللّه يضل أعمال الذين كفروا و صدوا عن سبيل اللّه: يضلها طالحات و صالحات و يضل بالهم بما ضلوا: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» فهم إذا في ثالوث الضلالة.!

و ترى ما هو إيمانهم الأوّل قبل الصالحات، و ما هو الثاني بعدها؟ «وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ»! أ فلم تكن الصالحات مع ايمانها حقا من ربهم؟

علّ الإيمان الأوّل يشمل الثاني بدليل الصالحات و اطلاق الايمان، فهو الايمان بما يتوجب، المؤهل للأعمال الناتجة عنه أن تكون صالحات، فليشمل الايمان بمحمد و بما نزل على محمد، و لكن النازل على محمد يحتمل القمة العالية في الايمان،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 1- في عمر الكفر و الصد 2- و في اعمال الخير التي لا تهدف مرضاة اللّه 3- و في سائر الأعمال التي ليست صدا و لا خيرا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 84

ففيه الايمان بسواه و زيادة، و فيه ما يستحكم عرى الايمان، فكأنه‏ «هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» لا سواه، فهو هو الايمان الحق من ربهم لا سواه، و هو النازل من ربهم حقا، فالكافر بما نزل على محمد، الناكر له، إنه كافر أيا كان، موحدا ام كتابيا أو مؤمنا بمحمد كافرا بما نزل عليه، فما لم يؤمن بما نزل عليه و أصله قرآنه المتين فليس من المؤمنين، «هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ»: ما نزل على محمد و الايمان به‏ «1»: حق النزول و حق الايمان، فما سواهما من النازل و الايمان به، كأنه في جنبه لا يحسب له حساب، و لأنه في ضمنه فلا يستقل عنه.

ثم «و ما نزل على محمد» منه الأصل كوحي الكتاب و هو الثقل الأكبر، و منه الفرع كوحي السنة و هو الثقل الأصغر، يحملها صحيحا فيمن يحملون عترة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم)، و قد نزل على محمد في وحي الكتاب: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ» (4: 80) و عشرات أمثالها، ف «ما نزل» إذا يعم عامة الوحي: كتاب اللّه و سنة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

و هؤلاء الأماجد: «كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ» التي كانت قبل الإيمان بالإيمان:

«قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ» (8: 38) و التي تحصل بعد الايمان به و بالصالحات: «إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ» (11: 114) ثم‏ «وَ أَصْلَحَ بالَهُمْ»:

و إصلاح البال يشمل بال الحال أية حال: شأنا و قلبا و عقلا و لبا و علما و ايمانا- و على أية حال: دنيا و عقبى، فيلقي على الروح ظلال الطمأنينة، و من إصلاح البال تكملة الايمان، بما آمنوا و عملوا الصالحات، و بالتوبة، فاستزادة من حسنات و تكفير لسيئات و لحد تبديلها بحسنات: «إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً» (25: 70)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «وَ هُوَ الْحَقُّ» كما يعني النازل من ربهم، كذلك الايمان بالنازل من ربهم فهما إذا معنيان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 85

تبديلا بما تابوا فلا يأتوا بعد إلا بحسنات، فيثابون كذلك أن تبدل سيئاتهم فيما مضى بحسنات، و من أقله تكفيرها.

ثم و ليست هذه و تلك فوضى جزاف، بل بأسباب من هؤلاء و هؤلاء استحقوا بها هذه و تلك:

ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ‏.

فاتّباع الباطل يتبع العمل الحابط الباطل، ضلال تلو ضلال، كما اتباع الحق يتبع العمل الحق و صلاح البال، ثم و ليس عرض الكفار بأعمالهم و آمالهم فضلالهم، و لا عرض المؤمنين بصالحاتهم فتكفير سيئاتهم و إصلاح بالهم، ليس إلا مثلا يضرب به لكتلة الحق و الباطل أيا كانوا، ليضرب في أعماق الحياة، بين الذين آمنوا مع بعض، و بين الذين كفروا مع بعض، كما بين الذين كفروا و صدوا، و الذين آمنوا و عملوا الصالحات، و لا يختص حكم الحبط بالكافر الصاد، مهما كان أحبط من الكافر غير الصاد، كما و لا يختص بالكافر، فيشمل المؤمن المرائي ام من ذا، بسائر هؤلاء الذين تحبط اعمالهم، دنيا و عقبى، كلا أو بعضا، كما لا يختص تكفير السيئات و إصلاح البال بالمؤمنين الكاملين، و انما لهم الأكمل، «وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ» السورة، «كذلك» الضابطة العامة مع كونها حقا واقعا «يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ» فهو مثل يقاس عليه كل من اتبع الحق أو الباطل، كهذا المثل ام سواه في مختلف درجات الايمان و دركات الكفر، او الفسوق و الاعتدال.

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 86

.. و إذ عرفتم موقفكم من الايمان، و كيف أن اللّه يصلحكم و يهديكم دون الكافرين الذين لا مولى لهم:

«فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا» في معركة الشرف و الكرامة: حرب الدفاع، و الوقاية، او إزالة العقبات عن سبيل اللّه، و بعد الايعاظ إليهم، و الإحتجاج عليهم: ببالغ الحجة و واضح المهجة، فلم يتعظوا، و استمروا في غيهم و بغيهم- إذا: «ف» لا عليكم إلا «ضرب الرقاب» رقاب رقبات الشر و رغبات الكفر و الإلحاد، و إنما «الرقاب» و ليس الرؤوس؟ لأنهم غربت عقولهم و جمدت أدمغتهم لحد كأنهم لا رؤوس لهم كإنسان مهما كبرت رؤوسهم في الطغيان:

«فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ» (8: 12) فعند لقاء هؤلاء الحماقى فاضربوا «ضرب الرقاب» لا فحسب ضرب الأطراف الأخرى التي تشل و لا تقتل، و إنما حسما لمواد الفساد السامة للمجتمع لا عليكم إلا «ضرب الرقاب» و لحد الإثخان:

«حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ» و الإثخان هو القتل الضريع الشديد الكثير الذي تتحطم به قوة العدو بحيث لم يبق له رمق الهجوم و لا الدفاع و لا الفرار، فليس القصد إلا تهاوي قواهم الشريرة الضارية و كسر شوكتهم حتى لا يقوم لهم ساق و لا قائمة تقوم بالصد عن سبيل اللّه أو الهجوم على حرمات اللّه، فمن ثم يأتي دور أسرهم بشد الوثاق، فيمن تبقى: شدهم في أسرهم أمنا عن الانفلات، و هيمنة على الأمن.

فلا وثاق للعدو الضاري و لا شدّ فيه حتى الإثخان إذ الغاية ليس هو الأسر، ثم منّ او فداء، و إنما هي إزالة القوة المعتدية عن ساحة الإسلام. «ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى‏ حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ» (8: 68).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 87

و لا تدافع بين الآيتين رغم ما قيل، فآية الأنفال تنهى عن الأسر قبل الإثخان، و هذه تأمر بالأسر بعد الإثخان، و لقد نقم بعض الطامعين الطامحين رسول الهدى لماذا لا يكون له اسرى ننتفع بها قبل أن يثخن في الأرض، فتقل الأسرى و بعد ما نخسر من قتلانا بغية الإثخان، فجاء الجواب الناقم الحاسم: «وَ ما كانَ لِنَبِيٍّ ..» فحروب الأنبياء لا تعني غنائم الأموال و النفوس و تفتّح البلاد، و إنما تفتح القلوب او دفع الأخطار عن ساحة الإسلام، و إنما شوكة الإيمان و نهكة الكفر، لا استغلالها لتجارة الغنائم و الأسرى، و لمن يخسرون المعارك لصالح الكفار، الذين يهاجمونهم قبل انتهاك قواهم فيقتلونهم و يرجعون أسراهم، فهذه انتفاضة خاسرة تستوجب العذاب العظيم في الدنيا و في الآخرة، و انما هي فقط:

«أن يثخن في الأرض»: «فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ» ثم ماذا بعد الإثخان و الوثاق»؟:

«فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً» و يا لها من جملة جميلة فريدة في القرآن تحمل أجمل المواجهات لأخطر الأعداء و بعد إثخانهم، عند القدرة و السيطرة الحاسمة لجنود الإسلام عليهم، فشدّ وثاقهم بأسر، أ فبعد هذا و ذاك‏ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ و بتسريحهم و تحريرهم دون مقابل، و لا بأسرى المسلمين، الذينهم في أيديهم و طبعا معذبون؟

اجل! و لكي يستفيقوا من غفوتهم و غفلتهم لو كان لهم ضمير، فيهتدوا الى هدى الإسلام، التي هي البغية الاولى و الاخيرة، و إذا لا يستحقون هكذا من- و عند ما لا يؤمل خيرهم- فالشق الأخير: وَ إِمَّا فِداءً: ايّ فداء:

بتحرير مقابل من أسرى المسلمين إن كانوا «1»، أم أخذ مال، ام و لا اقل:

أخذ ميثاق وثيق ألا يرجعوا للحرب، او يتجسسوا لصالح كتلة الفساد، او

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 46- اخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن عمران بن حصين‏ ان النبي (ص) فادى رجلين من أصحابه برجلين من المشركين أسروا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 88

يضللوا المسلمين عن دينهم، و في الحق إن ذلك كله منّ من اللّه عليهم ان يداروا لهذا الحد، فيحرّروا دون قتل‏ «1» و لا فتك و لا ضرب مبرح، و لا إجاعة و لا تعطيش و لا اي من النقمات المتداولة بين المتحاربين، اللهم إلا أن يشذ شاذ فيقتل‏ «2» و طبعا: لا بجريمة القتل و الأسر، و انما لأمر مّا يستحق به القتل، كأن يتجسس، او يتحسس منه ذلك ام سواه، مما يخاف منه على كيان الإسلام او المسلمين، او يسترق- دونما حبس يحبس عنه محاولة الايمان ام ماذا، و يكلّف بيت مال المسلمين عبئا و حملا!. و انما يسترق دفعا عن طوارئ الفساد إذا تحرر، عند ما لا يطمئن فداء- و تأمينا و توطينا له على الإسلام، إذا عاش جوّه في بيت مسلم فرأى ازدهارا في كل زواياه الحيوية، و ثم إذا آمن يعتق بمختلف أسبابه، فما الرق في الإسلام أصلا اقتصاديا، او سياسة تعذيبية، او نقمة من الأسرى، و انما كياسة و نعمة و ثقافة، كآخر الأدواء لذلك الداء العضال!.

ذلك، و لكنما الأصل المعول عليه بعد إثخان الحرب هو المن أو الفداء اللهم إلا إذا بقيت الداء فتداوى ببقية الأدواء: استرقاقا أم ماذا، و أخيرا قتلا إذا لم تبق دواه إلا القتل، فآخر الدواء الكيّ! و إنما هو تفتح القلوب ما أمكن، أو صدّ الهجوم على حرمات الإسلام مهما أمكن، دون انتقام و حملة وحشية بدوافع نفسية أم ماذا، فالحرب الاسلامية في صيغة واحدة: «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» لا سواه!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر عن الحسن قال أتى الحجاج بأسارى فدفع الى ابن عمر رجلا يقتله فقال ابن عمر ليس بهذا أمرنا انما قال اللّه‏ «حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً».

(2)

كعقبة بن أبي معيط و النضر بن الحارث‏ إذ امر رسول اللّه (ص) بقتلها بعد أسرها يوم بدر كما يروى عن ابن جريج‏

، و قتل يوم احد أبا عزة الشاعر بعد اسره، و قتل بني قريظة بعد نزولهم على حكم سعد بن معاذ، و ذلك كله حكم هامشي إذا لزم الأمر، خارج عن الضابطة العامة في الأسرى «فاما منا و اما فداء».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 89

فلا يقتل الأسير «1» لكفره أو أسره، و لا يعذب و لا يجاع أو يعطش، و لا يلحق فارّ، و لا يجهز على جريح، و لا يعاقب صغير و لا كبير أو امرأة «2»، اللهم إلا إذا لزم الأمر، و في‏ «سَبِيلِ اللَّهِ»! فنصّ المن و الفداء يتضمن حكم أسرى الحرب بما هم أسرى، و سائر النصوص تتضمن حالات أخرى و إن كانت تشمل الأسرى فلا تدافع بينها لمن تدبرها حق تدبرها! و ترى أن ضرب الأعناق و من ثم شد الوثاق «فإما منا و إما فداء»- ترى إن ذلك حتى متى؟ ذلك: «حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها» فإذا وضعت فلا شد للوثاق و لا أي وثاق حتى يكون من أو فداء، اللهم من لم يمنّ أو لم يفد من المشدودين قبل وضع الأوزار، و إذ لا وثاق فلا ضرب للرقاب و أحرى!.

و أوزار الحرب هي أثقالها الأوضار، من قتالها قل أو كثر، و من أي فعالها و مخلفاتها، كأسر من جانب العدو فيقابل بشد الوثاق، أم ماذا فيعتدى عليه بمثل ما اعتدى: فإذ لا عداء و لا اعتداء فلا وثاق.

«فَإِذا لَقِيتُمُ‏ .. فَضَرْبَ الرِّقابِ‏ .. فَشُدُّوا الْوَثاقَ‏ .. حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها» كل أوزارها، فإذا لا وزر فلا حرب، و إنما صلح و صفاء، فلما ذا- بعد- استيزار بشد الوثاق أم ماذا؟

«ذلك»: البعيد الغور في سياسة الحرب الاسلامية، مما تتوجب عليكم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر- اخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير عن القاسم بن عبد الرحمن، قال: بعث النبي (ص) سرية فطلبوا رجلا فصعد شجرة فأحرقوها بالنار فلما قدموا على النبي (ص) اخبروه بذلك فتغير وجه رسول اللّه (ص) و قال: «اني لم ابعث أعذب بعذاب الله، انما بعثت بضرب الرقاب و شد الوثاق»

و

قد روى عن الحسن‏ ان رسول اللّه (ص) هكذا صنع بأسرى بدر منا أو فداء.

(2)

الدر المنثور 6: 47- اخرج عبد الرزاق عن الضحاك بن مزاحم قال‏ نهى النبي (ص) عن قتل النساء و الولدان الا من عدا منهم بالسيف.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 90

امتحانا بلوى دون امتهان، فالدنيا هي دار امتحان، و إلا ف:

«لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ» دون أن تتكلفوا القتال، انتصار الانتقام أن يهلكهم كما أهلك ممن قبلهم بعذابات من فوقهم أو من تحت أرجلهم، كآيات معجزات، لا كقاعدة عامة في الإنتصار- لا! «وَ لكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ»:

بلوى حسنة للذين آمنوا و إن كانت صعبة، و بلوى سيئة للذين كفروا، و ليس الإنتصار دائما لكتلة الحق حربيا، مهما هم منتصرون واقعيا «لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ» ثم و ليس القتلى في سبيل اللّه هلكى ضالة أعمالهم: أن قاتلوا فقتلوا فضلوا تحت التراب، أو ظلوا- لذلك- في تباب، و لا سيما إذا غلب المسلمون- بل:

«وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ»: فلا ان اللّه يضل أعمالهم دنيا أو عقبى، و لا ان القتل يضل أعمالهم، رغم أن الكافرين‏ «أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ» حين ما عملوا و بعده، و لكنهم أولاء «فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ» عاجلا و لا آجلا- بل:

سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بالَهُمْ. وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ‏ عمل واحد في سبيل اللّه، تشملهم به مثلث بارع من رحمات اللّه: هداية و إصلاح بال و دخول الجنة! و هي كلها بعد الشهادة: قُتِلُوا .. سَيَهْدِيهِمْ وَ .. و كما هداهم و أصلح بالهم و وعدهم الجنة قبل الشهادة.

و عل هدايتهم بعد الموت- اضافة إلى هدى الجنة و مزيد المعرفة- هي هدايتهم إلى أن قتلهم لم يذهب هدرا، و إنما وضاءة مشعة للايمان و المؤمنين، و لكي يهتدوا بهدي الشهادة فيقدموا دعوة الإسلام و يصبغوها بدماء الشهادة تدليلا ان أرواحهم تزهق و لا يزهق الايمان، يهديهم اللّه بعد قتلهم، إن دماءهم نبعة فوارة تفور و تثور على الكافرين لتكون كلمة اللّه هي العليا و كلمة الذين كفروا السفلى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 91

وَ يُصْلِحُ بالَهُمْ‏ بما يتبهجون في البرزخ بغفران سيئاتهم و أن ليسوا أمواتا بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (3: 171): من ثم‏ وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ في البرزخ و في القيامة- الجنة التي‏ عَرَّفَها لَهُمْ‏ منذ الدنيا بالوحي، و في البرزخ و الآخرة بشارة و واقعا في حق اليقين.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ‏ .. إن تنصروا اللّه: تنصروا إلى اللّه‏ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ (3: 52): تنصروا رسول اللّه إلى صراطه المستقيم و سبيله القويم فإلى الحياة القيمة التي خططها اللّه لصالح العباد، و تنصروا عقولكم في العقل عن اللّه، و صدوركم في الإنشراح بآيات اللّه و قلوبكم في الايمان باللّه، و ألبابكم في الحصول على عمق المعرفة باللّه، تجنيدا لكل هذه الجنود في سبيل اللّه، في معتركات الحياة بين كتل الحق و الباطل، ففلحا في الحصول على مرضات اللّه و فلجا لمن يصد عن سبيل اللّه.

ان تنصروا اللّه في الدفاع عن شريعة اللّه و الحفاظ على شعائر اللّه و دفع النسناس عن شريعة الناس: .. وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (22: 41).

فاللّه هو الذي يدفع الأشرار بالأبرار تشريعا و تكوينا، تحريضا و تأييدا، فثم إذا ما اندفعوا و حققوا نصر اللّه سماهم أنصار اللّه- أي: الأنصار إلى اللّه- و في الحق أنصار أنفسهم في الانسلاك إلى سلك اللّه: سبيل اللّه التي هي سبيل صالح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 92

الإنسان في الحياة:

فلم يستنصركم من ذل و له جنود السموات و الأرض و هو العزيز الحكيم و انما أراد ان يبلوكم أيكم أحسن عملا، و بادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران اللّه في داره رافق بهم رسله و أزارهم ملائكته و أكرم أسماعكم عن أن تسمع حسيس نار ابدا و صان أجسادهم ان تلقى لغوبا و نصبا «1».

إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ‏: دين اللّه و طريقه، و تنصروا حزب اللّه و فريقه، و من أصدق مصاديقه الجهاد في سبيل اللّه قاتلا أو مقتولا كإحدى الحسنيين: قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا .. (9: 52):

إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ‏ هكذا يَنْصُرْكُمْ‏ فيما نصرتموه‏ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ‏:

لكي تستقيموا إليه: فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ (41: 6) .. انه يثبت أقدامكم على الإيمان الجهاد حتى لا تفروا من الزحف، و لا تفلّوا عن قوة الايمان إلى ضعف، و لا تملّوا عن الحرمان و لا تفشلوا، فعلى قدر النصر يكون التثبيت و من ثم ينمو حتى الثبات على الإيمان و لو عند انفلات الروح قتالا في سبيل اللّه!

[ان الجهاد باب فتحه لخاصة أولياءه، و سوغهم كرامة منهم و نعمة ذخرها، و الجهاد لباس التقوى و درع اللّه الحصينة، و جنته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه اللّه ثوب الذلة و شمله البلاء، و فارق الرجاء، و ضرب على قلبه بالإسهاب و ديث بالصغار و القماءة، و سيم الخسف، و منع النصف، و ازيل فيه الحق بتضييعه الجهاد و غضب اللّه بتركه نصرته و قد قال اللّه عز و جل: إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ‏ «2»].

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي نقلا عن الامام علي عليه السلام.

(2)

المصدر عن امير المؤمنين (علي) و: الإسهاب ذهاب العقل و «ديث بالصغار»: ذلل بغير مذلل، و القماءة هو الذلة و الصغر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 93

ثم إن لتثبيت الاقدام في هذه السبيل جلوات شتى و مجالات: في معارك الكرامة و كافة معتركات الحياة: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ .. (14: 27): «إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ» (8: 12).

و هذه النصرة المطلقة من اللّه ليست إلا عند مطلق النصرة من المؤمنين باللّه:

ان يتجردوا في نفوسهم برغباتها للّه، فيتجردوا عنها و عن كل نفائسهم حفاظا على شريعة اللّه، تفدية لحياة شخصية لإقامة حياة جماهيرية على ضوء دين اللّه، أو يميتوا من هو خطر على حياة الشريعة، دونما غبش هنا و هناك و لا غش يغطي:

ان يكون الجهاد صيغة واحدة: فِي سَبِيلِ اللَّهِ‏ و

قد سئل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) عن الرجل يقاتل شجاعة، و يقاتل حمية، و يقاتل رياء، ايّ ذلك في سبيل اللّه؟

فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله‏ «1»

فلا راية في الحرب إلا راية: «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» دون اية رايات أخرى من حميات و شجاعات و سائر الرغبات.

و ترى كيف ان تثبيت الأقدام يتلو النصر هنا و ما النصر إلا به: أن تثبت على المحنة و البلاء حتى تنتصر فكيف يتأخر هنا عن النصر؟ أقول: هناك تثبيت أول هو من أداة النصر ان يثبت على المحنة و البلاء، و آخر هو أن يثبت على النصر و النعماء لكي لا ينتصر ببطرهم و زهوهم الأعداء، فكثير هؤلاء الذين ينتصرون، ثم و كثير منهم يخسرون إذ لا يثبتون على شروطات النصر، و قليل هؤلاء الذين يثبتون فيكسرون شوكة العدو على طول الخط دونما رجعة.

إذا فالنصر الدائب يعيش بين ثباتين اثنين، ثانيهما الأهم فانه اداة استمرارية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أخرجه الشيخان و ابو داود و الترمذي و النسائي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 94

النصر و إنتاجه، فليست بداية النصر هي نهاية المعركة، و انما دوامه الذي يكلف من الثبات اكثر و اكثر، فلذلك يتأخر اثبات الأقدام على النصر: يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ‏!.

هذه نصرة المؤمنين و هدايتهم، فكيف إذا تعسة الكافرين و ضلالتهم، و كل إنسان يعمل على شاكلته:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ‏:

فَتَعْساً لَهُمْ‏ سقوطا على وجوهم يمشون، دون قيام و انتعاش: أَ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى‏ وَجْهِهِ أَهْدى‏ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (67: 22) مثالان لمشية الكافرين و المؤمنين في الحياة، فمشية الكافر تعسا مكبا على وجهه انما هي في ضلال، و إن كانت بكل دلال و جلال.

ثم و ليس التعس هنا دعاء من اللّه و إنما إخبار أن اللّه أضل اعمالهم بما أضلها تعسهم‏ «1»، فسيرة المكب على وجهه في مشيته ليست إلا مصيرة الضلالة، فتعسهم هو السبب لضلال أعمالهم مهما كان اللّه هو المحقق لضلالهم: تركا لهم في عيّهم يعمهون، او دفعا لهم في غيهم يمرحون جزاء بما كانوا يعملون، «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» فهم و أعمالهم الى ضياع و فناء، و اللّه منهم براء:

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ‏: أحبط اللّه اعمالهم بما انحبطت بكراهتهم ما أنزل اللّه، فالضلال هناك هو الحبط هنا، مسببا عن تعسهم بما فيه كراهة ما أنزل اللّه! أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكافِرِينَ أَمْثالُها.

استفهام تنديد و تبكيت بمن لا يسير في الأرض، في تاريخ الأرض بمن عليها جغرافيا، و في جغرافيا الأرض تاريخيا، سيرا بدنيا و نظريا، ليأخذ عبرا عبر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ضمير الغائب في أضل يتحمل الرجوع الى تعسهم كما يرجع الى اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 95

هذه المصيرة الضاربة في الأرض الى أكنافها، فالسير في الأرض، في سير الأقوام المؤمنة و الكافرة، و ماذا فعل بهم و ماذا بقي لهم من آثار، ان في ذلك لعبرة لمن يخشى، و تخفيفا لبأس البؤسى الذين لا يخشون اللّه فهم في طغيانهم يعمهون:

«قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» (3: 137) «أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (22: 46).

هذه الآيات و عشرات أمثالها: انها لفتات فيها ضجات و فرقعات، مشاهد الأشلاء و الدماء من كل دمار و بوار للمكذبين قبلهم، و ليأخذوا عنها عبرا في أمثالها: «وَ لِلْكافِرِينَ أَمْثالُها» كضابطة عامة للكفار في الطول التاريخي و العرض الجغرافي، دون اختصاص بالغابرين، فلمن يستقبل و الحاضرين أمثال هذه العاقبة المدمرة، كل على شاكلته و ما ربك بظلام للعبيد!.

فالكافر- أيا كان- عاقبته التدمّر و التذمّر، فليكن الغابر امثولة و عبرة للحاضر، و قد كان بعضهم أشد منهم قوة و أكثر جمعا، فما بال الأخف الأجوف لا يخشى أمثالها؟!.

و من ثم قاعدة قائمة في الحياة للذين آمنوا و الذين كفروا، تكشف لنا اسباب الدمار لاولاء، و أسباب القرار لهؤلاء في صيغة فريدة تتردد هنا و هناك:

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى‏ لَهُمْ‏.

«بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا» في الحياة الدنيا و في الآخرة: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (40: 51) «وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى‏ لَهُمْ» في الحياة الدنيا فضلا عن الآخرة.

ترى كيف‏ «أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى‏ لَهُمْ» و لهم اولياء مهما كانوا شياطين،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 96

يزخرفون لهم دنيا الحياة، و ينصرونهم في زهرتها و بهجتها، في جمعها بثروتها، في زعامتها و رئاستها، و في كل مجالاتها، و ذلك بما جعل اللّه: «إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ» (7: 27)؟.

نقول: ولاية اللّه تعني انها تغني عمن سواه فلاحا و نجاحا في الحياة الايمانية عملا في الاولى و جزاء في الاخرى، و لا تغني ولاية غير اللّه و لا تعني إلا تأخيرا عن الحياة و مدّا في الغي و الشهوات: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ. وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ» (7: 202). و اللّه يمد أولياءه في الطاعات:

ففيما تثبت الولاية للكافرين تعنى ولاية الغي و الطغوى، و فيما تنفى فهي ولاية التقوى، فلو لم تكن لهم أية ولاية لا طغوى و لا تقوى كان أهون لهم و أنجى، فولاية الشيطان الذي يمدهم في الغي هي أنكى من ألّا يكون لهم ولي أصلا، «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» (2: 257) «وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى‏ لَهُمْ»: يخرجهم من الظلمات إلى النور، و إنما من النور إلى الظلمات مهما زخرفت لهم الحياة الدنيا فهم يعيشون ظلمات الحياة في الأولى بزلاتها و ضلالاتها، و يصلون في الأخرى سعيرا.

و ليس النصر و الولاية الموعود ان من اللّه للمؤمنين إلا نصرهم في تقدم الايمان و الثبات عليه، ان يقيموا على الايمان و يستقيموا إلى اللّه و إن زهقت أرواحهم، ثم يوم القيامة يضل الكافرون عن أولياءهم و يضلون عنهم، و المؤمنون يجدون ولاية اللّه أزهر و أظهر: أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ الْبُشْرى‏ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (10: 64).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 97

ففيما يقدم اللّه أولياءه للبلاء، او لا يحول بينهم و بين البلاء، ليس ذلك تخليا منه عن ولايتهم، و لا تخلفا لوعده لهم، و انما بلاء معه و بعده الرخاء فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً او ابتلاء بما تخلفوا- في الاولى، و لكيلا يبتلوا بالجزاء الأنكى في الأخرى، فبلاء المؤمن رخاء أو رجاء الرخاء، و نعمة الكافر نقمة و ابتلاء، و اللّه منه براء.

ذلِكَ‏: الفوز العظيم في الحياة من النصر و التأييد للمؤمنين: أن كفّر عنهم سيئاتهم و أصلح بالهم و يدخلهم الجنة عرفها لهم، و ان اللّه ينصرهم و يثبت اقدامهم: بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا: يلي أمورهم في أولادهم و أخراهم في صراطي التكوين و التشريع فالجزاء الأوفى، لأنهم دخلوا في حظيرة العبودية ايمانا و عملا صالحا، فهو هو وليهم و كفى.

و ذلِكَ‏ الكبت المهين على الكافرين أن أضل أعمالهم فتعسا و تدميرا في أولاهم، و في الأخرى النار مثوى لهم ب أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى‏ لَهُمْ‏ إلا أسماء لا تحمل مسميات: إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ (53: 23).

و ليست حياتهم في الأولى إلا حياة الأنعام و أضل سبيلا ثم في العقبى النار مثوى لهم:

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ‏.

لقد صاغ المؤمنون أنفسهم بصيغة الإنسان بالايمان و عمل الصالحات، فساقهم اللّه إلى جنات، و صاغ الكفار أنفسهم بصيغة الأنعام بالتمتع و الاكل مسامحين عن ضمائرهم و عقولهم فحاق بهم ما كانوا يكفرون، إذ يحسبون الحياة كل الحياة مائدة طعام و فرصة متاع دون أن يهدفوا وراءه ما يهدفه الإنسان، و لا تقوى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 98

في اقتناءه عما لا يباح، و ترى لماذا النار مثوى لهم وحدهم دون الأنعام و هم يتمتعون متعة الأنعام و يأكلون اكلة الأنعام؟ .. و لأن اللّه خلق الأنعام هكذا ليصلحوا أكلا للإنسان، فلو شعروا ما يشعره الإنسان لما رأيت منها سمينا، و أما الإنسان فقد خلقه للمعرفة و الطاعة، متذرعا كل ما في الحياة لإكمال نفسه و ذويه كإنسان، فإذ لا يفقه بقلبه و لا يبصر بعينه و لا يسمع باذنه فهو إذا صيغة سائغة للنار: «وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ» (7: 179): هم كالأنعام فيما يستهدفون من الحياة، و هم أضل من الأنعام إذ قصّروا هنا ثم النار مثوى لهم دون الأنعام، حيث محقوا كل سمات الانسانية و معالمها، فانسحقوا في و صمات البهيمية و مظالمها دون تعفف عن قبيح، و لا تلهف على مظلوم، فقد انضغطوا تحت وطأة الشهوة، و انهتفوا بهتاف المتعة اللذة، فأصبحوا أضل من الانعام الهيام.

و انها لهي موازنة جميلة دون مجاملة بين الإنسان الحيوان و الحيوان، هدفا في الحياة، و سيرة و مصيرة مهما اختلف الشكلان: ان الحياة الدنيا المتاع يعاملها المؤمن كمتاع يشتري به الحياة العليا، زهدا عنها، أو صرفا لها كسبيل إلى العلا، مبصرا بها ما وراءها فهي تبصره، ثم الكافر يعاملها كمتعة لا متاع، يذهب طيباته اقتناعا لمتاع الدنيا، قلبا للثمن مثمنا، مكبا على وجهه في مشيه، مبصرا إليها كنهاية المطاف فهي تعميه! يعيش حيوانا و يموت حيوانا و أحون مما كان و أهون: «وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ».

و ترى كيف ان اللّه يدخل المؤمنين العاملين جناته هنا و كأنه لا يدخل الكافرين ناره فهم الداخلون و «وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ»؟ علّ ذلك مهانة لهم أن لا ولاية للّه لهم حتى في عقابهم و هو ولي العقاب، ثم النار ليست إلا نتيجة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 99

اعمالهم عدلا، فكأنهم يدخلونها دون إدخال و بطبيعة الحال، و أما المؤمنون فيشرفون بتشريف اللّه و سلام: «سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ» (39: 73) و ان دخول الجنة لهم فضل فوق عدل، و لا سيما بمضاعفات الثواب و الكرامات!.

ثم و ليست النار المثوى لهم فقط في الأخرى، فحياتهم الدنيا كذلك كلها نار و ان أبرقت و أرعدت: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏ (20: 124) إذا النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ‏ في الأولى و الأخرى.

كما و ان جنات المؤمنين تعم الحياة الدنيا، مهما حرموا عن زهراتها و شهواتها و لهواتها، فإنهم عائشون مع اللّه، مطمئنين باللّه، راضين بمرضات اللّه، فبلاءهم في سبيل اللّه لذة، و ذلهم في مرضاة اللّه عزة، فهم في جنات دني و عقبى: لَهُمُ الْبُشْرى‏ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ:-: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (40: 51) مهما كانت جناتهم في الاخرى أعلى و اولى، كما النار للكفار في الأخرى أشد و أنكى!.

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ‏ القرية هي المجتمع، و ليست هي محله الا مجازا، و لقد أخرجته قريته:

مشركو مكة، و هو متحسر كأنه منحسر بخروجه عن قرية الدعوة: عاصمة الرسالة، فليس إخراج زعيم الدعوة عن العاصمة هينا يتحمل، الا بما يطمئن اللّه و قد طمأنه- و عله- حين إخراجه‏ «1». ان اللّه سوف يهلك الكافرين في العاصمة بما يعدك من الفتح المبين، كما و أهلك من قبلهم كقوم فرعون و عاد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فقد روي انها نزلت في الطريق بين مكة و المدينة في أثناء رحلة الإخراج و الهجرة و هي قريبة من حيث الموقع و الظرف.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 100

و ثمود، و هم أشدّ من هذه القرية «فَلا ناصِرَ لَهُمْ» هؤلاء و هؤلاء، و لا مولى لهم يلي أمرهم في كفرهم، فلا بد لهم ان يذهبوا هلكى عجالة ام إجالة، و قد هلك الكفر باهله عن مكة المكرمة فلم يبق فيها و لا مشرك واحد!.

أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ‏ ترى- و الميزان ميزان اللّه- ان الفريقين على سواء في ذلك الميزان؟ ظلما أو جهلا أو عجزا عن الموازنة العدل!. فالمؤمنون الصالحون الذينهم على بينة من ربهم: آية واضحة تدلهم إلى ربهم و على ما يتوجب لهم و جاه ربهم، آية الوحي البينة لهم بآيات معجزات، و آية العقل النابه التي تفرض عليهم تصديق البينات، و آية النصر من ربهم .. «أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ» هكذا «كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ» الذين كفروا و زين لهم الشيطان اعمالهم فضلوا عن السبيل و هم يحسبون انهم مهتدون‏ «وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ» فلم يتبعوا بينة من ربهم: عقولهم و آيات ربهم و إنما أهواءهم الهاوية، و ميولهم الغاوية، أ هما على سواء في ميزان العقل و العدل؟

انهم يختلفون حالا و بالا و منهجا و اتجاها، مهما اتفقوا في شاكلة الانسانية الظاهرة، فأولاء انعام و هؤلاء انسان!، و مهما خفيت هنا الحال فسوف تظهر هناك يوم تنقلب الأحوال:

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَ أَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَ أَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَ لَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ‏ مَثَلُ الْجَنَّةِ لا وصفها الواقع، و انما مثل من وصفها: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ (32: 17) فالجنة- و حتى الجسمانية منها- هي ارفع و أعلى من أن يستوصفها الإنسان و هو في الحياة الدنيا، اللهم الا لمن هم في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 101

الحياة العليا و هم في الدنيا، و اما المتقون ككل فلا يدركون هنا الا مثل الجنة التي وعدوا و منه: الأنهار الاربعة من الطف ما يشرب و من كل الثمرات مما يؤكل و مغفرة من ربهم و هي ارفع و أعلى فانه رضوان من اللّه: وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ.

فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ‏ آية وحيدة بين آي الأنهار في الجنة، الواصفة لمياهها ب غَيْرِ آسِنٍ‏: لا يتغير بطول المكوث، و لا نجد عندنا هكذا ماء، اللهم إلا ماء زمزم لحد ما، فهو مثل للماء غير الآسن في أنهار الجنة «1» فليست الآخرة دار تغير، و إنما هي دار خلود، و لا سيما بجناتها باهليها و رزقها، فالجنة بتمامها غير آسنة، حتى و بالنسبة للبنها، و طبيعة اللبن ان يتغير لفترة قليلة!:

«وَ أَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ»: خلاف البان الدنيا و حتى إذا عالجتها لتبقى، في ثلاجات ام ماذا، فانها تفقد البعض من خواصها و طعمها و قد تسمم! و لم يذكر اللبن في القرآن إلا هنا للأخرى و إلا أخرى للأولى: «نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خالِصاً» (16: 66) و علّه لأنه ألطف ما يشرب بعد الماء و أقربه للتغير، فإذ لا يتغير لبن الجنة فغيره أولى بعدم الغيار.

و إذا كان الماء شرابا يروي، فاللبن يطعم كما يروي، و فيه الكثير من الخواص المنبثة في مختلف الأكل.

«وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ»: انها لذة الأبدان و العقول، و ليست ذلة للعقول، فانها لا تخمر العقول و تحجبها، و إنما تخمر بقايا الجهل و الخمول عن ذكر اللّه، لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (37: 47) لا يهلك و لا ينزع العقل: «لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ» (56: 19) و لا فيها صداع الرأس،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و كما نقل الكثيرون و جربنا ان ماء زمزم لا يتغير و لو طال في مكان مكشوف طوال سنين!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 102

خلاف خمر الدنيا، فهي لا تحمل من خمر الدنيا إلا اسما «1» ثم هي‏ «لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ»:

في العقل و الروح، في المنظر و الطعم، في الجسم و الصحة: «يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ» (52: 23).

«وَ أَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى»: خالص عن كل أذى: من شمع أو رغوة أو قذى، او لذعة من نحلة أم ماذا؟ مما يوجد في عسل الدنيا مصفى و غير مصفّى،، فأين‏ «أَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى» من عسل في الدنيا الذي لا تحصل على قليل منه إلّا بكثير من تعب و أذى؟! ترى بينهما من البون لحد لا يكاد يسمى ما في الدنيا عسلا، و انما «شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ» (16: 69) ثم و لا يوجد عسل في القرآن إلا هنا للجنة «مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى»!.

و يا لها من طراوة و نضارة أن تجري هذه الأنهار الأربعة في جنة المتقين دونما انقطاع و لا عزوب:

«وَ لَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ» أنضرها و أطراها و أبقاها.

ثم و اكبر من كل ذلك: «وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ» هي جنة رضوان‏ «وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ» (57: 20) «وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (9: 27) هو أكبر من‏ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ... (9: 72).

فجنة المغفرة الرضوان هي أكبر الجنات، يكتفي بها أهل اللّه المخلصين و لو لم تكن وراءها جنات، و هم القلة القليلة من عباد اللّه، و لذلك تأتي قليلا في آيات الجنات، الكثيرة في ذكريات سائر الجنات.

كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ص 226- الفرقان حول الآية «يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ» و سورة الواقعة حول الآية «لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 103

ترى كيف تمثّل الجنة التي وعد المتقون- في استفهام انكاري هكذا- ب كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ لا بالنار؟ علّه لأن المتقين هم الجنة و الطاغون هم النار، جنة في جنة و نار في نار، أو أن استفهام التماثل هنا يعم الجنة بالنار و أهل الجنة بأهل النار، فذكرت الجنة أولا: مَثَلُ الْجَنَّةِ و لأنها من فضل اللّه، ثم أهل الجنة الْمُتَّقُونَ‏ إذ يدخلونها بفضل اللّه، فهي هي الأصل و هم الفروع، ثم ذكر أهل النار ثانيا كَمَنْ هُوَ خالِدٌ ثم النار: فِي النَّارِ لأنهم هم وقود النار و أصلها، فالنار هي الفرع!.

و ترى ما هذا الماء الحميم الذي يسقونه فيقطع أمعاءهم و لماذا يشربونه؟

إنه الحار لدرجة الحمّة القمّة في الحرارة: أن لو كان حديدا لذاب سائلا، و هو الصديد: «مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقى‏ مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ» (14: 16) يصد عنهم رمق الحياة و ما هم بأموات! و كالمهل: دردي الزيت المغلي: وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً (18: 29) فكأنهم إذ يسقون الحميم الصديد مستغيثين من العطش المهلك، يرون أنه ماء يخفف الوطئة فيشربونه، أو لا يملكون لأنفسهم عنه صرفا فيتركونه، و لو يكرهونه‏ «1» و لكنه ماء في الظاهر و بلاء في الأثر: يشوي الوجوه إذ تواجهه، و يقطع الأمعاء إذ يدخلها! و هم بعد إذ قطّع الماء أمعاءهم يبدلون أمعاء غيرها ليذوقوا العذاب و لا يُقْضى‏ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها شي‏ء: «كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها» (4: 56) و هي جلود الأرواح: الأبدان بما ظهر منها و ما بطن.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

مجمع البيان روى ابو امامة عن النبي (ص) في قوله‏ «وَ يُسْقى‏ مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ» قال:

يقرب اليه فيكرهه فإذا دنى منه شوى وجهه و وقع فروة رأسه فإذا شرب قطع امعائه حتى يخرج من دبره يقول اللّه عز و جل‏ «وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 104

[سورة محمد (47): الآيات 16 الى 32]

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (16) وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ (17) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ (18) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْواكُمْ (19) وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى‏ لَهُمْ (20)

طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ (21) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ (22) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى‏ أَبْصارَهُمْ (23) أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى‏ قُلُوبٍ أَقْفالُها (24) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى‏ أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلى‏ لَهُمْ (25)

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ (27) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (28) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ (29) وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ (30)

وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ (31) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى‏ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ (32)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 105

. جولة مع المنافقين بعد جولة الكافرين، و إذا كان أولاء في النار فهؤلاء في الدرك الأسفل من النار، بما توجه منهم الى الإسلام و المسلمين من اخطار، فاللّه يستعرض- فيما يستعرض- كيدهم و ميدهم، و لكي يحظرهم المسلمون و يحذروهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 106

فتبقى كلمة اللّه هي العليا و كلمة الذين كفروا السفلى.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ‏.

«و منهم»: من الكافرين، دون المؤمنين إذ وصفوا بأوصاف تخصهم دون المنافقين؟

«مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ» دون أن يستمعوا قولك ك «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» (39: 18) و إنما «إليك» بعيدين عنك و عن وحي الرسالة رغم انهم عندك، ف «إلى» هنا توحي بالبعد، و انهم صم في استماعهم: «وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ» (10: 42) فهم صاغون كحيوان، صما عن صوغ الإنسان! فإذا استمعوا إليك ليس إلا هزء أو تجسسا! «حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ» بعد ما استمعوا إليك‏ «قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» باستماعهم و وعيهم قولك‏ «ما ذا قالَ آنِفاً»؟: قبل حين، كأنهم لم يسمعوه رغم انهم استمعوا إليه، و إنما لم يفقهوه، ل إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ‏ (26: 212) و هم يسألون الذين أوتوا العلم (ماذا قال آنفا)؟ تعريضا اننا ما نفقه ما يقول لأنه فارغ عن أي معنى معقول، كأضرابهم: قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ (11: 91) أو تحريضا للعالمين تعنتا: لو يحمل معنى فعلمونا! و الرسول لم يسطع أن يسمعهم!: أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ‏ أو توهينا لمقال الرسول: لو كان مقالا عاليا لحفظناه إذا استمعنا اليه، لكننا نسيناه بعد حين لأنه كلام مهين، و ما حجتهم في قولتهم الخواء الا استكبارهم عن الحق و اللّه منهم براء.

أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ‏ طبع اللّه ان تركهم في طغيانهم يعمهون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 107

و في غيهم يسرحون و يمرحون، و كفى انقطاع الهداية الإلهية لاستمرار الطبع فازدياده: فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (61: 5) فطبعه- إذا- ترك هدايته!.

وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ‏ قبل أن يطبع اللّه فاستحقوا طبعا من اللّه، و بعد أن طبع اللّه فازدادوا اتباعا لأهوائهم‏ «1»، فهم يعيشون انطباع قلوبهم ما هم يتبعون أهواءهم.

و كما اتّباع الأهواء يستهوي زيادة الطبع، كذلك الاهتداء يتبع زيادة الهدى و أحرى:

وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ‏ هؤلاء الأكارم زادهم اللّه هدى بما زادهم اهتداءهم، كما آتاهم تقواهم، بما آتاهم اهتداءهم بزيادة هداهم فاهتداؤهم مادة للزيادة و اللّه فاعلها، حيث النور يجلب النور، كما النار تجلب النار، كما تقواهم مادة للزيادة و اللّه مؤتيها.

و من سنن الاهتداء و التقى التجاوب كما منها الزيادة لكلّ في نفسه، فالهدى:

العلم الايمان، و التقوى: العمل الصالح، انهما متجاوبان: كلما ازدادت الهدى زادت التقوى، و كلما ازدادت التقوى زادت الهدى، حتى يأتي دور التقوى في الاخرى إذ تبرز حقيقتها: «آتاهم» حقيقة «تقواهم».

فآيتا التقوى تشمل الأولى كحصيلة للهدى، و الأخرى كحقيقة للتقوى، هي جزاءها بنفسها، فإن تقوى اللّه عن هدى علمية ايمانية هي التي تملك العاقبة الحسنى:

«وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى‏» (20: 132) دون الهدى الخاوية عن تقوى، او التقوى الخالية عن هدى، و انما صدفة عمياء، او تقليد على الأعمى اللهم الا فضلا من ربك لو مات على هذه التقوى!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فالجملة- إذا- حالية بواو الحال: طبع اللّه على قلوبهم حال انهم اتبعوا أهواءهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 108

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ‏ ماذا ينتظرون و لكي يؤمنوا إلا الساعة و لا تأتي الا بغتة، او أشراطها فقد جاءت، فإذا جاءت الساعة التي هي واقع ذكراهم‏ «فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ»؟ «وَ جِي‏ءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى‏» اذكرى بعد إذ حلّوا في واقعها و قد مضت حياة الذكرى، اللهم الا تحسرا «يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي» (89: 24) ثم و لا تأتي الا بغتة دون امهال لمجال الذكرى قبلها.

و اما أشراطها فقد جاءت، و متى هي أشراط الساعة و متى جاءت و هل لها بقية باقية ننظرها؟

الأشراط جمع الشرط، و هو العلامة المشروط بها الشي‏ء، في امكانيته أو حتميته او قربه، فأشراط الساعة: قيامة الإماتة و الإحياء الحساب الجزاء، انها نماذج تدل عليها من ذي قبل هي أشراط امكانيتها او حتميتها او قربها، و قد جاءت في كافة صنوف البراهين! التي تثبتها في هذا المثلث البارع: انها ممكنة ثم محتومة ثم و هي قريبة، بادلة و أشراط عقلية و حسية و سمعية، فنحن- إذا- نعيش أشراط الساعة في اجواء الرسالات الإلهية بالآيات الأنفسية و الآفاقية! فمن أشراط امكانيتها إحياء عديد من الموتى طيات الزمن الرسالي تبكيتا و تسكيتا لناكري الحياة بعد الموت، كما و منها حياة أموات اخرى، نباتية و سواها: هي تترى ليل نهار «وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى‏ إِنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» (41: 39) و من آيات حتميتها علم اللّه و عدله و قدرته على جزاء الظالمين، فإذ لا يجازيهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 109

كاملة في الأولى فلا بد من حياة أخرى لتجزى كل نفس بما تسعى، و الا فربنا سبحانه و تعالى إما ظالم على علمه و قدرته، او عاجز على عدله و علمه، او جاهل على عدله و قدرته، ام ماذا مما يمس من كرامة ربوبيته! و من آيات قربها انشقاق القمر «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ. وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ..» فانشقاق القمر آية لقرب الساعة كما هو آية لنبي الساعة! كما و نبي الساعة، و على حد

قوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): «انا و الساعة كهاتين»

: سبابته و وسطاه‏ «1» و هو خاتم النبيين، و كتاب الساعة: القرآن العظيم، انها من أهم أشراط الساعة التي جاءت، و كما يسمى نبي آخر الزمان، فقد ختم زمن الرسالات الإلهية المتواصلة بنبي الساعة، كما ختم الوحي بكتاب الساعة!.

هذه الرسالة الاخيرة، التي تحمل البشارة و النذارة الاخيرة هي اضخم و أعظم هذه الأشراط، إذ تنذر بقرب الأجل المضروب، الذي لم يبق منه الا قدر الزيادة بين السبابة و الوسطى، منذ بزوغ الرسالات حتى نبي الساعة، و كما الآيات في قرب الساعة تجاوبها «2».

فهذه آيات بينات من أشراط الساعة التي جاءت الى زمن نزول آية الأشراط و من ثم أشراط اخرى الى زمننا، ثم أشراط تتبعها اعتبرت كأنها جاءت لتحقق وقوعها مستقبلا و ضمن ما جاءت ماضيا، و من التي تستقبلنا: فتح يأجوج‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير سورة القمر من هذه الموسوعة ج 27 و الحديث‏

أخرجه في الدر المنثور:

6: عن انس قال قال رسول اللّه (ص) .. و أشار بالسبابة و الوسطى.

(2): «وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هُوَ قُلْ عَسى‏ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً» (17: 51) «وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً» (33: 63) «إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً» (78: 40) «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً. وَ نَراهُ قَرِيباً» (70: 7) راجع تحقيق معنى القرب و مداه التقريبي الى الجزء 29 سورة المعارج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 110

و مأجوج: «حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا»، و علها قبل ظهور المهدي كشرط من أشراطه، كما هو من أعظم الأشراط التي تستقبل الساعة، إذ يؤسس دولة اسلامية عالمية على ضوء الكتاب و السنة الصادقة، بما تقدم هذا الشرط من أشراط اخرى و علامات، تجدها في المفصلات‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6:- اخرج ابن أبي شيبة و البخاري و مسلم و ابن ماجه و ابن مردويه عن أبي هريرة قال: كان رسول اللّه (ص) يوما بارزا للناس فأتاه رجل فقال: يا رسول اللّه (ص)! متى الساعة؟ فقال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل و لكن سأحدثك عن أشراطها: إذا ولدت الامة ربتها فذاك من أشراطها، و إذا كانت الحفاة العراء وعاء الشاة رؤس الناس فذاك من أشراطها، و إذا تطاول وعاء الغنم في البنيان فذاك من أشراطها.

و

في تفسير القمي باسناده عن عبد اللّه بن عباس قال: حججنا مع رسول اللّه (ص) حجة الوداع فأخذ بحلقة باب الكعبة ثم اقبل إلينا بوجهه فقال: الا أخبركم بأشراط الساعة؟ و كان ادنى الناس منه يومئذ سلمان رحمه اللّه فقال: بلى يا رسول اللّه (ص)! فقال: من أشراط الساعة اضاعة الصلوات و اتباع الشهوات و الميل مع الأهواء و تعظيم اصحاب المال و بيع الدين بالدنيا فعندها يذاب قلب المؤمن في جوفه كما يذاب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيع ان يغيره، قال سلمان: و ان هذا لكائن يا رسول اللّه (ص)؟ قال: اي و الذي نفسي بيده ان ان عندها يليهم أمراء جورة و وزراء فسقة و عرفاء ظلمة و أمناء خونة قال سلمان: و ان هذا لكائن يا رسول اللّه (ص)؟ قال: اي و الذي نفسي بيده- يا سلمان ان عندها يكون المنكر معروفا و المعروف منكرا و يؤتمن الخائن و يخون الأمين و يصدق الكاذب و يكذب الصادق! قال سلمان: و ان هذا لكائن يا رسول اللّه (ص)؟ قال: اي و الذي نفسي بيده، يا سلمان! فعندها تكون امارة النساء و مشاورة الإماء و قعود الصبيان على المنابر و يكون الكذب ظرفا و الزكاة مغرما و الفي‏ء مغنما و يجفو الرجل والديه و يبر صديقه و يطلع الكوكب المذنب- قال سلمان:

و ان هذا لكائن يا رسول اللّه؟ قال: اي و الذي نفسي بيده يا سلمان! و عندها تشارك المرأة زوجها في التجارة و يكون المطر قيظا و يغيظ الكرام غيظا و يحتقر الرجل المعسر، فعندها تقارب الأسواق إذا قال هذا لم أبع شيئا و قال هذا لم اربح شيئا فلا ترى إلا ذاما للّه- قال سلمان:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 111

فهذه و تلك من علامات الساعة و أشراطها، التي تناسبها امكانية و تحققا و قربا فلها صلات الدلالة كأدلة براهين، و الا فما هو دور أشراط لا ترتبط بصلات عقلية ام واقعية بالساعة، اللهم إلا ادعاءات لا يقبلها و يصدقها الناكرون.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و ان هذا لكائن يا رسول اللّه (ص)؟ قال: اي و الذي نفسي بيده فعندها يليهم أقوام ان تكلموا قتلوهم و ان سكتوا استباحوهم ليستأثروا بفيئهم و ليطأن حرمتهم، و ليسفكن دماءهم، و لتملئن قلوبهم غلا و رعبا فلا تراهم إلا وجلين خائفين مرهوبين قال سلمان: و ان هذا لكائن يا رسول اللّه (ص)؟ قال: اي و الذي نفسي بيده يا سلمان! ان عندها يؤتى بشي‏ء من المشرق و شي‏ء من المغرب يلون امتي فالويل لضعفاء امتي منهم و الويل لهم من اللّه لا يرحمون صغيرا و لا يوقرون كبيرا و لا يخافون من مسي‏ء، جثتهم جثة الآدميين و قلوبهم قلوب الشياطين- قال سلمان: و ان هذا لكائن يا رسول اللّه (ص)؟ قال: اي و الذي نفسي بيده يا سلمان! و عندها يكتفي الرجال بالرجال و النساء بالنساء و يغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أهلها و تشبه الرجال بالنساء و النساء بالرجال و يركبن ذوات الفروج السروج فعليهن من امتي لعنة اللّه- قال سلمان: و ان هذا لكائن يا رسول اللّه (ص)؟ فقال: اي و الذي نفسي بيده ان عندها تزخرف المساجد كما تزخرف البيع و الكنائس، و تحلى المصاحف و تطول المنارات و تكثر الصفوف و القلوب متباغضة، و السنن مختلفة- قال سلمان: و ان هذا لكائن يا رسول اللّه (ص)؟ قال:

اي و الذي نفسي بيده يا سلمان! و عندها تحلى ذكور امتي بالذهب و يلبس الحرير و الديباج، و يتخذون جلود النمور صفاقا- قال سلمان: و ان هذا لكائن يا رسول اللّه (ص)؟ قال: اي و الذي نفسي بيده يا سلمان! و عندها يظهر الزنا و يتعاملون بالغيبة و الرشى و يوضع الدين و ترفع الدنيا- قال سلمان: و ان هذا لكائن يا رسول اللّه (ص)؟ قال: اي و الذي نفسي بيده يا سلمان! و عندها يكثر الطلاق فلا يقام لله حد و لن يضروا اللّه شيئا- قال سلمان: و ان هذا لكائن يا رسول اللّه (ص)؟ قال: اي و الذي نفسي بيده يا سلمان! و عندها تظهر القينات و المعازف و يليهم اشرار امتي- قال سلمان: و ان هذا لكائن يا رسول اللّه (ص)؟ قال: اي و الذي نفسي بيده و عندها يحج أغنياء امتي للنزهة و يحج أوساطها للتجارة و يحج فقراءهم للرياء و السمعة، فعندها يكون أقوام يتعلمون القرآن لغير اللّه و يتخذونه مزامير و يكون أقوام يتعلمون لغير اللّه و تكثر أولاد الزنا و يتغنون بالقرآن و يتهافتون بالدنيا- قال سلمان: و ان هذا لكائن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 112

إذا فحماقى الطغيان ماذا ينظرون؟ «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً»؟ و لنفرض انها أتتهم فما ذا يستفيدون! أ يستفيقون من غفوتهم؟ «فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ» بواقعه و هم ناكروه قبل واقعه! فان ذكر الساعة قبلها بأشراطها هي التي تفيدهم، دون ذكراها بنفسها إذا أتت‏ «فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ»؟ فلات حين ذكرى مناص و خلاص، و انما ذكرى تباب و عقاب.

ام ينظرون قبلها دلالالتها الأشراط، «فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها» التي لا قبل لها فلما ذا لا يؤمنون؟!.

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْواكُمْ‏:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يا رسول اللّه (ص)؟ قال: اي و الذي نفسي بيده يا سلمان! ذاك إذا انتهكت المحارم و اكتسبت المآثم و تسلط الأشرار على الأخيار و يفشو الكذب و تظهر اللجاجة و تفشو الفاقة و يتباهون في اللباس و يمطرون في غير أوان المطر و يستحسنون الكوبة و المعازف و ينكرون الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر حتى يكون المؤمن في ذلك الزمان أذل من الامة و يظهر قراءهم و عبادهم فيما بينهم التلاوم فأولئك يدعون في ملكوت السماوات الارجاس الأنجاس- قال سلمان: و ان هذا لكائن يا رسول اللّه (ص)؟ قال: اي و الذي نفسي بيده يا سلمان! فعندها لا يخشى الغني على الفقير حتى ان السائل يسئل فيما بين الجمعتين لا يصيب أحدا يضع في كفه شيئا- قال سلمان:

و ان هذا لكائن يا رسول اللّه (ص)؟ فقال: اي و الذي نفسي بيده يا سلمان! فعندها يتكلم الرويبضة- فقال سلمان: و ما الرويبضة يا رسول اللّه (ص) فداك أبي و امي؟ قال (ص):

يتكلم في امر العامة من لم يكن يتكلم (الرويبضة لا معنى لها في اللغة، و لذلك لم يفسرها الرسول (ص) الا بعنوان عام «يتكلم في امر العامة من لم يكن يتكلم» او الذي لا يحق له التدخل في امر الشعب، و قد تكون «رضا بهلوي» باختلاف ترتيب حروفها.) فلم يلبثوا الا قليلا حتى تخور الأرض خورة فلا يظن كل قوم الا انها خارت في ناحيتهم فيمكثون ما شاء اللّه ثم ينكتون في مكثهم فتلقى لهم الأرض أفلاذ كبدها- قال: ذهب و فضة، ثم أومى بيده الى الأساطين فقال: مثل هذا، فيومئذ لا ينفع ذهب و لا فضة فهذا معنى قوله: «فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 113

توجيه إلى الدعامة الاولى التي تتبنى الدعوة الاسلامية منذ بزوغها و على طول الخط، تفريعا على كل ما مضى من ولاية اللّه للمؤمنين و ان الكافرين لا مولى لهم «فاعلم»: ثباتا على ما علمت و عرفت، ثم زيادة في العلم و المعرفة: «انه»:

الشأن كله، و شأنك كله: «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» فضمير الشأن توحي بحصره في سبيل الدعوة في علم التوحيد، الذي يشمل الروح كلها، و يشغل العقل و الصدر و القلب و الفؤاد و اللب كلها، ثم يتخطاها الى واقع الحياة الرسالية كلها، دون ان يجمد على المسالك و يثبت على قول‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» او الايمان به دون علم، او العلم به دون ايمان، و انما العلم اليقين ثم عين اليقين بما لكل من درجات، و هي كلها مندرجات في «فاعلم ..»: العلم المطلق لا مطلق العلم، و انما المطلق الذي يمازج روح الإنسان بجوانحها، ثم يظهر في جسم الإنسان بجوارحه، و يا لكلمة التوحيد من براعة و يراعة، فأولها خالص الكفر: «لا إله» و آخرها خالص الايمان: «الا اللّه»! «1».

فلا تعني «فاعلم» انه كان جاهلا بالتوحيد قبل الأمر، و لان العلم لا يحصل بالأمر، و لو لا العلم بحقه لم ينزل عليه الوحي: «فاعلم» و سواه، و إنما تعني فيما تعني الثبات و الزيادة بأسبابها.

فَاعْلَمْ‏ ... و تزود بهذا العلم البارع في سبيلك الغوغاء و الشوكاء وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ‏.

و ترى هل أذنب الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في حياته الرسالية أو قبلها ذنب العصيان حتى يؤمر بطلب الغفران؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

علل الشرايع للصدوق باسناده إلى ابن شبرمة عن جعفر بن محمد (ص) قال لابي حنيفة: اخبرني عن كلمة أولها شرك و آخرها ايمان؟ قال: لا ادري! قال: هي‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» أولها كفر و آخرها ايمان.

(الفرقان- م 8)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 114

في الحق ان الذنب لا يعني العصيان أيا كان و من أي كان، و انما هو ذنب الفعل و تبعته الصعبة و عقباه الخطرة، في الدنيا أو الآخرة، فذنب الآخرة هو العصيان الذي ذنبه العذاب، و ذنب الدنيا هو الدعوة إلى اللّه الذي ذنبه دوائر السوء من الطغاة المعارضين للدعات، إذ يتربصون الدوائر بأصحاب الدعوة الإلهية هتكا و فتكا و طردا و قتلا، و كلما كانت الدعوة أثقل فذنبها التبعة أعضل، فالاستغفار عنه أشكل: أن يطلب الغفر و الستر عما يعرقل الدعوة أو يفتك بالداعية، كما غفر اللّه ذنب محمد بما فتح مكة: ان حسم مواد الشرك و الضلالة فانحسمت عنه عرقلات الدعوة.

فلكل نبي أو صاحب دعوة إلهية تبعة عبر الدعوة هي ذنبه لمعارضيه، كما كان لآل فرعون على موسى: وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (26: 14) و ما ذنبه لهم إلا قتله القبطي المقاتل للإسرائيلي و لا يحرم و كز الكافر المقاتل دفاعا عن المؤمن القاتل‏ فَوَكَزَهُ مُوسى‏ فَقَضى‏ عَلَيْهِ‏: أن صادف قتله.

فالذنب منه طاعة و منه معصية، ففريق في الجنة و فريق في السعير، دون ما يزعمه الكافرون الذين يتشبثون بآيات الذنب كهذه فيهتكون حرمات المرسلين: انهم عاصون، و لا ما يخيل إلى سواهم زعم العصيان فيأخذون في تأويلاتهم و توجيهاتهم يمنة و يسرة، بكل تعسف و عسرة، و لكي يذودوا عن ساحة الرسول، ما القرآن ينسبه إليه من عصيان!.

فعبثا يحاول هؤلاء و هؤلاء تفسير الذنب أو تأويله، إلا أن يثوبوا إلى ما يعنيه في الأصل فيتوب الكافرون، و يعلم المؤمنون انه بالنسبة للمرسلين من أعظم الطاعات، فالرسالة ذنب، و الدعوة إلى اللّه ذنب، و الجهاد في سبيل اللّه ذنب: فانها تخلف دوائر السوء، و أذناب العراقيل ممن يعارضون دين اللّه، فأصحاب الدعوة هم بحاجة إلى الاستغفار من ذنوبهم: أن يطلبوا غفر اللّه و ستره‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 115

على ما تستقبل دعواتهم من أخطار، تحسم أصول الدعوة، و تحطم الداعية، ان يستغفروا اللّه بعد أن يعلموا أن لا إله إلا اللّه: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْواكُمْ‏:

و المتقلب هو التقلب الانتقال و زمان الانتقال و مكانه، كما المثوى هو الاستقرار في هذا المثلث: انقلابا في زمان أو مكان:

من متقلب النطف من الأصلاب و الترائب إلى الأرحام، و منها إلى الحياة الثانية الدنيا- و فيها من يقظة إلى نوم، ثم و يقظة من حركات النصب: المعايش إلى مثاوي الاستقرار: المنازل- ثم من الحياة الدنيا جملة إلى البرزخ بمتقلباتها و مثاويها، ثم منها جملة إلى الحياة الاخرى: المثوى التي لا بعدها مثوى، بما فيها من متقلبات الحساب سهلة و صعبة إلى مثاوي الجزاء: إلى نار ام جنة المأوى.

فكل مثوى هنا و هناك متقلب كما كل متقلب مثوى، إلا المثوى الاخرى في نار الخلود ام جنة المأوى:

فلأن‏ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْواكُمْ‏ في حياة التكليف الإيمانية، و في حياة الجزاء، انها متقلب الايمان و مثواه، أنّ زادكم في سيركم إلى اللّه- و معكم رسول اللّه- هو العلم: أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ‏ فهو هو القادر على غفر ذنوبكم أيا كان:

من ذنب عصيان رفعا بعد حصوله، أو دفعا كيلا يحصل، أم ذنب طاعة تستتبع دوائر السوء من حماقى الطغيان، أم إغانة على قلوبكم من صحبة لهم، غفرا في هذا المربع من الذنوب التي يشارككم فيها الرسول إلا ذنوب العصيان اللهم إلا دفعا عن و صمة العصيان، عصمة إلهية للرسول.

و لأن اتصال الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهؤلاء الطغاة المعارضين و صحبته لهم عبر الدعوة، ان في ذلك تبعات بطبيعة الحال تعاكس على قلبه المنير فيغان على قلبه، فليستغفر ربه ليزيل عنه و صمات هذه التبعات، مهما كانت عبر الدعوة في واجب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 116

الرسالة، فالاشتغال بخلق اللّه، و لا سيما من يحادون اللّه، انه انشغال عن الخلوة باللّه، و ان كان ذلك بأمر من اللّه، فليستغفر اللّه عن هذا الذنب الطاعة ثانية، كما يستغفر عن ذنب الرسالة، و لقد صح‏

عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «انه ليغان على قلبي و اني لاستغفر الله كل يوم مائة مرة» «1»،

فهل انه عن مائة عصيانا، و لا يبتلى به افسق الفساق فكيف بأول العابدين؟!.

فلا يغين على قلبه ما يرين عليه من عصيان، بل هو مما يضيق على صدره من خلطه الرسالي بحماقى الطغيان، فيستغفر اللّه ان يزيل عن قلبه المنير اثر الإغانة فيخلو بربه كما كان.

هذا، ثم و تزيد أمته عليه ذنبا هو اللمم او العصيان، فاستغفاره للمؤمنين يشمله كما يشمل ذنبي الرسالة، فاستغفاره له و لهم في هذا المثلث يتحد في رفع و ازالة التبعات بعد حصول الذنب أيا كان، ثم هنا رابع هو الدفع و لمّا يحصل، ان يذود اللّه عنه و عن المؤمنين و صمات الذنب العصيان، عصمة له و تأييدا لهم ألا يذنبوا هكذا، و كما نجده كثيرا في آيات الاستغفار عن الذنوب‏ «2».

وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى‏ لَهُمْ‏.

«وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا» و هم المؤمنون غير المنافقين، حيث النفاق يباين الايمان، مهما كان للايمان درجات قد يتسرب الى بعضها الشرك الخفي: «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» (12: 106)، «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» هنا هم من المؤمنين، إذ لا مجال للمنافقين ان يدخلوا في زمرة المؤمنين، و لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أخرجه في الدر المنثور عن جماعة عن الأغر المزني قال قال رسول اللّه (ص).

(2) تفصيل البحث عن مراحل و مصاديق الذنب تجده في سورة الفتح إنشاء اللّه تعالى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 117

لأدنى درجات الايمان، حيث المفاصلة بين الايمان و النفاق لا تناسب أية مواصلة، بخلاف الإسلام الذي يجمع كتلة الايمان و كتلة النفاق، مهما اخرج الكفر.

«.. يَقُولُ‏ .. لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ» ترى انه نزول أية سورة؟ و قد نزلت قبل هذه السورة سور كالمكية كلها، و المدنية عديد منها! او انها السورة المحكمة التي لا تقبل التأويل؟ فكذلك الأمر، حيث الاكثرية الساحقة من المكية محكمات، او في الكثير من آياتها و كفى، كما المدنية النازلة قبل القتال! او انها السورة المحكمة المذكور فيها القتال كسورة القتال؟ أنهم قالوا قبل نزولها: «لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ» بشأن القتال، تشوقا الى النضال، و بعد إذ كانوا محرومين عن النزال في ساحات القتال، في معارك المجد و الكرامة، طيلة العهد بمكة، حتى إذا استقروا في المدينة ..: قالوا مقالتهم هذه، فريق عن جدّ الايمان على سلامة من قلوبهم، و فريق على ضعف الايمان و مرض في قلوبهم! «فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ» و هي سورة: القتال- رأيت:

«رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» مرض النفاق و الشقاق، من غير المؤمنين، ممن لم يقولوا: «لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ» و من المؤمنين الضعفاء، الذين في قلوبهم مرض الخوف و التخاذل، و لمّا يستقر جوهر الايمان في قلوبهم، و لما يستكن الايمان في أعماقهم، و اما سائر المؤمنين الأقوياء فهم يتحينون الفرص لخوض المعارك في سبيل اللّه، و يلتمسون قتالا في اللّه ليل نهار!.

«فَإِذا أُنْزِلَتْ‏ .. رَأَيْتَ‏ .. يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ»:

انهم خائفون لحد الهلع، لا يتجملون بحياء أمام الخطر الحادق بالمسلمين، و لا يتحملون أذى في سبيل اللّه و الحفاظ على كرامتهم كمؤمنين، و كأنهم اخذتهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 118

غشية الموت و غفوة الفوت، فلا حياة لمن تنادي منهم، و لا حياة لمن نادوا بنزول سورة القتال، و لا وفاء لمن وعدوا خوض النضال، ثم و لا إيمان أصلا للمنافقين إذ لم يشاركوا و حتى ضعفاء الإيمان في نزول سورة القتال! «فَأَوْلى‏ لَهُمْ»:

أولى للمنافقين نفاقهم هذا من وفاقهم، و كأنهم خلقوا للنفاق، فلا يرجى منهم أي وفاق: و «أولى لهم» من هذه الفضيحة العار، و من هذا الخور البوار «طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ»! أن يتركوا النفاق إلى الوفاق، كما لأبي جهل في كفره: «أَوْلى‏ لَكَ فَأَوْلى‏. ثُمَّ أَوْلى‏ لَكَ فَأَوْلى‏» (75: 35) أن يترك الكفر إلى الإيمان، أم يبقى على كفره كأنه خلق للنار! ثم و أولي للمؤمنين الذين قالوا لو لا نزلت سورة، و لكنهم كذبوا- «فَأَوْلى‏ لَهُمْ»:

«طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ»: طاعة للّه إذا أنزلت سورة تحمل فرض القتال أم ماذا، و قول معروف صادق: ترجّيا لنزول سورة القتال صادقين كسائر المؤمنين، أم قولا صادقا سواه إذ ليسوا من أنفسهم آمنين أن يثبتوا على هذه المقالة «فَأَوْلى‏ لَهُمْ طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ»: كما أولى للمؤمنين الصادقين إيمانهم في قولهم‏ «لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ» فلما نزلت صدقوا اللّه! فأولى لفريقي المؤمنين و قسمي الكافرين‏ «طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ» من الفضيحة العار، لكلّ حسب شأنه المؤمن أو الشائن‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذه المحتملات- و كلها صحيحها تتحملها الآية- تدور حول رجوع ضمير الغائب في‏ «فَأَوْلى‏ لَهُمْ» الى فريقي المؤمنين، المعنيين بقوله تعالى‏ «وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا» و الى الكفار و المنافقين- ثم‏ «فَأَوْلى‏ لَهُمْ» مبتدء خبره طاعة و قول معروف- او خبر مبتدء محذوف ك «هذا» اولى لهم- و إذ احتملت الآية معاني عدة لا تنافر بينها و كلها سليمة- فلا ضير ان تكون كلها معنية، و كما ترونه في اسلوبنا في هذا التفسير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 119

فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ‏:

فإذا عزم أمر القتال كواقع مفروض، و بعد أن أنزلت سورة القتال دون ترجّيهم كذبا و زورا أو غرورا، فهناك الامتحان الامتهان لمن لم يصدق في مقاله‏ «لَوْ لا نُزِّلَتْ» و الامتحان الناجح لمن صدقوا اللّه: «فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ» بخوضهم المعركة بعد إذ عزم أمر القتال‏ «لَكانَ خَيْراً لَهُمْ» من خوض الترجي الخواء في المقال، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان، و عند تقلب الأحوال يعرف جواهر الرجال!.

و ترى كيف ينسب العزم هنا إلى الأمر، و ليس إلا توطين النفس على الأمر، و لا نفس للأمر- أيّ أمر؟.

إنه بلاغ و بلوغ في العزم على الأمر، و كأن الأمر هو العازم في نفسه، و يا له من بلاغة رائعة في التعبير عن مدى العزم.

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ‏:

تنديد شديد بالمفسدين، منافقين أو ضعفاء من المؤمنين، حينما يتولون عن أمر الجهاد متثاقلين، و حينما يتولون أمور المسلمين‏ «1» و المعنيان هما المتوقعان من حال المخاطبين، الذين يقولون و لا يعملون، قولا في ترجي الجهاد: لو أنزلت سورة ذكر فيها القتال، ثم هم أولاء يخالفون، يقولون في المجالس كيت و كيت، فإذا جاء الجهاد فحيدي حياد! أم قولا في ترجي الإصلاح أن لو تولوا أمور المسلمين فلسوف يصلحون، فقولهم قول عجاب، ثم عملهم في تباب:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التولي هنا يحتمل التولي «عن» من الولاء لا الولاية، فهو الإعراض عن امر اللّه او التولي «إياه» من الولاية فهو التصدي للحكم من تكلف الولاية او تقبلها، و الآية تحتملهما- مهما كان الاول انسب معنى بمناسبة المورد، و الثاني انسب لفظا إذ لم يتعدّ ب «عن» فالمتبع عموم اللفظ لا خصوص المورد لو كان، فالمناسبة المعنوية لا تختص الآية بنفسها، و يؤيده ما

رواه في مجمع البيان عن النبي (ص) «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ» يعني ان توليتم امور المسلمين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 120

«وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ‏ قوله‏ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى‏ ما فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ. وَ إِذا تَوَلَّى سَعى‏ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ. وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ» (2: 206) فحذار حذار، يا من تتولون أمور المسلمين دونما لياقة أو لباقة، عن أن ترتجعوا إلى الجاهلية الأولى فتفسدوا في الأرض و تقطعوا الأرحام! «1».

أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى‏ أَبْصارَهُمْ‏:

«أولئك» المنافقون‏ «الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ»: إبعادا عن رحمته و نعمته لمّا بدلوها كفرا و نقمة فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (61: 5) فَأَصَمَّهُمْ‏ عن آذان قلوبهم، إذ لا تصلها كلمة الحق التي يسمعون بآذانهم، أم هم لا يسمعون:

يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (2: 19) فهم صم لا يسمعون‏ وَ أَعْمى‏ أَبْصارَهُمْ‏: أبصار قلوبهم عن إبصارهم آيات الحق: فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (22: 46) فهم عمي لا يبصرون: يعيشون صما و عميانا، توليا عن الحق و تصديا لأمور المسلمين، وليتهم كانوا يفتحون بصائرهم و آذان قلوبهم فيتدبرون القرآن فلا يدبرون:

أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى‏ قُلُوبٍ أَقْفالُها:

أم إن قلوبهم كالأبواب المقفلة، لا تنفتح لوعظ واعظ، و لا يلج فيه عذل عاذل، فالقلب المقفول، هو الغافل و المغفول عنه، و في الحق ان أقفال القلوب هي التي تغفلها فتقفلها عن موارد الذكرى بالقرآن، فرغم ان القرآن ميسّر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

ثواب الأعمال للصدوق عن السكوني عن الصادق جعفر بن محمد (ع) عن أبيه عن آبائه قال: قال رسول اللّه (ص): إذا ظهر العلم و احترز العمل و ائتلفت الألسن و اختلفت القلوب و تقاطعت الأرحام هنالك لعنهم اللّه فأصمهم و أعمى ابصارهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 121

للذكرى، فالقلوب المقلوبة المقفلة الغافلة لا تستطع ان تتذكر بالقرآن و إنما القلوب المنفحة بالصدور المنشرحة هي التي تسكب عليها الأنوار، فتستحم بالنور فتحى بحياة أرقى و أحيى، بأنوار معارف القرآن العظيم، إذ تحرك مشاعرها و تستجيشها فتجندها و تعسكرها لحرب الطغوى في محاريب التقوى.

فالقلوب الحية المنفتحة هي التي تتدبر القرآن، ثم تنفتح و تحيى أكثر مما كان تعاملا بينها و بين القرآن و تجاوبا في الاستحياء بحياة أضوء و أرقى، فالقرآن حياة للقلوب «جعله الله ريا لعطش العلماء، و ربيعا لقلوب الفقهاء، و محاجا لطرق الصلحاء، و دواء ليس بعده داء، و نورا ليس معه ظلمة».

و الغاية القصوى لنزول القرآن تدبر آياته: «كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ» (38: 29): يدبّروا فيه فيتذكروا انه وحي خالص من اللّه دون خلط بسواه: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (4: 82). فتدبره يثبت انه من عند اللّه، و من ثم يربط الإنسان بخالص الوحي و يخرجه من الظلمات إلى النور، و لا يعني تدبره، تصفح أقوال الرجال، أم كلما يروى من قيل و قال، حتى إذا لم يوجد رأي أو رواية تفسر آية وقفنا في تفسيرها حائرين، كأن القرآن ليس بيانا أم ليس فيه تبيان! مهما كان لتدبره أهل خصوص، لا عامة الناس، و لا الذين يعرفون فقط لغة القرآن، و إنما الخواص الذين يعيشون القرآن حياتهم، فهم حياتهم القرآن و أخلاقهم القرآن! مهما كان لكلّ نصيب من معاني القرآن، و كما

يروي الإمام الحسين عن أبيه علي أمير المؤمنين (ع): (كتاب الله على أربعة أشياء، على العبارة و الإشارة و اللطائف و الحقائق، فالعبارة للعوام، و الإشارة للخواص، و اللطائف للأولياء، و الحقائق للأنبياء).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 122

ثم التدبر في كل أمر هو الفحص عن كل دابر يلحق غابره، و عن كل غابر يلحقه دابره، أمور متجاوبة لو دبّرت و رتبت كما يصح للحصول على المراد لحصل فهو في القرآن نضد آيات له متناظرة، كل دبر بعض للحصول على معنى آية يقصد تفسيرها، و هذا تدبر التعبير التفسير، ثم يتلوه تدبر الإيمان، و لكي يأخذ الإيمان بالقرآن شغاف القلب لحد الهيمان، ثم أخيرا تدبر العمل، ان يلحق تدبر العلم و الإيمان، تدبر الأركان، إذا فتدبر القرآن في صيغة جامعة يتبناه- هو:

مثلث: التفهم- الإيمان- العمل، كل دبر بعض، كما لكل تدبر بالنسبة لمراتبه مع بعض!.

و من ثم- و على غرار مثلث التدبر في القرآن فأقفال القلوب أيضا ثلاثة:

إقفال عن المعرفة، و اخرى عن الإيمان بعد المعرفة، و ثالثة تقفل الإيمان العرفان عن التجلي في عمل الأركان، و هو الأصل المعني بالتدبر في القرآن‏ «1»، فهذه اركان الإقفال على القلوب، التي تحرمها عن المعرفة، ثم عن الإيمان، ثم عن العمل، أو عن الازدياد في كل مرحلة من هذه الثلاث، أو ان يتخطى كل سابق إلى لاحقه.

فالقلب- بمفرده- بين أعضاء الروح محطة إذاعة و استذاعة، تستذيع من العقل و الصدر فيطمئن بالإيمان فيعقل ما أخذه عنهما: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها (22: 46) و من ثم تذيع- ما أخذته في جر الأعمال،

(القلوب أئمة العقول، و العقول أئمة الأفكار، و الأفكار أئمة الحواس. و الحواس أئمة الأعضاء) «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

رواه في المجمع عن أبي عبد اللّه و أبي الحسن عليهما السلام في الآية انهما قرءاه فقالا:

فيقضون ما عليهم من الحق.

(2) عن الامام الصادق عليه السلام- رواه في بحار الأنوار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 123

و من أقفال المعرفة صمم القلب و عماه‏ فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (22: 46) وَ جَعَلْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً (6: 25) «1».

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى‏ أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلى‏ لَهُمْ‏.

و الارتداد على الأدبار: إلى الجاهلية الأولى، و بعد تبين الهدى، إنه من مخلفات عدم التدبر في القرآن بأقفال القلوب، بما سول لهم و أملى الشيطان! فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ .. (16: 98)! فهناك شيطان من خارج يسول و يملي، و آخر من داخل يتسول و يتملى‏ «وَ كَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي» (20: 96) متعاملين في تسويل الإنسان: تزيينا تحرض عليه النفس أن يصور لها القبيح حسنا و الحسن قبيحا، ثم في إملاءها: مدا في غيّها المسوّل لها، و تطويلا في آمالها، خطوات حسيسات في خطيئات لحدّ انهيار الإنسان في النار: «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ»! رغم انهم لم يكونوا بذلك البعيدين عن الهدى، فقد ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، و إنما انجرفوا بما جرفوهم، و انحرفوا بما حرفوهم، ابتداء من بعض الأمر و انتهاء إلى كل الأمر! فأصبحوا كفارا كالكفار:

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ‏:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

محاسن البرقي عن الامام الصادق (ع): ان لك قلبا و مسامع، و ان اللّه إذا أراد ان يهدي عبدا فتح مسامع قلبه، و إذا أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه فلا يصلح ابدا و هو قول اللّه عز و جل: «أَمْ عَلى‏ قُلُوبٍ أَقْفالُها».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 124

«وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ. ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ» السورة.

فإسرارهم لطاعتهم في بعض الأمر يوحي بإصرارهم لهؤلاء المذبذبين أن يطيعوهم في كل الأمر، و لكنهم و عدوهم إسرارا: سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ و لماذا في بعض الأمر؟ عله لأن طاعتهم في كل الأمر تكشف النقاب عن نفاقهم، فلا يقدرون على التجسس لصالح الكفار، ثم هم واقعون في محاظير الكفر و جاه الدولة الإسلامية، حارمين أنفسهم عن عوائد الإسلام الاستسلام، و عن دوائر السوء التي يتربصون بها على الإسلام، أو إنهم انحرفوا حالا في بعض الأمر، فلا يطيعونهم إذا في كل الأمر، فإن دركات الكفر هي تلو بعض حتى تجرف بالإنسان إلى شفا جرف هار: أن يطيعوهم في كل الأمر.

و الذين كرهوا ما نزل اللّه، يعم المشركين و سائر الكفار لا سيما اليهود، إذ كانوا يتوقعون ان تكون الرسالة الأخيرة فيهم، مؤولين البشارات بحق محمد الإسماعيلي إلى نبي إسرائيلي، فلما اختار اللّه آخر رسله من بني إسماعيل- لا إسرائيل- كرهوا رسالته و ما أنزل اللّه عليه، و من قبل كانوا كارهين لما أنزل اللّه على أنبياءه بحقه فاستنوا سنة التأويل و التجديل، و شنوا على الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حرب الدس و المكيدة، بعد ما عجزوا عن مجاهرته مناصبة العداء: عن حرب التنكيل، و ضموا إليهم كل منافق و حانق، و كل ضعيف الإيمان، فأطاعوهم في بعض الأمر، و من ثم في كل الأمر، و لكنهم كلّ أمرهم في إمرهم إذ أجلاهم الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن الجزيرة في آخر الأمر، و معهم المشركون أجمع.

فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ‏:

هؤلاء التابعون، و كما المتبوعون الكافرون: «وَ لَوْ تَرى‏ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ» (8: 50).

و يا لها من مأساة، ضرب الوجوه التي اتجهوا بها إلى غير اللّه، و الأدبار التي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 125

ارتدوا عليها عن دين اللّه، و هم في مستهل الحياة الأخرى، في اللحظة الأخيرة من الحياة الدنيا، ففي حالة الاحتضار الاحتقار تستقبلهم هكذا الإنذار «ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ».

فلأن الحياة بعد الموت برزخية، فليس لهم إلّا ذوق العذاب، في: حفرة من حفر النيران‏ «1» لا كل الحفر و لا كل العذاب.

و إذا كان ذوق العذاب، يستقبله ضرب الوجوه و الأدبار، إذا فما ذا يكون أصل العذاب! و التوفي هنا أخذ الأرواح بأجسادها الأصيلة لها، التي عاشتها حياة التكليف، فالملائكة القابضة للأرواح- و على رأسهم مدير شئون الأموات: ملك الموت- هم يتوفون الأموات: أخذا وافيا دون أي فوت أو انفلات، في أيّ من جزئي الأموات: أرواحا و أجسادا، فلا تضل عنهم مهما ضلت عن سائر الخلق:

«وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ..» (32: 11).

و هم حينما يتوفونهم يضربون الوجوه و الأدبار، فضرب الوجوه، مواجهة لهم حين الاحتضار بعذاب الاحتقار، و ضرب الأدبار التي تعودت الإدبار عن الحق، و لأنهم حين يتوفون لا يخرجون أنفسهم عن الحياة الدنيا بملاذها، فلا يطاوعون المخرجين، فالملائكة- إذا- يضربون أدبارهم قائلين: أخرجوا أنفسكم:

«وَ لَوْ تَرى‏ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ» (6: 94).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في الحديث: القبر روضة من رياض الجنة او حفرة من حفر النيران،

و البحث عن الحياة البرزخية تجده في محالها الأنسب طيات آياتها كآية الأنفال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 126

ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ‏:

فإذ لا أعمال لهم صالحة إلّا حابطة، فما لهم- إذا- إلّا طالحة كالحة، فما لهم حينما يستقدمون الموت، و إلى الحياة الحساب، إلا ضرب الوجوه و الأدبار، و من ثم ذوق عذاب النار، فإنهم عاشوا حياة مركوسة معكوسة سلبا و إيجابا، فأوجبوا سخط اللّه حيث اتبعوا ما أسخط اللّه، و سلبوا رضوان اللّه إذ كرهوا رضوانه، معجبين بهذه الحياة البائسة بما سوّل لهم الشيطان و أملى لهم.

«و من طلب مرضات الناس بما أسخط الله تعالى كان حامده من الناس ذاما، و من آثر طاعة الله تعالى بما يغضب الناس كفاه الله تعالى عداوة كل عدو و حسد كل حاسد و بغي كل باغ و كان الله له ناصرا و ظهيرا» «1».

و لأن اللّه سبحانه و تعالى لا يحول من حال إلى حال، و ليست له أية حال على أية حال، فإنه لا يتغير بانغيار الأحوال، فلا يعني- إذا- سخطه و رضوانه تغير حال، و إنما ما يناسب ساحته القدسية كعقابه و ثوابه‏ «2»، كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

اصول الكافي- العدة باسناده عن جابر عن أبي عبد اللّه (ع) قال قال رسول اللّه (ص):

و القمي في التفسير عنه (ع) قال قال رسول اللّه (ص): من ارضى سلطانا بسخط اللّه خرج عن دين الإسلام.

(2)

التوحيد للصدوق باسناده الى هشام بن الحكم‏ أن رجلا سأل أبا عبد اللّه (ع) عن اللّه تبارك و تعالى له رضى و سخط؟ قال: نعم- و ليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين، و ذلك ان الرضا و الغضب دخال يدخل عليه فينقله من حال الى حال معتمل، مركب للأشياء فيه مدخل، و خالقنا لا مدخل للأشياء فيه، واحد أحدي الذات و أحدي المعنى، فرضاه ثوابه و سخطه عقابه من غير شي‏ء يتداخله فيهيجه و ينقله من حال الى حال، فان ذلك صفة المخلوقين العاجزين المحتاجين، و هو تبارك و تعالى القوي العزيز، لا حاجة به الى شي‏ء مما خلق، و خلقه جميعا محتاجون اليه، انما خلق الأشياء من غير حاجة و لا سبب اختراعا و ابتداعا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 127

هو كذلك في كل ما يصف به ذاته من صفات و أفعال.

أ فحسب هؤلاء الحماقى المرضى أعمالهم، شطارة و مهارة و انهم السابقون؟ أم:

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ. وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ‏.

أم حسب مرضى القلوب، ممن أسلم استسلاما و نفاقا، و من آمن ثم نافق، أم حسبوا أن اللّه لا يعلم نفاقهم، أم لا يقدر على إخراج أضغانهم: و أحقادهم ضد الإسلام و دعوته، «لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ» و إنها توحي لمكان «لن» باستحالة ما لإخراج أحقادهم، فلذلك تراهم مصرين على النفاق، مسرين النفاق كأن اللّه لا يعلم أعمالهم‏ «وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ»:

و معرفة المنافقين على ضروب شتى: كأن يعرفوا بسيماهم: بسمات في وجوههم، يعرفهم كل ناظر إليهم، و لكنما الدنيا دار ابتلاء و بلاء، فلا تبلى فيها السرائر، و إنما هي الآخرة: «يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ» ان يبدو الإجرام ظاهرة باهرة، لا تخفى منها خافية، فلم تجر سنة اللّه في الأولى على تعريف المجرمين، منافقين أم كافرين، بما يسمهم في سيماهم، و لكي يتم الابتلاء الامتحان: «وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ»- فان «لو» توحي انه لن يريهم رسوله هنا فضلا عن سواه، بسمات في سيماهم.

إلا أن هناك معرفة أخرى حتمية تحتاج إلى كياسة و فطانة- و المؤمن ينظر بنور اللّه- و هي المعرفة في لحن القول، و انحرافه عن جادة الصواب، بما فيه من غمز و لمز، إمالة للقول عن استقامة الدلالة، و إحالة له في نبرات، و ظهوره في فلتات، فما أضمر إنسان أمرا إلا و قد يظهر في صفحات وجهه و فلتات لسانه: فالعاقل هو الذي يعرف الناس في لحن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 128

القول‏ «1» و

«المرء مخبو تحت لسانه» «2»

: «وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» ..

«وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ»: مؤمنين و منافقين.

ثم هنالك معرفة ثالثة بغير سيماهم و لحن القول، هي أحيانية، بما يرى اللّه و يريه، و المنافقون منها حذرون: يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ (9: 64) و هي كسورة المنافقين و آيات أمثالها تفضح المنافقين، كسنة أحيانية غير دائمة، و انما تتبع موارد الضرورة.

فمهما خفيت الزاوية الاولى من مثلث هذه المعرفة، إحالة لها إلى الآخرة، ففي الثانية كفاية لمن يعرفون من لحن القول، و في الثالثة تتميم لما تفلت عن الثانية من لحن في غير القول، مما يرجع إلى غيوب القلوب، فيظهره علام الغيوب لرسوله الكريم، حفاظا على كيان الدعوة و الداعية، و لكي تعيها أذن واعية، يخرج اللّه بعض أضغانهم من مخارج لحن القول في كل حين، و بعضا من مخارج سواه بعض حين، و لكي تعبّد جادة الرسالة الجادة، فيعبد اللّه عبادة جادة.

فاللحن المؤذن بالنفاق ليس ليختص بالقول، فهناك ملامح من ألحان أخرى كلحن الفعل أو الاشارة أم ماذا؟ و من ثم مقاييس أخرى يقاس عليها الناس، و كما يروى (ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

التوحيد للصدوق باسناده الى أبي عبيدة عن أبي جعفر (ع) قال: قال لي: يا أبا عبيدة! خالقوا الناس بأخلاقهم و زايلوهم بأعمالهم، إنا لا نعد الرجل فينا عاقلا حتى يعرف في لحن القول ثم قرأ هذه الآية «وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ».

(2)

أمالي الطوسي باسناده إلى علي (ع) انه قال: قلت أربع أنزل اللّه تصديقي بها في كتابه: قلت المرء مخبو تحت لسانه فإذا تكلم ظهر فأنزل اللّه‏ «وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 129

إلا ببغض علي بن أبي طالب (ع) «1» فقد يوافقون الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حسب الظاهر ثم ينافقونه ببغض كيانه الثاني، و نسخته الكاملة علي (ع)، فلا يجمع حب محمد الحبيب و بغض من هو استمرار لكيانه، حاملا دعوته، متخلقا بأخلاقه و هو باب مدينة علمه! وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ‏ سنة حتمية تربوية إلهية هي بلوى المؤمنين، امتحانا دون امتهان، اختبارا لنفوسهم في معتركات البلايا و الرزايا في سبيل اللّه: «حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ» و من ثم اختبارا لاعمالهم التي تخبر عن نفوسهم كإذاعات خارجية:

وَ نَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ‏.

و نَعْلَمَ‏ هنا كما في نظائرها «2» هي من العلم: العلامة، لا العلم المعرفة، فاللّه لا تخفى عليه خافية، فإنه عليم بما في الصدور قبل أن تصدرها كأخبار، و إنه يعلم السر و أخفى، فكيف تخفى عليه السريرة و ما دونها فيبلوهم لكي يعلم! و إنما هو علم: أن يجعل بالبلوى: جهادا و سواه- علامة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: «ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله (ص) إلا ببغض علي بن أبي طالب».

و في المجمع عن أبي سعيد الخدري قال: لحن القول بغضهم علي بن أبي طالب (ع) قال:

كنا نعرف المنافقين على عهد رسول اللّه (ص) ببغضهم علي بن أبي طالب. و مثله عن جابر بن عبد اللّه الانصاري. و عن عبادة بن الصامت قال: كنا نبور أولادنا بحب علي بن أبي طالب فإذا رأينا أحدهم لا يحبه علمنا انه لغير رشده، قال أنس: ما خفي منافق على عهد رسول اللّه (ص) بعد هذه الآية.

(2) نجدها في أحد عشر موضعا في القرآن، لم تأت في أحدها موجها على مفعولين، و العلم يتعلق دائما بمفعولين، فليس إلا علما- من علم يعلم علما و علامة- لا علم يعلم علما، يدل على ذلك وحدة المفعول و أدلة الآيات و العقول، و غم انه لم يذهب اليه أحد فيما أعلم، فكم ترك الأول للآخر!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 130

على النفوس المجاهدة الصابرة المثابرة، بما تجاهد و تصبر و تصابر، و علامة الأخبار الأفعال، فإنها علامات النفوس، فيعرفها الكيّسون من حق القول و حق الفعل، كما يعرف المنافقون من لحن القول و لحن الفعل، و كما يناسب دار الابتلاء.

هذا: دون العلم عن الجهل و حاشاه، فإنه هراء! و دون العلم الفعلي أم ماذا فإنه تكلف و تعسف و كلام اللّه منه براء لأنه بيان للناس و هدى و نور، و هو حمال ذو وجوه، فاحملوه على أحسن الوجوه: حَتَّى نَعْلَمَ‏: نجعل علامة ل الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ‏ و منها أخباركم: الأعمال الجهادية الصابرة التي تخبر عن طيبة نفوسكم: وَ نَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ‏: حتى نعلم .. و حتى نبلو اخباركم‏ «1»، فبلوى المؤمنين ذريعة لعلامة الإيمان، و لبلوى أخبار الإيمان، فلا تظهر أخبار الإيمان إلا في تقلب الأحوال، و عند تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال، و عند الامتحان يكرم المرء أو يهان، فالابتلاء بالبأساء و الضراء، و بالسعة و النعماء، و ما إلى ذلك من كرب و بلاء، إنها تكشف عما هو مخبوء في معادن النفوس، مجهول لسائر النفوس، بل و لأصحابها أيضا، فإن حب الشي‏ء يعمي و يصم، و من ثم تتكشف لها ما خفي عنها أنفسها و قبل أن تظهر أخبارها كما تتكشف لغيرها بعد أن تبلى أخبارها، فكل بلوى تخلف علمين: علامتين، واحدة سرا لذوات الصدور، و اخرى جهرا لسائر الناس: حَتَّى نَعْلَمَ‏ ...

وَ نَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ‏!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ف «نبلو» مفتوحة بالعطف على المجاهدين، فهما إذا مقصودان في‏ «حَتَّى نَعْلَمَ» فالعلامة هنا منها خفية هي علامة الايمان في القلب، و منها ظاهرة هي علامة أخبار الجهاد و الصبر، فبلوى هذه الاخبار هي من‏ «نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ ..» و لكي تظهر علامة الايمان الخفي، بمن يعلم السر و أخفى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 131

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى‏ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ‏.

و هذا من انحس الكفر، ان الذي تبين له الهدى يخالفها إلى الهوى، لحد يكفر بها، و يصد الناس عنها، و يشاقق الرسول فيها، ان يختار هو شقا يضاد شق الرسول: ثالوث الكفر العناد العتاد، الذي لا فوقه كفر، و هو يعم من أهل الكتاب من آمن ثم ارتد هكذا، أم لم يؤمن من بعد ما تبين له الهدى، و كذلك المشركين، و لا سيما الذين آمنوا منهم ثم ارتدوا، أم اسلموا نفاقا ثم برزوا كافرين، كذلك و المسلمين، ممن ولد مسلما و سواه، ثم ارتد، فصيغة الآية جامعة لمن ركز قواعد حياته الشريرة على هذا الثالوث الجامح به العناد العتاد، و ترى انهم ينفعهم أعمالهم شيئا، أم هم يضرون اللّه شيئا؟ كلا: لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً إيحاء إلى استحالة زمنية و ذاتية أن ينضرّ اللّه باضرارهم‏ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلى‏ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً (3: 144) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيْمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً (3: 177) بل و لن يضروا المؤمنين ايضا إلا أذى: لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ‏ (3: 111) وَ سَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ‏: شريرة في الصد و الشقاق في الأولى، فلا يؤثران في إطفاء نور اللّه، أم و خيرة- لو صح التعبير عما يعملون من خير- في الاخرى، فأعمالهم بالية خواء، و اللّه تعالى منهم براء.

و هنا يطمئن المؤمنون بنصر اللّه، فلا يخافون و لا ألد الكفار مهما ثاروا في كفرهم و فاروا، فهم أضأل و أضعف من أن يلحقوا ضررا باللّه، بل اللّه هو الذي يلحق بهم ضرر الإحباط، مهما أبرقوا و أرعدوا ضد الدعوة و الداعية، آذوا الرسول و المؤمنين فترة من الزمن، فالعاقبة للمتقين، و حتى الاولى في نصرة رب العالمين: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 132

[سورة محمد (47): الآيات 33 الى 38]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (33) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34) فَلا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ (35) إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ (36) إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ (37)

ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ (38)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ‏.

انه ليس الكفر باللّه و مشاقة رسول اللّه بالذي يحبط فقط أعمال الكافرين، بل و كذلك المؤمنين التاركين لطاعة اللّه و رسوله، رغم إيمانهم باللّه و رسوله، انهم تبطل أعمالهم، فما من شجرة يغرسها الإيمان باللّه و رسوله، إلا و يحرقها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 133

ترك طاعة اللّه و رسوله‏ «1» و إنما الإيمان مع الطاعة هو المصلح المصحح للأعمال.

و انها طاعة اللّه كأصل و في القمة، و من ثم طاعة رسول اللّه كفرع و على الهامش، فإنها طاعته كرسول و سفير صادق عن اللّه، لا كمحمد بن عبد اللّه، و لذلك عبر عنه ب «الرسول» و لذلك فصل طاعته عن طاعة الرسول:

«وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ» لا «و الرسول» حتى لا يظن أنهما على سواء و في ردف واحد، و إنما «أَطِيعُوا الرَّسُولَ» فيما يفعل بوحي و يقول كرسول، و من ثم‏ «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ» (4: 80) لأنه كما يقول‏ «لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ» (4: 105)!.

و طاعة اللّه هي في اتباع محكم كتابه، و طاعة الرسول في سنته الثابتة، الجامعة غير المفرقة، الموافقة لكتاب اللّه، فمن زعم أنه يطيع اللّه، قائلا:

حسبنا كتاب اللّه، ثم يترك سنة رسول اللّه فقد أبطل أعماله، و من يزعم أنه يطيع رسول اللّه، اتباعا لما يروى عنه مهما خالف كتاب اللّه، فقد أبطل أعماله، و إنما طاعة اللّه في كتابه كأصل، و طاعة رسول اللّه في سنته كفرع شارح غير جامح، هما الأساسان لا سواهما، في اتباع دين اللّه!.

و ترى ما هي الأعمال التي تبطل بترك طاعة اللّه و طاعة الرسول؟ طبعا انها الأعمال التي لها صحة و لها بطلان، بموافقة الكتاب و السنة أم مخالفتهما، سواء أ كانت عبادية أم ماذا!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

ثواب الأعمال للصدوق عن أبي جعفر الباقر (ع) قال: قال رسول اللّه (ص): من قال: سبحان اللّه غرس اللّه له بها شجرة في الجنة، و من قال: الحمد للّه غرس اللّه له بها شجرة في الجنة، و من قال: لا إله إلا اللّه غرس اللّه له بها شجرة في الجنة، و من قال: اللّه أكبر غرس اللّه له بها شجرة في الجنة، فقال رجل من قريش: يا رسول اللّه! ان شجرنا في الجنة لكثير؟! قال: نعم، و لكن إياكم أن ترسلوا عليها نيرانا فتحرقوها و ذلك ان اللّه عز و جل يقول:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 134

فالطاعة في الواجب إيجابه و تطبيقه، و في الحرام تحريمه و تركه، و في المباح إباحته، و في المندوب الانتداب إليه، و في المكروه كراهته، فمن يأتي بواجب بغير نية الوجوب، من استحباب أو كراهية أو إباحة أم حرمة! فقد أبطله، و هو أضل ممن لم يفعله، فتجاوب الإيمان و النية و العمل مع الكتاب و السنة، انه لزام صحة العمل-

«لا قول إلا بعمل، و لا قول و لا عمل إلا بنية، و لا قول و لا عمل و لا نية إلا باصابة السنة» «1»

: سنة اللّه و رسوله (ص).

فمن أتى بواجب على شروطه و لكنه رئاء الناس فقد أبطل، حيث لم يطع اللّه في نية العمل: «فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» (40: 14).

و ترى ان البطلان طابع الأعمال التي يؤتى بها دون الطاعة- فقط- أم و انها تبطل بقية الأعمال التي تؤتى على وجوهها من الطاعة المصححة؟ كأنها هي الأولى كضابطة عامة، و من ثم الأعمال التي تربطها رباط الشرط و المشروط أم ماذا، كمن يأتي بوضوء فاسد، ثم يأتي بصلاة على شروطها إلا الطهارة، فباطل الوضوء يبطل الصلاة، أو يقال انها صلاة متخلفة عن الطاعة في الطهارة، فلا تبطل الأعمال الطالحة إلا أنفسها، كما الصالحة تصلح أنفسها، فالأعمال التي يؤتى بها طاعة للّه و للرسول صحيحة و سواها باطلة حابطة.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ‏:

قد تدق المغفرة أبواب بعض الكفار، غير المشركين، من الذين كفروا جهلا و قصورا، فلم يصدوا عن سبيل اللّه و ماتوا و هم كافرون، و بأحرى المسلمين ذوي الكبائر كل على حدوده و شروطه، و لكنها و باب التوبة مغلقة على الذين كفروا و صدوا عن سبيل اللّه و ماتوا و هم كفار فلن يغفر اللّه لهم، و لا سيما من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). وسائل الشيعة عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 135

بعد ما تبين لهم الهدى، اللهم إلا أن يتوبوا قبل أن يموتوا، فالفرصة متاحة قبله، و أما إذا بلغت التراقي فلا رجعة، فلا توبة و لا ثوبة «فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ».

فَلا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ‏:

.. زمن مبكر من العهد المدني، و المسلمون فيه مبكرون من العهد الاسلامي المكي الذي لم يؤمروا فيه بحرب، فطبعا تستثقل جماعة منهم تكاليف الجهاد الطائل، فتهن عزائمهم، راغبين في الهدنة السلم، لحدّ قد يجنحون اليه، فتتهدم قواعد القدرة و الشوكة الإسلامية، إلى ذلة شائكة استسلامية! فهنالك النهي التهديد عن الدعوة الى السلم و هنا، مضمنا أسباب نجاحهم بمثلث: العلو الايماني، و المعية المنتصرة الإلهية، و ثواب الأعمال المستمر، فلا دعوة للسلم إذا، و إنما قبول لها ككرامة إنسانية من العدو إن جنح للسلم: «وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها» (8: 61).

«ف» إذ طمأنكم ربكم بنجاحكم عاجلا و آجلا، و بإحباط أعمال الكافرين فيهما «لا تهنوا» عن الحرب في معارك الشرف و الكرامة، في سبيل اللّه، في سبيل صالح الكيان الإنساني الإسلامي، الفردي و الجماعى، و من أذل و أرذل مظاهر الوهن حال رديئة خائبة: «وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ‏ «1»» فلا تدعوا اليه دعوة ذليلة لعدوكم كأنه غالب عزيز و الحرب لمّا تحتدم، أم احتدمت، كما و من الوهن ترك ابتغاء القوم: «وَ لا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ» (4: 104) و منه الوهن لما يصيب المحارب في سبيل اللّه فيفشل فيفر من الزحف أم ماذا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الجملة معطوفة على «فلا تهنوا» عطف على المنهي فيقتضي لاء النهي كما في المعطوف عليه- و لا تدعوا الى السلم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 136

«فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ما ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكانُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ» (3: 146).

لا تهنوا هنا و هناك و كيف تهنون‏ «وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ»: «وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (4: 104): أنتم المؤمنين الأعلون:

علو العقيدة الإيمان و علو التصميم، علوا في تفهم الحياة و غايتها و صلتها بالعقيدة و بالعلي الأعلى، علوا في الأولى و في الأخرى، فيما يصمد العزم و يقوي الحزم، علوا و حتى إذا قتلتم في سبيل اللّه إذ تتصل أرواحكم بالملإ الأعلى ..

.. «فَلا تَهِنُوا .. وَ اللَّهُ مَعَكُمْ» معية خاصة تختلف عن سواكم: ك «هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ» (57: 4) لا- و إنما معية الهداية و النصرة و العزة فالغلبة في أيّ من أشكالها: قاتلين أو مقتولين! فلنفرض انه قتل في المعركة من قتل، أو انهزمتم، فالحرب سجال و امتحان، و ليس انهزامكم انهزام الامتهان! ثم‏ «وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ» لن يقطعكم أعمالكم‏ «1» لا الأعمال الجهادية، فإنه يجازيكم بها خير الجزاء، فليست هي مبتولة الجزاء، و لا سواها من خير تبغونه لو بقيتم أحياء، فلئن قتلتم لن يقطعكم اللّه هذه الأعمال، فإنه بمنه و فضله يكتبها لكم دون أن تعملوها، فيكفيكم أن تأملوها ففاجأكم القتل فلم تعملوها.

فلم تنقطع عنكم خير الحياة بانقطاع الحياة، فإنما انقطع عنكم شرها، ثم كتب لكم خيرها و لم تعملوها، و كتب لكم بالجهاد خير الجزاء، فأنتم أنتم الأعلون لا من الكافرين فحسب، بل و من سائر المؤمنين أيضا!.

ف «لن» هنا في‏ «لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ» لها موقعها لا سيما للقتلى في سبيل اللّه، لن تجد مثلها في غيرها، فإنها تحيل- بفضل اللّه- انقطاع الصالحات عن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يتركم من «وتر يتر» و أصله القطع، و لن يقطعكم أعمالكم بعد انقطاع الحياة، أم إذا بقيتم لن يقطعكم سائر الصالحات المنوية لو لا الجهاد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 137

قتلى الأموات، بانقطاع الحياة: ان اللّه سوف يكتب لهم حسنات، و علّه إلى يوم القيامة، فإن «لن» للاستحالة المقتضية استغراق الزمان منذ القتل إلى انقضاء الزمان في الأولى، ثم اللّه ينمي تلكم الصالحات في الأخرى.

ثم المقاتلون الذين لم يقتلوا، هم كذلك‏ «لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ»: الأعمال الصالحة التي تركت مغبة الجهاد، و من ثم- و علّها أيضا- الصالحات المتروكة بعد الممات، فإنها لم تنقطع عنهم، بعد الجهاد الاستماتة، فالجهاد في سبيل اللّه مما يخلد المجاهد في حياة الصالحات، و بعد أن قتل أو مات، و لأنه باذل حياته للّه، فينصبغ بصبغة اللّه، و يخلد صالحا و ان قتل أو مات، و لكنما القتلى لهم حظوتهم، إذ يبعدون بالقتل عن شرور الحياة و تضمن لهم خيراتها!.

فعلى المسلم العاقل النابه أن يجنح للقتال في سبيل اللّه و هو في مثلث النجاح و الفلاح: «أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ- وَ اللَّهُ مَعَكُمْ- وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ» و لتكن مقالته للكافرين: «هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا» (9: 52)!.

إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ‏.

هناك حياة جهاد في سبيل الدنيا اللعب اللهو، و هنا حياة جهاد في سبيل اللّه، تبديل الحياة الدنيا بالحياة العليا، تجارة مربحة لن تبور، فاتركوا الدنيا إلى العليا: إيمانا و تقوى بأجورهما، «وَ لا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ» فيما يؤتي أجوركم، إنما إيمانكم و تقواكم، سؤالا لصالحكم في الدارين.

و هذه الأجور الغالية في الاخرى تقتضي سؤال كل الأموال أن تصرف في سبيل اللّه، و لكنه‏ «لا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ» كل أموالكم- و لأنه:

إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ‏:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 138

«إِنْ يَسْئَلْكُمُوها» كلها «فيحفكم»: يجهدكم و يحملكم مشقة البذل ككلّ، مغبة ذلك الأجر، «تبخلوا» عن ذلك الإنفاق الإجهاد «و» من ثم «يخرج» اللّه «أضغانكم» أحقادكم خلاف أمر اللّه، بما يخرجها بخلكم عن إنفاقها كلها في سبيل اللّه‏ «1» و لكن اللّه لا يريد إحفاءكم فتفضحوا، حكمة منه و فضلا و رحمة، فإن أحكامه تتماشى مع الفطرة، دون أن تتمادى على الفطرة، و هي تتناسق مع أنظمة الحياة و مناهجها و قواعدها، فإنها إنسانية الطاقة و رحمانية الإناقة العملاقة، و لكي تربي الإنسان بتكاليف دون الطاقة.

ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ‏:

«ها أنتم» المؤمنين المتقين! انتبهوا- تركنا سؤال جميع أموالكم إلى بعضها: تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا من فضلها الزائد عن ضرورات الحياة فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ‏ و منكم من لا يبخل‏ وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ‏ لا عن اللّه، و لا عن عباد اللّه- فإنه يقطع عن نفسه رصيد الإنفاق، الذي ينفعه يوم لا ينفع مال و لا بنون، و من قبل ينفعه في إزالة الأشواك عن صراط الايمان، تعبيدا للسبيل إلى اللّه بإبادة أو تسكيت أعداء اللّه، و تبديدا لأشواك البخل عن البذل، فإنما يبخل البخيل أرصدة كهذه الغالية الكريمة عن نفسه، دون اللّه- وَ اللَّهُ الْغَنِيُ‏ لا سواه‏ وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ دون اللّه، فهو إذ يسألكم إنفاقا في سبيل اللّه، ليس لفقره إليكم، فإنما سبيل اللّه هي سبيل صالح الحياة، التي ليست‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ففاعل «يخرج» هو اللّه، و هو البخل- فاللّه لا يخرج أحقادهم إلا ببخلهم الظاهر عند سؤال كل الأموال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 139

إلا من اللّه، فلما ذا البخل إذا و فيم؟ و عمّا ذا البخل إذا؟ أ بخلا من مال اللّه و في سبيل اللّه: وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ (57: 7) فها أنتم أنتم الفقراء، ليست أموالكم أموالكم، و إنما أنتم مستخلفون فيها امتحانا، فلا تبخلوا عنها امتهانا.

وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا عن الإيمان، أو التقوى في الإيمان، أو الإنفاق في سبيل التقوى الإيمان‏ «1» يَسْتَبْدِلْ‏ اللّه بكم‏ قَوْماً غَيْرَكُمْ‏ و المخاطبون هنا في العهد المبكر المدني هم المسلمون العرب، قَوْماً غَيْرَكُمْ‏ علهم مسلمون من غير العرب، و كما

يروى عن نبي العجم و العرب من قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: (و الذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس) «2».

ثُمَّ لا يَكُونُوا هؤلاء الأغيار الأبرار أَمْثالَكُمْ‏ في التولي الإدبار عن الإنفاق و أمثاله في سبيل اللّه، و كما هو اليوم ملموس في المسلمين الفرس، رغم الضغوط المتواردة عليهم من السلطات، فإنفاقاتهم- وحدهم- في سبيل إعلاء كلمة اللّه، تربوا انفاقات سائر المسلمين، و سوف يكون الأكثر نصرة لتأسيس الدولة الاسلامية زمن القائم المهدي (ع) هم رجال من فارس كما يدل عليه الأثر، واقعا و حديثا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التولي هنا راجع الى ما ذكر في الآيتين من الإيمان و التقوى و الإنفاق.

(2)

الدر المنثور 6:- اخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و الترمذي و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الطبراني في الأوسط و البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال: تلا رسول اللّه (ص) هذه الآية «وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ» فقالوا: يا رسول اللّه (ص)! من هؤلاء الذين ان تولينا استبدلوا بنا؟ فضرب رسول اللّه (ص) على منكب سلمان ثم قال: هذا و قومه- و الذي نفسي بيده لو كان الايمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس.

أقول: و يشير اليه بعض ما ورد عن أئمة اهل البيت عليهم السلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 140

و إنها لنذارة رهيبة ختام سورة القتال، تنذر من يتولى من المسلمين العرب عن حكم اللّه، باستبدالهم بغيرهم، و كما فعل، أو لعلّ، كما و انذر اللّه بني إسرائيل بسحق ملكهم، و انتقاله إلى سواهم و كما فعل بنقل الشريعة عنهم إلى بني إسماعيل، و لكنما هذه الشريعة هي خاتمة الشرائع فلا تبدّل، و إنما يستبدل من يحملها و يتحمل أعباءها و يتولاها، بمن لا يحملها و يتولى عنها، و ان ليس للإنسان إلا ما سعى!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 141

سورة الفتح- مدنية- و آياتها تسع و عشرون‏

[سورة الفتح (48): الآيات 1 الى 10]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً (2) وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (3) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (4)

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ كانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (5) وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً (6) وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (7) إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (9)

إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى‏ نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفى‏ بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (10)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 142

. .. إنها سورة الفتح أوّلا بفتح مكة و أخيرا بفتح دائب لا قبل له لو ظلّوا مسلمين، تحمل بشارة الفتح المبين، تنزل سادسة الهجرة- عقيب صلح الحديبية و بيعة الرضوان- في كراع الغميم بين مكة و المدينة «1»، بعد ما يرجع الرسول و المؤمنون عن الحديبية.

و قبل فتح مكة بعامين، في حين كانت هجمات المشركين تترى عليهم في كل عام مرة او مرتين. فالمؤمنون صامدون في حربهم، و الذين في قلوبهم مرض حائدون: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ. وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ. أَ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَ لا هُمْ يَذَّكَّرُونَ» (9: 126).

و بطيّات هذه المناوشات بشارات الفتح تترى هنا و هناك تلو بعض، فالمؤمنون يستبشرون و المنافقون يسارعون بغية ما يبغون: «فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى‏ أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى‏ ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 74 أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: انصرف رسول الله (ص) من الحديبية الى المدينة حتى إذا كان بين المدينة و مكة نزلت عليه سورة الفتح «و مثله ما أخرجه ابن مردويه و البيهقي في الدلائل عن مروان و المسور بن مخرمة».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 143

(5: 52).

و في حين أن فرض القرآن نشرا و تطبيقا لزامه فتح مبين، أن يرجع الداعية إلى معاد الدعوة: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى‏ مَعادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى‏ وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» (28: 85) و كما يرى رؤياه المبشرة بما وعد و يصدقها اللّه: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً».

و إن هذا الفتح المبين هو المحبّب للمؤمنين: «وَ أُخْرى‏ تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» (61: 13) كما و انها منتظرة لبعض الكافرين، فلقد كانت أحياء العرب تنتظر بإسلامها فتح مكة قائلين: (إن ظهر محمد على قومه فهو نبي) فلما فتح اللّه مكة دخلوا في دين اللّه أفواجا، فلم تمض من فتح مكة سنتان حتى استوثقت الجزيرة إيمانا و لم يبق في سائر العرب إلا مظهر للإسلام و الحمد للّه.

و لقد نزلت سورة الفتح قبل سورة النصر، و بعد بشارات الفتح و النصر، بشارات و إشارات تتلاحق منذ الهجرة في طياتها، و إلى صلح الحديبية و إلى أن فتحت مكة فكان ما كان.

ترى أن سورة الفتح- إذا- تحمل بشارة فتح خيبر؟ و ما هو بجنب فتح الفتوح إلّا قطرة في يم، أو حلقة في فلاة فيّ!؟ و إن كان له موقعه في الجزيرة، فإن اليهود هناك كانت البقية الباقية من كفار الجزيرة، سوى مشركي مكة.

أم إنه صلح الحديبية، رغم أنه صلح و ليس حربا، خلاف ما زعمه الخليفة عمر، إذ يواجه رسول الهدى في حمية بعد الصلح، بقوله: «فلم تعطي الدنية في ديننا؟!» فيجيبه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلا:

«أنا عبد اللّه و رسوله لن أخالف أمره‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 144

و لن يضيعني»

و يجابهه مرة اخرى بقولته:

«و الله ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت و صد هدينا»

- و معه من معه من أضرابه-

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «بئس الكلام هذا أعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادكم و يسألونكم القضية و يرغبون إليكم في الإياب و قد كرهوا منكم ما كرهوا و قد أظفركم اللّه عليهم و ردكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح، أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون و لا تلوون على أحد و أنا أدعوكم في أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم و من أسفل منكم و إذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر و تظنون باللّه الظنونا؟ قال المسلمون: صدق اللّه و رسوله هو أعظم الفتوح، و اللّه يا نبي اللّه ما فكرنا فيما فكرت فيه و لأنت أعلم باللّه و بالأمور منا، فأنزل اللّه سورة الفتح‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 68- أخرجه البيهقي عن عروة (رض) ..

و

فيه أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و أبو داود و ابن المنذر و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي عن مجمع بن جارية الأنصاري (و ذكر قصة نزول السورة ثم قال) فقال رجل يا رسول اللّه (ص) أو فتح هو؟ قال: و الذي نفس محمد بيده انه لفتح.

و قد يلمح لنا تكرار هذا السؤال بعنف و اهانة من عمر قبل نزول السورة أيضا لحد يعرض الرسول (ص) عن جوابه في بعض ما سأل و هو يحسبه غضبا منه (ص).

كما

أخرج احمد و البخاري و الترمذي و النسائي و ابن حبان و ابن مردويه عن عمر بن الخطاب (رض) قال‏ كنا مع رسول اللّه (ص) في سفر فسألته عن شي‏ء ثلاث مرات فلم يرد علي فقلت في نفسي ثكلتك أمك يا بن الخطاب نزرت رسول اللّه (ص) ثلاث مرات فلم يرد عليك فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس و خشيت ان ينزل في قرآن فما لبثت أن سمعت صارخا يصرخ بي فرجعت و انا أظن انه نزل في شي‏ء فقال النبي (ص) لقد أنزلت علي الليلة سورة أحب إلي من الدنيا و ما فيها «إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ...».

أقول و لأن السورة نزلت بعد صلح الحديبية و هي أحب الى رسول اللّه من الدنيا و ما فيها، نعرف انها تحمل بشارة لمستقبل سار، أما انها تخبر بما حصل فليس فيه أمر جديد حتى يستسر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 145

و في الحق إذ ننظر إلى جوّ الحديبية نرى الانتصار ظاهرا في صلحها، حيث المشركين- و هم أكثر بكثير- هم المقدمون على ذلك الصلح، الواعدون الرسول- ضمن ما و عدوه في وثيقة الصلح- أن يزوروا البيت في العام القابل ثلاثة أيام، و لم يخطر بخلدهم أنهم على قلّة عددهم و عددهم يرجعون عن هذه السفرة سالمين:

«بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى‏ أَهْلِيهِمْ أَبَداً» و قد رجعوا منتصرين.

و إنها لموقف القوة و الشوكة الإسلامية، الشائكة كالنيازك النارية في عيون المشركين، التي تبشر بفتح مكة لهم‏ «آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ» إذ اعترفت حينه قريش بالنبي و الإسلام، و القوة الهائلة لنبي الإسلام، و التماسك المتين بينه و بين المؤمنين، فاعتبرت المسلمين أندادا لهم، فدفعتهم بالتي هي أحسن، في حين أنها غزت المدينة قبلها في سنتين مرتين .. فهذا فتح مبين للمؤمنين، مهما خفي على سواهم.

و فتح آخر هو أقوى: تفتّح قلوب كثير من المشركين بقبول الإسلام، فتحا للدعوة و الداعية، حيث أمن المتحاربون بعضهم بعضا، فالتقوا و تفاوضوا، فأسلم في هذه الفترة القصيرة طوعا، أضعاف ما كان مع الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في الحديبية، إذ كانوا ألفا و أربعمائة، ثم خرجوا عام الفتح و هم عشرة آلاف،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بها الرسول (ص) من جديد.

و حيث أن الرسول (ص) أجاب عمر بعد تركه ثلاث مرات- أجابه بنفس السورة- نتأكد هذا الأمر، و ان عمر كان قبل هذه الأسئلة يخاطب الرسول (ص) في حمية و تعنت.

و

قد أخرج ابن أبي شيبة و البخاري في تاريخه و ابو داود و النسائي و ابن جرير و الطبراني و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل عن ابن مسعود (رض) قال: أقبلنا من الحديبية مع رسول اللّه (ص) فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي و كان إذا أتاه اشتد عليه فسرى عنه و به من السرور ما شاء اللّه فأخبرنا انه أنزل عليه‏ «إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 146

إسلام خلال عامين يربو إسلامهم خلال تسعة عشر سنة، في عدد المحاربين، فقد و اللّه- و على حدّ تعبير رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-

كان أعظم فتح او أعظم الفتوح! «1»

و لكنه مع كل هذه المواصفات لا يبلغ مدى فتح الفتوح: فتح مكة المكرمة، و إنما له نصيبه من معنى الفتح قدر ما فتح السبيل الى فتح مكة، و كما

يروى عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً» قال: فتح مكة «2».

فصلح الحديبية فتح إذ فتح مجالا واسعا موفقا محبورا لفتح مكة، حيث أمنوا به بأس قريش فاتجهوا إلى تخليص و تطهير سائر الجزيرة عن سائر الكفار بفتح خيبر، فقسم الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم غنائمه بين من حضر الحديبية.

فلا تصدق رؤيا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ» و لا وعده برده إلى معاد، و لا دخول الناس في دين اللّه أفواجا، و لا ظهور الإسلام على الكفر ظاهرا باهرا، و لا فتح مبين، إلّا في فتح مكة المكرمة: عاصمة الرسالة الإسلامية و منطلق الدعوة و مولدها.

و في الحق إنه فتح الفتوح، كأنه الفتح لا سواه، و لأنه غاية الفتوح و بغية المسلمين لا سواه، إلّا كذرائع إليه، و لحدّ تراه أحب إلى قلب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الدنيا و ما فيها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما مضى في المتن- عن الدر المنثور 6: 68 ما أخرجه البيهقي عن عروة ..

(2)

الدر المنثور 6: 69- اخرج ابن مردويه عن عائشة (رض) قالت قال رسول اللّه (ص) انا فتحنا لك فتحا مبينا: قال: فتح مكة.

و

في نور الثقلين 5: 48 في حديث عن الامام الرضا (ع) فلما فتح اللّه على نبيه مكة قال له يا محمد: «إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً».

أقول: لعله يعني بما فتح اللّه فتحها في الإمضاء كما مضى، ثم و كافة الأحاديث الواردة في نزول السورة متفقة انها نزلت بعد الحديبية و ان الرسول (ص) سرّ بها سرورا بالغا، و ليس ذلك الا لأنها بشارة لمستقبل هو- طبعا- فتح مكة و ان كانت- ايضا- اشارة الى صلح الحديبية الذي هو فتح قبل الفتح- تأمل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 147

و هل هنا وجه للجمع بين الفتحين ان تحملهما سورة الفتح كما يروى، مع انها تحمل بشارة بفتح واحد «فَتْحاً مُبِيناً»؟

أقول: نعم، انه صلح الحديبية كذريعة، و هو فتح مكة كأصل، فهما واحد كيانا رغم أنهما اثنان كونا، فصيغة الماضي هنا نبأ بمضيّها لفتح مضى، و بشارة بتحقيقها بفتح يستقبل، فتحقق الوقوع في بشارة يجعلها كأمر مضى أو آكد و أقوى، كما أن وقوعه أيضا أمر مضى، و هنا أمران ماضيان: فتح مضى زمنا و كذريعة، و فتح مضى كيانا و إمضاء في وعده تعالى، فماض واحد هنا «فتحنا» يشير إلى اثنين، ثانيهما رغم استقباله أعلى و أولى، من أولاهما رغم مضيه فإنه كذريعة له أدنى.

و آيات من السورة نفسها تبين هذا التلاحم الوطيد بين الفتحين فتجعل فتح مكة- المستقبلة- إثابة للمبايعة تحت الشجرة: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً» كذلك و صدقا لرؤياه و جعلا لفتح قريب: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً».

فالفتح القريب المستقبل مجعول عند اللّه في الماضي و ممضى اثابة لمبايعة مرضية مضت، مجعول ممضى لحد يعبر عنه ب «إنا فتحنا» كأنه أمر مضى، لأنه ماض في الجعل و التقدير، مهما كان مستقبلا، و لأنه ماض- كذلك- في التحضير، حيث الصلح فتح لهذا الفتح مجالا واسعا ما له من نظير.

لهذا يحق أن يكون صلح الحديبية فتحا إذ فتح سبيلا إلى فتح مكة، و مبينا، حيث أبان كونه فتحا عند ما فتح مكة، و من ثم الفتح المبين و المبان هو فتح مكة فتح الفتوح!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 148

و قد تصرح أو تلمح آيات من السورة أنها نزلت بعد فتح مكة: وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً كما الأخرى تشير إلى جو الحديبية: هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ .. مما يدل ان السورة امتدت منذ الحديبية حتى فتح مكة، و لكي تشمل بشارة الفتحين كونا و كيانا، دلالة و زمانا!.

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً:

إِنَّا- هنا- تلمح إلى جمعية الصفات رحمانية و رحيمية، دون الذات المقدسة الإلهية، و إنما هي الصفات الفائضة بها الخيرات، الممكن افاضتها لَكَ‏ في فتوحات، و قد برزت هنا فَتْحاً مُبِيناً: أبانت و بينت شوكة الإسلام، شائكة في عيون المناوئين المحتلين عاصمة الرسالة و مركز الدعوة الأصيلة، و أبانت و شيكة و مهانة للمشركين، فَتْحاً هو فتح الفتوح، فإنه بوحدته كل الفتوح، حيث ترجع به العاصمة إلى زعيم الدولة فهذا الفتح‏ لَكَ‏ كمتن في الرسالة، و إن كان لكافة المسلمين كهوامش فيها. مُبِيناً يبين ما خفي من حق أو باطل، يبين وعد اللّه المتين لرسوله الأمين: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ‏ و مُبِيناً: يفصل و يبين بين الدوائر المتربصة بالرسول و بالمؤمنين، حيث انخمدت به نيران الهجمات و الهمجات عليه، و انجمدت كافة الحركات الثورات و العرقلات ضدّه، فَتْحاً فيه كل خير فائض لحدّ يعتبره الرسول خيرا من الدنيا و ما فيها و مما طلعت عليه الشمس و غربت، و ليس تنوين التنكير هنا توهينا و تنكيرا لمحتد الفتح، و إنما تعظيما له بحيث لا يعرف موقفه إلّا أن يعرّفه فاتحه كما عرف في مواصفات أربع:

فَتْحاً يدعم لصاحب هذه الرسالية السامية قوائم أربع لعرش الدعوة و الدعاية:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 149

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً، وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً:

و هنا يبرز ذنب الرسالة كأول دعامة من هذه الدعائم، نتيجة الفتح المبين، أ تراه عصيانا منه لربه يستحق به فتح الفتوح، فما هي الصلة القريبة أو البعيدة بين عصيانه هو و إن يفتح اللّه له مكة؟ إن هي إلّا مثل ما يزعمه الصليبيون بحق المسيح أنه صلب و بصلبه لعن و بلعنه تحمّل جميع لعنات الناموس، فإن أباه الإله لم يجد بدا في سبيل غفران ذنوب أمته إلّا تفدية الصلب!.

فهلّا يقدر الإله القدير أن يغفر ما تقدم من ذنب رسوله و ما تأخر إلا بفتح مكة؟ لا نجد أية صلة بين غفر الذنب العصيان و فتح الفتوح! ترى و ما هو هذا العصيان الذي لا يغفر له إلّا بفتح مكة؟ و كيف يغفر اللّه ذنبا هكذا عظيما من عبده بما يفعل اللّه و دون استغفار؟ و دون أن يقف لحد الغفر عما تقدم، بل و ما تأخر؟ و هو ذنب واحد «1» شامل حياة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما تقدم و ما تأخر، ذنب عاش حياته و عاشته حياته‏ «2» مما أعظمه! أسئلة لا جواب عنها ما دام الذنب عصيانا، اللّهم إلّا أن يتحول إلى أعظم الطاعة و الإيمان، و أنعم النعم في تقدم الإسلام نتيجة الفتح المبين!.

في الحق إن الذين فسروا الذنب هنا بالعصيان أخطئوا في تفسيرهم لغويا و تفسيريا معا فابتلوا بفرية العصيان على رسول الهدى و هو أوّل العابدين ثم تفرقوا في الذود عنه أيادي سبا «3» أو صمد الأجهلون منهم على فريتهم قائلين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2). تستفاد وحدة الذنب من «من ذنبك» فلم يقل «من ذنوبك».

(3) من قائل انه يعني ذنب أمته او شيعته، و هل من فصاحة اللفظ او بلاغة المعنى ان ينسب اللّه ذنب أمته اليه (ص) ثم يغفره بفتح مكة الذي لا صلة بينه و بين غفر الذنب.

و من قائل ان ما تقدم ذنب أبويه آدم و حواء ببركته و ما تأخر مغفرة ذنوب أمته بدعائه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 150

إنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يخل عن أخطاء! أم ماذا؟.

وليتهم فكروا في محتد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، على ضوء القرآن نفسه، و آية الذنب نفسها، و لغة الذنب و بيئته، لكي يعرفوا أنه ذروة الطاعة هنا لحدّ يحققها كمرامها الفتح المبين.

فإنه أمر أن يكون أوّل من أسلم، أوّلية الأولوية في الإسلام: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ‏ ... قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (6: 15) فهل خالف و لم يخف؟ كلّا فإنه أوّل العابدين: قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (43: 81) و هل ينسب هكذا عصيان إلى أول العابدين؟ و كل عصيان غواية: وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏ (20: 121) و قد نفيت عنه الغواية: ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى‏ (3: 53) و كل عصيان من سلطان الشيطان: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (15: 42).

.. ثم و هو شهيد الشهداء يوم الدنيا و يوم الدين: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى‏ هؤُلاءِ (16: 92) و أخيرا وَ إِنَّكَ لَعَلى‏ خُلُقٍ عَظِيمٍ (68: 4) و ترى الخلق العظيم عند اللّه و هو إله العظمة في الخلق، هل يناسبه العصيان العظيم؟! و وحدة الذنب: ذَنْبِكَ‏ تلميحة أو تصريحة بوحدة العصيان- لو كان- عصيان بوحدته يشمل زمن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و آيات عدة تنص ان اللّه غفر لهما قبل الفتح بألوف من السنين! و قائل بالتقدير، ان لو كان لك ذنب قبله أو بعده لغفر اللّه لك.

و قائل انه دعاء له بالغفر، و هل ان اللّه يدعو لعبده ان يغفر ذنبه و من يغفر الذنوب الا اللّه؟! و قائل انه ترك الاولى، و الحق ان تركه و ما سبقه من تأويل اولى، فانها تأويلات رديئة تشوه وجه القرآن!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 151

الحياة الرسالية أو حياة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ كائن معه عائش إياه قبل الفتح و بعده، و حتى بعد غفره له، فما هذا العصيان العظيم الذي عاشه الرسول دون استغفار، ما أعظمه و أطوله و أعضله، لحد لا يغفر إلا بفتح مكة دونما أية صلة بينه و بينه؟! ثم و لا تجد أيّ عاص في العالمين يعيش عصيانا لربه دون مهل حتى المشركين، فهل ينسب هكذا عصيان إلى أفضل الخلق أجمعين، فما أخطأه تفسيرا و ألعنه بحق أوّل العابدين! في الحق ان الذنب كذنب ليس عصيانا و لا أي خطأ و لا تركا للأولى، فهو لغويا في الأصل الأخذ بذنب الشي‏ء، و يستعمل في كل ما يستوخم عقباه، فإن كانت هي عقبى الآخرة فشر عصيان و أعضله، أو كانت هي عقبى الدنيا فخير طاعة و أفضله، إذا كانت عقبى يستوخمها أهل الدنيا، ممن يحاربون دعاة الحق، فالرسالة الإلهية هي أخطر ذنب، إذ تستوخم عقبى الدنيا، و تجند الطاقات الشيطانية ضد صاحب الرسالة، يرصدون كل مرصد لخفق صوتها و محق صيتها.

فكلما كانت الرسالة أشمل، و صاحبه أصمد و أنبل، كان ذنبها: تبعتها و عقابها في الدنيا، أشكل و أعضل، كما و الحفاظ عليها، و صدّ العراقيل عنها، و غفر ذنبها- طبعا- أصعب و أفضل.

و الرسالة الإسلامية هي أشمل الرسالات في الطول التاريخي و العرض الجغرافي، و حاملها أسمى و أنبل حملة الرسالات، و انها تشكل خطرا حاسما لجذور الكفر و الطغيان، مما يبعث العصاة و الطغاة ان يجندوا كافة الطاقات لإماتتها في نطفتها، و إماطتها و حطّها عن درجتها و فاعليتها، و قد فعلوا ما فعلوا، و افتعلوا ما افتعلوا، فرموه بالسحر و الشعر و الكهانة و الجنون،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 152

و سخروا منه و ممن يؤمن به، و آذوه ما لم يؤذ أحد من البنين: ضربوه و أدموه و كسروا رباعيته و حاصروه و أهليه و المؤمنين، ثم اضطروه للهجرة من عاصمة الرسالة الى ما هاجره، و إن كان أسس فيها دولة الإسلام فأصبحت مبدأ التاريخ و منطلق الدولة.

فهل من غفر لهذا الذنب، و صدّ لهذا الطغيان، و حدّ لذلك البأس الدائب إلا فتح العاصمة، إذ فتحت به حصون الضلالة، فلم تبق بعد في الجزيرة أية قائمة من قوائم الشرك و الإلحاد، و من ثم انتشرت و توسعت دولة الإسلام من عاصمتها أم القرى، الى كل القرى.

فقد كان للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كرسول ذنب واحد، و من ثم غفر واحد، فذنبه الوحيد رسالته العالمية الخالدة، الأكيدة الوطيدة، و هي التي عاشها و عاشته «ما تقدم» على فتح مكة «وَ ما تَأَخَّرَ» عن فتح مكة، لكنها كانت محظورة مخطورة قبله، فأصبحت مغفورة مستورة بعده، غفر الإزالة للتبعات ممن آمن، و غفر الستر لها لمن أسلم منافقا ألا تظهر رغم كامنه، و غفر الجبران عما سلف من كل ما أصابه قبل الفتح ان يتناساه الرسول و يستهينه و جاه الفتح المبين.

فأصبحت هذه الرسالة محفوظة عن كيد الكائدين بذلك الفتح المبين، ذنب واحد فتحه فتح واحد: ذنب بوحدته يشمل كل ذنب: فرسالته و دعوته و دعايته و هو بجملته، كان ذنبا كله بحساب الكافرين، فأصبح الفتح المبين غفرا له كله «ما تقدم و ما تأخر»: فتحا لقوائم الإسلام الأربع: «ليغفر .. و يتم ..

و يهديك .. و ينصرك ..».

و من قبل كانت تنزل عليه آيات تترى بهذا الشأن، آمرة له بالصبر: «فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ» (46: 35) «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ» (68: 48) «وَ اصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 153

وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا» (73: 10) و واعدة له الحكم: «وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا» (52: 48) أو آمرة له بالاستغفار لذنبه و للمؤمنين:

لرسالته الخطيرة و إيمانهم الخطير: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْواكُمْ (47: 22) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ (40: 55).

حيث النبي و المؤمنون معه كانوا في خطر المشركين طيلة العهد بمكة، و بعد الهجرة الى فتح مكة، و قد أمر الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ان يطلب هنا و هناك الفرج العظيم و الغفر العميم، ان يذاد عنهم كوامن الشر، غفرا لهم و سترا عما كان يتهددهم بالانهيار، و قد استجاب له ربه فأنجز له وعده و نصر عبده و أعز جنده، و هزم الأحزاب وحده في فتح مكة، ليشيد له أركان الدعوة: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ، وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً. وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً» و من ثم: لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ .. وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ ...!

و ما ذنب الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هنا إلّا كذنب الرسول موسى: ذنب الرسالة و تطبيقها: وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (26: 14) فإن قتل القبطي المشرك، المقاتل للسبطي الموحد، لم يكن ذنب العصيان في دين اللّه، و إنما في دين الطاغية فرعون، و من عقباه في الدنيا ان عقّب الرسالة الموسوية الى أمد بعيد، إلا ان ذنب الرسالة الاسلامية عجل في تقدمها و شمولها بالفتح المبين.

فالذنب إذا له مصداقان: أعلى الطاعة و أطغى العصيان، و إنما فاعله و قرائنه و مواصفاته، هي التي تقرر موقف الطاعة او العصيان، و موقف الرسول الرسالي، و مواصفات الآيات لهذا الرسول الألمعي، و وحدة الذنب هنا طيلة الرسالة او الحياة، و لزوم رباط وطيد بين فتح مكة و غفر ذنبه ما تقدم منه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 154

و ما تأخر، انها عساكر أقوياء أمناء تذود عن ساحة الرسول و صمة العصيان، و تختصه بأفضل مراحل الرسالة و الايمان! إن الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- كان بهذا المعنى- من أذنب الخلق، ذنب العصيان عن ميول الطغاة بما جاء به في دعوته الباهظة لأهوائهم، الجاهزة لاجتثات جذورهم، الدافعة عن حوزة الإسلام، التي ارغمتهم و حطتهم عن جبروتهم و طاغوتهم.

و ما استعمال الذنب كثيرا في موارد العصيان‏ «1» بالذي يحوله دوما إلى العصيان، كما الإنسان لو استعمل كثيرا في الأشرار، لا يحول ذلك دون استعماله في الأخيار، و انما يتبع القرائن في مواردها، فيعطى الحق في معاني هذه الألفاظ كما تعنى.

«.. ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ» فما كانوا يكمنون له من قبل و من بعد صار مبتورا بالفتح، و ما أصابوه من قبل أو أرادوه من بعد صار مجبورا بالفتح، فأصبح الفتح له مفتاحا محبورا لكل فتح.

و رغم ما فسر به الجاهلون ذنب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخذ بعد الفتح في تعبده لربه أكثر مما مضى، فلو كان هو ذنب العصيان لعكس أمر الطاعة و تساهل عنها إذ غفر له ما تأخر كما تقدم، لكنه كان يجيب السائلين: «أ فلا أكون عبدا شكورا»؟ تفسيرا لذنبه خلاف ما فسروه و استغلوه، و تبكيتا لمن يستغل سوء التفسير ذريعة للإباحية و اللامبالات، كلا فإنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم استفاض بعد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الحق أن تفسر لغات القرآن كما كانت تعنى منها وقت النزول، حيث اللغات قد تجر معها معاني اخرى على طول الزمن و تختلف الاستعمالات، و قد ذكر الذنب في القرآن بمختلف الصيغ 37 مرة و الذنب مرتين و هذا هو اصل الذنب كما عن الراغب في غريب القرآن، و الاول قد يعنى منه الطاعة او المعصية و قد تعمهما، و كل حسب القرائن الدالة، و ما المستعمل في العصيان هنا اكثر من غيره مهما كانت الاكثرية الساحقة تعنى العصيان في غير القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 155

ذلك من معين الرحمة أمعن مما مضى و أمتن، إذ

«صام و صلى حتى انتفخت قدماه و تعبد حتى صار كالشن البالي فقيل له أ تفعل هذا بنفسك و قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر؟ قال: أ فلا أكون عبدا شكورا» «1»

و ليست شاكرية العبد في عبادته بالتي تجعله كالشن البالي و متورم القدمين، لو كان غفر ما تأخر من ذنبه، عفوا عن مطلق عصيانه، كضمان له فيما يأتي كما ضمن ما مضى، إلا عند من غرب عقله و عزب لبّه! .. و إنما زاد في شكره لربه لنعمة الفتح المبين.

وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ‏ و هذه هي الدعامة الثانية لعرش الدولة الإسلامية:

«إتمام النعمة» فإن النعمة ابتدأت بالإسلام منذ بزوغه، و لكنها كانت سجالا:

خليطة بالغمة للأمة و النقمة لرسول الأمة، إذ كانت الغوائل من هنا و هناك تترى عليه و عليهم تباعا تلو بعض، و إن كانت في المدينة أقل.

إنه كان نعمة التأليف و الوحدة فأكملت بفتح مكة الذي وحد الجزيرة عن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 71- اخرج ابن مردويه و البيهقي في الأسماء و الصفات و ابن عساكر عن أبي هريرة ان النبي (ص) لما نزلت‏ «إِنَّا فَتَحْنا ..» صام و ..

و

من طريق اهل البيت عن الامام الرضا عليه السلام في جوابه للمأمون‏ إذ سأله: يا ابن رسول اللّه (ص)! أليس من قولك ان الأنبياء معصومون؟ قال: بلى- قال: فما معنى قول اللّه- الى ان قال-: فأخبرني عن قول اللّه تعالى: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ»؟

قال الرضا (ع): لم يكن احد عند مشركي مكة أعظم ذنبا من رسول اللّه (ص) لأنهم كانوا يعبدون من دون اللّه ثلاثمائة و ستين صنما فلما جاءهم بالدعوة الى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم و عظم و قالوا اجعل الآلهة إلها واحدا ... فلما فتح اللّه على نبيه مكة قال له يا محمد! «إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ» عند مشركي أهل مكة بدعاءك توحيد اللّه فيما تقدم و ما تأخر، لأن مشركي مكة أسلم بعضهم و خرج بعضهم عن مكة و من بقي منهم لم يقدر على انكار التوحيد إذا دعى الناس اليه، فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفورا بظهوره عليهم فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن (ع)!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 156

آخرها ثم إلى غيرها: «وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً» (3: 103).

و كان نعمة الغلبة أحيانا و سجالا فأصبحت الآن تامة لا تفسح لأحد مجالا في حربهم: «اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ» (5: 11) و أما الآن فلا ايدي معادية تبسط او تهم، إذ قطعت بفتح مكة، و من قبل كانت تهم و تبسط، و ان كانت تكف بجنود إلهية غير مرئية أم ماذا: «اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً. إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا» (33: 10) كما كان يوم الأحزاب.

و أخيرا إكمال الدين أحكاميا، و تخليدا للدولة الإسلامية بتأبيد زعامة سليمة تقطع طموح من كانوا يتحينون فرصة الانقلاب بموت الرسول، تخليدها بذلك الانتصاب الكبير يوم الغدير، راجعا عن حجة الوداع: «.. الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ. الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً ...» (5: 3) إكمالا في جانبي الشريعة و زعامتها الخالدة، فيأسا للذين كفروا من إفنائها أو اغتصاب و احتلال زعامتها، اللهم إلا تدخلا جانبيا لا يجتثها من جذورها، إلا أن يخرجوا عن الدين، و لكنه مدعم بهاتين الدعامتين مهما تركته حملته، فبناية الدعوة مدعمة بما يضمن بقاءها كما فعل اللّه، و لكنها لا تضمن إلا لمن تضمنها كما أراد اللّه، ثم تتهدم في نفوس صغار صغار لا يتضمنونها، و هي باقية في كتاب الدعوة، في ضمير الكون و عمقه! مجالا واسعا لمن يتحملون و يتضمنون: تطبيقا لها بزعامتها السليمة كما بدأت بالبشير النذير، و كما تخلدت يوم الغدير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 157

وَ يَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً كدعامة ثالثة لعرش الرسالة، و ترى أن صاحب الرسالة لم يكن على صراط مستقيم منذ الدعوة إلى ثامنة الهجرة التي فيها فتحت مكة، و من ثم اهتدي إلى صراط مستقيم؟!، و هو أول معتصم باللّه‏ «وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (3: 101) و هو أفضل مهدي إلى صراط مستقيم طول الرسالة: «قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ ..» (6: 161) بل و هو على صراط مستقيم محيطا عليه لزاما به: «وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (36: 4) كيف لا «وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (42: 52)!.

في الحق إن الصراط المستقيم له درجات و جنبات، فأولى الدرجات هداية الدلالة له و قد هدي صاحب هذه الرسالة منذ البدء، و قبل الرسالة كان مهديا إليه خاصا لنفسه حتى تهيأ للعالمين، ثم الهداية الثانية هي الاستمرار عليه مستزيدا فيه بعصمة إلهية، بعد محاولات بشرية و رسولية، و هو دوما دون انقطاع بحاجة ماسة إلى هذه العصمة،: «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» (17: 74) و هذه الدرجة هي التي يطلبها هو و المؤمنون- على درجته و درجاتهم- في صلواتهم ليل نهار: «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ» ثبتنا و أدم لنا توفيقك، فلو شاء اللّه لذهب بالذي أوحى إليه فإنه ليس لزاما للرب إلا بما كتب على نفسه الرحمة: وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلًا. إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (17: 87).

هذا- و لكنما الدرجة هذه لا تختص بما بعد الفتح، فإنه مهدي بها على طول الخط، فإنما الاختلاف قبل الفتح في الجنبات لا الدرجات: صراطا مستقيما للداعية في الدعوة، حيث أزيلت الشبكات و الأشواك و العقبات عن طريقها بفتح مكة، و صراطا مستقيما لتقبل الدعوة الإسلامية، حيث الفتح فتح سبيلا واسعا لمن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 158

كانوا في شك من صاحب الدعوة، و صراطا مستقيما في تكميل الدين و إتمام النعمة و كما حصل بفتح مكة، و صراطا مستقيما في العبادة و تطبيق الشريعة إذ زالت عنهم التقية، و انقلبت على المشركين، إذ أسلم كثير منهم، مهما نافق آخرون عائشين تحت الرقابة الإسلامية و رايتها و رعايتها.

وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً كدعامة رابعة لهذه الدولة السامية، نصرا في كافة الميادين، و إلا فإنه و النبيون معه منصورون: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (37: 172) لا هم فحسب، بل و المؤمنون أيضا، و لا في الآخرة فحسب بل في الأولى أيضا: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (40: 51).

هذا- و لكنما النصر الموعود عزيز، مهما كان سواه له و لسواه سجالا قبل الفتح: قد يغلبون و قد يغلبون هنا في الأولى، مهما كانوا غالبين معنى و في الآخرة، فكل نصر لكل منصور قبل الفتح المبين كان عضالا و سجالا فيه مجال قل أو كثر لأطراف النضال، و أما بعد الفتح فنصر عزيز يتغلب كافة الحركات المضادة في الجزيرة و حولها زمن الرسول، و الزمن التي كانت الدولة الإسلامية- أو تكون- ناحية منحى الرسول، اللهم إلا في فيما شذت عنه فتشذ عن النصر العزيز و لحد قد يتغلب العدو الكافر المستعمر فلا نصر فضلا عن العزيز إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ‏.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً.

ما هي السكينة و على من تنزل؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 159

إنها حالة روحانية إيمانية «1» تنزل على قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم و اطمئنانا مع اطمئنانهم، تستكن فيها فتطمئنها و تسكنها «2» عما ربما تردها من فورات و اضطرابات تجيش بشتى المشاعر و تستجيش مختلف المظاهر، إذ تلقي ظلالا كريمة على هذه القلوب من نور، فتصبح نورا على نور فتظل في ظلها طمأنينة و راحة، يقينا و ثقة، زيادة عما كان من الإيمان.

فلا مهبط- إذا- لسكينة الايمان إلا الإيمان على درجاته و جنباته و حالاته، و يشترك فيها المؤمنون أجمع، كلّ حسب قابلياته و متطلباته، نزولا من أعلى الإيمان كما للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الى أدناه كما لأدنى المؤمنين، و صعودا من أدناه الى أعلاه و بينهم متوسطات، فلا تشذ قلبا من هذه و تلك إلا و تنزل فيه‏ «لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ».

إن السكينة في القرآن نجدها في صنوف مثلثة من الآيات: بين نازلة على المؤمنين كما في ثلاث: هذه، و أخرى هنا «فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً» (18) و ثالثة: «إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ..» (2: 248).

و بين شاملة للرسول و المؤمنين في اثنتين: هنا و في التوبة: فأنزل اللّه- «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ- سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» (26) (9: 26).

و بين خاصة بالرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في التوبة- ايضا- تاركة صاحبه في الغار دون أية سكينة: «.. إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها ..» (9: 40).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تظافرت الأحاديث عن الصادقين عليهما السلام بكلمة واحدة ان‏

«السكينة هي الايمان».

(2) هي الفعلية بمعنى الساكنة او المسكونة لأنها تلازم القلب و تسكن فيه لتسكّنه عن اضطراب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 160

ترى لماذا يحرم هذا اليتيم في هذه اليتيمة عن السكينة و هو صاحبه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في الغار، و على أمسّ الحاجة إليها إذ حزن لحد نهاه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عنه: «لا تحزن» في حين تنزل على الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يحزن؟! «1» انا لا ادري! ثم: الإيمان عمل كله و القول بعض ذلك العمل .. حالات درجات و طبقات و منازل، فمنه التام المنتهي تمامه، و منه الناقص المبيّن نقصانه، و منه الراجح الزائد رجحانه: «وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ..» (9: 124)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد يذاد هنا عن ساحة الخليفة بأنه النازل عليه السكينة هنا فانه الذي حزن و لكي تكمل صحبته بإيمانه- و ترى كيف يختص اللّه أبا بكر بسكينته و إنزال جنود عليه غير مرئية و جعله كلمة اللّه العليا- ثم يحرم رسوله عن هذه و تلك، و هو الذي تنزل عليه سكينة العصمة و الطمأنينة دوما- مع المؤمنين و منفردا كما مضت آياته.

ثم ترى من هو المضمر في «إلا تنصروه» إلا الرسول (ص) فهو هو إذا المنصور في الغار «من داخل قلبه»: بانزال السكينة عليه «و من خارجه» بتأييده بجنود غير مرئية، و جعله كلمة اللّه العليا: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ ..» و لم يأت ذكر الخليفة أبي بكر إلا هامشيا «إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ» ثم نرى ان الرسول هو ركن الكلام هنا و هناك «1- الا تنصروه 2- فقد نصره الله 3- إذ أخرجه .. 4- ثاني اثنين 5- إذ يقول 6- لصاحبه ..» و بعد هذه الستة الصريحة في الرسول (ص) ما هذا الذي يحول وجه الكلام و نتيجة النصرة: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها ... وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا» يحول هذا المثلث البارع من نصر اللّه الموعودة المحققة- عنه الى صاحبه، أ تحويلا لمهمة الرسالة عن الرسول (ص) الى صاحبه في الغار ترفيعا لساحة الخليفة، و تخفيضا لساحة الرسالة.

او تحفظ الكرامتين ان «عليه» هو صاحبه الذي نزلت عليه السكينة ثم‏ «أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها ..» هو الرسول المؤيد بجنود مرئية- و لكنك تحط من كرامة الفصاحة القرآنية: إن ضميرين تلو بعض كل يرجع إلى كل منهما دون قرينة تدل! أللهم إلا أن تحسبهما واحدا كأن الرسول هو صاحبه، فليفرد ضميرهما و يردفا؟ أنا لا ادري! و لا يمكن تفهم معنى الآية إلّا بعد التحلل عن التعصبات الراسبة!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 161

«إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً» (18: 13)

فبتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، و بالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند اللّه، و بالنقصان دخل المفرطون النار» «1».

إذا فالسكينة النازلة على الرسول عصمة و تسديد يحتاجه الرسول دوما كبشر و كرسول، مهما كان في أكمل الإيمان، و النازلة على من دونه لاستكمال الإيمان، أو الحفاظ على الإيمان في هجمات الاضطراب التي تهدد كيان الايمان، و من ثم إذ لا سكينة فلا إيمان، و إنما كفر او إسلام نفاق او ما لم يصل بعد الى إيمان: «قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» (49: 14).

و واقع السكينة في صلح الحديبية هي مجمع حفاظ الإيمان و زيادته- و إن كان النص أجمل عن حفاظه الى زيادته- إذ كان البعض في ذلك الجو الخطير في خطر الخروج عن الإيمان، كمن يخاطب الرسول بحمية: «لم تعطي الدنية في ديننا»؟ فيجيبه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«أنا عبد الله و رسوله لن أخالف أمره و لن يضيعني»!

ثم الآخرون تزدادهم السكنية إيمانا على إيمان حيث صمدوا و صابروا على عضال المحنة فلم يشكوا، و أما الرسول فهو القمة في الإيمان، فلا يحتاج هنا الى سكينة، اللهم إلّا عصمة و تسديدا يحتاجه في كل زمان و مكان، و لذلك لا يردف هو بالمؤمنين هنا.

لقد مرت على المؤمنين في الحديبية مواقف مرة عملت في قلوبهم ما عملت، من تطلّع الى تصديق رؤيا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ ..» إذ حسبه بعض أنه الآن، و كما يروى عن الخليفة عمر أنه جاء الخليفة أبا بكر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ملتقطات من حديث مفصل حول مراتب الإيمان عن الإمام الصادق (ع) (نور الثقلين 5: 59 عن اصول الكافي).

(الفرقان- م 11).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 162

مهتاجا ثائرا بقوله: أليس كان يحدثنا أنه سنأتي البيت و نطوف به؟ قال: بلى! أ فأخبرك أنك تأتيه العام؟ قال: لا .. فتركه الى النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسأله سؤاله‏

فأجابه: أ فأخبرتك أنك تأتيه العام؟ قال: لا .. قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«فإنك آتيه و مطوف به».

فهذه الصورة التي تزعزع أركان إيمان الخليفة عمر، ترى ماذا تفعل بمن دونه، فإنما السكينة في قلبه و أمثاله حفاظ على الإيمان، و في قلوب المؤمنين فوقه‏ «لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ ..» و لم يكن الأمر- الذي انتهى الى الصلح الفتح- لم يكن هينا على نفوسهم، فأصبحوا- على درجات إيمانهم أم ماذا- في تضيّق من صدورهم و قلوبهم، و ضغط على نفوسهم، حتى أنزل اللّه السكينة في قلوبهم فارتاحوا الى طمأنينة و الحمد للّه!.

و إضافة إلى السكينة الإلهية النازلة في قلوب المؤمنين كجند إلهي في دواخل ذواتهم، التي تطمئنهم في الهزاهز، فجنود السماوات و الأرض كذلك مجندة من خارج ذواتهم لنصرتهم: «وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً» فما هي جنود السماوات و الأرض، أو من هم؟

ليس اللّه سبحانه كمن يجند من لا طاقة له بمرامه، أو لا يمشي إلى مرامه، أو يقلّ بجنب عدوه، فالكون كله جنوده، مما يرى و ما لا يرى، من سماوات و أرض و من أو ما فيهما أو بينهما، فلا يملك أعداء اللّه على كثرتهم في حسابنا، لا كثيرا و لا قليلا من عدة أو عدة، بجنب ما يملكه اللّه من جنود، تكفي طيرهم الأبابيل ان ترمى أصحاب الفيل بحجارة من سجيل، تجعلهم كعصف مأكول! و لكنما السنة الإلهية جارية في نطاق الأسباب، فلا يرسل جنوده إلا لنصرة من جنّد طاقاته كلها في سبيل اللّه، دونما كسل و لا زحف و لا فشل، و بعد إذ كلت قواهم، فقد يبعث جنودا: إلى قلوبهم كالسكينة، و إليهم كجنود مرئية و سواها بما نبه عليها في طيات آيات تتحدث عن النصر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 163

الآية الكرامة، في ميادين النضال الكرامة: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها» (9: 40) «فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها ..» (33: 9)

«وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها ..» (9: 26)!!.

و ترى من الذي يعلم جنود الرب إلّا هو، بعددهم و عددهم؟: «وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَ ما هِيَ إِلَّا ذِكْرى‏ لِلْبَشَرِ» (74: 31) ليس لأن اللّه بحاجة الى جنود هي خلقه الفقراء إليه، لولاهم لما تغلّب على أعدائه، و إنما هي ذكرى للبشر، و كمناصرات عينيه تبصر، او لا ترى و لا تبصر «وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً» قبل خلق الجنود و بعثهم و بعده: عليما بضعفكم، حكيما في جبركم بنصركم، و من حكمته أن يرسل جنودا لكي نلمس نصره، فلا نستغله- لو كان مجرد مشيئة إلهية- أنه منّا، أو أن خلقه يتمنّع عن تحقيق أمره في نصره، فجنوده تجنّد على علمه و بحكمته، «وَ ما هِيَ إِلَّا ذِكْرى‏ لِلْبَشَرِ»!:

ثم هذا الفتح المبين، و إنزال السكينة- قبله- في قلوب المؤمنين، و إرسال جنود سماواتية و أرضية، إنها تهدف ضمن ما تهدف من تعزيز الرسول الأمين:

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ كانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً. وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً. وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً»:

جنود إلهية هنا بعزّة اللّه و حكمته: حكمة الغلبة على عدوه بعد عزته، و هناك بعلمه و حكمته: حكمة الانتصار لعباده بعد علمه، تحتف بالمؤمنين و المؤمنات لإدخالهم جنات، و بمن سواهم لإدخالهم دركات، كما جنّد كلّ نفس لما إليه المصير، و اللّه بما يعملون بصير.

ثم و هذه السكينة و ذلك الفتح المبين هما للمؤمنين و المؤمنات عذب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 164

و للمنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات عذاب فوق العذاب، و اللّه شديد العقاب! هناك للنبي و المؤمنين بعد السكينة و الفتح المبين أربع درجات و الى الجنة، و هنا للمنافقين و المشركين أربع دركات و إلى النار هي: «عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ- وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ- وَ لَعَنَهُمْ- وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً» أربع و جاه أربع و أين أربع من أربع؟: درجات و دركات! و ترى لماذا يتقدم دخول الجنات على تكفير السيئات، و لا دخول في الجنات إلا بعد تكفير السيئات؟ علّه لأنه الأصل المقدم في المنزلة، مهما كان مؤخرا في المنزل: «وَ كانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً»: تكفيرا للسيئات و من ثم دخول في الجنات! ثم و هنا و هناك: عظيما في حساب اللّه، عظيما في الحق، عظيما في نفوس من ينالونه، و عظيما في الاولى و عظيما في الاخرى! ترى و كيف يتقدم المنافقون و المنافقات على المشركين و المشركات؟ كأنه لأن درك النفاق أسفل من درك الشرك: «إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» (4: 145) فإن المنافق أقرب خطرا و أصعب وقعا على المؤمنين من المشرك، فإنه متظاهر بما بطن فيفر منه و يجتنب، و ذلك يتظاهر خلاف ما بطن و هنا الويل!.

ثم هما مشتركان في ظن السوء باللّه، مهما اختلفت دركاته، حسب دركات الشرك و النفاق و ضعف الإيمان، كما حصل من الخليفة عمر في خطابه الهائج للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في صلح الحديبية: «لم تعطي الدنية في ديننا»؟ و كقولته الثانية له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أليس كنت تحدثنا أنه سنأتي البيت و نطوف»؟ فإنهما من ظن السوء باللّه كأنه خالف وعده، و ظن السوء برسول اللّه أنه أعطى الدنية في دين اللّه، و ترى إن اللّه يبعث رسولا يعطي الدنية في دين اللّه؟!.

«بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى‏ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَ زُيِّنَ ذلِكَ فِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 165

قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً» (12) و هم المخلفون من الأعراب، و كل ظن باللّه غير الحق هو ظن السوء و إن كان دركات‏ «يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ ..» (3: 154).

و في الحق إن قلب المؤمن و سواه متقابلان في الظن باللّه، حسب درجات الإيمان و دركات اللاإيمان، فالقلب المؤمن دوما يتوقع الخير من اللّه، لأنه موصل النياط و مربوط النيّات باللّه، و فيض الخير لا ينقطع من قبل اللّه، و القلب المقلوب غير المؤمن مقطوع الصلة باللّه، يتوقع الشر منه إليه و إلى المؤمنين أيضا، دونما ثقة باللّه إذ لا نياط له و لا نيّات تربطه باللّه، «عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ»:

دائرة سوء على المنافقين و المشركين كما هنا و أخرى تخص المنافقين‏ «وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (9: 98).

و هذا إخبار إنذار من اللّه و ليس دعاء رغم ما يزعم، فمن هو المدعو للّه في دعائه لو دعى؟ و ليست الدعاء إلا فقرا و قصورا عما يرام، فتدعو من يحقق المرام، و ليس اللّه عاجزا عن تحقيق ما يرام، و لا إله فوقه حتى يدعوه، أو معه حتى يشاركه فيما يدعوه، كلا! و إنما هو إخبار أن السوء- كل سوء- يدور حولهم ما عاشوا و بعد موتهم، لزام‏ «عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ» الذي يظنونه من اللّه و على المؤمنين، و إنما عليهم بما قدمت أيديهم و ان اللّه ليس بظلام للعبيد.

و من ثم‏ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ‏ لحد لا ترجى رحمته إذ وَ لَعَنَهُمْ‏: أبعدهم عنه فلا يرجى قربه حتى يعفو عنهم، و أخيرا «وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً».

ثم إن السوء قد يكون في زاوية من زوايا الحياة هنا و في الاخرى، و قد يعيش الحياة و تعيشه متعرقا مندغما في أهله كدائرة مائرة تدور حولهم بما رسموها، كما الخطيئة المتكررة كذلك تحيط بالخاطئ و تدور: «بَلى‏ مَنْ كَسَبَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 166

سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» (2: 81) و كلما كانت أسوء و آكد فإحاطته أحوط و أخلد، و ترى إذا كانت هي ظن السوء باللّه، و هو من أسوء الكفر باللّه، فكيف إذا تكون دائرة السوء؟ انها تلحقها ثالوث الغضب و اللعنة و جهنم المصير، و من ثم:

إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً .. رسالة عالمية خالدة تنحو منحى مثلث الدعوة المباركة: «شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً» تكافح ثالوث النفاق و الشرك في دركات الغضب و اللعنة و جهنم المصير، ثلاث بثلاث، و أين ثلاث من ثلاث! ثم هنا زيادة: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً، وَ داعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً» (33: 46): دعوة وضائة كسراج منير بهذه الثلاث، كما و أن هذه الشهادة تمكين لهذا البشير النذير: «وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً» (17: 105) فشهادة الداعي السراج المنير تقوية له كبشير نذير:

«شاهدا» يشهد للّه برسالته، بقوله و عمله و تقريره، فإنه على بينة من ربه، و هو بنفسه آية معجزة إلهية، كذلك و بقرآنه المبين، فقرآن محمد و محمد القرآن آية شاهدة واحدة بمظهرين، و قد كان خلقه القرآن، و كله قرآن، لو قرأت صحيفة حياته و صفحة حركاته و سكناته فقد قرأت القرآن كله، فإنه القرآن كله.

و «شاهدا» للّه و على المرسلين برسالاتهم، و على الناس برسالته، و شاهدا على أعمال الناس صالحة و طالحة برقابته، يتلقاها بما يلقيها إياه ربه، ثم يلقيها يوم يقوم الأشهاد «1» شهادة مربعة رائعة في زواياها، كاملة في قضاياها، كافلة مزاياها: «إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى‏ فِرْعَوْنَ رَسُولًا» (73: 15).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تدلنا على هذه الشهادات آياتها التي تجعل الرسول محمدا (ص) شهيد الشهداء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 167

«و مبشرا» من يتبعونه و يطيعونه إلى اللّه برضوان من اللّه، و نصر في الدنيا و الآخرة، و بكافة الرحمات الإلهية الموعودة للمؤمنين، و لكي يرغبوا إلى الايمان بدليلي الشهادة و البشارة و «ذلك لمن‏ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ».

«و نذيرا»: من يتخلفون عنه، تسييرا، أو يتباطئون، فتسريعا، أو يستزيدون فاستزاده الايمان، و لكي تكمل هذه الرسالة السامية في زوايا الشهادة و التبشير و الإنذار، و في كلّ تتوفر البراهين القاطعة التي تزوي عن زواياه كل شبهة و ريبة .. و ترى لماذا هذه الرسالة المثلثة المدعمة بهذه الدعائم القوية:

لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا:

نتائج اربعة على ضوء هذه الرسالة الشاهدة المبشرة المنذرة: ايمان باللّه و رسوله، و من ثم تعزير اللّه و توقيره و تسبيحه، طالما الأخير خاص باللّه، و الايمان و التعزير و التوقير تشمل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (7: 157) و لأن الأصل في المكانة و الكلام هو اللّه فليرجع اليه ضمائر التعزير و التوقير و التسبيح، و لان الرسول يحمل رسالة اللّه فليشمله ما سوى التسبيح الخاص باللّه، شمولا هاشميا على ضوء رسالة اللّه.

و التعزير- خلاف ما قيل- ليس هو مطلق النصر إذ يقابله في آية النصر:

«وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ» فهو النصر العزيز، خلاف النصر غير العزيز، فقد ينصر على ذل كما المؤمنون في جبهة بدر: «وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ» (3: 123) و قد ينصر على عز و هو بحاجة الى نصر كما الرسول ينصر: «وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً»، و قد ينصر على عزته لا لحاجة الى نصر كما اللّه ينصر: «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ» (47: 7) فانه نصرة لدين اللّه و ليس المنصور هو اللّه، و النصر لغير اللّه دوما نصر مغلوب، عزيزا او ذليلا: «فَدَعا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 168

رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ» (54: 10) و هو للّه نصر غالب عزيز، فالتعزير هو النصر العزيز لغالب كما اللّه، او مغلوب كالمكرمين من عباد اللّه دون الذليل، و مطلق النصر يشمل النصر الذليل كما يشمل العزيز غالبا و مغلوبا.

و التوقير هو التعظيم اللائق بمقام العظيم: «ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً» (71: 13) فتوقير اللّه هو تعظيمه كما يحق له في ساحة الالوهية، و توقير الرسول تعظيمه على حده و حدود رسالته، فلو سويت بين اللّه و بين احد من خلقه لما وقرته فانه ضلال مبين: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ» و ان كان المسوى به رسول رب العالمين.

و من ثم- بعد الايمان باللّه و رسوله، و تعزير اللّه و توقيره، ياتي دور دوار التسبيح مراسا له ليل نهار بكل حراس و اكتراس: «وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا»:

لا خصوص البكرة و الأصيل، ثم إهمالا في البين، إنما توصيل الأصيل بالبكرة و البكرة بالاصيل، ان يعيشوا حياتهم ليل نهار في تسبيح العزيز الغفار، و انه يشمل تسبيح الصلوات واجبات و مندوبات و سواها من تسبيحات.

«بُكْرَةً وَ أَصِيلًا»- إذا- هي كناية عن اليوم كله، فان طرفي النهار يضمان ما بينهما من آونات، اتصالا للقلب باللّه على أية حال، كثمرة نهائية للايمان باللّه و رسوله، و هذه الحالة التجردية الراقية هي التي تفتح طريقا للسالك الى مبايعة الرضوان:

إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى‏ نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفى‏ بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً المبايعة هنا هي مبايعة شجرة الرضوان في صلح الحديبية: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً» (18).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 169

ثم المبايعة منها البيع المتقابل بين اثنين، ترتكن على مبايع و مبايع له و سلعة و ثمن للمبايعة، و هنا المبايعون هم المؤمنون، و المبايع له هو الرسول كرسول، و هو اللّه كمرسل دافع للثمن، و السلعة هي أنفسهم و أموالهم و الثمن بان لهم الجنة:

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى‏ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفى‏ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (9: 111).

او وفوق ذلك: جنة الرضوان: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ ..» (2: 207).

و منها مبايعة البيعة: نوع من الميثاق ببذل الطاعة، و بايع السلطان إذا تضمن بذل الطاعة له إذا رضخ له، و يمثلها في العادة وضع يدي المتبايعين على بعض إنجازا للبيع، و مبايعة المؤمنين تحت الشجرة تضم كلتا المرحلتين أن باع المؤمنون أنفسهم و أموالهم للّه، واضعين أيديهم على يدي رسول اللّه بأنهم يبايعون اللّه، فما هو إلا رسول! فان: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» يده كمشتر في هذه المبايعة و كمبايع له في هذه البيعة، فهي- إذا- يد المبايعة البيعة، إنجازا للبيع و إيفاء للبيعة دون أن تكون هنا أو هناك جارحة، اللهم إلا للرسول و المؤمنين في تمثيل البيعة.

فطالما هم يبايعون الرسول تحت الشجرة «إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ» إلا أن هناك أيد من تحت للمبايعة هي أيدي الرسول و المؤمنين، و يد من فوق هي الأصل في المبايعة: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» و ليست هي ثالثة تشاركهم في المبايعة، و إنما تؤيدهم و تنجز لهم: للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قبولا لها، و للمؤمنين إقبالا إليها، فهي يد فوق الأيدي و لا تزال في كل مجال، و لكنها في مجال البيعة ما دام الوفاء: «فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى‏ نَفْسِهِ» إذ يرفع اللّه هنا يده فلا تأييد «وَ مَنْ أَوْفى‏ بِما عاهَدَ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 170

عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً»: «بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ» «وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» فإن اللّه يحب الوفاء و الأوفياء، و لا يحب الناقضين اللعناء.

ثم اليد ليست هي الجارحة فحسب، إذ تستعمل في كلما للجارحة من أخذ و عطاء و قوة و رحمة و حنان و سلطان أم ماذا، لحد غلب استعمالها في غير الجارحة و قل فيها «1» فالمتبع هي القرينة التي تدلنا على المعني منها، و من القرائن القاطعة صاحب اليد بكيانه، إن كان يصاحب يدا جارحة فجارحة أحيانا و غيرها أخرى ك «إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ» (2: 237) أو كائن من خلق اللّه ليست له يد الجارحة: كرحمة اللّه: «وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ» (7: 57) أم ماذا؟ فلا تعنى له هنا و هناك إلا يد غير جارحة، فما ظنك برب العزة في يده و يديه و ليست له أية جارحة

«لا يحس و لا يجس و لا يمس و لا يدرك بالحواس الخمس»

«لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ» أ تظن- بعد- أن له يدا كالأيدي الجارحة و يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ‏! فوقية الذات و الفعل و الصفة، و فوقية الإنية و الكينونة، فوقية تخرجها عن ذوات الخلق و أفعالهم و صفاتهم، عن مادياتهم- و حتى- عن معنوياتهم‏ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ بأية مماثلة و في أي شي‏ء، فهل تظن بعد أن له سبحانه يدا جارحة- أو تزيد قولك- كما يناسب ساحته، زعما أن هذه القولة الفارغة تنفي عنه جارحة الجارحة! و ليس هذا إلا كالقول أنه يجهل كما يناسب علمه، و لا مناسبة بين الجهل و العلم، و لا تناسبه تعالى أية جارحة، فليست القولة الأفيونة العفنة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في مائة و عشرة موارد تذكر اليد في القرآن بصيغها المختلفة لا نجد الا قليلا يعني منها اليد الجارحة، زهاء 21- او- 22 موضعا اي: 20/ 100 إذا فمع عدم وجود القرائن لنا ان نشك في انها جارحة أو نتأكد انها ليست يد الجارحة، فكيف إذا تواترت عساكر القرائن القاطعة، لفظية و معنوية و عقلية: ان يد اللّه لا يمكن ان تكون جارحة الا لمن غرب عقله و خرب حسه!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 171

(كما تناسب ساحته) بالتي تصحح الغلطة المستحيلة: أن له يدا جارحة، فالأوصاف و الحالات المستحيلة الذات بالنسبة لساحة الألوهية لا تصح مهما بالغت في التنزيه إلا جمعا بين النقائض، ان تجمع له سبحانه بين الكمالات و النقائص، فلا تناسبه على أية حال يد الجارحة فإنها جارحة لمحتد الألوهية! و إنما المناسب يد القدرة: قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ (23: 88) تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (67: 1) و الملك و الملكوت لا ينالان بيد الجارحة! أو يد العطاء و الفضل: قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ (3: 73) أو يدا الإمساك و البسط: وَ قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ (5: 64) أو أية يد أو يدين سوى الجارحة، و فوق سائر الأيدي فإن‏ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ‏ و اللّه يكلمنا بلغتنا في عرفنا كناس، طالما النسناس الذين لا يفهمون لغة الناس اثاقلوا في تفسير يد اللّه إلى أيدي الناس! و المفروض على الناس أن يجردوا ما للّه عما للناس و سواهم من خلق اللّه، يد أو سواها يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ‏! و هذه الآية الفريدة في نوعها و سبكها تفسر يد اللّه و يديه في آياتها، أنها فوق الأيدي، لا فوقية الجهة إذ ليست له جهة، و إنما فوقية الذات و الصفات خارجة عن الحدود و الجهات، فوقية تجعلها ليست كمثلها يد و لا هي تماثل أية يد كما اللّه‏ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ.

يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ‏: هنا في البيعة و المبايعة، و هنا لك و هناك في القدرة و الرحمة، و العذاب و المغفرة، و الملك و السلطة، و القبضة و البسطة، و في كل مالها من ذات و أفعال و صفات، فوقية مثلثة تفصلها عنها في كافة الجهات.

ثم المبايعة لا تختص بخلفياتها، المؤمنين زمن الرسول، فإنها مبايعة اللّه، فطالما الرسول يموت فاللّه تعالى حي لا يموت، فبالإمكان تحقيق هذه البيعة و تلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 172

المبايعة منذ الرسول الى يوم الدين، كما النكث و الوفاء يشملان طول الزمن و عرضه، أرضه و سمائه، جنه و أنسه أمّن ذا؟.

كما و أن رضوان المبايعة من اللّه للمؤمنين المبايعين، ليس لزاما عليه لهم و إن نكثوا او نكصوا على أعقابهم، بل ان آية النكث و الوفاء تشير إلى أن هناك- بين المتبايعين- ناكثين و أوفياء:

فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى‏ نَفْسِهِ‏: لا على ربه و لا الرسول، حيث النكث نكص عن رحمة اللّه، و نفث في عقد من نقمة اللّه، و صورة البيعة الرائعة تفرض عليهم الوفاء لصالحهم، و تستأصل للمؤمن كافة خواطر النكث مهما غاب الرسول، فإن المرسل باق لا يزال و لا يزول!.

و قد توحي‏ نَكَثَ‏ بمضيها، بتحقق النكث و عله منذ المبايعة- مهما كان خفيا- ثم ظهوره مستقبلا في تقلب الأحوال، إذ عنده تظهر حقائق الرجال.

وَ مَنْ أَوْفى‏ بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً فإن اللّه و في يحب الوفاء و الأوفياء.

ثم المبايعة هذه تشمل عقيدة الإيمان و عمله و جهاده، سمعا و طاعة في النشاط و الكسل، و على النفقة في العسر و اليسر، و على الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر، و على النصرة أن يمنعوا الرسول و المؤمنين مما يمنعون منه أنفسهم و أزواجهم و أبناءهم، فمنهم من نكث و منهم من أوفى:

[سورة الفتح (48): الآيات 11 الى 17]

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (11) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى‏ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَ زُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (12) وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (13) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (14) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى‏ مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (15)

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى‏ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (16) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى‏ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً (17)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 174

بعد ما تمت بيعة الرضوان تحت الشجرة، مع الإشارة الى مخلفين عنها، ناقضين لها: «فَمَنْ نَكَثَ .. هنا التفات بالحديث نصا ناصعا عن المخلفين و عن الموفين الموافين معا: تنديدا شديدا بالمخلفين يضم ملاحم الغيب إخبارا مسبقا عن سوء سريرهم و مصيرهم و لمّا يظهر و لا حان حينه، أنباء غيبية تنبئ النبي و المؤمنين من ذي قبل حتى يأخذوا عنهم حذرهم، و لا يرتكنوا إليهم بجواذب الادعاءات الجوفاء، يفضحهم و يوقفهم مكشوفين امام الرسول و المؤمنين، و يلقنه كيف يعاملهم و يرد عليهم، فيعالجهم ان كانوا يقبلون، او يعاجلهم بما ينكبهم جزاء بما كانوا يفعلون، إذ واجههم بكل حفاوة و احترام، و قابلوه بكل جفاوة و اخترام:

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً إن المخلفين من الأعراب و هم: المتروكون في أمكنتهم خلف الخارجين المجاهدين، و هم اهل البوادي غير الحاضرين و لا المتحضرين، و هم الذين قال اللّه عنهم: «الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى‏ رَسُولِهِ» (9: 97).

هؤلاء هم المنافقون المستسلمون، و قد كان لهم الا يقولوا- على اقل تقدير- مقالتهم تلك الفاضحة، و لكي يبدلوا كلام اللّه، رغم انهم أرادوه: «يُرِيدُونَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 175

أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ ..» فرغم أنه- بشريا- كان لهم ذلك، و لكنما اللّه اخبر رسوله‏ «سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ ..» و لم يكن إلا ما قال اللّه، آية بينة معجزة تجمع الإعجاز الى الإنباء التنديد بالمخلفين و للّه الحمد.

و من ثم يرد عليهم قولتهم المنافقة: «شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا» بأنها ظاهرة النفاق: «يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ» فألسنتهم مؤمنة و قلوبهم كافرة، أ ترى القلب المؤمن يشتغل عن واجبات الايمان بالأموال و الأهلين؟

فللناس دائما اموال و اهلون، و لو جاز ان تشغلهم هذه او تلك عن تكاليف الايمان، و عن الدفاع بحق الايمان، ما نهض مؤمن بحقه، و لم يقم للحق قائمة!.

و ان الجهاد النابض في عروقه روح الايمان، هو الذي يحافظ على الايمان اكثر مما كان، و يحافظ على الأموال و الأهلين، فكيف يشتغل المؤمن بهما عن الجهاد؟

اللهم إلا نفاقا عارما يبرره أهلوه، و اللّه فاضحهم من قبل و من بعد! و من ثم- و أخيرا- سؤال تنديد بهم و تبكيت باعتذارهم الكذب: «قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً»؟ فالانشغال بالأموال و الأهلين لا يدفع عنها و عنكم ضرا و لا يجلب نفعا، إذ الأسباب لا تستقل عن اللّه، حتى تستغل اعتذارا في التثاقل عن تطبيق امر اللّه، و حتى فيما تؤمرون او يسمح لكم بذلك الاشتغال، فالنافع الضار فيه هو اللّه، فكيف إذ يأمركم اللّه بالخروج للجهاد و ترك الأموال و الأهلين، فهل هي إذا تغنيكم عن اللّه، او أن هنالك من يملك لكم من اللّه شيئا كما تهوون من دون اللّه، ان أراد بكم ضرا و أنتم في أموالكم و أهليكم، او أراد بكم نفعا و أنتم خارجون عنها؟ فهل من إله غير اللّه يدفع عنكم ضركم او يجلب لكم نفعكم؟.

و إنما الايمان هنا الاستسلام لأمر اللّه، لقدر اللّه و طاعته، حيث التثاقل عنه الى اموال و أهلين لن يدفع ضرا و لن يؤخر نفعا، فليس هذا عذرا لمؤمن او اي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 176

عاقل، فليس شغل الأموال و الأهلين بالذي يثقلكم عن الجهاد «بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً»!: فأعمالكم و آمالكم شاسعة عن الايمان، و نفاقكم هو الذي يؤخركم عن واجبات الايمان، رضى بالحياة الدنيا عن الآخرة، فما دائكم و ما دواءكم‏ «ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» (9: 38) و إن أعمالكم خلاف الجهاد، المخلفة عن الجهاد، هي ناتجة عن ظنكم السوء بوعد اللّه:

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى‏ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَ زُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً:

علّ المخلفين من الأعراب هنا هم المتخلفون عن الحديبية فيما مضى، و عن خيبر و فتح مكة فيما يأتي، طالما البعض منهم تخلف عن البعض، و بعض عن الكل، فلما تحقق الصلح في الحديبية قال المخلفون مقالتهم تلك «شغلتنا ..»

فجاء الجواب ما جاء و الى‏ «بَلْ ظَنَنْتُمْ ..» فقلة العدة و العدة للمؤمنين، و عدم إيمان المخلفين حملهم لهذا الظن السوء أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى‏ أَهْلِيهِمْ أَبَداً.

و كما في خيبر مخلفون هكذا و في فتح مكة، فأعذارهم أضراب، كما هم أضراب، و هم كلهم يعيشون إضرابا عن الجهاد و تثاقلا إلى ظنون و أعمال متشابهة النفاق!.

«بَلْ ظَنَنْتُمْ» فهذا داءكم في تخلفكم عن الخروج، دون قولتكم الكاذبة تلك:

«شغلتنا»- بل شغلكم ظنكم السوء باللّه ان لن ينصر عبده، و بالرسول و المؤمنين ان لن ينقلبوا إلى أهليهم أبدا، «ظننتم» أنتم الأوغاد المناكيد إذ لم تؤمنوا «وَ زُيِّنَ ذلِكَ» الظن البعيد البعيد «فِي قُلُوبِكُمْ» المقلوبة، و الشيطان هو الذي يزين شيطنات العقائد و الأعمال في قلوب ذويه فيصدهم عن السبيل بعد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 177

صدهم: وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ‏ (29: 38) و هكذا يتعامل الشيطان مع أولياءه، ثم اللّه يتركهم في غيّهم يتردّون و في عيّهم يترددون فيسمى تركه لهم في هذه المهالك تزيينا منه: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ (27: 4) و في الحق لم يزينها لهم إلا كفرهم و زيغهم‏ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ‏ ثم تركهم و الشيطان يزين لهم أعمالهم: وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ‏ (43: 36).

ففاعل الظن السوء هم أنفسهم بكفرهم، و المزين لهم ظنهم هو الشيطان القرين لهم بما عاشوا كفرا و عشوا عن ذكر الرحمان، و هو اللّه بما لم يحل بينهم و بين الشيطان أن يزين لهم، و أن تركهم في طغيانهم يعمهون.

لهذا و ذاك خسرتم أولاكم و أخراكم‏ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً «1»: فسادا أو هلاكا، مصادر البوار و معادن الهلاك و الفساد، كينونة تتبنى حياتكم كأنكم الهلاك نفسه و الفساد نفسه، و البور الماضي- في الحياة الدنيا- دائما هي بور في الحياة الأخرى: نتيجة طبق الأصل: لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ‏: طبق الأخرى عن طبق الأولى‏ وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً: وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (35: 10).

فنسيان ذكر اللّه، و من ثم الظن السوء باللّه و برسول اللّه، هما الأساس في كونهم قوما بورا: وَ لكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كانُوا قَوْماً بُوراً (25: 18).

ثم هب انهم بظنهم السوء ان لا غلب للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تخلفوا عن الخروج معه، فلما ذا بعد استحالة الرجوع إلى أهليهم؟: أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى‏ أَهْلِيهِمْ أَبَداً؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بور مصدر بمعنى الفساد او الهلاك.

(الفرقان- م 12)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 178

ف (لن) تحيل الرجوع و (أبدا) تؤكد الاستحالة، و الظن ما دام ظنا لا يستحيل، فضلا عن تأكيد و تأبيد الاستحالة؟ و إنما يستبعد حسب بعد الظن.

نقول: انهم بكفرهم المتيقن الواقع أيقنوا عدم الرجوع، و لم يكن موقعهم الا الظن، إذ لم يملكوا برهانا لذلك اليقين، فهم في حسابهم أيقنوا و في حساب اللّه ظنوا كما «زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا» ف «لن» تستحيل البعث، و الزعم يستبعده دون استحالة، و لكن زعمهم أصبح يقينا لهم، دون ان يملكوا حجة إلا زعما و ظنا، و هكذا يعالج القرآن الواقعات المنحرفة، في إشارات الى: كيف يجب ان تكون؟ و تنديدات بما هي دون دليل.

و واقع ظن المخلفين- السوء- كان بحيث يحيل انقلاب الرسول و المؤمنين الى أهليهم سالمين، إذ قالوا بينهم و في أنفسهم: يذهب الى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة و قتلوا أصحابه و هزموهم، يعنون الأحزاب و أحد، ثم لم يحسبوا حسابا لوعد اللّه و قدرته على إنجازه لعباده المؤمنين، و انما الخسارة الوقتية الشكلية هنا و هناك، في الحرب السجال، متعاملة مع خسار الايمان و بواره، تجعلهم يحيلون انقلاب الرسول و المؤمنين الى أهليهم سالمين.

انهم لم يروا غير تلك الخسارة الحربية الشكلية، و لم يفكروا في سواها «وَ كانُوا قَوْماً بُوراً» كما الأرض البور ميتة جرداء، لا ماء فيها و لا كلاء، كذلك قلوبهم بور جرداء، لا تخصب إلا ظن السوء باللّه و بالرسول.

و هكذا يكون دوما دور الكفار و المنافقين البور، بحق المؤمنين النور، ينظرون الى العدة الظاهرة و عدتها، الى ما لها و منا لها: «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7) فيأخذون هم بالأحوط لهم، فيبتعدون عن طريقهم المخوف، المحفوف بالبلايا بالأشلاء الضحايا، حبا للسلامة و الامان،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 179

متوقعين في كل لحظة انتهاء دورهم، حتى يأخذوا هم في حريات الحيونات و الشهوات، و قد يلتحقون بهم إذا رأوا لهم سلطة و غلبة علهم ينتفعون، ثم إذا عكس الأمر هم يفرون: «كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا ..» (2: 20).

و لكنما الميزان هو ميزان اللّه، يحول المحال- بزعمهم- واجبا، و الواجب- في ظنهم- محالا، فانه مقلب القلوب و محول الأحوال.

وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً. وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

من لا يؤمن باللّه و رسوله- طبعا- هو كافر باللّه و رسوله، فهو بكفره المختار سعير النار، و إذ يعتد الجبار للكافرين سعيرا فانما هو اعتداد ذواتهم الشريرة المسعرة بنيران الشهوات الكافرة، فهم سعير هنا معتد، لمّا يظهر في الاولى، و هم سعير واقع في الاخرى جزاء وفاقا يظهر فيها، و السعير نار شديدة التأجح هنا باطنة معتدة قبل الواقعة، او ظاهرة واقعة: إذا وقعت الواقعة.

فظنهم السوء باللّه، و أموالهم و أهلوهم، إنها تتعامل في تأجيج نار اللّه لهم يوم اللّه، ثم لا مولى لهم يدافع عنهم، كيف‏ «وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» ملي‏ء السموات و الأرض، ملك الخلق و التدبير، ملك التعمير و التدمير، ملك الغفران و العذاب، و ان كان الأصل هو الغفران لمن يعمل له او يأهل: «يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ» مشية العدل و الفضل‏ «وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ» مشية العدل إذ لا مجال هنا للفضل‏ «وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً»: سبقت رحمته غضبه، و فضله عدله، مشيئة عادلة فاضلة دون فوضى، فمن شاء الكفر و اعتمل له عذبه، و من شاء الايمان و عمل له غفر له.

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى‏ مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 180

حملة ثانية على المخلفين تكشفهم ثانية و تفضحهم، غيب مستقبل في هذه التصريحة التبكيت و التنديد بمن يعيشون نفاقا عارما لكي يعرفهم النبي و المؤمنون من ذي قبل، فيأخذوا عنهم حذرهم: «سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ ..» بعد ما قالوه أولا من قولتهم المنافقة: «شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا» في صلح الحديبية، فثم إذا اتجه الرسول و المؤمنون الى خيبر- كذلك اثاقلوا الى الأرض، و لمّا تم الفتح و انطلقوا الى مغانم خيبر ليأخذوها- انتبه المخلفون عن نومتهم و قالوا: «ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ» و لكي نشارككم في أخذ الغنائم! و هم- لا يريدون اتباعا لهم إلا لامرين: 1- أخذ الغنائم 2- تبديل كلام اللّه: «يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ» و ترى ما هو كلام اللّه هنا؟ علّه قوله: «سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا ..»

فهم قائلوه في كل حرب: حرب الصلح في الحديبية، و حرب الفتح في خيبر، و فتح الفتوح العنوة في مكة، فهم دائبو الاعتذار هكذا، حتى و في اتباع المؤمنين لأخذ غنائم خيبر، و ان تمت الحرب، فلعل جماعة من خيبر يترصدون بمن يأتيهم لأخذ الغنائم فينتقموا منهم.

فهم‏ «يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ» «قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ» و من ثم قول ثان للّه من قبل في وعده: «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ» (20) و الكثيرة هي مغانم خيبر و فتح مكة و ما يلحقها، و «هذه»:

هي مغانم خيبر- و هي خاصة بالمؤمنين، فلو اتبعهم المنافقون و أخذوا منها كان ذلك تبديلا لكلام اللّه، و لكن‏ «قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا» و حتى في أخذ الغنيمة في راحة و طمأنينة، فضلا عن المتابعة في الحروب الخطرة التي قد لا تكون فيها غنيمة! .. و لعل هناك قولا غير هذين أن لن يتبعوهم و إن لم يكن من القرآن.

فالقول‏ «لَنْ تَتَّبِعُونا» يحيل اتباعهم هذا و ذاك، فلو كان رادعهم عن اتباعهم الرسول و المؤمنون، لم يكن محالا، فإنما هو ردع ذاتي لكفرهم، و ردع الهي ان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 181

غيض لهم شيطانا فهو لهم قرين، و لكنهم إذ لا يفقهون‏ «فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا» و ترى ان حسد المؤمنين في اتباع المنافقين مما يحيل اتباعهم و يحول دون إرادتهم‏ «أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ»؟ و الكافر يستميت في محاولات تكذيب اللّه و تبديل كلام اللّه، فانما هي قولة فارغة فاشلة ممن يحاولون تحقيق المحال و لا يستطيعون.

فلما ذا لم يخرجوا مع المؤمنين و لا مرة، و حتى لاخذ الغنائم؟ إنها لآية بينة معجزة تتوفر في إنباءات القرآن، لكي توقظ الرسول و المؤمنين بمكائد المنافقين، و تزدادهم ايمانا أنها وحي السماء الصادق الأمين «بل» ليس كما يقولون: «ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ» و لا كما يزعمون «تحسدوننا»- «بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا»: فقه قليل للحق يجعلهم مكلفين، ثم لا يفقهون كثيرا في أفكارهم و أقوالهم الهابطة الخابطة العمياء: فما هي الرباط بين أن تحسدني و أن أترك ما أقدر عليه و أحاوله؟ احسدا كأمر باطني يحيل فعلا يحتال له و يحاوله محسودك بكل طاقاته فلا يستطيع‏ «بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا»!.

إن كلام اللّه من قبل‏ «سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ ..» و قد تحقق، و وعده من قبل: «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ ..» انه آية رحمة للمؤمنين و عذاب للمنافقين:- «وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً» (20) و كيف يمكن ان تبطل الآية المعجزة بمحاولات منافقة ممن لا يفقهون؟!.

و إنها كانت فتح خيبر بعد أقل من شهرين من صلح الحديبية، وافرة الغنائم، و حصون خيبر هي آخر حصون بقيت لليهود في الجزيرة كأقواها و أغناها، و كان قد لجأ إليها بعض بني النضير و بني قريظة ممن اجلوا عن الجزيرة من ذي قبل.

و قد فتحت و اغتنمت فعلا للمؤمنين دون مشاركة للمنافقين، و من ثم فتح مكة و هي كانت أغنى و أقوى من كل فتح يأتي أو مضى، و كذلك كان فيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 182

أمر المنافقين‏ «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ» و من ثم تنديد ثالث بالمخلفين يحمل لهم بشارة أجر حسن لو أطاعوا، و عذابا أليما إن تولوا:

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى‏ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً.

تهديد ثالث يوجه إلى المخلفين بعد الحديبية و خيبر انهم سيدعون إلى قوم أولى بأس شديد لا سبيل معهم إلا «تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ» فلا ثالث هنا من مصالحة كما في الحديبية أو جزية كما مع أهل الكتاب، و إنما قتال حتى يسلموا، حكما باتا صارما يصرمهم مهما كانوا «أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ»: بأس العدة و العدة! فهذه الدعوة الأخيرة لا بد و أن تصرم هؤلاء الأشداء دونما رجعة أو مراجعة.

و ترى انهم يهود خيبر؟ و الجزية طريقتهم الثالثة بأنهم أهل كتاب! و لم يكن بأسهم شديدا و جاه الأشداء الآخرين ككفار مكة و الفرس و الروم، و هذه هي المرة اليتيمة في القرآن يوصف فيها أعداء الإسلام ب «أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ»! و أن قصة خيبر مضت في ثاني التهديدات للمخلفين‏ «سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ ..»!.

هذا الدليل المثلث ينحي الآية عن خيبر و اضرابها، و يحصرها في المشركين الذين بلغوا في القوة الذروة في صنوف الأعداء المناوئين للإسلام، منذ الرسالة إلى أمد.

إذا فليسوا هم هوازن و لا ثقيف، لا و حتى الروم الأشداء في مؤتة و غيرها، إنما هم مشركو مكة أو الفرس أو هما؟

فمن ناحية أن الدعوة هذه دعوة إلهية لحرب خطيرة: «ستدعون» تكون الحرب حرب الفتح في مكة، و قد أسلمت مكة دون حرب إذ فتحت عنوة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 183

رغم أن مشركيها أولى بأس شديد جنّدت كافة طاقاتها و استنفرت عامة قواتها.

و قد تشير أَوْ يُسْلِمُونَ‏ إلى فتح مكة العنوة، حيث (أو) تخيّر بين مقاتلتهم و إسلامهم و قد أسلموا دون قتال! و لم يسبق لذلك مثيل في الفتوحات الإسلامية أبدا.

و من جهة أنهم كانوا حاضري الجزيرة فلا يعبر عنهم بقوم المنكر كمن لا يعرفون، و أن‏ أَوْ يُسْلِمُونَ‏ هي غاية الدعوة إلى حربهم، تعني (تقاتلونهم حتى يسلموا) يشبه أنهم الفرس، أكبر دولة حينذاك و أخطرها ضد الإسلام.

و لكن (أو) هي أصلا للتخيير و أضرابه‏ «1» إلا بقرينة قاطعة تدل على انها بمعنى (حتى) و اضرابها، و لا قرينة هنا الا بخلافه ك يُسْلِمُونَ‏ «2»، و ان‏ قَوْمٍ‏ المنكر لا يعني انهم غير معروفين في الجزيرة، بل رغم كونهم معروفين فيها قد يجهل خطرهم، أو أنه تنكير التعظيم اشارة لعظيم مكرهم و خطرهم.

أو يقال: ان‏ قَوْمٍ‏ هنا تشملهما جميعا، فرغم انهما قومان عنصريا و في المكان و الزمان، لكنهما قوم واحد في الشرك و البأس الشديد، و الكفر ملة واحدة.

إذا ف (قوم) تنكير تعظيم لعظيم الخطر لمشركي مكة، و تنكير تجهيل للفرس الخارجين النائين عن الجزيرة، و أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ يشملهما على سواء، حيث إن مشركي مكة كانوا خطرا على تأسيس دولة الإسلام، المحتلة عندهم عاصمتها، و الفرس كانوا خطرا على استمرارها.

ثم و تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ‏ تخيير بالنسبة للأولين حيث لم يجمعا لهم إذ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| خيّر أبح قسّم بأو و أبهم‏ |  | و اشكك و إضراب بها ايضا نمي‏ |

(2) إذ لو كان بمعنى حتى نصب فكان «يسلموا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 184

أسلموا ففتحت مكة عنوة، و غاية للآخرين حتى أسلموا بعد القتال، (تقاتلونهم حتى يسلموا).

و الآية تتحملهما بمرجحات كل في دلالاتها كما مضت، و لا أخطر على الإسلام في حاضر دولتها من مشركي مكة و في مستقبلها القريب من مشركي فارس.

و لأن مناوئي الدولة في بدايتها كانوا أخطر عليها، ترى الآية تعنيهم اصالة و الآخرين كتابعين، حيث الدعوة الإلهية بالوحي تخص قتال الأولين‏ سَتُدْعَوْنَ‏ و ان «او» للتخيير اصالة، و هي هنا تخصه بشاهد «او يسلمون» فلو كانت تعني «حتى» كانت منصوبة: «او يسلموا» و لكنها تشمل «حتى» ضمنيا كما بيننا.

فهذه الآية ايضا من ملاحم الغيب لمستقبل الفتح العنوة في مكة و فتح القتال الغلبة في الفرس، أن المخلفين من الأعراب سيدعون ضمن المؤمنين في استنفار عام في هاتين الجبهتين، فإن أطاعوا الدعوة و الداعية يؤتهم اللّه أجرا حسنا في الدنيا و الآخرة، و إن يتولوا كما تولوا من قبل يعذبهم عذابا أليما و لن يضروا اللّه شيئا، حيث الفتح عنوة و غير عنوة لا محالة كائن دونما حاجة إلى المخلفين من الاعراب، اللهم إلا ابتلاء لهم لكي يعرفوا و يعرفوا أنفسهم.

تلك الدعوة الصارمة العامة باستنفارها من يقدرون على إجابتها، انها تحرج عامة الناس إلا الأعمى و الأعرج و المريض:

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى‏ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً.

الحرج هو حالة فوق الطاقة نفسيا أم سواها، تستأصل الطاقات كلها لحد يضيق كل مدخل و مخرج كأنما يصّعد إلى السماء الخالية عن تنفس: وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 185

يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ» (6: 125) حيث التصعّد إلى السماء هو الصعود الصعب الذي يضيق النفس في الصدر و يخنق، و ذلك حينما تجاوز كرة الأكسيجين حيث تخنق.

هذا هو الحرج المنفي في الدين، فما أراده اللّه‏ «ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ» (5: 6) و لا جعله اللّه‏ «ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ» (22: 78).

فالأعمى و الأعرج و كل مريض يتحرج عن الجهاد يعفى عنهم في استنفار الجهاد «1» كما في سواه من تكاليف عامة أو خاصة، اللهم إلا مرضا لا يحرج أو مريضا يكلف بأدنى من حرج، كذلك و الأعمى و الأعرج إذا كلفا دون حرج.

و الضابطة السارية في عامة التكاليف هي وجوب تطبيق أحكام اللّه، في طاعة اللّه و رسوله قدر المستطاع و دون حرج، دون أن ينقص المحرجين من أجورهم، فلو أن جنديا مسلما جاهد دون طاقته و أقل من قدرته لم يطع اللّه تماما: و لو أن مسلما حرجا عن القتال تركه ناويا له لو استطاع أطاع اللّه تماما:

«وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً»: كل دون حرج و قدر الطاقات و الإمكانيات.

فلو أن أعمى أو مريضا أو أعرج استطاعوا حضور الجبهة دون حرج كان عليهم لزاما، أو أن سواهم لم يسطع حضورها لم يكن عليه لزاما، فإنما هو مثال لأكثرية موارد الحرج: العمى و المرض و العرج، دون حصر فيها، و لا نفي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 73- أخرج الطبراني بسند حسن عن زيد بن ثابت (رض) قال: كنت اكتب لرسول اللّه (ص) و اني لواضع القلم على اذني إذ أمر بالقتال إذ جاء أعمى فقال: كيف بي و أنا ذاهب البصر فنزلت: ليس على الأعمى حرج ... قال: هذا في الجهاد ليس عليهم من جهاد إذا لم يطيقوا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 186

للجهاد عن أصحابها و ان لم يكونوا محرجين، و إنما المنفي هو الحرج أيا كان و في أي كان.

ثم للحرج المنفي في الدين حدود لولاها لم يثبت حكمه:

1- أن يكون ذاتيا ليس لصاحبه حيلة و لا سبيل في إزاحته، و لا له دخل في حصوله، فلو استطاع سلب الحرج الموجود، لم يكن تكليفه بما يحرج حاله حرجا في الدين أو من الدين، و إنما منه نفسه إذ لم يزله، و لو أنه هو السبب لحالة الحرج باختياره فهو المحرج نفسه عنده لا الدين، فتكليفه عندهما ليس حرجا في الدين حتى ينفى، و إنما حرج منه فلا ينفى.

2- أن يكون واقعيا، لا وهميّا ناشبا من التقاليد و العادات، ناشئا من الهوسات و التجاهلات، كحرمة أزواج الأدعياء، التي كادت تحول دون تزوج الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بزوجة دعيّه زيد بعد ما قضى منها وطرا، فلقد كان هكذا زواج محرجا له حسب البيئة التي كانت تحرمه، مخافة أن يخالفوه أو يكذبوه، و لكن اللّه فرضه عليه رغم ما أحرجته البيئة: ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (33: 38) لذلك فهو الذي زوجه زوجة دعيّه: فَلَمَّا قَضى‏ زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (37).

ينفي عنه حرج البيئة لكي ينفي عن المؤمنين كذلك، و إنه نموذج هام ينبه حملة الدين ان لا حرج عليهم في تبليغ رسالات اللّه و تطبيقها، فلا يختلقوا أعذارا و عناوين ثانوية في تحليل ما حرمه اللّه، أو إهمال ما فرضه اللّه بحجة ان الناس ينقمون منهم أو يعترضون، فيقلبوا أمر طاعة اللّه إلى طاعة الناس.

فدين اللّه لا مواربة فيه و لا أنصاف حلول و لا مسايرة، إنما هو الحق الصراح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 187

يؤمر به و يعمل، دون خشية من الناس فاللّه أحق أن تخشاه، و ما الناس الذين يختلقون عقبات دون أمر اللّه إلا نسناس، فاللّه اللّه، لا تتركوا حكم اللّه لمسايرة و مراضاة النسناس.

و جملة القول هنا أن لا حرج على النبي و لا حملة رسالته فيما فرض اللّه، و لا على المرسل إليهم أن يتحرجوا فيما قضى: فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (4: 65).

[سورة الفتح (48): الآيات 18 الى 27]

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (18) وَ مَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (19) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (20) وَ أُخْرى‏ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَ كانَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيراً (21) وَ لَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (22)

سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (23) وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (24) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (25) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى‏ وَ كانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيماً (26) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (27)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 189

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً.

لقد مضت آية في هذه المبايعة المجيدة المرضية و هذه ثانيتها، تنحو منحى تحقيق الرضى عن المؤمنين: «إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ» أن اطمأنوا الى اللّه عما شجر بينهم من زعزعات و مشاجرات، فبايعوك هناك ثانية بعد مبايعة الايمان لمّا آمنوا، بعد ما اصطدم بعرقلة الصلح في الحديبية «لقد رضى» عنهم إذ بايعوا «فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ» من رضي بمرضات اللّه و استسلام الأمر اليه، «فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ» كجزاء حال على مبايعتهم، تطمئنهم عما اضطربوا «وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً» فتح خيبر و مكة، كجزاء مستقبل محتوم كأنه امر مضى، كما عبر عنه أولا بما مضى: «انا فتحنا».

نرى هنا إثابات تلو بعض، لأن المؤمنين في جبهة الحديبية بايعوا صاحب الرسالة تحت الشجرة السمرة «1»، فلم تكن سهلة هينة لا تعدوا الخيال و المقال، و انما عملية ممتحنة صعبة، و عقبة كئودة ملتوية اجتازوها ناجحين مهما نكثها ناكثوها «فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى‏ نَفْسِهِ» فهم خارجون عن اثاباتها لمّا نكثوا، و انما هي للأوفياء «وَ مَنْ أَوْفى‏ بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً».

و لقد

قال لهم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أنتم خير اهل الأرض» «2»

فهل انهم الالف و الاربعمائة الذين بايعوه، كلهم بمن نكث بعدئذ و من اوفى؟ فكيف يكون الناكث للبيعة من خير اهل الأرض؟!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 73- اخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن سلمة الأكوع (رض) قال: بينا نحن قائلون إذ نادى منادي رسول اللّه (ص) أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فثرنا الى رسول اللّه (ص) و هو تحت شجرة سمرة فبايعناه فذلك قول اللّه: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ ..».

(2)

المصدر عن جابر بن عبد اللّه (رض) قال: كنا يوم الحديبية ألفا و أربعمائة فقال لنا رسول اللّه (ص) «أنتم خير أهل الأرض».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 190

و الحق انهم هم المبايعون المؤمنون الثابتون الأوفياء «1» لا المسلمون المستسلمون و الناكثون، كما اللّه خص الموفين منهم بأجر عظيم‏ «وَ مَنْ أَوْفى‏ بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً» من سكينة و فتح قريب و مغانم هنا في الاولى، و من اثابات اخرى في الاخرى.

و لذلك نرى المرضى عنهم هنا هم المؤمنون فهم الأوفياء، و المبايعون في الآية الاولى أعم منهم‏ «إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ» و لذلك قسمهم ب «من نكث و من أوفى» فالأولياء هم المؤمنون المرضيون في آية الرضوان و الناكثون غير مرضين.

ان المبايعة هذه كانت درجات حسب درجات المؤمنين، فمنهم من بايعه وقتها شكليا ثم نكثها، و منهم من بايع فقط على ألا يفر من زحف، لا على الموت كالخليفة عمر «2» و منهم من بايعه على الموت في سبيل اللّه‏ «3» درجات حسب الدرجات، كما ان النكث كان دركات حسب الدركات.

فكما الآية الاولى تمدح- فقط- الأوفياء ممن بايعوه تحت الشجرة، كذلك هذه‏ «فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً، وَ مَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها ..» كل ذلك خاص بمن علم اللّه ما في قلوبهم من صدق البيعة من الأوفياء دون الناكثين اللعناء.

و لو اننا استشرفنا الى تلك اللحظة القدسية، لوجدناها أقدس موقف في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر: اخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله‏ «فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ» قال: انما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء.

(2) الدر المنثور 6: 74- اخرج مسلم و ابن جرير و ابن مردويه عن جابر (رض) قال:

كنا يوم الحديبية ألفا و أربعمائة فبايعناه و عمر (رض) آخذ بيده تحت الشجرة و هي سمرة و قال:

بايعناه على أن لا نفر و لم نبايعه على الموت.

كما و ان معقل بن يسار اقتفى اثر الخليفة في هكذا بيعة.

(3) كما

علي عليه السلام بايعه (ص) على كل ما في نفسه و تبعه ابو سنان الأسدي حيث قال له النبي (ص): على م تبايعني؟ قال: على ما في نفسك، أخرجه البيهقي في الدلائل عن الشعبي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 191

في تاريخ الايمان لحد تحقق رضوان اللّه عن هؤلاء الأوفياء السعداء:

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وليتها بقيت كذكرى لهذه البيعة المجيدة و لم يقطعها الخليفة عمر «1» اللهم إلا مخافة أن تعبد من دون اللّه او يتوسل بها الى اللّه، و لكنها لا تحتم قطع شجرة الرضوان، و إنما منع المتوسلين بها او العابدين لها لو كانوا، و إلا فلتهدم الكعبة- و العياذ باللّه- إذ يعاملها هؤلاء كأنها اللّه!.

نعم يجب استئصال الأصنام و الأوثان من الوجود لكي لا يبقى أثر منها يعبد و لكنما الأشياء المقدسة بما قدسها اللّه تبقى كما هي، و ينهى عن التوسل أو الاستشفاع بها الى اللّه.

«فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ» من حمية لهداهم دون هواهم، و من صدق في بيعتهم و كظم لاستفزازاتهم و ضبط لمشاعرهم لكي يستسلموا لحكم الرسول.

فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ‏ سكينة الايمان ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم.

و ترى ان اللّه علم ما في قلوبهم بعد ما بايعوا كما يفيده معنى الفعل «علم» و تؤكده فاء التفريغ، و اللّه عليم بما في القلوب منذ خلقها و قبله؟

الحق ان «علم» هذه من العلم: العلامة، لا العلم: المعرفة بعد الجهل و سبحانه، كما في أضرابه طيات آياته.

فقد تعني «علم» هنا انه تعالى جعل المبايعة الحقيقية علامة للأوفياء تميزهم عن الناكثين، ميزة لهم عندهم و عند من سواهم،

«عند تقلب الأحوال يعرف جواهر الرجال».

وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً أصله فتح مكة و في سبيله و على هامشه فتح خيبر، و قد يشملهما الفتح القريب لانسلاكهما في سلك واحد، و هما نتاج فتح الصلح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 73- اخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن نافع (رض) قال: بلغ عمر بن الخطاب (رض) ان ناسا يأتون الشجرة التي بويع تحتها فأمر بها فقطعت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 192

في الحديبية، كما و مَغانِمَ كَثِيرَةً المعطوفة على‏ فَتْحاً قَرِيباً تؤيد هذا الجمع:

وَ مَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً هذه المغانم الكثيرة تباعا للفتح القريب، منها معجلة بعد الحديبية و منها مؤجلة إلى فتح مكة:

وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً، وَ أُخْرى‏ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَ كانَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيراً فهذه المعجلة هي مغانم خيبر، و اخرى لم تقدروا عليها، منها مغانم مكة، و هاتين هما تلو فتح قريب، فليكن فتح خيبر و مكة معا.

ان مغانم خيبر قسمت على من حضر الحديبية و ان كان غائبا عن خيبر «1»، كما وعدهم اللّه‏ «2» و منعت عن المخلفين من الاعراب رغم ما طلبوا حضورها، فانها كانت من اثابات الحديبية.

ان اثابات الحديبية للمؤمنين الأوفياء نفسية و مادية هي ايضا ذريعة لها: من السكينة النازلة عليهم يومها فزادتهم ايمانا على ايمانهم، و من فتح قريب في خيبر و مكة استوثقت به الجزيرة اسلاميا، و مغانم فيهما كثيرة في خيبر و اكثر في مكة، و اخرى تتبعها من فتوحات و غنائم ما داموا مؤمنين مسلمين لا مستسلمين.

و قد ينسلك فتح الصلح في الحديبية في‏ «مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ» فانه مغنم نفسي، و تقوية في نفوس المؤمنين ان استعدوا لفتح خيبر و مكة و مغانمهما، الا ان‏ تَأْخُذُونَها قد لا تناسب الصلح، و انما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2).

الدر المنثور 6- 74- اخرج عبد الرزاق و ابو داود في مراسيله عن الزهري قال: بلغنا ان رسول الله (ص) لم يقسم لغائب في مقسم لم يشهده الا يوم خيبر، قسم لغيب أهل الحديبية من اجل ان الله كان اعطى اهل خيبر المسلمين من اهل الحديبية فقال: «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ» و كانت لأهل الحديبية من شهد منهم و من غاب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 193

كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ‏ في الحديبية و فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ‏ في خيبر وَ أُخْرى‏ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها في فتح مكة و سواها.

و آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ‏: هي كف أيدي المشركين عنهم في الحديبية، آية للنصرة و العزة الإلهية، و فتح خيبر بغنائمها: آية للغلبة الآتية في فتح الفتوح، و من ثم‏ وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً: صراطا الى فتح مكة إذ كانت شائكة ملتوية قبل الحديبية و خيبر، و تجربة المؤمنين فيهما عبّدت لهم هذه الشائكة فأصبحت صراطا مستقيما لاسترجاع عاصمة الدولة الاسلامية ثم‏ «وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ» عطف على محذوف بعد «وعدكم ..

فعجل .. و كف ..» هو من أمثال «لتكون آية على الكافرين» إنذارا لهم، فهدما لصرح الكفر و طرقهم التي عبدوها اليه‏ «وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً» آية بآية و صراطا بصراط.

وَ أُخْرى‏ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَ كانَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيراً و مغانم اخرى مؤجلة بعد المعجلة «لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها» حيث الفتح العنوة في مكة دون حرب رغم اكثرية العدة و العدة للمشركين، انه لم يكن من المقدور عليه للمسلمين، و انما «قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها» حيطة الهية و آية قدرة منقطعة النظير.

و ترى ان «اخرى» هي فقط مغانم الفتح العنوة في مكة؟ ام و الفرس و الروم كذلك؟ ام و سائر ما الى ذلك؟.

قد تشملها «اخرى» كلها، بما وعد اللّه المسلمين المجاهدين الصامدين في خطوط النار، كما مضت هنالك الاشارة الى فتح فارس: «سَتُدْعَوْنَ إِلى‏ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ» و في مجالات اخرى الى كل فتح اسلامي من هذا النمط.

و قد يبعد الشمول مضيّ الفعل‏ «لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها» فكيف تشمل مستقبلات الغنائم؟ و يقر به انه بشارة بغنائم تستقبلهم أيا كانت: من هوازن و مكة و فارس (الفرقان- 13)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 194

و الروم و سواها على سواء، و «لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها» تنفي القدرة السابقة على الغنائم اللاحقة، و لا ريب انها و نفيها تسبق الغنيمة كيفما كانت، بشارة ملفوفة هنا، لم يحددها و هي غيب من غيوب اللّه، لبث الطمأنينة و الرضا في نفوس المؤمنين باللّه، فلتكن كما هي شاملة للغنائم الاسلامية على طول الخط، ما لم يقدروا عليها «قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها» ابتداء من فتح الفتوح، و من ثم فتح مملكتي كسرى و قيصر في حرب الفرس و الروم و من ثم فتوحات اخرى‏ «1» ما داموا هم ناصرين لدين اللّه، مسلمين لا مستسلمين.

قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها أ هي خاصة بما لم يقدروا عليها و كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ مُحِيطاً (4: 108)؟ أم هي عامة، فما هي ميزة الغنائم المبشر بها هاهنا؟.

الجواب: أن للّه إحاطة علم و قدرة بكل شي‏ء على سواء كما تقتضيه ربوبيته، و إحاطة عناية بقدرته لخواص عباده انتصارا لهم عند ما ضعفوا و استكانوا، و هذه الغنائم الموعودة لهم منها وَ كانَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيراً.

لا فحسب أنكم تغنمون هنا و هناك، فإن لكم فتحا متواصلا ما دمتم مؤمنين أوفياء، بشارة سارة سارية المفعول لفتوحات تترى أو لا تنهزمون:

وَ لَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 75- أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل عن ابن عباس‏ «وَ أُخْرى‏ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها» قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم، و أخرج ابن عساكر عن علي و ابن عباس في الآية «فارس و الروم» «قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها» قضى اللّه بها أنها لكم، كما و أخرجه سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال «فارس و الروم»، و عن عطية قال: فتح فارس، و أخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال: يوم حنين، و أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير عن قتادة قال: بلغنا انها مكة.

أقول: انها على اختلافها تؤيد عدم اختصاص‏ «وَ أُخْرى‏ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها» بفتح، مكة او سواها، كما و لفظ الآية تساعد ذلك الشمول.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 195

سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا.

إنها سنة ثابتة إلهية لن تتبدل، أن الكفار المهاجمين المقاتلين هؤلاء المسلمين، يولون الأدبار، سنة يسنها الإيمان الصامد المشفوع بنصر اللّه: إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (47: 7) فلا تكفيها دعوى الإيمان او فكرته غير البارزة في الميدان، فإن لها شروطا يجمعها جماع الإيمان‏ وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (3: 139).

و لقد ترى آيات تترى في تصريحات بطيات دعايات القتال الدفاع، قاطعة آمال الكافرين: لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ‏ (3: 108) لكنها تتعلق بالجو الذي يولد فيه انتصار المؤمنين، حيث هم تاركون ولاية الكافرين (96) معتصمين باللّه مهتدين إلى صراط مستقيم (97) متقين اللّه حق تقاته (98) معتصمين بحبل اللّه لا متفرقين (99) داعين إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر مفلحين (100- 101) و من ثم: «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ» (108)- «وَ لَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً. سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا»! فلو انهم غلبوا و جاه الكفار لم يكن تبديلا لسنة اللّه، و إنما تبديلا لسنة الإيمان، و تبدلا للإسلام الصامد بالاستسلام، فسنة الإنتصار دائبة لهم ما داموا مؤمنين.

هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً.

انه نموذج من تلكم المواقف، حاضرة حاذرة في فتح الفتوح، أن اللّه تعالى كف أيدي المشركين المتطاولة عنهم، و أيديهم كذلك و متقابلا عنهم ببطن مكة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 196

لمّا وردها و متى؟ «مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ» تلكم الظفرة الزفرة المظفرة، و انه لموقف مشرف عديم النظير ألا تتطاول أيدي المؤمنين المظفرين على من؟ على الذين آذوهم و شردوهم و قاتلوهم و عاملوهم طوال الرسالة ما لم يعامل به أحد من العالمين! فبطن مكة هو داخل مكة و عقرها، لا خارجها و خارج حرمها: الحديبية، خلاف ما روت رواتها و فسرها مفسروها، و لا سيما «مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ» و لم يكن في الحديبية ظفر لا منهم و لا عليهم، و إنما مصالحة المهادنة، و إذا قيل عنها إنها فتح- فتح الصلح- فليس إلا لأنه فتح سبيلا إلى فتح مكة، فقد كانت تنهار قوات المسلمين لو قاتلوا، فلم يجدوا سبيلا لفتح الفتوح بعد ما انهارت قواتهم، و انصدمت نفوسهم بقتلى.

فهنا موقفان مشرفان لفتح الفتوح، يجعلانه في قمة الفتوح في معارك الشرف و الكرامة طوال التاريخ: ان كف اللّه ايدي المشركين الكثرة عن المؤمنين القلة، رغم انها كانت عليهم متطاولة طوال الرسالة في مكة و إلى المدينة في كل عام مرة أو مرتين، و كانوا يستعدون دوما و يزدادون قوة لقضاء حاسم على المؤمنين و لكن ..

و موقف ثان هو أشرف، أن كف اللّه ايدي المؤمنين المظفرين عن المشركين، كفا للحمية و طبيعة الانتقام، خلاف ما يفعله الفاتحون التوسعيون، و لكي يعلم العالم ان فتح مكة ما هو إلا فتحا للقلوب لا توسعا و انتقاما بعد الاحتلال.

هذا- و من ثم الآيات التالية التي تتحدث عن جو الفتح تؤيد بطن مكة و ظفرها، ان ذلك كله ينحو منحى فتح الفتوح، و إن شمل فتح الصلح في الحديبية هامشيا و كذريعة له على بعض الوجوه.

إن كف ايدي المشركين هنا عن المسلمين يعم صلح الحديبية و فتح مكة، طالما كفّ ايدي المسلمين عنهم يخص الفتح بمكة مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 197

فانه خاص بفتح مكة، بِبَطْنِ مَكَّةَ ظرف للثاني، و الأول أعم من بطن مكة و ظهرها الحديبية.

و كف ايدي الغزاة المسلمين عن هؤلاء المشركين الظالمين- الذي هو من منن رب العالمين- حجز المسلمين هنا عن ملابسات نفسية كثيرة و دقيقة لطيفة المدخل:

من الزهو الذي قد يساور القلب، او يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح، و فرحة الظفر بعد بعد العناء، و هو مدخل يصعب توقيّه في القلب البشري.

و من أمثال هذه الزهوات يؤمر الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في سورة النصر أن يستغفر ربه: ليستر عنه و يسدده عنها و قد ستر: أن كف أيديهم عن المشركين.

فتراه إذ يدخل مكة فاتحا منتصرا، مكة التي آذته و أخرجته و حاربته و وقفت في طريق دعوته عنيدة؛ و عرقلت عليه، تراه يدخلها منحنيا للّه شاكرا على ظهر دابته، ناسيا فرحة النصر و زهوته، عفوا رحيما لا ينتقم.

و هذا هو الأدب الذي تتسم به النبوة دائما، يريد اللّه به أن ترتفع البشرية الى آفاقه، او تتطلع دوما إليها.

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً و ترى من هم أولاء الذين كف أيديكم عنهم؟ إنهم حملة ثالوث الضلال إذ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا باللّه و الرسالة الإسلامية السامية، لا فحسب أن يكتفوا بسلبية الكفر: فلا على المسلمين و لا لهم- بل‏ وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ‏ ان تأتوه طائفين- و صدوا الْهَدْيَ‏ حالكونه‏ مَعْكُوفاً صدوه‏ أَنْ يَبْلُغَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 198

مَحِلَّهُ‏ بمكة المكرمة كما في عمرة الحديبية.

و طالما الكفر كبيرة موبقة في ميزان اللّه، و لكنما الصد عن المسجد الحرام و صد الهدى ان يبلغ محله ... انه كبيرة في الجاهلية ايضا، كريهة في عرفهم الذي يعرفون.

فلم يكن كف ايدي المسلمين الظافرين بهم عفوا من اللّه لهم لصغر الجريمة، و انما لحكم اخرى بعيدة المدى قريبة الهدى كثيرة الندى، مما ياتي او مضى و لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ‏ ...

فالحملة الجماهيرية لا تعرف الصديق من العدو حتى و لو عرفت الصديق، كيف و هناك‏ رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ‏ فلو لا أن كف اللّه أيديكم عن مشركي مكة لكنتم تطأوا المؤمنين مع المشركين، و طأ هو وطأة عارمة فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ‏ و لكن‏ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لقد كان هناك بعض المستضعفين من المؤمنين في مكة لم يهاجروا و لم يعلنوا إسلامهم بقية على أنفسهم و تقية من أعدائهم، فلو دارت الحرب و هاجم المسلمون مكة و هم لا يعرفون المسلمين المجهولين لكانت عليهم معرة تصيبهم بغير علم، فدعاية عليهم من المشركين ان كيف يقتلون أضرابهم.

إنه‏ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ‏ ... لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ من مؤمنين و مؤمنات كانوا بين المشركين، و منهم من كانوا في أصلاب رجال و أرحام أمهات من المشركين، و من مشركين قسمت لهم الهداية و الدخول في رحمة رب العالمين‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 71- اخرج بسند جيد عن جماعة عن أبي جمعة قال: قاتلت النبي (ص) اوّل النهار كافرا و قاتلت معه آخر النهار مسلما و فينا نزلت‏ «وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ ..» و كنا تسعة نفر سبعة رجال و امرأتين.

أقول: و قد تشمل الآية جو الحديبية إذ كف أيديهم عن بعض فلم يبتل المؤمنون بقتل اضرابهم عن جهل، و لكنها لا تختص به إذ لم يظفرهم اللّه عليهم هناك، اللهم إلا في فتح مكة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 199

فهذه ثلاث درجات و بركات ينتجها الفتح العنوة الرحيمة، رغم انهم كانوا في ثلاث دركات من كفر و صد عن المسجد الحرام و الهدى، و اين ثلاث من ثلاث! هذه جوانب من حكم اللّه في هذا الفتح العنوة لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ من الذين يستحقون الرحمة- ف:

لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً لَوْ تَزَيَّلُوا: بينهم، أن تفرقوا و امتازوا عن بعض فعرف المؤمنون و المؤمنات و الذين يرجى منهم الايمان، و الذين في أصلابهم مؤمنون‏ «1» فليس التزيّل بمعنى الزوال و كما في آية أخرى‏ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ‏ (10: 28) فانه تزيّل بازالة الغشاوة بينهم و بين شركائهم أن يعرفوهم فيعلموا أنهم ليسوا بشركاء اللّه، لا بازالة أنفسهم فان الآخرة موقف الدوام لا الزوال.

و المتزيلون هنا أعم من الكافرين و المؤمنين، حيث‏ «لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ» لا «لعذبناهم اجمع».

و «لو» هنا تحيل العذاب الجماعي في الدنيا لجموع الكافرين إلا بتزيل تام، و كما الكافرون متزيلون عن المؤمنين يوم الدين، فاللّه معذبهم هناك دون مهل، كذلك يوم الدنيا لو تزيلوا فامتازوا عن المؤمنين، و حتى الذين هم في أصلاب و أرحام كافرة، و كما سبق هذا التزيل في قوم نوح و بعد صبر و عناء طويلين فاستبشر «وَ أُوحِيَ إِلى‏ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ. وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» (11: 37).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 4: 198- عن ابن بابويه القمي بسنده عن أبي عبد اللّه عليه السلام‏ قيل له: ما بال امير المؤمنين لم يقاتل فلانا و فلانا؟ قال: لآية في كتاب اللّه عز و جل‏ «لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً» قال قلت: و ما يعني بتزيلهم؟ قال: ودائع مؤمنين في صلاب قوم كافرين و كذلك القائم (ع) لن يظهر ابدا حتى تخرج ودائع اللّه عز و جل فإذا أخرجت ظهر على من ظهر من اعداء اللّه فقتلهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 200

و من ثم في دولة الإمام القائم المهدي المنتظر المنتصر عليه السّلام ننتظر تزيلا ثانيا و أخيرا، أن اللّه سوف يعذب الذين كفروا، فلا خير فيهم و لا في أصلابهم، إذا فهم حصب جهنم العذاب في الأولى و الأخرى‏ وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى‏ دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (32: 21) و العذاب الأدنى الموعود للفاسقين قبل الأكبر و بعد تزيلهم في طوفان نوح، إنه ليس إلا في الرجعة في دولة القائم المهدي من آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما تشهد به آيات و روايات‏ «1».

و هذان التزيلان من قبل و من بعد قد يستحقان أداة الاستحالة «لو» كما هنا لأنهما مستصعبان‏ «2» كأنهما مستحيلان رغم انهما واقعان.

«وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ ..» لم يكف اللّه أيديكم عنهم- و «لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ» كف أيديكم عنهم و «لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً» بأيديكم و ما يفعل اللّه حسما لهم- فوجود رجال مؤمنين و نساء مؤمنات لا يعرفون فيما بينهم، و ليدخل اللّه في رحمته من يشاء منهم و من الكفار الذين يؤمنون، و ممن في أصلاب و أرحام المشركين من المؤمنين، هذا المثلث البارع من الحكمة الإلهية حال دون استئصالهم في فتح مكة، إضافة إلى إبراز روح الحنان للظافرين ان القصد من هذه الهجمة الرائعة ليس تفتح البلاد و الانتقام من أهلها الظالمين، و إنما تفتح القلوب المقلوبة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد فصلنا البحث حوله في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماواة».

(2) لقد تزيل هكذا الكافرون من قوم نوح طوال الف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان و هم ظالمون، على تصبر من نوح و المؤمنين معه، و إياس منهم حتى قلوا، كذلك يكون التنزيل الثاني الذي نعيش انتظاره فانه لحد الآن طال اكثر من الأول و ما ندري كم طائله، اللهم عجل فرجه و سهل مخرجه و اجعلنا من أعوانه و أنصاره آمين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 201

«لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ» كإعلام عام من على أعلام الإسلام مرفوفة عالية تبرز للعالمين ان القصد هنا و هناك: في كافة الحروب و الغزوات الإسلامية، هو فقط دخول الناس في رحمة اللّه‏ «وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ».

و متى كفروا و صدوا ذلك الصد الكافر المائر الكريه و لماذا؟ و هو في عرف الجاهلية ايضا قبيح؟:

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى‏ وَ كانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيماً:

فيا لها من حمية حامية لا يكفي لها كفرهم إلّا أن يجعلوها و يفتعلوها في قلوبهم كفرا على كفر، فإنها حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ حين قالوا: لا نعرف الرحمن الرحيم! لكي يحذف الرسول البسملة عن كتاب الصلح، و إذ طلبوا شخط (رسول الله) عن اسمه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلين (لو علمنا أنك رسول الله ما حاربناك فاكتب محمد بن عبد الله!) و ذلك بعد ما صدوهم عن المسجد الحرام و الهدي معكوفا أن يبلغ محله، و لا يعرف التاريخ جاهلية تبلغ محلها و لا حمية جاهلة توصل مداها! فإنها: حمية التعنت و التبختر و التبطّر التي لا تتقيد بعقيدة و لا منهج إلّا فوضى، مخالفين بها كل عرف و كل حمية، منتهكين كافة الحرمات و الأعراف، و حرمة البيت الحرام الذي يعيشون في ظله و على حساب قداسته، و حرمة الأشهر الحرم التي لم تنتهك في أية جاهلية.

فيا لهذه النفوس من قسوة و حماوة، لا تتقيد بأي ميزان إلّا حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ و يقابلها الطمأنينة الأمينة السكينة التي أنزلها اللّه على رسوله و على المؤمنين، جنات عاليات و جاه دركات سافلات!:

فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ‏:

فللرسول سكينة التسديد حتى يهدئ بقمة الحفاوة و اللين و جاه هؤلاء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 202

الشياطين، فلا تظهر منه أية جفاوة .. و للمؤمنين سدا للثورة الفورة التي تتطلبها تلك الجاهلية في المشركين حتى يهدأوا في ظلال الرسول دونما فورة و لا ثورة.

فقلب المؤمن مستكن بربه، مطمئن بمآربه في سبيل ربه، و لكنه بحاجة إلى سكينة زائدة ليزداد إيمانا و اطمئنانا، حيث التقوى قد تفلت و جاه نعرات الجاهلية، فبالسكينة تلزم في ذواتهم و تندغم في إنياتهم:

وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى‏: و انها كلمة التوحيد «1» العريقة الوطيدة، لا لفظته الخاوية عن العمل و العقيدة، و إنما الدالة منها في كافة مجالات الدلالة، فإن الكلمة هي الدالة، ففي مجال العقيدة تدل، و في مجال العمل تدل، فلا تزال دالة فعالة حتى تستأصل كل طغوى، و تجمع كل تقوى في كافة ميادين الحياة، و لكي تخفت صوت الطغوى، مراقبة للرب في كل حركة و خالجة، داخلة و خارجة، فلا يتبطر و لا يطغى لذاته، و إنما لربه و دينه، و الرب يأمر هنا بكظم فائرة الغيظ: لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ.

و لم تكن لزام التقوى بعيدة عنهم تقحم فيهم، فإنهم كانوا مؤمنين مطمئنين مستكنين بسكينة من اللّه- بل:

وَ كانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها: كانوا أحق الناس بكلمة التقوى، و كانوا أهلها:

أهلا لها إذ كانوا متقين، و أهلا لها ان يزيدهم اللّه هدى و تقوى:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 80- اخرج الترمذي و عبد الله بن احمد في زوائد المسند و ابن جرير و الدار قطني في الافراد و ابن مردويه و البيهقي في الأسماء و الصفات عن أبي بن كعب عن النبي (ص) «وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى‏» قال: «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ»

و كما

أخرجه جماعة آخرون عن آخرين كسلمة بن الأكوع و عثمان عنه (ص) و عن علي عليه السلام و عن ابن عباس‏، هي رأس كل تقوى‏

، كذلك و عن مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير و عطاء و عن الزهري انها «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ». أقول و هي من فروع كلمة الإخلاص.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 203

وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ (47: 17) فلا تنال زيادة التقوى و لزامها إلّا أهلوها (جزاء من ربك عطاء وفاقا).

و يا لهما من معسكرين عديمي النظير في تاريخ الإنسان: مثلث السكينة التقوى بأهليتها، و ثالوث الكفر الصد عن المسجد الحرام و الهدي معكوفا ان يبلغ محله، التي تجمعها حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ! ايمان في أحسن تقويم و كفر في أسفل سافلين‏ وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيماً.

فلما رأى الرسول رؤياه‏ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ‏ في الحديبية «1» و وفى هو و المؤمنون بعهد اللّه و ميثاقه فيها، فقد حان حين صدق رؤياه في تحقيق عمرة الحديبية في السنة المقبلة:

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً:

و لقد زعمت جماعة كالخليفة عمر أن هذه الرؤيا لا بد أن تتحقق في الحديبية و لذلك شكوا سائلين الرسول بكل حمية، فجاء الجواب أن صدقها في السنة المقبلة قبل الفتح و بعد صلح الحديبية، كما سجلوه في وثيقة الصلح: أن يفسح لهم مجال العمرة ثلاثة أيام و قد فسحت، ثم‏ «فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً» هو فتح مكة، فانه هو دون ذلك، لا صلح الحديبية، و ذلك لأن «ذلك» هنا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 80- اخرج الفرياني و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقي في الدلائل عن مجاهد قال: أري الرسول (ص) و هو بالحديبية انه يدخل مكة هو و أصحابه آمنين محلقين رؤوسهم و مقصرين فلما نحر الهدى بالحديبية قال له أصحابه أين رؤياك يا رسول اللّه فأنزل اللّه الآية فرجعوا ففتحوا خيبر ثم اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه في السنة المقبلة.

و فيه عن ابن عباس قال: كان تأويل رؤياه في عمرة القضاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 204

ليس إلّا صدق رؤيا الرسول، و لم تصدق إلّا في عمرة القضاء بعد الحديبية بسنة و قبل فتح مكة بسنة.

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا التي أراها إياه في الحديبية، صدقها «بالحق» بحق الصدق و صدق الحق، صدقا يصاحب الحق، و الرؤيا هي:

«لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ» و لكن كيف؟

إنه صادق‏ «إِنْ شاءَ اللَّهُ» و ترى أن صدق وعد اللّه كذلك بحاجة إلى‏ «إِنْ شاءَ اللَّهُ»؟! أجل- فإنه أدب دائب يؤدب به المؤمنون باللّه أن يكونوا «إِنْ شاءَ اللَّهُ» و يروضوا أنفسهم على‏ «إِنْ شاءَ اللَّهُ» حتى و فيما هو حتم حسب وعد اللّه كدخولهم المسجد الحرام للتطواف حول بيت اللّه!.

هذه المشية الإلهية يجب أن يعيشها المؤمن في صورتها الطليقة دونما تقيد بشي‏ء حتى تستقر في القلوب، و لكي تصبح حياة المؤمن صورة و وضاءة عن‏ «إِنْ شاءَ اللَّهُ» فيكون في حياته كل الحياة مثالا لمشيئة اللّه، ممثلا ل «إِنْ شاءَ اللَّهُ» فيعيش مشيئة اللّه حتى فيما يراه حتما كما وعد اللّه: «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ» فهو هو اللّه الذي يقول هنا عن صدق الرؤيا «إِنْ شاءَ اللَّهُ» و لكي نتأدب نحن بأدب اللّه و نستن بسنة اللّه.

ثم و ليس دخول المسجد الحرام خائفين كما كان قبل الصلح، بل‏ «آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ»: آمنين من بأس المشركين، محلقين و مقصرين حيث كانت عمرة القضاء، و المعتمر مخير بعد السعي بين الحلق و التقصير مهما كان الحلق أفضل و أحرى‏ «1» خلاف يوم الحج الأضحى حيث الحلق متعين إلّا لمن استثنى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 81- اخرج مالك و الطيالسي و ابن أبي شيبة و البخاري و مسلم و ابو داود و الترمذي و ابن ماجة عن ابن عمران ان رسول اللّه (ص) قال: رحم اللّه المحلقين- قالوا:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 205

«فعلم» اللّه‏ «ما لَمْ تَعْلَمُوا» من رحمة و حكمة بالغة، و من تأخير لصدق هذه الرؤيا حيث ظننتموها حالا حينها، «فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ» الدخول لعمرة القضاء «فَتْحاً قَرِيباً» الذي تكرر وعده طوال الرسالة في مكة و المدينة، و هو فتح مكة.

عمرة القضاء

: روت الرواة أنه لما كان ذو القعدة من سابع الهجرة- التالي لصلح الحديبية- خرج رسول اللّه (ص) حسب وثيقة الصلح الى مكة معتمرا مع جماعة من المدينة و اخرى من أهالي الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة (مسجد الشجرة) و ساق معه الهدى، و سار بأصحابه ملبين، فلما قرب من مرّ الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل و السلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا و ظنوا انه يغزوهم ناكثا للعهد الذي بينه و بينهم، فأخبروا سائر مكة، فلما جاء الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فنزل بمرّ الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي و النبل و الرماح إلى بطن ياجج، و سار إلى مكة بالسيوف المغمدة في قربها كما شارطهم من ذي قبل، فلما كان أثناء الطريق بعثت قريش‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و المقصرين يا رسول اللّه؟ قال: رحم اللّه المحلقين- قالوا: و المقصرين يا رسول اللّه؟ قال: و المقصرين.

و

فيه اخرج الطيالسي و احمد و ابو يعلى عن أبي سعيد ان رسول اللّه (ص) و أصحابه حلقوا رءوسهم يوم الحديبية إلا عثمان بن عفان و أبا قتادة فاستغفر رسول اللّه (ص) للمحلقين ثلاثا و للمقصرين مرة.

أقول: استغفاره (ص) للمقصرين أعم من ذنب التقصير و سائر ذنوبهم حيث يقول اللّه‏ «وَ لا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ» و ذلك للمصدود عن إتمام مناسكه، و اما استغفاره للمحلقين فعن سائر ذنوبهم السابقة.

و لقد فصلنا القول حول حكم الحلق و التقصير في الحج و العمرة في كتابنا «اسرار. مناسك، أدلة: الحج» و قد طبع باللغة الفارسية و سوف ينقل إلى اللغة العربية إنشاء اللّه تعالى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 206

مكرز بن حفص فقال: يا محمد! ما عرفناك تنقض العهد!

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: و ما ذاك؟ قال: دخلت علينا بالسلاح و القسي و الرماح! فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لم يكن ذلك و قد بعثنا به إلى ياجج، فقال: بهذا عرفناك بالبر و الوفاء!.

و خرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إلى أصحابه غيظا و حنقا، و اما بقية أهل مكة من الرجال و النساء و الولدان فجلسوا في الطريق و على البيوت ينظرون إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه، فدخلها و بين يديه أصحابه يلبون، و الهدي قد بعثه إلى ذي طوى و هو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، و عبد اللّه بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام الناقة يقودها.

و هكذا صدق اللّه رسوله الرؤيا بالحق، ثم كان الفتح بعد عام من عمرة القضاء و ظهر دين اللّه، و دخل الناس في دين اللّه أفواجا، ثم ظهر في الجزيرة كلها، و من ثم يتحقق في العالم كله في دولة القائم من عترته (ع) و كما وعد:

[سورة الفتح (48): آية 28]

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى‏ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً (28)

ذكرنا في سورة الصف طرفا من تفسير نظيرتها «وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» «1» و «رسوله» هنا كما هناك و كما في 82 آية أخرى‏ «2» تؤكد له أصالة الرسالة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ج 28 ص 315.

(2) لفظة «رسوله» نجدها خاصة بالرسول محمد (ص) في 84 موضعا من القرآن دون سواه من رسل اللّه الا رسولي بالنسبة للمسيح في آية واحدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 207

الإلهية، و كأنها هي الوحيدة فلا رسالة إلا له دون سواه، و المرسلون المسبقون عليه إنما يعدّون لرسالته عدة بكل عدة و عدة.

فهو المرسل «بالهدى» كل الهدى‏ «وَ دِينِ الْحَقِّ»: الثابت الذي لا حول له و لا محيد عنه، ثابتا دائيا على مر الزمن ما طلعت الشمس و غربت، فلا تغرب شمس الرسالة الإسلامية منذ بزوغها الى القيامة الكبرى، مرفوفا أعلامها، مشعّا وضاء على عقول و قلوب العالمين، معطية متطلبات الحياة و حاجات البيئات من ساكني الأكواخ إلى ساكني ناطحات السحاب.

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ‏: الطاعة كلها، من حقها و باطلها، كما في دولة القائم عليه السلام حيث الإسلام يظهر على الأديان كلها، فلا شوكة و لا كيان إلا له مهما بقيت بقية ضئيلة من سائر الأديان، فإنهم لا بد و هم تحت ظل الإسلام و رقابته و من اهل ذمته لا صوت لهم و لا صيت‏ «1» مهما انحسر سياسيا في ردح من الزمن لانكسار أهليها و ارتجاعهم عنها كنظام حيوي شامل، و لكنه حتى في الناحية السياسية لم ينحسر إلا تاركوه: «وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

و إظهار «دِينِ الْحَقِّ»: الإسلام- على الدين كله، منه إظهار بالحجة و الآيات و هو كائن و يستمر منذ بزوغ الإسلام، و إن كان مبتلى بالخصام في حرب سجال طوال تأريخه المجيد .. و هذا الإظهار كائن بأصل الرسالة و ليس غاية لها، و النص يجعله غاية «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ».

و منه إظهاره في واقع الحياة، غلبا في الحكم على غلبة في الحجة و هو لا محالة كائن في الدولة الأخيرة الإسلامية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان عن أبي جعفر الباقر (ع) في الآية قال: يظهر اللّه عز و جل في الرجعة

و

فيه عن أبي الحسن الماضي قال: يظهر على جميع الأديان عند قيام القائم ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 208

و ليس الإظهار هو الإمحاء حتى لا يبقى دين إلا و هو يفنى، و إنما هو الغلبة على الخصام رغم وجودهم، و لكنهم ضعفاء هزلاء متخالفون مع بعض متعادون:

من اليهود: «وَ قالَتِ الْيَهُودُ ... وَ أَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» (5: 64) و من النصارى: «وَ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى‏ .. فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ» (5: 14).

و أما من سواهم من مليين و مشركين و ماديين فلا نعرف عنهم في دولة القائم شيئا، هل هم كذلك كائنون على ضعف أم بائدون، و إنّ ما نعرفه هو ظهور دين الحق على الدين كله، و علّه يلمح إلى وجود الدين كله حتى يظهر الإسلام على الدين كله.

وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً ظهورا بآياته في قرآنه المجيد، فإنه قوي بذاته، شاهد لظهوره بمؤهلاته، زاحف بلا سيف و لا حيف، لما في كيانه من استقامة مع الفطر و العقول، و مع نواميس الكون ككل، و ما فيه من استجابة لمتطلبات الحياة و الأحياء ما طلعت الشمس و غربت.

و فيما يلي- لآخر آية من سورة الفتح- تلميح مليح بشرطي ظهور هذا الدين في شطري الرسول و المرسل إليهم، فيها رمز استمرارية الفتح المبين، دون وقفة على الفتح الأول، فلا يزالون فاتحين ما داموا يحملون هذه الرسالة السامية كما يجب و قدر ما حملوا مما حمّلوا:

[سورة الفتح (48): آية 29]

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى‏ عَلى‏ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (29)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 209

آية عديمة النظير تحمل تعريفا بالبشير النذير و الذين معه بتمثيل و تقرير من التورات و الإنجيل يجعلهم مثلا عاليا في تاريخ الإنسان منقطع النظير، قاطعة آمال المسلمين المستسلمين، مزيفة كيان من يدعون الصحابة كأنها ترس عن كل قبيح، فهم لصحبتهم الرسول نبراس منير، مخطئين معية الرسالة بصحبة زمنية و معاصرة!.

إنها تحمل صورة رائعة عن سيرة الذين مع الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم التي تجمعها نفس الصيغة: «الَّذِينَ مَعَهُ» و تفصلها فصائل الآية في سلبيتهم و جاه الكفار: «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ» و ايجابيتهم بينهم أنفسهم: «رُحَماءُ بَيْنَهُمْ» كحالتين جماعيتين تتقدمان على سائر الحالات، من لقطة تصورهم في محاريب العبادة بعد حنانهم الجماعي و حرابهم ضد الكفار: «تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً» بما يعنيه ركوعهم و سجودهم:

«يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً» دون أن تكون مجرد صور و هيئات، فلأنها تكون من الأعماق تصوّر في سيماهم صورة معنوية شاملة: سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ و ذلِكَ‏ العظيم العظيم‏ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ كما تأتي في آيات (الفرقان- م 14)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 210

(و) اما مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ‏ و كما في آيات تأتي‏ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ ....

و يا له من مثلث بارع من الكتب السماوية الثلاث تعريفا بالذين معه، و أن لو استقاموا على الطريقة المحمدية لكان حياتهم فتحا دائبا بينا و مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً.

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ‏ اسم واحد و وصف واحد: رَسُولُ اللَّهِ‏ دون أن ينسب إلى بلده و هو أم القرى و قبلة الموحدين، أو إلى قريب له في نسب أو سبب أم ماذا! إنما هو رَسُولُ اللَّهِ‏ و كفاه مفخرة بين العالمين أن يحمل هذه الرسالة السامية الخالدة، و لا تجده يوصف في القرآن إلا بعبودية أو نبوة أو رسالة، و أما الميزات الأخرى الخيالية فلا أثر لها في القرآن كله!.

وَ الَّذِينَ مَعَهُ‏: معه في رسالته الإلهية تصديقا و إيمانا و تطبيقا، و معه في حملها كما حمل، دعوة إليها و جهادا في سبيلها و تصبّرا لمشاقها و تحملا لحرماتها و حرماناتها!.

فلا تعني معية الرسول- التي لا تختص بزمان أو مكان أو قوم- معية الزمن حتى تختص بصحابته المعاصرين، أو معية المكان لكي تنحصر بمن عاينوه و شاهدوه، فتنحسر عمن بعده من التابعين و أتباعهم إلى يوم الدين، و لا معية نسبة أو قرابة أو لغة أم ماذا، مما لا تقرب أصحابها إلى رسالة السماء و قد تبعد عنها، كما أبو لهب البعيد البعيد الذي كان يحمل كافة هذه المعيات إلا الرسالة، و قد نزلت في تبابه سورة فذة، ثم نرى سلمان الفارسي الذي لم يحمل إلا معية الرسالة يصبح سلمان المحمدي!.

أجل- انه لا معية هناك معنيّة إلا معية الرسالة، كما يصدقها وصف محمد مسبقا بالرسالة، و مواصفاتها اللاحقة التي لا تحمل زمانا و لا مكانا و لا لغة و لا قرابة، فبإمكانك أن تكون معه قريبا إليه، و أنت بعيد عنه عرض المكان، طول الزمان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 211

دون أية نسبة أو قرابة، أو أن تكون عليه (لا معه) غريبا عنه و أنت تعاصره و تواطئه مشاهدا له ليل نهار و أنت من أنسب أنسبائه أو أقرب أقربائه- ف (إن ولي محمد من والى الله و رسوله و إن بعدت لحمته و إن عدو محمد من عادى الله و رسوله و إن قربت لحمته) إذا فلا تعني هذه المعية إلا أن تنحو منحاه في رسالة السماء تطبيقا و نشرا له في الأرض:

فكما أن الرسول كان شديدا على الكفار دون مواربة و لا مداهنة و لا أنصاف حلول، كذلك‏ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ و لو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، و هذه هي سمة الايمان ألّا تعرف في سبيل اللّه أيا من هذه و تلك: لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ .. (58: 22).

و لا تعني الشدة على الكفار الإساءة إليهم و إن كان يؤمل منهم رشد، و إنما السياج القويم الحاجز بينهم و بين الكفار، لا يسمح بتدخل في شئون المسلمين ثقافيا أو سياسيا أو اقتصاديا أو أخلاقيا أم ماذا، ثم لا يسمح لمسلم أن يوادهم و يواليهم، فآخر أمرهم معهم: لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ‏ و أوله أن يهدوهم الصراط المستقيم، دون أن تكون هناك متوسطات في مداهنات أو مواربات.

فهم يجتازون وشائج القرابات و سائر الحميات في ظلال وشائج الايمان إلى تحقيق مرضات اللّه لأنهم حزب اللّه: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (58: 22).

و كما أن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (9: 129) قائلا لهم‏

لا يرحم الله من لا يرحم الناس‏ «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 82- أخرجه ابن أبي شيبة و البخاري و مسلم و الترمذي عن جرير عنه (ص):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 212

و

(لا تنزع الرحمة إلا من شقي) «1»

و

(إنما يرحم الله من عباده الرحماء) «2»

كذلك الذين معه‏ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ‏: تربطهم وشيجة الايمان باللّه فقط مهما تفارقوا بسائر الوشائج، فهم نسبهم و سببهم الايمان، و جنسيتهم الايمان، يعيشون في ظلاله إخوة متحابين، لا تجد فيهم إلا أخوة الايمان‏ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ.

إذا فكل المنازعات و المشاغبات بين المؤمنين إنما هي من ضعف الإيمان أو جهلهم موقع الإيمان، و هنا لك أعداءنا يتربصون بنا الدوائر ليوسعوا الخرق بيننا، و الشيطان ينزغ بيننا: قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً (17: 53) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (7: 200).

فهؤلاء الذين يدعون الإسلام ثم يحاولون في تفريق كلمة المسلمين و توسيع الخلافات فيما بينهم، أولئك هم حزب الشيطان، فاحذروهم مهما كبرت عمّاتهم و طالت لحاهم، أعاذنا اللّه من شرّهم و لا سيما في قبلة الإسلام و مولده.

فرغم أن الواجب رفض الخلافات البعيدة المدى في مملكة الحج، نرى عملاء بزي العلماء يخطبون و يكتبون في الحرمين المباركين ما اكتتبه و اختطبه لهم الاستعمار الكافر عارفين أو غافلين‏ وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ‏ (16: 25)!.

و كما كان الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أول العابدين فالذين معه:

تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً تراهم و كأنهم راكعون دوما و ساجدون، أجل و لأنهم حياتهم الركوع و السجود للّه في كافة صورها على مختلف صيغها و هيآتها، في صلاتها للّه و في كل صلاتها بخلق اللّه، في حياتهم الفردية للّه و في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر: اخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة عنه (ص):

(2) المصدر: اخرج ابن أبي شيبة عن اسامة بن زيد عنه (ص):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 213

الجماعية ابتغاء فضل اللّه و رضوان اللّه، فكل حياتهم كأنها صلاة و كلها صلات و كلها للّه ركوعات و سجودات طالما تختلف الهيئات، فما الركوع و السجود في الصلاة إلّا تعبيرا عينيا عن اصالة العبودية و الخضوع للّه، المتعرقة في نفوسهم‏ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً: شجرة لها ساقان، شجرة العبودية الناحية منحى رضوان من اللّه لأنه اللّه، و فضل من اللّه حيث وعد عباده الصالحين، فضلا في الدنيا و فضلا في الآخرة، فيعملون لهما و يأملون من اللّه الفضل فيهما.

ثم و آثار ذلك السجود لائحة في سيماهم لمن ينظر بنور اللّه:

سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ فالسيما هي العلامة اللائحة للناظرين بنور اللّه دون الجاهلين: يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً (2: 273) فأنت أنت تعرفهم و الذين معك كما «وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ‏ (7: 46) فهذا من سيما التعفف و الايمان، ثم هناك سيما النفاق و الإجرام:

«يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ» (55: 41) هذا- و لكن سيما النفاق هي أحيانا بحاجة إلى تعريف و حتى للرسول: وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ (47: 30).

و مهما كان سيما النفاق غامضا و بحاجة الى تعريف، فسيما الايمان من أثر السجود لائحة للناظرين بنور اللّه دون تعريف- ف:

سِيماهُمْ‏: علامتهم كائنة لائحة فِي وُجُوهِهِمْ‏-: و جهاتهم و اتجاهاتهم و مواجهاتهم، و في ذوات وجوههم يرى الاتجاه إلى اللّه لائحا، و كل ذلك‏ «مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» الذي يعيشونه للّه حياتهم.

فلا يعني أثر السجود و سيما الوجوه ثفنات الجباه فقط: التي قد تصطنع مغبة الاستحمار الاستغفال، و حتى ممن لا يعرف سجودا للّه اللهم إلا للهو! أو ممن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 214

يسجد مصلحيا تاجرا أم ماذا «1».

فليس الأثر الظاهر على الجباه من السجود هو هو سيما الايمان، كما ليست الجباه الخالية عن الثفنات سيما اللاإيمان، فقد يجتمعان و قد يفترقان.

فأثر السجود و هو أثر العبادة المتمثلة تماما في السجود، هو يشمل الركوع كذلك كما «تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً» و هو يشمل كافة نهضات العبادة للّه في كافة صورها، فأثر العبادة لائح في سيماهم، في ملامح وجوههم حيث تتوارى الخيلاء و الكبرياء، لائحة عليها الوضاءة الهادئة و الصباحة النبيلة، كذلك و في ملامح و جهاتهم و مواجهاتهم و اتجاهاتهم، ألّا نمردة فيها و لا فرعنة و لا استغلال، و لا أية محاولات و تصرفات إلّا على ضوء شريعة اللّه! و هذه السيما السامية لائحة عليهم واضحة يوم الدنيا و يوم الدين‏ «2» هنا لأولى البصائر و هناك لأهل المحشر أجمعين حيث‏ تُبْلَى السَّرائِرُ!.

«إذا نظرت إلى أحدهم عرفت أنه من أهل الصلاة بأثر الوضوء و إذا أصبحت عرفت أنه قد صلى من الليل، و هو العفاف في الدين و الحياء و حسن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 82 اخرج الطبراني و البيهقي في سننه عن حميد بن عبد الرحمن قال:

كنت عند السائب بن يزيد إذ جاء رجل في وجهه اثر السجود فقال: لقد أفسد هذا وجهه أما و اللّه ما هي السيما التي سمى اللّه و لقد صليت على وجهي ثمانين سنة ما اثر السجود بين عيني!.

(2)

المصدر: اخرج الطبراني في الأوسط و الصغير و ابن مردويه بسند حسن عن أبي بن كعب (رض) قال قال رسول اللّه (ص): في قوله‏ «سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» قال:

النور يوم القيامة.

و

أخرج الطبراني عن سمرة بن جندب ان رسول اللّه (ص) قال: «إن الأنبياء عليهم السلام يتباهون أيهم اكثر أصحابا من أمته فأرجو ان أكون يومئذ أكثرهم كلهم واردة و ان كل رجل منهم يومئذ قائم على حوض ملان معه عصا يدعو من عرف من أمته و لكل امة سيما يعرفهم بها نبيهم».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 215

السمت» «1».

ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ» ذلك القدسية الفردية و الجماعية السليمة الاسلامية في الذين مع الرسول مثلهم السامي في التورات، كما في بشارات عدة تصف الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمته بقوة في دين و صمود ضد أعداء الدين‏ «2».

مثل ما في (مزمور 149: 1 و 6- 9) من زبور داود: «هللويا. رنموا للرب ترنيما جديدا، أقيموا تسبيحه في مجمع الأصفياء ... يبتهج الأصفياء في المجد يرنمون على أسرتهم (6) تعظيم الله في أفواههم و بأيديهم سيف ذو حدين (7) لإجراء الانتقام على الأمم و التأديب على الشعوب (8) لإيثاق الملوك بالقيود و شرفائهم بكبول من حديد (9) ليمضوا عليهم القضاء المكتوب، هذا فخر يكون لجميع أصفيائه. هللويا».

فانها تجمع مواصفتهم بالشدة على الكفار و الرحمة بينهم أنفسهم و أنهم أصفياء ... و هكذا تجد آيات في عموم التورات و خصوصها بحق الأمة الاسلامية «3».

وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ‏: أخرج فرخه و فرعه دون أن ينقص فرخه من قواه بل «فآزره» ناصر عوده و أصله، أو أن الزرع آزر فرعه، أو المعنى مؤازرة الأصل الرسالي و الفرع الذي معه، فالرسول برسالته و توفيق اللّه يصنع مؤمنين و يؤازرهم، و هم بايمانهم و توفيق اللّه يؤازرونه و يعزرونه.

و من جراء هذا الإخراج و تلك المؤازرة «فاستغلط» الزرع بشطأه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 82: اخرج ابن مردويه عن ابن عباس (رض) عن النبي (ص) في الآية قال: ان جبريل قال: إذا نظرت الى الرجل من أمتك عرفت ...

(2) راجع رسول الإسلام في الكتب السماواة، قسم البشارات التوراتية.

(3) خصوص التوراة هي الاسفار الخمسة الموسوية، و عمومها كتب العهد العتيق بأجمعها من أي نبي إسرائيلي كان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 216

«فَاسْتَوى‏ عَلى‏ سُوقِهِ» و في ذلك الإخراج المؤازرة الإستواء، إعجاب و مسرة لسائر الزراع الرسل: «يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ» كما اعجبوا من تشريفه قبل تكونه، و من ثم‏ «لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» فالكفار يزيدهم هذا الزرع الأخير تغيظا و تميزا «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً» (2: 10) و أمّا رسل اللّه و المؤمنون بهم فيزيدهم سرورا و اعتزازا، فإنهم‏ «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ»! و هكذا تكونت الرسالة الاسلامية برسولها و الذين معه، حتى كونت كيانا قديما لا قبل له، الا على من لا يمشون على خططها، تتدرج من ضعف في عدة و عدة إلى قوة فوق قوة، و لكي تشمل العالم كله‏ «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً».

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً.

ترى ألم يكن الذين معه- مع تلكم المواصفات التي تجعلهم في قمة الايمان- من المؤمنين الصالحين، حتى يقول اللّه هنا في مجال المغفرة و الأجر العظيم «منهم» لا- كلهم؟

علّه تأكيد بعد تصريح بشروطات الايمان في تحقق وعد اللّه كيلا ينساها أو يتناساها أناس فيحسبون الايمان لفظة قول أو تصورا أو عقيدة فقط، و إنما الايمان الذي يظهر في صالحات، و صالحات تزهر من إيمان، هما دوما سبب الأجر العظيم و الغفران.

و ها هي الآيات الانجيلية التي تمثلهم بهذا المثل السامي:

أنباء الملكوت و أبنائه.

الملكوت و هي حقيقة الملك تكوينا و تشريعا، كثيرا ما تعني الشريعة الإسلامية، فأبناؤها أبناء الملكوت و لهم في الإنجيل الذكريات التالية:

1- «ان كلام الملكوت يزرع في قلوب الناس كما تزرع الحنطة في المزرعة و الله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 217

صاحبها» (متى 13: 1- 24) (مرقس 4: 1- 20) (لوقا 8: 1- 15).

2- «ملكوت الله ينشأ آنا فآنا و ينمو سنة فسنة و يكبر عصرا فعصرا و يتقوى دونما انقطاع» (مرقس 4: 26: 29).

3- «ينمو الملكوت و يتكاثر جدا بين بعض الأقوام لمدة قليلة دون ان يبقى كافر و لا مشرك كالخردل، يؤثر كلام الملكوت في قلوب الناس و يؤدي بهم إلى الايمان» (متى 13: 31- 33، مرقس 4: 31- 33).

4- «في أبناء الملكوت حبات الحنطة التي تعطي مائة ضعف و فيهم أولاد إبليس» (متى 13: 24- 30 و 3: 47- 50 و 22: 10).

5- «أبناء الملكوت هم ملح الأرض و بقدر ما يحتاج الطعام الى الملح فكذلك كل العالم و جميع أقوام كرة الأرض يفتقرون إلى أبناء ملكوت الله» (متى 5: 13) (مرقس 9: 5) (لوقا 14: 34- 35).

6- «أبناء الملكوت هم نور العالم» (متى 5: 14- 16).

7- «تبقى أولاد الشيطان مع أبناء الملكوت على جنب إلى يوم القيامة» (متى 13: 27- 30).

8- «أبناء الملكوت لا يعطون القدس للكلاب و لا يطرحون دورها أمام الخنازير» (متى 7: 6).

9- «ان ملكوت الله هو مثال ملكوت السماوات لا يفكرون في جمع الخزائن ليكونوا أغنياء في الدنيا لأنهم عما قليل يتركون الدنيا و لذاتها و خزائنها» (متى 6: 19- 21).

10- «الأغنياء غير الشاكرين الذين يتوكلون على مال الدنيا هم خارجون ملكوت الله» (متى 19: 22: 24).

هذه مواصفات الملكوت و أنباءه و أبناءه، و تلك عشرة كاملة من الأناجيل تتمثل في الرسول الأعظم محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 218

(سورة الحجرات- مدنية- و آياتها ثمان عشرة)

[سورة الحجرات (49): الآيات 1 الى 10]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى‏ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (3) إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (4)

وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى‏ ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (6) وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8) وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى‏ فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِي‏ءَ إِلى‏ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9)

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 219

سورة هي ثورة قارعة على اللّاأخلاقيات العارمة، المتبقية في الجماعة المسلمة من جاهليات، او المتسربة فيها من عادات سيئات، نازعة هذه الكتلة المؤمنة عن أخلاق النسناس إلى أخلاق الناس ما يؤدبه بجنب اللّه و رسوله من عدم التقديم، و ما ينظم سلوكه مع المؤمنين و سائر الناس في المجتمع الحيوي، و ما يمتاز به انسان في شريعة اللّه، و هي على قلة آيها كثيرة المعنى، غزيرة المغزى تنبع بحقائق تفتح للعقول و القلوب آفاقا بعيدة، ما تتجاوز حجمها مآت المرات، لو اتخذها المؤمنون نبراسا في سيرتهم و متراسا في مصيرتهم لعاشوا أعزة أعلون، و ليكونوا مثلا للأخلاق الفاضلة، و مثلا للانسانية الكاملة، فيكونوا مدينة فاضلة يحكم فيها أخلاق اللّه، يأمن فيها المؤمنون باللّه، و من هم في ذممهم على ضوء شريعة اللّه، شرط الّا يقدموا بين يدي اللّه:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 220

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ‏ .. ترى ماذا تعني‏ «بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ»؟ إنها الأمام تشريعا أم سواه، و ليست اليدين الجارحتين، فاليدان لا تختصان بهما و إن لمن له جارحتان؛ كالموارد التي لا تناسبانها مثل عقدة النكاح: «أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ» (2: 237) و كسائر الموارد للمخلوق الذي ليست له جارحتان: «إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ» (34: 46) «إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً» (58: 12) فكيف إذا لمن تستحيل له اليدان الجارحتان، مهما تمحّل له من لا يعرف معاني الكلام: ان له يدين جارحتين كما تناسب ساحة قدسه، من تناقض جارح لساحة قدسه‏ «1» قارح لتجرده عن كافة الحدود و الأمثال.

فهنا التقديم بين يدي اللّه، ليس ان تقدم نفسك في مشيتك على اللّه فلا له مشي على الأرض ام سواها، و لا ان هناك- لو كان- تماشيا و تسابقا حتى ينهى عنه، و انما هو تقديم لك عليه في اعتقاد او مقال او فعال كتشريع و حكم ام ماذا؟

«إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ» (6: 57)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فما هو إلا مثل ما يقال: ان الله يجهل كما يناسب ألوهيته، و يعجز كما يناسب ألوهيته، و ينزل من سماء الى سماء و يصعد كما يناسب ألوهيته! فان من الصفات و الأفعال ما لا تناسب ساحة الالوهيته في أي معنى أخذت- كهذه و كالظلم و النسيان و السهو و الخطأ- و سائر ما يختص بالمخلوقين- كما أن منها ما يختص به تعالى دون أن يشاركه فيها غيره باي معنى كان- كالرحمانية و الرحيمية و المعبودية و المشرعية .. و ان كان منها ما تنسب الى الله كما يناسب ذاته و تنسب الى غيره كما تناسبه- فاللفظ مشترك و المعنى متباين- كالوجود و العلم و القدرة- فالله موجود و الخلق موجود و لكن الوجودين متباينان- فأين الوجود الأزلي و الحادث و أين الأبدي و الفاني- و المجرد و المادي- و أين و أين- و من هذه الألفاظ اليد و العين و أشباهها فانها تستعمل في معاني مختلفة حتى لمن له هذه الأعضاء، فكيف بمن ليس له أعضاء؟

فالمعلوم قطعيا هنا أن اليدين بالنسبة لله ليستا الجارحتين، و انما صفات أو افعال تناسب ذاته تعالى، لا اجزاء من ذاته فليست له اجزاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 221

«وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ» (13: 41).

فمن التقديم بين يدي اللّه تقديم لحكم على حكم اللّه، في عقيدة أم قول أم فعل، سواء أ كان نقضا لحكم اللّه بعد ما حكم فهو تشريع، ام سبقا لحكم اللّه قبل أن يحكم و ان وافقه بعد ما حكم، فإنه فسوق و خروج عن التسليم للّه.

و «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» ليس ليختص التقديم الممنوع بالقول لأنه فقط المسموع دون العقيدة و الفعل فانه ثني ب «عليم» فيشمل غير القول مما يعلم من فعل أم عقيدة أم ماذا.

و من ثم التقديم بين يدي رسول اللّه هو كالتقديم بين يدي اللّه، و لا فارق بينهما إلا أصالة في اللّه و رسالة في رسول اللّه دون أي استقلال عن اللّه‏و «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ» (4: 80) و إلا أن لرسول اللّه أمام الجسم كما له أمام الرسالة، ف «لا تقدموا بين يدي رسوله» تعم تقديمك نفسك أم سواك على رسول اللّه في مشيته أو قيامه أم جلوسه و قعوده، فكما ان روحه برسالته تتقدم على سائر الأرواح، كذلك جسمه الذي يحمل تلكم الروح القدسية، لا يقدم عليه أي جسم و لا أي روح، فجسمه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أشرف من سائر الأرواح فضلا عن روحه! و النهي عن التقديم هنا و هناك يعني وجوب التأخير، و التسليم للّه و لرسوله، دون مساوات أو مسامات مع اللّه أو الرسول في حكمه أم سواه، و انها داخلة في‏ «وَ اتَّقُوا اللَّهَ» حيث التقوى تتنافى و المساوات كما تنافي التقديم‏ «وَ اتَّقُوا اللَّهَ» في ألوهيته و في رسوله أن تفسقوا عن مثلث العقيدة و القول و العمل في حكم اللّه‏ «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ» ما تقولون «عليم» ما تنوون و تعتقدون و تعملون.

و لماذا «لا تقدموا» دون «لا تتقدموا»؟ لأن التقدم يخص المخاطب نفسه دون سواه، و التقديم يعمه و سواه، فكما يحرم التقدم على اللّه و رسوله في حكم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 222

أو سواه، كذلك أن تقدم غيرك على اللّه أو على رسوله، و إن كان ذلك الغير رسول اللّه ان تقدمه على اللّه، أو إماما من الأئمة تقدمه على رسول اللّه، أو أن تساوي و تسامي بين اللّه و سواه أو بين رسول اللّه و خلق سواه.

و من ثم فلا يختص حكم التقديم بالحكم، فانه يعم الحكم و سواه، كأن يقدم نفسه أم سواه على رسول اللّه في مشيه أو جلوسه أو قيامه أو كلامه أم ماذا، فان الرسول مقدم على الأمة بحكم رسالته، كما اللّه مقدم على الخلق بألوهيته في كل شي‏ء، فلا يقدم بين يدي كيانه كيان، و لا بين يدي عبوديته سواه، و لا طاعته سواه، و لا حرمته سواه، و لا بين يدي حكمه سواه، كما و لا يسامى في ذلك أو يساوى بسواه.

فما للذين يدّعون الإسلام يقدمون حكم فلان و فلان على حكم اللّه، و حديث فلان على كتاب اللّه، و اجتهاد فلان على سنة رسول اللّه، و إذا قيل لهم هذه بدعة؟ قالوا: نعم بدعة حسنة «1»! أو قيل لهم: حديث يخالف كتاب اللّه؟

قالوا: اسناده صحيح تقبّله العلماء! فما لهم لا يؤمنون؟ و إذا ذكّروا لا يذكرون، فبأي حديث بعد اللّه و آياته يؤمنون.

و إنما هو كتاب اللّه، أو الرواية الموافقة لكتاب اللّه، او الثابتة غير المخالفة له، دون أي اجتهاد من قياس أو استحسان أم ماذا، من تشريع بغير مصدره، تقديما بين يدي اللّه و رسوله أو مساواة، و ان عدم التقديم بين يدي اللّه و رسوله لزام الإيمان باللّه و تقواه، فسواه كفر باللّه و طغواه.

و ها هو أدب نفسي مع اللّه و رسوله، كأصل وحيد في التشريع حكما و في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و بين بدعة و حسنة تناقض بين لان البدعة إدخال، ليس من الدين في الدين ام إخراج، او من الدين عنه- فالبدعة معارضة للدين- فهل توجد معارضة حسنة للدين؟ و ما أحمق هؤلاء الذين يوجهون بدعا جازفة بلفظ الحسنة- كأن اللفظة تحول الماهية السيئة الى الحسنة.

فما لهم ان يؤفكون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 223

سواه سواه، منبثقا من تقوى اللّه النابعة من الشعور أنه اللّه و ليس سواه، و رسوله الرسول ليس سواه، و شعورا أنه سميع عليم، يسمع كل تقديم في مقال، أو تقديم في فعل أو فكرة أو حال، فلا يرى المؤمن تقديما هنا أو هناك و لو رؤيا مجنحة في خيال.

و لقد تأدب جماعة من المؤمنين الأولين بهذا الأدب لحد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يسألهم عن اليوم الذي هم فيه و المكان الذي هم فيه، فيتحرجون أن يجيبوا- على علمهم- إلا بقولهم: اللّه و رسوله أعلم‏ «1».

و من التقديم بين يدي رسوله رفع الصوت فوق صوته و الجهر له بالقول و نداءه من وراء الحجرات:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ‏.

فليكن صوت النبي فوق الأصوات كما أن صيته فوق الصيات، صوت في حال أو متعال، وصيت في حال على أية حال، و من سوء الأدب أن يرفع صوت فوق صوته، بل و الجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض، و ان كان أدنى من صوته، فلتبرز مكانته الرسالية بين الجموع على المكانات، و ليكرم فوق كل الشخصيات‏ «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ»! إنه قد يرفع صوت فوق صوته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهو محظور، و قد يجهر له بالقول كما يجهر لسواه على سواء، فهو أيضا محظور، و ان كان دون صوته، فالمرغوب إذا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

جاء في حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي‏ ان النبي (ص) سأل في حجة الوداع اي شهر هذا! قلنا اللّه و رسوله اعلم- فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه، فقال: أ ليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى! قال: اي بلد هذا؟ قلنا: اللّه و رسوله اعلم، فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه فقال: أ ليس البلدة الحرام؟ قلنا بلى- قال فأي يوم هذا؟ قلنا:

اللّه و رسوله اعلم- فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه- فقال: أ ليس يوم النحر؟ قلنا:

بلى! ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 224

غض الأصوات عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دون أن يساوى في صوت، أو أن يسوى بغيره في صوت، فضلا أن يرفع فوق صوته صوت، فلو حصل أي من ذلك استخفافا به صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكان كفرا، و خطاب الايمان هنا ينفيه! و لو كان إساءة أدب فمن أفسق الفسق، و الايمان قد ينفيه، و لو كان لا شعوريا كعادة جاهلية دون تقصّد استخفاف أم إساءة و إيذاء، كما قد تقصده- فقط- الآية، فهو إحباط للأعمال‏ «وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ» لا تشعرون خطأ الجهر و رفع الأصوات، و لا عظمته و مداه، و لا انه لحد الإحباط: «وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ» (24: 15) «وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ» (39: 47):

مثلث اللاشعور الرهيب، أو مثنّاه لمن يشعر خطأه و لا يشعر مداه و لحد الإحباط، فأما بعد هذا البيان الإشعار فهم شاعرون! إذا فالخبط أغوى و الحبط أقوى على من يهبط من مكانة النبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و قد يعني الحبط هنا ما يخص أعمال الخطاب، أن لو لم تكن فيه إساءة أدب و إيذاء لكان صوابا و ثوابا، و لكنها حابطة بسوء الأدب، أو يعني حبط الأعمال بين هكذا خطاب إلى المتاب، حبطا فقط للثواب، لا لأصل الصحة كالصوم و الصلاة، فإن الحبط في إساءة اللاشعور يختلف عن الاستخفاف الكفر المحبط لأصل الأعمال، و الإساءة الفسق التي تحبط منها قدرها، فلكل إحباط قدره، كما أن لكل صالحة ثواب قدرها.

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا .. وَ لا تَجْهَرُوا» مخافة «أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ» هكذا «وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ» مساءة أعمالكم هذه، و لا من جراءها: أن تحبط أعمالكم.

فيا له خطابا رهيبا جيبا، يحذرهم هذا المزلق الذي ينتهي بهم الى حبوط أعمالهم و هم لا يشعرون، و لقد ارتعشت قلوب بعض و ارتجفت تحت هذه الوقعة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 225

القارعة ان خشي بعضهم أن يكون من أهل النار كثابت بن الشماس‏ «1» و كان من طبعه رفيع الصوت دون أن يرفعه عمدا، لا هتكا و لا إساءة و لا جهلا، فلم تشمله الآية، فانها تنهى عن ذلك علما أو جهلا باختيار، لا جهرا دون اختيار.

كما ندم آخرون مما جهروا جهرا كعادة متبقية جاهلية حوّلها الإسلام إلى أدب طاهر، مثل الخليفة أبي بكر و الخليفة عمر فلما رفعا أصواتهما فوق صوت النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نزلت الآية فتابا و اختجلا «2».

و ترى أن الجهر بالقول، لا للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو حي، و إنما لغيره و في مسجده، أم الجهر في قراءة القرآن أو الدعاء عند قبره، هل إن ذلك محظور «3»،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

روى الامام احمد بسند عن انس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية- و كان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت- فقال: أنا الذي كنت ارفع صوتي على رسول اللّه (ص) انا من اهل النار، حبط عملي و جلس في اهله حزينا ففقده رسول اللّه (ص) فانطلق بعض القوم اليه فقالوا له تفقدك رسول اللّه (ص) مالك؟ قال: انا الذي ارفع صوتي فوق صوت النبي (ص) و اجهر له بالقول، حبط عملي، انا من اهل النار، فأتوا النبي (ص) فأخبروه بما قال فقال النبي (ص) لا- بل من اهل الجنة- قال انس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا و نحن نعلم انه من اهل الجنة.

(2)

في صحيح البخاري حدثنا يسرة بن صفوان بن جميل اللخمي حدثنا نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيّران ان يهلكا:- أبا بكر و عمر رضي اللّه عنهما-، رفعا أصواتهما عند النبي (ص) حين قدم عليه ركب بني تميم (في السنة التاسعة من الهجرة) فأشار أحدهما بالاقرع بن حابس (رض) أخي بني مجاشع (أي ليؤمر عليهم) و أشار الآخر برجل آخر- قال نافع: لا احفظ اسمه (في رواية اخرى ان اسمه القعقاع بن معبد) فقال ابو بكر لعمر- رضي اللّه عنهما- ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك- فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل اللّه تعالى الآية، قال ابن الزبير فما كان عمر (رض) يسمع رسول اللّه (ص) بعده هذه الآية حتى يستفهمه. و روي عن أبي بكر (رض) انه لما نزلت هذه الآية قلت يا رسول اللّه (ص) و اللّه لا أكلمك الا كأخي السرار (يعني كالهمس).

(3) يروى عن الخليفة عمر (رض) انه سمع صوت رجلين في مسجد النبي (ص) قد ارتفعت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 226

عطفا على الجهر له بالقول و هو حي؟ الحق أنه لا محظور، و إلا لحظر على الأذان المجهور به للصلوات في مسجده، و على خطبة الجمعة و سائر الخطب فيه، و على الدروس التي تلقى فيه، أم و سائر الجهر ما لم يكن فيه هتك لساحة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كجهر المعاركات التي تحصل تعصبا عند قبره، و جهر الكلمات المفرقة لجموع المسلمين، الهاتكة لحرمهم، الفاتكة لحرم الرسول و حرمه، كالمجاهرة بتكفير جماعة غفيرة من المسلمين، و نسبتهم إلى الشرك، لأنهم يقبلون ضريح الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الطاهر حبا فيه لا عبودية، و كما أن غيرهم يقبلون أولادهم و أيدي و جباه علماءهم حبا أو احتراما لهم، تلك إذا قسمة ضيزى ظالمة، ان ذلك شرك و ليس هذا شركا! جمع اللّه شمل المسلمين- آمين.

من ثم- و بعد التنديد الشديد بمن يرفعون أصواتهم فوق صوت النبي أو يجهرون له بالقول- يمتدح من يغضون أصواتهم عند رسول اللّه:

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى‏ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ‏ إن غض الأصوات عند الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو كسرها، يرمز إلى واجب التخضّع عنده في أي صوت أو صيت، لأنه يحمل رسالة اللّه، فلا يساوى بغيره أو يسامى، و إنما غض و حضّ ظاهر في حال و مقال من قلب ممتحن للتقوى، و كما الجهر له و رفع الصوت على صوته، هو من قلب مقلوب ممتهن بالطغوى، فهؤلاء تحبط أعمالهم، و أولئك الأكارم لهم مغفرة عما تعرضهم من لمم و سواه، و أجر كريم حيث يغضون أصواتهم عند رسول اللّه، و إنما «رَسُولِ اللَّهِ» لا محمد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أصواتهما فجاء فقال: أ تدريان اين أنتما؟ ثم قال: من اين أنتما؟ قالا: من اهل الطائف فقال:

لو كنتما من اهل المدينة لأوجعتكما ضربا- أقول لعله (رض) حرم ذلك لكونه معاركة في مسجده (ص) إلا انه كيف يفرق في حكم اللّه بين اهل الطائف و المدينة؟ انا لا ادري!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 227

ابن عبد اللّه، و لأن الغض عنده غض عند اللّه، فلذلك هو نابع عن تقوى اللّه، و ليعش المؤمن غضا لكيانه ككل عند اللّه و عند رسوله، فلا يقدم بين يدي اللّه و رسوله.

ثم و من سوء الأدب مناداة الرسول من وراء الحجرات و إن كانت غضيضة غير عالية على صوته، و لا جاهرة كجهرنا لبعض، فإنما النداء المؤدب هي المواجهة الحضور:

إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ. وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ‏.

لقد وفدت العرب من كل مكان إليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عام الفتح الوفود، فكانت جفاة الاعراب ينادونه من وراء الحجرات‏ «1»، المطلة على المسجد النبوي الشريف: يا محمد اخرج لنا، فكان يكره الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هذه الجفوة الفجوة المزعجة، فمسح اللّه تعالى غبار الانزعاج عن خاطره الأقدس ان‏ «أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ» فهم جفاة جاهلون لا يبغون هتكا لساحتك و لا فتكا لكرامتك، فاغفر لهم هفوتهم منبها لهم لكي لا يعودوا فتحبط أعمالهم، كما «وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»: ارحمهم كما اللّه، ان تعلّمهم عن جهلهم، و اغفر لهم كما اللّه فإنهم لا يعقلون، و ان كانت ثمة قلة يعقلون، فينادونك من وراء الحجرات تساهلا في حرمتك، أو هتكا لحرمتك كالمنافقين.

فليصبر المؤمن حتى يخرج اليه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإنه لا يصبر في حجراته عن حوائج المرسل إليهم الا لضرورة بيتية عائلية، او استراحة شخصية، هما لزام‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور: أخرج البخاري في الأدب و ابن أبي الدنيا و البيهقي عن داود بن قيس قال: رأيت الحجرات من جريد النخل مغشى من خارج بمسوح الشعر و أظن عرض الباب من باب الحجرة إلى باب البيت نحوا من ستة أو سبعة اذرع و احزر البيت الداخل عشر أذرع و أظن سمكه بين الثمان و السبع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 228

له، و لكي يخرج الى المؤمنين فارغ البال، غير مضطرب الحال، ف «كان خيرا لهم» أما هو فلا يألو جهدا في سبيل اللّه، و كل عقبة له يجتازها، و كل صعوبة يتحملها، إنها تزداده خيرا، و لكنكم أنتم المؤمنين! ليس لكم ان تكونوا له أذى، فاصبروا له حتى يخرج، و ثابروا حتى لا يتحرج‏ «وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» عما مضى ممن لا يعقلون، و كذلك لمن يعقلون لو كانوا يرجعون عن جفوتهم العامدة.

و هكذا يجب ان تراعى حرمة الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثم و من حذى حذوه و نحى نحوه، فاحتذى على مثاله و مثله، و انتهى قرابة ما انتهى اليه برسالته، كالعلماء المعصومين من عترته، ثم و سائر الربانيين من أمته، كلا على حده و محتده و اللّه من وراء القصد.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى‏ ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ‏ ادب جماعي تحمله آية النبأ، يقرر للجماعة المؤمنة كيف يتلقون الأنباء، فإنهم لا يشاهدون جمعاء حضور المباشرة، اللهم الا قلة قليلة، و من ثم تبقى الكثرة الكثيرة غائبة عن الإدراك المباشرة، و من المستحيلات في الحياة الجماعية الاستقلال بما يشاهده الإنسان، دون استغلال لما يشاهده غيره فيشهد به، و هذه الآية كعديد أمثالها، تنهى عن الركون الى انباء الفاسقين الا إذا تبين فيها صدق يجعله علما كسائر العلم، الذي يعتمد عليه المؤمنون العقلاء، و العقلاء المؤمنون.

ان الأخذ و الرفض في الأنباء ليسا فوضى دون حساب، و انما لكلّ ميزان عادل، فلا يؤخذ خبر الفاسق الا ان يتبين صدقه، و لا يرفض خبر العادل الا ان يتبين خطاه، ثم لنا بين الأخذ و الرفض وقفة لو لم يتبين لا صدق و لا كذب، و ليس ذكر الفاسق هنا الا لأنه أظهر مظان الكذب، فليشمل الجاهل و الناسي و الساهي و اضرابهم ممن يتطرق الى انباءهم خلاف الصدق و ان كانوا غير عامدين او ان الفاسق يشملهم كلهم لأنه خروج عما يحق من طاعة اللّه، علما أو عملا،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 229

نقلا للأنباء او تنقلا ام ماذا، فمن يجهل صحة النبأ ثم ينقله كنبأ صادق، انه فاسق علميا و لو كان زاهدا، بل و عمليا إذ لا يجوز هكذا نقل مغر لمن يتقي اللّه، و كذلك من ينسى أو يسهو، او يتقبل الأنباء دون تبين، فانه فاسق في نقله الا ان يبين حقيقة الحال، فيتبين للمنقول له انه ينقله مراعيا شرائط الوثوق مجانبا كل جوانب الفسوق في نقله هذا النبأ، و الا فتبينوا بغية حصول العلم الاطمئنان، مخافة: «أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى‏ ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ»!.

و كما

يروى عن الامام الصادق عليه السلام قوله للمنصور: «لا تقبل في أذى رحمك و اهل الرعاية من أهل بيتك قول من حرّم اللّه عليه الجنة و جعل مأواه النار، فان النمام شاهد الزور و شريك إبليس في الإغواء بين الناس‏ «1»-

ثم أستشهد بالآية.

و ترى هل يختص وجوب تبين النبأ: بالخبر العظيم الشأن، الذي جاء به فاسق، إذا كان في اتباعه دون تبين اصابة قوم بجهالة فندم على هذه الإصابة؟

كما نلمح من هذه الآية، فلا يجب- إذا- تبين في الأخبار غير العظيمة، أو في العظيمة التي يجي‏ء بها المجهول فسقه او عدله، او التي يجي‏ء بها فاسق و ليست فيها اصابة قوم بجهالة ام ماذا! في الحق إن آية النبأ لا تنبئ الا عما انبأت، لكنما الآيات في حرمة اتباع الظن و اقتفاء ما ليس لك به علم تعمم وجوب التبين حتى يحصل العلم الاطمئنان أيا كان الخبر و من أي، الا إذا كان الاطمئنان- او النوعي منه- حاصلا بالإخبار و وجوب التبين في آيتنا في مورد لا ينفي عدمه في سواه، لنزول الآية في مورد خاص بالغ الأهمية، ثم الآيات الاخرى تعم فلا تناحر في البين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). امالي الصدوق باسناده الى الامام الصادق (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 230

و خطاب الآية هذه لا يشمل الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لمكان‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» المختصة بالمؤمنين باللّه و الرسول، و أن الاصابة بجهالة و الندامة عليها ليست من شيم الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذي ما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى، فلا تصدق عليه الروايتان في الوليد و عائشة «1»، و قد تصدقنا الآية التالية لها، الناكرة لاتّباع الرسول في هكذا امور:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد رويت في شأن نزول هذه الآية روايتان، إحداهما

عن طريق الفريقين في الوليد بن عقبة ان النبي (ص) بعثه الى الحارث بن ضرار الخزاعي ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فرجع قبل ان يصل اليه فقال: ان الحارث منعني الزكاة و أراد قتلي فضرب رسول اللّه البعث الى الحارث فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث و فصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا:

هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم: الى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: و لم؟ قالوا: ان رسول اللّه (ص) بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم انك منعته الزكاة و أردت قتله- قال: لا و الذي بعث محمدا بالحق ما رأيته و ما رآني- فلما دخل الحارث على رسول اللّه (ص) قال: منعت الزكاة و أردت قتل رسولي؟ قال: لا و الذي بعثك بالحق ما رأيت و ما رآني و ما أقبلت الا حين احتبس علي رسول اللّه (ص) خشيت ان يكون كانت سخطة من اللّه و رسوله- فنزل‏ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ ..» (الدر المنثور) أخرجه احمد و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن منده و ابن مردويه بسند جيد عن الحارث بن ضرار قال: قدمت على رسول اللّه (ص) فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه و أقررت به و دعاني الى الزكاة فأقررت بها- قلت: يا رسول اللّه (ص)! ارجع الى قومي فأدعوهم الى الإسلام و أداء الزكاة فمن استجاب لي و ترسل الي يا رسول اللّه (ص) إبان كذا و كذا لتأتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له و بلغ الابان الذي أراد رسول اللّه (ص) ان يبعث اليه احتبس الرسول فلم يأت فظن الحارث انه قد حدث فيه سخطة من اللّه و رسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم: ان رسول اللّه (ص) كان قد وقت لي وقتا يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة و ليس من رسول اللّه (ص) الخلف و لا أرى حبس رسوله إلا من سخطة فانطلقوا فنأتي رسول اللّه (ص) .. و بعث ...

أقول: لا يمكن قبول هذا الحديث هكذا- ان يعتمد رسول اللّه (ص) على قول فاسق فيبعث اليه بعثة تقاتله، اللهم الا ان «فزعم انك منعته ..» تلمح الى عدم ركون الرسول الى قول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 231

وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عقبة- و ان البعثة كانت للتبين- و الآية لا تشمل النبي فانه تبين هنا- و لأن الذين آمنوا لا تشمل النبي على أية حال- اضافة الى براءته عن الجهالة فانه لا يصدر إلا عن وحي اللّه، و الثانية ما

رواها القمي في تفسيره- ان الاية نزلت في مارية القبطية ام ابراهيم و كان سبب ذلك ان عائشة قالت لرسول اللّه (ص) ان ابراهيم ليس هو منك و انما هو من جريح القبطي فانه يدخل إليها في كل يوم فغضب رسول اللّه (ص) و قال لأمير المؤمنين (ع) خذ السيف و ائتني برأس جريح فأخذ امير المؤمنين (ع) السيف ثم قال: بأبي أنت و أمي يا رسول اللّه (ص) انك إذا بعثتني في أمرك أكون فيه كالسفود المحمى في الوبر فكيف تأمرني اثبت فيه او امضي على ذلك؟

فقال له رسول اللّه (ص) بل تثبت- فجاء امير المؤمنين الى مشربة ام ابراهيم فتسلق عليها فلما نظر اليه جريح هرب منه و صعد النخلة فدنا منه امير المؤمنين (ع) و قال له: انزل- فقال له:

يا علي! اتق اللّه ما هاهنا أناس اني مجبوب ثم كشف عن عورته فإذا هو مجبوب، فأتى به رسول اللّه (ص) فقال له رسول اللّه (ص): ما شأنك يا جريح؟ فقال: يا رسول اللّه (ص)! ان القبط يحبون حشمهم و من يدخل الى أهليهم و القبطيون لا يأنسون إلا بالقبطيين، فبعثني أبوها لأدخل إليها و أخدمها و أؤنسها- فأنزل اللّه عز و جل: يا أيها الذين آمنوا.

أقول: و الحديث مضطرب حسب الظاهر- إذ ينسب الى الرسول (ص) انه امر بقتل برى‏ء بمجرد شهادة امرأة بظنة و تهمة- الا ان‏

في رواية عبد اللّه بن موسى عن احمد بن راشد عن مروان بن مسلم عن عبد اللّه بن بكير قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (ع) جعلت فداك كان رسول اللّه (ص) قد امر بقتل القبطي و قد علم انها كذبت ام لم يعلم؟ و انما دفع اللّه عن القبطي القتل بثبت علي (ع)؟ فقال: قد كان و اللّه اعلم- و لو كانت عزيمة من رسول اللّه (ص) ما رجع علي حتى يقتله و لكنه انما فعل ذلك رسول اللّه (ص) لترجع من ذنبها فما رجعت و لا اشتد عليها قتل رجل مسلم بكذبها.

أقول: و لكن يبقى هنا ان رجوع امرأة عن ذنبها- و ما رجعت- لا يبرر إرهاب و اهانة رجل مسلم بري‏ء- و ان‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» ليست لتشمل الرسول (ص) كما في قصة عقبة و ان الجهالة لا تنسب إلى النبي (ص) و هو لا يمضي الا بأمر اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 232

وي! كأنهم لا يعلمون ان فيهم رسول اللّه، الصادر عن اللّه لاعن آرائهم، السائر إلى اللّه لا إلى أهوائهم، «فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ» لا: محمد بن عبد اللّه، و لا رسول اللهو و الهوى، و لا بشر مثلكم في الجهل و الخطا، و انما «رَسُولَ اللَّهِ» صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يصدر الا عن اللّه، و لا يدعو إلا إلى اللّه، فمن المحال ان يطيعكم في كثير من الأمر، «لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ» امر الشرع و حكمه «لعنتّم» أثمتم و هلكتم فعجزتم أنتم عن إمرار الحياة الراحة، و استمرار الحياة السعيدة، و اخلدتم إلى حياة جهنمية فوضى، فترى لو ان الرسول أطاع الوليد بن عقبة في فريته على الحارث البري‏ء، او أطاع زوجته عائشة في جريح القبطي البري‏ء، كم كان العنت الحاصل عن طوعهما هوى و جهلا «أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى‏ ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ» و لكنه رسول اللّه لا يطيع في الأمر الا اللّه، فانما النصح لكم بلسانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا .. لا له و هو النزيه عن اتباع هواه أو سواها، الا وحيا يوحى، فضلا عن أهوية سواها و لا سيما الفاسقين! فلا ترغبوا في اتباعه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكم، و لا ترقبوا أن يتابعكم: «وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ» (23: 71) «فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ» (42: 15) اللهم الا في قليل من الأمر الذي لا بد و يوافق الحق، حيث الكثير فقط في العادة هو الخاطئ لأنهم يتبعون الظن و ما تهوى الأنفس: «وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» (6: 116) و من ثم القليل هو المصيب: «وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ».

فاعلموا انه الرسول، جاء ليزيل عنكم و صمات العنت، و يبعدكم عن خطوات الغلط، فكيف يزيدكم عنتا على عنت و غلطا على غلط؟: «لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ» (9: 128).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 233

وي! كأنهم لم يعلموا ان فيهم رسول اللّه، و انما انسان لهم أذن، يسمع ما يقولون و يطيع ما يهوون، كلا! و انما «أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ»! اذن الخير الايمان، فليس الا في قليل من الأمر.

إن من مقتضيات العلم: أن فينا رسول اللّه، أن لا نتقدم بين يديه، و لا نرفع أصواتنا فوق صوته، و لا نجهر له بالقول كجهرنا لبعض، و لا نطمع ان يطيعنا في كثير من الأمر، بل نكون له طوعا و سلما و لكي نسلم عن النكبات على ضوء الإسلام الايمان، كما اللّه حبّبه إلينا:

وَ لكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ‏: حبب الايمان باللّه، فصرتم تحبون اللّه، إذا فاتبعوا رسول اللّه: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» (3: 31)

«هل الدين الا الحب»؟ «1»

كلا!، انما

«الدين هو الحب و الحب هو الدين» «2»!.

و تحبيب الايمان الى الإنسان كتقدمه لتزيينه في قلبه، تحبيب «الى» و تزيين «في» فالدعاة الى اللّه من جانب، بما يحملون رايات الدعوة الحنونة الحبيبة، و حب الإنسان فطريا و عقليا للايمان- بما فطر اللّه- من آخر، يجعلان- متعاملين- ركيزة لحب الايمان في روح الإنسان، عقلا و صدرا و الى قلبه، و من ثم يأتي دور تركيزه في القلب‏ «وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ» تعاملا بين عقيدة الايمان و عمل الايمان فيزدادوا ايمانا على ايمان: «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» (47: 17) «أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» (58: 22).

فلا تزيين للايمان في قلب ما لم يدخل فيه، و لا يدخل فيه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2)

محاسن البرقي باسناده عن أبي جعفر الباقر (ع) في حديث له قال‏ يا زياد ويحك و هل الدين الا الحب ألا ترى الى قول اللّه‏ «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» الا ترون قول اللّه لمحمد (ص): «حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ» و قال: «يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ» و قال (ع): الدين هو الحب و الحب هو الدين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 234

إلا من يتحبب له بعد ما حببه اللّه اليه، و قبل هذا و ذاك لا تحبّب و لا تزين بالايمان حتى يكره الكفر و الفسوق و العصيان فيكرهها و قد فعل:

وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ‏ فالكفر مقابل الايمان، و الفسوق خروج عما يقتضيه الايمان من طاعة الى تخلف، فهو إذا سبب موصل الى العصيان، و قد كره اللّه لنا هذا الثالوث المنحوس مع ما حبب إلينا الايمان، «فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ» إذ

لا جبر و لا تفويض بل امر بين أمرين،

فمن يختار الايمان زاده اللّه ايمانا على ايمان، و من يختار الكفر و الفسوق و العصيان ختم اللّه على قلبه بطابع اللاايمان، فآية تحبيب الايمان لا تجعل كل المخاطبين من المؤمنين غير العاصين، او قد جمعت بينهم كلهم في ذلك ترغيبا و تشويقا و توحيدا لصفوف الايمان، لا أنهم كلهم بالغون تلك الدرجة من الايمان، و انما اللّه ينبههم بما فعل فناظر ماذا يفعلون، و هم درجات في ايمانهم كما ان سواهم دركات في كفرهم و فسوقهم و عصيانهم، و «أولئك» الأكارم المؤمنون‏ «هُمُ الرَّاشِدُونَ» الذين رشدوا في صراط الحق، لا بحول و قوة منهم فقط- و انما:

فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ‏: عليم بعجزكم، حكيم في فضله لكم،: «فَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ» (2: 64) «وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلَّا قَلِيلًا» (4: 83) «وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ ما زَكى‏ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً» (24: 21).

هذا طرف من ادب الإصلاح فيما يفسد بينكم من فرية سوء ام ماذا، استصلاحا لما بينكم، و من ثم تنتقل المسؤولية الى الإصلاح في معارك اخرى كما بين أخويكم:

وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى‏ فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِي‏ءَ إِلى‏ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 235

رغم ان الاخوة الصادقة و الصلح البالغ هما لزام الايمان كما خوطبوا به، الا ان هناك، و بين غير الكاملين في الايمان، او الجاهلين و المتجاهلين شرائط الايمان، هنا و هناك نزوات و نزعات و اندفاعات فخصامات و حميات و حماسات فتفككات و منازعات شاسعة عن ساحة الايمان، قد تتخطى التلاسن و التضارب الى مقاتلات، رغم ان الإيمان قيد الفتك و لكن‏ «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» (12: 106) غير خالصين في الايمان الموحد، و مهما يكن من شي‏ء فالمؤمن لا يحارب أخاه الا على تكلف، و علّ الاقتتال الملمح- اليه، دون التقاتل- يعنيه «اقتتلا» لا «تقاتلا» حيث الاقتتال افتعال للقتال متكلّف و ليس فعلا مقصودا و بين المؤمنين الاخوة! و إلا «وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً ... (92) وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً» (4: 93) فهل هو بعد مؤمن؟!.

فلا بد إذا من صيانة إلهية تصوّن على هذه الفوارق الدامية، و تعتلج ما تختلج في خلد الايمان من فكرة الاقتتال، و من ثم واقعه إذا حصل، ألا و هي استنفار سائر المؤمنين لمواجهة المشكلة الداخلية إصلاحا، مهما كان الثمن غاليا و لو كان القتال قضاء على قتال.

و ترى من هم المأمورون بالإصلاح، او القتال إذا لزم الأمر؟ فهل إنه أمر فوضى بين دويلات صغيرة اسلامية- ان صح التعبير- و بين شعوب متشعبة حسب الدويلات، فيزيد ويلات على ويلات، لأنهم مختلفون في اجتهادات أو سياسات؟!.

كلا! إنه أمر موجه إلى سائر المؤمنين العائشين تحت قيادة واحدة إسلامية، دولة إسلامية واحدة بشعبها الموحد، لا تفصل بينهم قوانين أو حدود أم ماذا، فالآية هذه و اضرابها تلميح أو تصريح بضرورة تأسيس دولة واحدة إسلامية، لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 236

دويلات هي ويلات على المسلمين، و ظروف استعمارات للكافرين.

ثم ترى: و إذا لم تكن كما الآن، فهل المؤمنون يعيشون مكتوفي الأيدي عن كل شارد و وارد فتكثر الفوضى، كلا! فإن إزالة الظلم و الضيم واجبة على طول الخط، مهما اختلفت درجاتها، فعلى المؤمنين العائشين في أرض المعركة أن يصلحوا بين أخويهم ان استطاعوا، على قيادة محلية عالمة عادلة، و إلا فليستنصروا من قبلهم حتى تحصل الكفاية، فإنه فرض كفائي و ليس عينيا على المؤمنين كافة، اللهم إلا إذا لزم استنفار المؤمنين كافة، فإن الإصلاح الداخلي ركن يرتكن إليه المؤمن، على ضوء تقوى اللّه التي هي ركن الأركان، و من ثم الإصلاح الخارجي.

و ترى أفي اختلاف ضميري: «اقتتلوا و بينهما» تلميح معنوي؟ ام- فقط- سماح أدبي أن يعبر عن التثنية بالجمع كما في نظائرها؟ عله تلميح الى واقع في هكذا اقتتال بطبيعة الحال، ان الاثنينية هي البداية في القتال، ثم تنمو و تزهو من طائفتين إلى طوائف، بتحزبات جزئية داخل كل منهما، ثم يرجع المقتتلون في محاولة الإصلاح كما كانوا طائفتين، حيث المصلحون لا يستطيعون إصلاحا إلا بتضييق دائرة الخلاف إرجاعا إلى الاثنينية البادئة ثم الوحدة المرادة-: فهم بداية و نهاية اثنتان «طائفتان .. بينهما .. إحداهما» بينهما جمع «اقتتلوا» فهم في دور الإصلاح اثنتان- بغيا: «فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى‏» و فيئا إلى أمر اللّه: «حَتَّى تَفِي‏ءَ إِلى‏ أَمْرِ اللَّهِ».

و هذا الوجه المعنوي يوافق الأدب اللفظي أيضا، فإن أقل الجمع اثنان، فلا تفنّن هنا في التحول من جمع الاثنين إلى أكثر، إلا تلميحا إلى معنى كهذا و إضرابه.

ثم الطائفتان المتقاتلتان لهما حالات من حيث البغي المقصود و سواه:

1- أنهما باغيان من كل جهة مقصودة «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما» إزالة للبغي بينهما «فَإِنْ بَغَتْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 237

إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى‏» إن استمرت في البغي، او تحولت إلى بغي آخر او بغي الأخرى‏ «فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِي‏ءَ إِلى‏ أَمْرِ اللَّهِ».

2- أو انهما باغيان جهلا و سوء تفاهم دون تقصّد؟ فكذلك الأمر، كما و إذا استمرا في بغي مقصود و سواه «فقاتلوهما حتى يفيئا إلى أمر الله» قتال هو نضال للإصلاح و إن شملهما إذا بغتا.

3- أو ان إحداهما باغية قصدا أو سواه، ثم عند الإصلاح استمرت أو غيرت بغيها إلى وجه آخر، أم تابت و لكن الأخرى بغت‏ «فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي» سواء أ كانت البادئة هي المستمرة، أو الأخرى هي البادئة بعد الأولى، فلا يكون القتال الإصلاح إلا مع التي تبغي بعد محاولة الإصلاح.

فالمصلحون يبتدئون بالإصلاح الموعظة و الإيضاح‏ «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما» بأية وسيلة ممكنة عظة و برهانا، فمن يتجاهل هذه اللغة الواعظة، فلغة القتال‏ «فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي» و لكن إلى حدّ و ليس فوضى انتقام: «حَتَّى تَفِي‏ءَ إِلى‏ أَمْرِ اللَّهِ» الذي تحققونه في الإصلاح، و الذي أمر من تحقيق الأخوة الايمانية «فَإِنْ فاءَتْ» الباغية: كرها هنا «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما» حيث الفي‏ء إلى أمر اللّه طوعا هناك هو الصلح بعينه فلا حاجة في الإصلاح، و لكنما الفي‏ء كرها هنا بحاجة إلى إصلاح بعده، يحدده عند حده لكي لا يتكرر، و ذلك بتحكيم بنود الاتفاق، و لكنه «بالعدل» دون أن تتحكم فيه روح الانتقام «و أقسطوا» هنا و هناك‏ «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ».

فهنا إصلاح أول طوعا، و إصلاح ثان كرها، و قتال قبل الثاني إذا لزم الأمر، و ليكن هذا المثلث المصلح عدلا و قسطا، و هكذا ينتهي دور الإصلاح بين المؤمنين إلى حفاوة و حنان و عدل و إحسان بفضل الملك المنان و اللّه هو المستعان.

هكذا تؤمر الجماعة المؤمنة أن تتوسط مصلحة عادلة مقسطة بين المؤمنين،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 238

فضلا عما بينهم و بين الكافرين، فليكونوا مع هؤلاء ضد أولاء عدلا و ايمانا، فما ذا ترى في دويلة تدعي الايمان النضال، تم تدخل معركة الاقتتال بين مسلمين و مسيحيين صهاينة، ثم لا تحارب إلا المسلمين لصالح الصليبيين الإسرائيليين، و تسمي هذه الوحشية العارمة إصلاحا؟ أنا لا أدري، اللهم ارجعنا إلى الإسلام و اجمع شمل المسلمين، و اجعلنا كما أمرتنا أخوة مؤمنين:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ‏.

انه ليس الايمان- فقط- علاقة شخصية بين المؤمن و ربه، بل و علاقة أخوية جماعية أيضا بينه و بين سائر المؤمنين، بل و ليست بينهم أية علاقة و رباط إلّا أخوة ايمانية، كل ذلك بدافع الايمان و سناده، يلمح له الحصر: «انما» التي تحصر كافة المناسبات بين المؤمنين بالأخوة «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» لا «إنما الأخوة المؤمنون» فإن هناك أخوّات أخرى بين سائر الناس ليست بالتي تحصر مناسباتهم بالأخوة الألفة الخلة، بل و تتبدل- و على أقصى الحدود بعد الموت- بالعداوة «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» (43: 67) و إذا كانت هذه حالة الخلة غير الايمانية، فما هي حالة سائر الأخوات التي لا تستلزم الخلة؟.

إن اخوّة الايمان تشريعية، و واقعية بدافع الايمان، يؤمر المؤمن أن يؤصلها في حياته الجماعية لحد لا تبقى بين المؤمنين إلا الأخوة، و ليست هي الأخوة الخلقية كما بين الناس أجمعين، و لا أخوة القرابة الشرعية التي تحرم فقط النكاح، و لا الإقليمية او العنصرية او الحزبية ام ماذا من اخوّات غير ايمانية، فانها ليست لزاما بين هكذا إخوة من حيث الالفة و المحبة، و لا ان مناسباتهم محصورة في الاخوة، اللهم الا اخوة الايمان ف:

«المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إن اشتكى شيئا منه وجد ألم ذلك في ساير جسده، و أرواحهما من روح واحدة و ان روح المؤمن لأشد اتصالا بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها» «1»

«هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اصول الكافي باسناده الى أبي بصير قال سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد (ع) يقول: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 239

عينه و مرآته و دليله، لا يخونه و لا يخدعه و لا يظلمه و لا يكذبه و لا يغتابه» «1»

«ان المؤمن ينظر بنور الله ان الله خلق المؤمنين من نوره و صبغهم في رحمته و أخذ ميثاقهم بالولاية على معرفته يوم عرفهم نفسه، فالمؤمن أخو لأبيه و امه، أبوه النور و امه الرحمة، و انما ينظر بذلك النور» «2».

هكذا أخوّة تقتضي بينهم عموم التآزر في عامة الحياة، دون اي تنافر و تناحر و من ثم إذا شذّت طائفتان منهم فاقتتلوا، فإخوة الباقين معهم تقتضي محاولة الإصلاح الصارم أيا كان الثمن و لو بالقتال مع الباغية حتى تفي‏ء الى امر اللّه، دون اغتنام فرصة لاخذ الغنيمة، و لا ان يجهز على جريح منهم او يقتل أسير، او يتعقب مدبر ترك المعركة، حيث الهدف من قتالهم إصلاحهم، و انما تدور المعركة بين سائر المؤمنين و بين المقتتلين حول فلك الإصلاح الاخوي بدافع الايمان دون المعارك الأخرى كما بينهم و بين الكفار، فان لها شروطها و احكامها الاخرى.

«وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» فتقوى اللّه زاد المؤمنين الإخوة في إخوتهم، و زادهم في إصلاحهم بين اخويهم، فهي زادهم في مبدئهم و في معادهم، يعيشونها على طول الخط.

فكل مفاصلة بين المؤمنين هي خلاف الايمان، و خلاف على كتلة الايمان، كمن يهرفون بما لا يعرفون ان جماعة الشيعة الامامية مشركون، ام تاركون الكتاب ام ماذا؟ من افتراءات اختلقها الاستعمار الكافر، و استغل في ذلك جهل جماعة بعيدين عن سائر إخوتهم المؤمنين، ثم أخذ ينفج و ينفخ في ابواق الخلافات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر باسناده الى الحارث بن المغيرة عنه (ع): ..

(2)

بصائر الدرجات باسناده عن معاوية بن عمار قال: قلت لأبي عبد اللّه (ع) جعلت فداك هذا الحديث الذي سمعته منك ما تفسيره؟ قال (ع): و ما هو؟ قال: ان المؤمن ينظر بنور اللّه، فقال: يا معاوية؟ ان اللّه ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 240

حتى جعل من فريقي المسلمين مسلمين و غير مسلمين، يري كل أخاه بالخروج عن الدين، فلتقطع ألسنة حداد توسّع هذه الخلافات، و لتكسر أقلام تزيدهم عداء فعناء، و لتوحد كلمة المسلمين على دعائم الإسلام، دون ان يحملهم مختلف الاجتهادات على مباغضات، فللمخطئ اجر واحد و للمصيب أجران، ثم للمفرق أوزار تحمله الى النار، و كما هو يشعل النار بين المؤمنين الإخوة، فإذ نؤمر ان ندعوا اهل الكتاب الى كلمة سواء: «يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى‏ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (3: 64) فأحرى بنا و نحن مسلمون أن يدعو بعضنا بعضا الى هذه السواء على سواء، و ان نصلح بين اخوينا و نتقي اللّه لعله يرحمنا «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فقولة من تسمى شيعيا لأخيه المتسمى سنيا: أنت من أهل النار إذ لست من أهل الولاية قولة فارغة هراء، كما ان قولة الآخرين للأولين: أنتم مشركون تعبدون الأوثان هراء فارغة، فلما ذا هم مشركون؟ أ لأنهم يقبلون ضريح الرسول حبا له؟ فهلا تقبلون أنتم أولادكم و أحباءكم حبا لهم- ثم و ليس التقبيل عبادة مهما كان- و حتى إذا قبل رجل أحد من الأولياء احتراما له فانه محرم و ليس شركا، فمن قال لكم ان الشيعة الامامية يقبلون ضريح النبي عبودية له، اللهم الا الاستعمار الذي هو من النفاثات في العقد، و هل يقبل عاقل ان جماعة من المؤمنين جاءوا من آلاف الكيلو مترات لعبادة الحديد؟ ان هذا الا افك مفترى!.

ثم نقول للأولين لماذا تجانبون إخوتكم في الايمان فتجنبون عن الصلات معهم او مصافحتهم او تحادثهم، فقد يقولون ان جهالا منهم يمسون من كرامتنا لماذا نقنت في صلاتنا، و لماذا لا نتكتف ام ماذا؟ فنقول للآخرين: هذه عقيدة المذهب هم تابعوها، كما ان لكم غيرها و أنتم متبعوها، فليس لمقلد في مذهب ان يعترض على مقلد في مذهب آخر لماذا لست على مذهبي، و انما للمجتهدين ان يجادلوا مع بعض و بالتي هي احسن.

و من طريف المناظرة ان شرطيا قبض على شيعي في الحرم المكي المبارك و أخذه الى مركز الشرطة و هو كان يقرأ القرآن، قائلا له: لماذا تقرأ هذا الكتاب؟ قال: انه القرآن و هل ان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 241

ثم و إن الإصلاح بين المؤمنين لا يخص حالة التقاتل الحرب، و انما التخالف- ايّ تخالف- من شأنه اختلاق الانقسامات و التفرقات، التي تنفصم بها عرى الوحدة، فتنقسم بها الكتلة الواحدة المؤمنة، فتنحسم هيبتهم من قلوب الكتل الكافرة، و خلاف ما يقول اللّه: «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ» (8: 60).

ان الإصلاح هنا- ايّ إصلاح- يقوم على دعائم العدل و القسط و الايمان و التقوى، على غرار ما يقرره كتاب اللّه، دون الأهواء و المصلحيات السياسية المجانبة لشريعة اللّه، و دون الاستبدادات في اية اجتهادات، و انما «أَمْرُهُمْ شُورى‏ بَيْنَهُمْ».

و انه إصلاح ما فسد بين المؤمنين، من عقائدي و اقتصادي و سياسي، و من فردي و جماعي ام ماذا، فليعش المؤمنون حياة الصلح مع بعض، و ليكونوا يدا واحدة على من سواهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قراءته محظورة في المسجد الحرام؟ قال: لا- و لكن قرآنكم يختلف عن قرآننا! قال:

كلا! فخذ هذا القرآن المطبوع في ايران و قاسه على سائر القرآن فلا تجد نقطة اختلاف! قال: ليست لي هذه الفرصة و لكن قل لي لماذا أنت شيعي و لست مسلما؟ قال: انا شيعي لأنني مسلم سني! قال: كيف يا غبي! قال: يا اخي لأن سنة رسول اللّه تأمرنا ان نشايع باب مدينة العلم عليا! فسكت و من معه ثم قالوا: هؤلاء لهم قوة الجدال و انما دينهم التقية».

فانظر الى هذه المهازل التي اختلقها الاستعمار فأصبح من جرأته بيت اللّه الآمن و بلده الأمين محورا للمعاركات و المضاربات و الافتراءات و اللّه تعالى يقول‏ «وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً».

فلنفرض ان الشيعة الامامية- و لا سمح اللّه- مشركون! فلما ذا يسمح لهم دخول الحرمين الشريفين و اللّه تعالى يقول: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا ...» و لو انهم مسلمون منحرفون، فلتقم جماعة علماء عارفون بدعوتهم إلى الحق بالحكمة و الموعظة الحسنة، لا بالهتك و الفتك و الضرب و الاهانة، فإن ذلك لا يزداد إلا بعدا و لا يخلف الا مرضاة المستعمرين، الذين جعلوا من مركز الوحدة الاسلامية ميدان المعركة الضارية، و اللّه المستعان و عليه التكلان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 242

فعلينا ان نذرف دمعة الدماء، مما نرى بيننا من عداء، تنفث في توسيعها الأعداء، فاللّه إذا منا- كما منهم- براء، الا ان نهتدي بهدى اللّه، و نعتصم بحبل اللّه.

[سورة الحجرات (49): الآيات 11 الى 18]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى‏ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى‏ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لا تَجَسَّسُوا وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12) يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى‏ وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15)

قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ (16) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (17) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (18)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 243

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى‏ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى‏ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ ..

.. هتاف حبيب للمؤمنين، باستجاشة روح الايمان، يستيقظ فيهم نباهة الحنان أن يكونوا- مع بعض- عقلاء حلماء أزكياء أذكياء، فلا يسخر قوم من قوم و لا نساء من نساء، و لماذا يسخرون، و مم يستهزءون، أ لأنهم خير منهم في ميزان الحق فبه يفتخرون فيسخرون ممن هو أدنى منهم؟ و هذا من شيم الجاهلين، فلا يستهزأ المؤمن العارف و لو بغير المؤمنين الذين هو خير منهم بقين، فكيف بمن‏ «عَسى‏ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ» فلما ذا يهرفون- إذا- بما لا يعرفون؟.

إن السخرية من أي إنسان و الهزء به جهل عارم: «قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 244

قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ» (2: 67) فإذا هي تجهّل موسى الرسول عليه السلام، لو هزء و إن كانت من الإسرائيلين العارمين، فما هي إذا ممن‏ «عَسى‏ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ» أو هم خير على يقين؟.

إن السخرية من أي إنسان، محظور في هذا المثلث بكل زواياه، و لأن الزاوية الوسطى هي الأكثر:- أن يزعم الساخر أنه خير من المسخور منه و لذلك يسخر منه- ركز النهي في الآية بها، ثم آية البقرة عممت النهي: إن السخرية جهالة و لو كانت من نبي و لن يكون، فكيف ممن‏ «عَسى‏ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ».

إنه ليست السخرية على أية حال إلا جهالة، فلو أنه أدنى منك و لحد الكفر، فليست للسخرية دور مع الكافر، فإنها تزيد في نفوره و كفره، إذ قد يحتج على الساخر أن ليس له برهان، فلذلك يسخر مني، أم إنه رذيل يترذل بمن يراه أدنى منه، بدل أن يحاول في علاجه بالحكمة و الموعظة الحسنة، فلا لك كمؤمن أن تسخر من أحد و إن كان يسخر منك، اللهم إلا جزاء السخر بسخر مثله، عقابا وفاقا و عند الإياس من انتباهه عن غفلته و غفوته، و الإيقان أنه يعاند مقصرا، فليست السخرية الجزاء- إذا- جهالة، بل و قد تكون حسنا أو واجبا و كما من نوح: «وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ» (49: 11) فما لبثوا أن سخرت منهم أمواج الطوفان: «وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

و كيف ركز النهي هناك على «قوم من قوم أو نساء من نساء» و السخرية محرمة و إن بين قوم و نساء؟ لأن هزء الجنس من جنسه هو طبيعة الحال، قضية التحاسد التكاثر «1»، و كما تشير بنكاية الهزء الجماهيري و أنه أتعس من أن يسخر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور: اخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في آية السخر قال: نزلت في قوم من بني تميم استهزءوا من بلال و سلمان و عمار و خباب و صهيب و ابن فهره و سالم مولى أبي حذيفة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 245

شخص من شخص، فالآية تحمل انحس صور الهزء: أن يكون ممن علّه خير من الهازى‏ء، و من قوم أو نساء، و إن كان سواهما من هزء محرما دونه، كما تفيدنا آية البقرة و اضرابها، فلا يسخر شخص من شخص‏ «1» و إن عسى أن يكون الساخر خيرا.

هذه! و من ثم استجاشة أخرى هي أشمل و أحرى، استيحاء من روح الأخوة الايمانية، التي تجعل من المؤمنين نفسا واحدة- ف:

وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ‏ فان من يلمز و يعيب أخاه المؤمن، هو لامز نفسه، لأنه منه أو هو هو، لا يفصل بينهم إلّا فاصل الجسم، و الروح واحدة، فكيف يعيب مؤمن نفسه، اللهم إلا أن تحاول علاج أخيك كما تعالج نفسك، بكل حنان و أمان، و دون إيذاء و تشهير، و إنما كمرآة تريك مساويك دون أن تجاهر بها لسواك فإن‏

«المؤمن مرآة المؤمن».

هذه- و كما توحي «أنفسكم» بأن لمز البعض لمز للكل، فإنه مسّ من كرامة الايمان، فهل من عاقل بعد يلمز أخاه بعد انه نفسه حيث الوحدة الايمانية، فلذلك تتركز الاستجاشة هنا و هناك بروح الايمان‏ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ..»

و شعور الاندماج في نفس واحدة «وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ» لحد:

وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ‏ فالنبز هي اللقب بعينه، فالتنابز هي التلاقب،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير علي بن ابراهيم القمي‏ انها نزلت في صفية بنت حي بن اخطب و كانت زوجة رسول اللّه (ص) و ذلك ان عائشة و حفصة كانتا تؤذيانها و تشتمانها و تقولان لها: يا بنت اليهودية، فشكت ذلك الى رسول اللّه (ص) فقال لها: ألا تجيبهما؟ فقالت: بماذا يا رسول اللّه (ص)؟ قال:

قولي ان أبي هارون نبي اللّه و عمي موسى كليم اللّه، و زوجي محمد رسول اللّه (ص) فما تنكران مني؟ فقالت لهما، فقالتا: هذا علمك رسول اللّه (ص) فأنزل اللّه في ذلك‏ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 246

أن يسمي بعضنا بعضا بما يدل على ذم بسوء «1»، و إنما الألقاب الطيبة الحنونة هي التي تليق بالتبادل بين المؤمنين، مهما كانت هناك سيئات، فالمؤمن يستر القبيح و يظهر الجميل، كما اللّه، تخلقا بأخلاق اللّه، و لقد غير رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ألقابا مزرية تبقّت من الجاهلية للبعض ممن آمن، بأسماء أو ألقاب طيبة، ذودا عن كرامة المؤمنين ما يزريهم، فليلتزم المؤمن اسم الايمان لنفسه و أنفسه المؤمنين، فإنه أنفس من أي نفيس، فضلا عن أن يتنابز بالألقاب السوء، ف:

بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ‏: ان تنبز أخاك بلقب يجانب الايمان، اسم هو وصم الفسوق اللّاإيمان، و من ثم تتّسم أنت المنابز أيضا باسم الفسوق بعد الإيمان، لأنك فسقت عن شريطة الايمان، فعليك أنت المنابز، و ذلك الساخر أو اللامز، عليكم أن تتوبوا إلى اللّه:

وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ‏: أنفسهم و إخوانهم، حيث انتقصوا سواهم سخرا أو نبزا أو لمزا، فنقصوا- هم- عن أنفسهم كمال الايمان، فاللّه هو المستعان.

ثم و ليست السخرية و اللمز و النبز دائرة مدار الواقع المعلوم- فقط- فإن كثيرا من الظن السوء حرام لأن بعض الظن إثم:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لا تَجَسَّسُوا وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ..

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

عيون أخبار الرضا (ع) في حديث له‏ لما قيل له في شعر: أنشدنيه ابو العتاهية لنفسه قال: هات اسمه ودع هذا- ان اللّه سبحانه يقول: و لا تنابزوا بالألقاب.

و

في الدر المنثور- اخرج جماعة من الجامعين عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة «وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ» قدم رسول اللّه (ص) المدينة و ليس فينا رجل إلا و له اسمان او ثلاثة فكان إذا دعا أحدهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول اللّه (ص)! انه يكره هذا الاسم فأنزل اللّه: «وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 247

إن الظن السوء بين المؤمنين مع بعض يجانب روح الأخوة الإيمانية، ما يترتب عليه الآثار السوء، دون واقع الإدراك النفساني المجرد المفاجئ للإنسان دون اختيار، اللهم إلا إذا استطاع ترويض نفسه على ترك هكذا إدراك سوء أيضا، أن يعيش الظنّ الخير، إذا غلب الخير على المؤمنين، أو اللّاظن لا خيرا و لا شرا إذا غلب الفساد، كل ذلك توقيا عما يتوقع من الوقوع في الإثم، ضابطة وقائية لكرامة المؤمنين مع بعض: ترك الظن السوء قدر الإمكان، اللهم إلا قليلا يملك فيه دليلا قاطعا، لكنه لا يملّك التجسس عنه بغية التأكد منه، أو إذا تأكد أن يفشيه: «وَ لا تَجَسَّسُوا وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ..» فالتجسس التتبع عن مساوئ المؤمنين محرم، و التجسس التتبع عن محاسنهم هو قضية الايمان.

فذلك سياج آخر فوق المسبقة، حول حرمات المؤمنين، يتخطى الواقع الخارجي من المعاملة السوء، الى المشاعر و الظنون تنظيفا لها و تنزيها عن أن يظن بالمؤمنين سوء، و ما أروح الحياة في مجتمع بري‏ء من الظنون، طمأنينة لا تتعكر بقلق، فلا يؤخذ- إذا- مؤمن بظنة، و لا يحاكم بريبة.

تلك الروح النظيفة العالية هي نبراسة الحياة الايمانية، و هي متراسة النكبات اللّاإيمانية، و على حد

المروي عن إمام المتقين علي عليه السّلام: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقلبك منه و لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءا و أنت تجد لها في الخير محملا» «1»

و ذلك‏

«إذا استولى الصلاح على الزمان و أهله ثم أساء رجل الظن برجل لم يظهر منه حوبة فقد ظلم، و إذا استولى الفساد على الزمان و أهله ثم أحسن رجل الظن برجل فقد غرر» «2»

بل يترك هنا لك الظن سوءا و حسنا، دون أن تنفصم ضابطة الآية «اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ» غلب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اصول الكافي باسناده عن الحسين بن مختار عن أبي عبد اللّه (ع) قال قال امير المؤمنين (ع): ..

(2) السيد الشريف الرضي في نهج البلاغة عن امير المؤمنين علي عليه السلام: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 248

الصلاح أم غلب الفساد، و لكن عند غلب الصلاح علينا أن نحسن الظن، لا أن لا نسي‏ء فقط «لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَ قالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ» (24: 12).

إن واقع السوء، و في مجتمع يغلب عليه الصلاح، إنه شبهة غير محصورة، فلتترك هذه الشبهة مخافة الوقوع في الإثم‏ «إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ».

و ترى إذا كان البعض إثما دون الكثير، فلما ذا يجتنب الكثير، علّه لأن الإثم ما يبطئ عن الثواب الصواب، فيدفع إلى غير الصواب، إما تهمة و إصابة بري‏ء فوا ويلاه، أو فضح مسي‏ء فإشاعة فاحشة، فلأن الكثير من الظن السوء يدفع إلى البعض الإثم، يمنع هذا الكثير حيطة على ذلك القليل، فإن عرض المؤمن عظيم كثير.

أو إذا كان الكثير الممنوع من الظن ما يرتب عليه الآثار، فبعضه إثم في ترتيب الآثار، لأنه قد يصادف بريئا عن الأوزار، و لكنما الاول أولى أو هو الحق، لأن الظن السوء باختيار سوء أيا كان، و لان بعضه إثم فليترك كله وقاية و حيطة على حرمات المؤمنين، و إن ما يرتب عليه الآثار كله اثم يبطئ عن الصواب، صادف بريئا أو غير بري‏ء، لأن فضح المسي‏ء حرام: «اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ» نفسانيا «إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ» واقعيا- حيث يبطئ عن الصواب و الثواب بالنسبة للمؤمنين المظنون بهم، و عجلة الحياة الإيمانية يجب أن تكون دائم الحراك سريعا في الخير بين المؤمنين، فليجتنب ما يبطئها أو يوقفها من الظن السوء مخافة البوار: «.. وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً» (48: 12).

و ترى ان اجتناب الظن القليل الباقي بعد الكثير ليس واجبا كالكثير؟ كلا لأنه الظن المسنود إلى قاطع البرهان، فمجانبته إذا خلاف البديهة، لا تمكن حتى تجب، و انما الواجب فيه، الحفاظ على الأعراض، إعراضا عن إفشاء ما ثبت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 249

من سوء أو التلميح به، اللهم إلّا فيما يجب أو يجوز من شهادة أو نصح أم ماذا.

إذا فواجب الاجتناب عن كثير من الظن حمى عن الوقوع في الإثم أحيانا، مع ما فيه من تنظيف المشاعر عن الظنون السيئة، ثم للقليل الباقي حكمه، كل حسب المصلحة الجماعية قضية الإيمان.

.. وَ لا تَجَسَّسُوا عن معايب المؤمنين، و انما تحسسوا عن محاسنهم، إظهارا للجميل و سترا للقبيح، فالتفتيش عما استتر من أمور الناس أو عيوبهم محظور جماعي عارم، يعكر جو الطمأنينة و الراحة، و يبدله إلى الاضطراب و العاهة، سواء كان التجسس للاطّلاع الشخصي، أم و للاطلاع الجماعي فأشد و أنكى، و إن كان المجسس عنه عيبا دون ريب، فكيف إذا كان صوابا يحمل إصلاحا في زاوية أو زوايا من الحياة الجماعية الإسلامية، فيتجسس الوسواس الخناس عن صالحات من خبايا الناس، ليطلع عليها النسناس، فيأخذوا حذرهم و أسلحتهم شاهرين على هؤلاء الناس، فتقع الواقعة الشوكاء الشوهاء، خنقا على أية فكرة للإصلاح، في حالة جهنمية يختلقها النسناس، و ليعيش حاكما مطلق العنان على الناس دون سماح لحياة آمنة طاهرة.

ان التجسس عن أسرار المؤمنين محظور بأي لون و على أية حال سواء أ كان حركة تالية للظن، أو بدائية لكشف العورات و التطلع إلى السوآت، و بأية غاية أو عناية اخرى حصل، و على أي انسان، و إن‏

«أقرب ما يكون العبد إلى الكفر ان يوافي الرجل الرجل على الدين فيحصي عليه عثراته و زلاته ليعنفه بها يوما ما» «1»

و

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا تطلبوا عثرات المؤمنين فإن من تتبع عثرات أخيه تتبع الله عثرته، و من تتبع الله عثرته يفضحه و لو في جوف بيته» «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اصول الكافي باسناده الى عبد اللّه بن بكير عن زرارة عن أبي جعفر و أبي عبد اللّه (ع).

(2) اصول الكافي باسناده الى محمد بن مسلم او الحلبي عن أبي عبد اللّه (ع) قال قال رسول اللّه (ص):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 250

هذا! اللهم إلا غير المؤمنين الخطرين على الحياة الإيمانية، فيجسس عنهم حيادا على المؤمنين و سياجا عما يمس من كرامتهم، أو من يشذ عن سبيل المؤمنين، فيولى ما تولى و يصلى جهنم و ساءت مصيرا:

من جاسوس لصالح الفجار، أو مضلل للمسلمين، أو أي مفسد في الأرض، فيؤخذ على يديه، أو يجسس عنه تأكدا من نواياه ليوقف على حده، أو يخفف- و لا اقل- عن حدته.

و ان استنطاق الغافلين للكشف عن خباياهم تجسس، و استغابتهم ممن يغتابهم تجسس، دون تخصص بتسلق البيوت، و انما التكشف عن الأسرار، المختفى بها أصحابها- أيّا كان- تجسس محظور «1»، اللهم إلا فيما يحمل هامة لصالح المسلمين فرادى أو جماعات، ماديا أو معنويا.

فالكتلة المؤمنة تعيش آمنة امينة على أسرارها و عوراتها و بيوتها و كل خباياها و خفاياها، إلا من تخلف في سرّ له عن رتبة الإيمان، فخيف منه خطر على كتلة الإيمان، فلا سر له إذا يحترم، إلا ما لا يناحر صالح الإيمان!.

ثم- و إذا تبين لك عن مؤمن مزرئة، أو ما لا يحب إفشاءه، فلا لك ان تغتابه:

وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً: أنتم المؤمنين، مهما اختلفت درجات الإيمان و مذاهبه، ما صدقت كلمة الإيمان و ان في ادنى أدانيها، فأنتم كجسد واحد متبعض: «بَعْضُكُمْ بَعْضاً» تحكم فيكم روح الإيمان الواحد، فليحضر كل بعض مع الباقين، دون غياب و لا اغتياب، فلا تحكم المباغضة- فقط- بحرمة الاغتياب بل و بوجوب الانتداب أيضا لبعض في صالحه، و منه كف الغيبة عن بعض، و لزوم الاكتئاب لبعض إذا اغتيب أو أصيب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (ص) في حديث: و من استمع الى حديث قوم و هم له كارهون يصب في أذنيه الأنك (الرصاص) يوم القيامة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 251

ان الغيبة و هي ذكر العيب بظهر الغيب بكتابة أو إشارة أو لسان أو أيا كان، أو «ذكرك أخاك بما يكرهه» انها إساءة إلى المغتاب إذ تغضبه إذا سمع و تخلق فيه الضغينة و العداء لمن اغتابه، و إساءة إلى المجتمع الإسلامي السامي، إذ تحلق فيه جوّ اللّاأمن الفوضى كدرا قذرا، إفشاء للفاحشة في الذين آمنوا فجرأة جماعية على فعل الفاحشة: «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» (24: 19) ففيها تضييع لحق فردي و آخر جماعي، فما أفحشها فاحشة و ما أنكاها.

ترى كيف يغتاب مؤمن أخاه و هو منه و بعضه؟ و كيف يتفكه باغتيابه كما هو شأن كل مغتاب؟ و ما مشهد الاغتياب في الرزء و الاكتئاب، إلا كأخزى مشهد تتأذى له أكثر النفوس خسة و أقلها حساسية، و هو مشهد الأخ يأكل لحم أخيه ميتا: «أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ»؟ فحب الغيبة تفكها يضاهي حب أكل لحم أخيك الميت، فالنيل من عرضه كأكل لحمه، و هو في غيابه، كأكل لحمه ميتا «1» أ فلا تكرهونه؟ «فكرهتموه»: ثالوث الكراهية العريقة في كل أحد و ان كان في أدنى درجات الإيمان، فلم يقل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور: اخرج ابن أبي حاتم عن السدي‏ ان سلمان الفارسي كان مع رجلين في سفر يخدمهما و ينال من طعامهما، و ان سلمان نام نوما فطلبه صاحباه فلم يجداه فضربا الخباء و قالا:

ما يريد سلمان شيئا غير هذا ان يجي‏ء الى طعام معدود و خباء مضروب فلما جاء سلمان أرسلاه الى رسول اللّه (ص) يطلب لهما إداما فانطلق فأتاه فقال: يا رسول اللّه (ص) بعثني اصحابي لتؤدمهم ان كان عندك، قال: ما يصنع أصحابك بالأدم؟ قد ائتدموا، فرجع سلمان فخبرهما فانطلقا فأتيا رسول اللّه (ص) فقالا: و الذي بعثك بالحق ما أصبنا طعاما منذ نزلنا، قال: انكما قد ائتدمتما سلمان بقولكما، فنزلت‏ «أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً».

و

فيه عن أنس‏ ان الرجلين هما ابو بكر و عمر و فيه: بأي شي‏ء ائتدمنا؟ قال (ص): بلحم أخيكما، و الذي نفسي بيده إني لأرى لحمه بين ثناياكما، فقالا: استغفر لنا يا رسول اللّه (ص)؟

قال: مراه فليستغفر لكما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 252

«فتكرهونه» كفعل مستقبل، و انما «فكرهتموه»، كماض، ايحاء بثبات هذه الكراهية: ان يأكل الإنسان لحم أخيه ميتا، ثباتا في الفطرة لكل أحد: «فكرهتموه»: عافته أنفسكم و ان كنتم جائعين غرثى.

و ترى هل تحرم غيبة المؤمنين الموافقين لك في المذهب فقط، أم و كل مؤمن من أي مذهب؟ الحق هو الشمول، فإن الأخوة الإيمانية تشمل كافة المؤمنين، دون المنافقين، و إنما المؤمنين باللّه و رسوله و اليوم الآخر أيا كانت مذاهبهم، إذ تجمعهم كلمة الإيمان، مهما تفرقهم مذاهب الإيمان، فعليهم جميعا أن يعتصموا بحبل اللّه و لا يتفرقوا، و الغيبة من أشد أسباب التفرقة!.

ان حرمة الغيبة تحور على محور الأخوة الإسلامية الثابتة على غرار الآية:

«فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ ..» (9: 11)

هذا! فضلا عمن يأتي بأكثر من ذلك من شرائط الأيمان، و لا تعني التوبة هنا إلا عن الشرك باللّه، و لا إقام الصلاة و إيتاء الزكاة الا الدخول في شريعة اللّه، إيمانا باللّه و برسول اللّه و اليوم الآخر ام ماذا، على مختلف درجاتها، فإن الايمان درجات كما الكفر دركات، فلا لك كمؤمن ان تواجه أخاك في الايمان بلقب الشرك او الكفر، بعد ما حرم اللّه التنابز بالألقاب، فلا تجوز اغتياب مسلم غير منافق، موافقا لك في المذهب ام غير موافق، اللهم الا المتجاهرين بالفسوق، المستهزين في هتك حرمات اللّه، فليس لهم- إذا- ستر حتى يهتك بالاغتياب، و الا من الاغتياب دواءه لكي يرتدع، ام دواء لداء عضال بين المجتمع الذي يعيشه، ام اية مصلحة راجحة توجب او تسمح بالاغتياب، مراعيا هنا و هناك ألا تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فان السماح في اغتياب شخص لمصلحة، ليس لزامه السماح بابطال هوية جماعية اسلامية، إذ يخلف جرأة المتقين ان يشذوا عن شريطة التقوى أحيانا، إذ اوجدوا لهم رفاقا، فالأصل الذي لا ينفصم هو الحفاظ على روح التقوى، و السياج على من يهوى الطغوى، لتكون كلمة اللّه هي العليا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 253

و كلمة الذين كفروا السفلى.

و ترى هل للمغتاب من متاب، فان تاب إلى اللّه و أناب كفاه اللّه و هداه توبة عليه؟ ام و لا بد من استرضاء صاحب الغيبة، و الا فلا توبة؟.

ان التقوى بعد الاغتياب تتبع توبة من اللّه و رحمته، و كما في ذيل الآية:

«وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ» فما وجدت سبيلا لإرضاء صاحب الغيبة فإليها أن يغفر لك فيستغفر لك، فلا ينفعك و لا استغفار رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مالك سبيل إلى استغفار صاحبك و كما أمر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أبا بكر و عمر ان يطلبا من سلمان ان يستغفر اللّه لهما «1» و إلا فالإنابة إلى اللّه بتوبة نصوح، و ان تستغفر اللّه لأخيك يغفر اللّه لك: «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ» (4: 48) فهو هو الذي يرضي صاحبك برحمته ليرضى عنك، فيتوب اللّه عليك.

و هذه هي شيمة التقوى: و من ثم‏ «إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ» بعد ما تبت إليه بشروطه، توبة منك الى اللّه فتوبة من اللّه عليك: «فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ» (5: 39) و كما ان توبتك الى اللّه بحاجة الى توبة اخرى من اللّه عليك: «ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا» (9: 118) فالتوبة منك إذا، و في أي ذنب، هي بين توبتين من اللّه.

و من ثم- و بعد هذه التوصيات للمؤمنين بالنسبة لبعض- نتلفّت إلى ضابطة عامة في التفاضل لا فوقها ضابطة إلا حابطة ساقطة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما مضى عن الدر المنثور من حديث سلمان مع أبي بكر و عمر و

فيه عن ابن مردويه و البيهقي عن أبي سعيد و جابر قال رسول اللّه (ص): الغيبة أشد من الزنا- قالوا: يا رسول اللّه (ص)، و كيف الغيبة أشد من الزنا؟ قال: ان الرجل يزني فيتوب اللّه عليه و ان صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفرها له صاحبه.

أقول: هذا لو وجد الى ذلك سبيلا، و الا فسبيله الاستغفار لصاحبه، ثم اللّه يطلب من صاحبه ان يغفرها له فيغفر كما

رواه في الكافي باسناده إلى السكوني عن أبي عبد اللّه (ع) قال: سئل النبي (ص) ما كفارة الاغتياب؟ قال: تستغفر اللّه لمن اغتبته كما ذكرته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 254

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى‏ وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ هتاف عام هام للانسانية جمعاء، الصادرة من أصل واحد، أخذا لها إلى اصالة واحدة لا تناكر فيها و لا تكاثر او تنافر، هي اصالة ركزت لها كل رسالة إلهية- ألا و هي‏ «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ».

ف «يا أيها» نداء بعيد تضرب إلى الغور، تناسيا كافة التفاضلات الموهومة بين الناس، تاركة كافة الألقاب الارضية المختلقة، الا واحدا هو من خلق اللّه:

«الناس» و ليحملهم خالقهم- على هذا الأساس- الى شرعة الناس، على ضوء شريعة خالق الناس: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ» حيث تتوارى كافة النزعات و المنازعات، و تتهاوى كافة القيم التي يتكالب عليها الناس: حيث الميزة الوحيدة في ميزان اللّه هي تقوى اللّه؛ التي لا يتكالب عليها الناس، و انما الناس هم الذين يتشاجرون على سائر الميزات: الطغوى!. فكل ميزة وراء التقوى هي طغوى لا تزداد إلا حياة جهنمية فوضى.

ان لواء التقوى المرفوفة على الألوية كلها، العالية من على الأعالي في ارض الإسلام، إنها لا تسمح لألوية القوميات و العنصريات و الاقليميات و الطائفيات ان ترفرف او تبقى لها باقية، اللهم الا باغية يحاربها الإسلام، و يسميها رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عصبية جاهلية، دعوها فانها منتنة «1».

تلكم اللواء هي التي تلوي باعناق المتجبرين المتكاثرين، الذين يحملون رايات العصبيات العارمة، من قوميات عربية و سواها و كما خطب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوم فتح مكة قائلا:

«يا أيها الناس ان الله قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهلية و تفاخرها بآباءها، ان العربية ليست بأب والد، و انما هو لسان ناطق، فمن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله الانصاري عنه (ص): ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 255

تكلم به فهو عربي، ألا إنكم من آدم و آدم من التراب، و ان أكرمكم عند الله أتقاكم» «1».

و كما

في خطبة الوداع: «يا أيها الناس ألا ان ربكم واحد، ألا ان أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي و لا لعجمي على عربي، و لا لأسود على احمر و لا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغت؟

قالوا: بلى يا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: فليبلغ الشاهد الغائب» «2».

إذا فلا زاد لمسلم الا تقوى اللّه: «وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى‏» (2: 197) دون سائر الزاد، اللهم الا ما يسهّل و يعبّد سبيل زاد التقوى! و انها نسب اللّه يرفعها اللّه، و في يوم لا انساب بينهم و لا يتساءلون‏ «3» نسب هو نبراس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير علي بن ابراهيم القمي عن رسول اللّه (ص): ..

(2) الدر المنثور: اخرج ابن مردويه و البيهقي عن جابر بن عبد اللّه قال: خطبنا رسول اللّه (ص) في وسط ايام التشريق خطبة الوداع فقال: ..

و

في اصول الكافي باسناده عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد اللّه (ع) قال: ان رسول اللّه (ص) زوج مقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، انما زوجه لتصنع المناكح و ليتأسوا برسول اللّه (ص) و ليعلموا ان أكرمهم عند اللّه أتقاهم.

(3)

مجمع البيان: و روي عن النبي (ص) انه قال: يقول اللّه تعالى يوم القيامة: أمرتكم فضيعتم ما عهدت إليكم فيه، و رفعتم انسابكم فاليوم ارفع نسبي و أضع انسابكم، اين المتقون؟

ان أكرمكم عند اللّه أتقاكم.

و

في اصول الكافي باسناده عن حنان بن عقبة بن بشير الاسدي قال: قلت لأبي جعفر الباقر (ع) أنا عقبة بن بشير الاسدي، و انا في الحسب الضخم من قومي؟ قال فقال (ع):

ما تمن علينا بحسبك، ان اللّه رفع بالايمان من كان الناس يسمونه وضيعا إذا كان مؤمنا، و وضع بالكفر من كان الناس يسمونه شريفا إذا كان كافرا فليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى.

و

في روضة الكافي باسناده عن حنان قال: سمعت أبي يروي عن أبي جعفر (ع) قال: كان سلمان جالسا مع نفر من قريش في المسجد، فأقبلوا ينتسبون و يرفعون حتى بلغوا سلمان،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 256

الحياة، و متراس على الشيطنات، يظل في ظلاله الناس بعيدين عن وسواس الخناس النسناس:

ثم و في هذا الهتاف انعطاف الى انحصار الأصل في: «ذَكَرٍ وَ أُنْثى‏» إذا فالناس كلهم مخلوقون من اثنين: آدم و حواء، فلو كان هناك بعدهما جنية أو حورية كما قد يروى، لكان اصل المجموع ذكرا و أناثى، مهما كان الأصل للنسل الأول ذكرا و أنثى، كما ان ذلك الذكر اصل الأنثى: «يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالًا كَثِيراً وَ نِساءً ..» (4: 1) فمن نفس واحدة (آدم) زوجها (حواء) و منهما الناس أجمعون رجالا كثيرا و نساء.

و ترى هل ان‏ «ذَكَرٍ وَ أُنْثى‏» هنا تعني- فقط- اثنينية الأصل الأول، أو مطلقا، ام و الفرع ايضا، ام الفرع فقط؟ ان تكون «من» بيانية تبين نوعية الناس: أنهم ذكر و أنثى، دون المخلوق منه، «ذَكَرٍ وَ أُنْثى‏» عبارة اخرى عن «كم» و لكنه توضيح للواضح، ثم و لا صلة له بإثبات وحدة الأصل، المتفرع عليها توحيد الميزة التقوى، اللهم الا ان يعنى الأمران، ف «من» بيانية من جهة و نشوية من اخرى هي الأحرى، و لا سيما من الأصل الأول، فان الأصول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فقال له عمر بن الخطاب: اخبرني من أنت و من أبوك و ما أصلك؟ فقال سلمان: أنا سلمان بن عبد اللّه، كنت ضالا فهداني اللّه عز و جل بمحمد (ص) كنت عائلا فأغناني اللّه بمحمد (ص) و كنت مملوكا فأعتقني اللّه بمحمد (ص) هذا نسبي و هذا حسبي، قال: فخرج النبي (ص) و سلمان يكلمهم، فقال له سلمان: يا رسول اللّه (ص)! ما لقيت من هؤلاء؟ حبست معهم فأخذوا ينتسبون و يرفعون في أنسابهم حتى بلغوا إلي فقال عمر بن الخطاب: من أنت و ما حسبك ... فقال (ص): فما قلت له يا سلمان؟ قال: قلت: ... فقال رسول اللّه (ص):

يا معشر قريش ان حسب الرجل دينه، و مروته خلقه و أصله عقله، قال اللّه عز و جل: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ» ثم قال النبي (ص) لسلمان: ليس لأحد من هؤلاء عليك فضل إلا بتقوى اللّه عز و جل، و ان كان التقوى لك عليهم فأنت أفضل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 257

الاخرى: أن كل انسان مولود من أبوين، يماثل الاحتمال الآخر انه توضيح للواضح، و انه لا يتبنى ازالة الفوارق، و أما أن الإنسانية جمعاء تنتهي إلى أصل أول: ذكر و أنثى، فانه يحمل بيان مجهول، و من ثم فتفرّع الوحدة غير المتفارقة عليه معلوم، و الآية تتبنى الغاء التفاضل الطبقي، فلا تناسب الا إرجاع الكل الى الأصل الأول «آدم و حواء» ليس إلا!.

و كما الأصل واحد بما خلق اللّه‏ «إِنَّا خَلَقْناكُمْ» كذلك الفرع المتشعب القبلي بما جعل اللّه‏ «وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ» و ترى لماذا الكثرة الميزة بعد الوحدة لا الكثرة المتماثلة، أ للتكاثر و الاختلاف و هما نقمة و الوحدة نعمة: «و لا يزالون مختلفين الا من رحم ربك و لذلك (الرحمة الائتلاف) خلقهم» اللهم لا! ام للتآزر و الائتلاف؟ اللهم نعم: «لتعارفوا» حيث المماثلة في الألوان و الاشكال و اللغات تهدم أساس التعارف فالائتلاف، فلا يجوز ان يجعل هكذا اختلاف بما جعله اللّه وسيلة التعارف و الائتلاف، يجعل مسكة و ذريعة للاختلاف، من لون أو لغة أم ماذا، و إنما الميزة الوحيدة الكريمة، التي تؤلف شرعيا بعد التآلف الخلقي، إنما هي التقوى: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ‏: لوحة كريمة وحيدة في ميزان اللّه، لائحة لمن اتقى اللّه، و التخلق بأخلاق اللّه لزامه أن نكرم من أكرمه اللّه.

و ما هو الفرق بين الشعوب و القبائل؟ و لم يذكرا في القرآن إلا هنا، علّ الشعوب- جمع شعب لا الشعب- تعني المجتمعات المتشعبة: تجمع من جهة و تشعّب من اخرى، كما الشعب من الوادي ما اجتمع منه طرف و تفرق آخر، فإذا نظرت من الجانب الذي تفرق أخذت في وهمك واحدا يتفرق، و إذا نظرت من جانب الاجتماع أخذت في وهمك اثنين اجتمعا، فلذلك قيل: شعبت إذا جمعت، و شعبت إذا تفرقت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 258

إذا فالشعوب هي المجتمعات المتفرقة، تفرق الولادة القريبة، و تجمّع الأصل البعيد، و من ثم القبائل تجمع الشعوب، فكل قبيلة تجمع شعوبا عدة متناسبة و متقاربة أكثر من سواها، فالكيان الأول للناس هو الطبقة الأولى من القرابات الشاملة لسائر طبقات الإرث، ثم الثاني الأقارب الأخرى، الجامعة بين طبقات و طبقات بصلات الأنساب و القرابات و الأسباب، و هي الشعوب، ثم الثالث مجموعات من الشعوب تجمعهم أنساب و أسباب بعيدة، و هي القبائل.

فالقبائل هي مجامع الشعوب، كما البشرية جمعاء مجموعة القبائل، فهي إذا عائلة واحدة بشعوب و قبائل بغية التعارف، ثم أكرمهم عند اللّه أتقاهم:

و أخيرا ترى أن هذه التقوى هي- فقط- الصلة و العلاقة الشخصية بين العبد و المعبود، أم أنها- و في نطاق واسع- هي الاتقاء عما لا يرضاه اللّه في كافة الميادين الحيوية، من عقائدية و ثقافية، اقتصادية و سياسية، و من حربية و قضائية و جزائية أم ماذا، فليس الايمان محصورا في حصار العلاقة الشخصية و كما يريده الاستعمار الكافر، حتى يجعل من المؤمنين زهادا يزهدون عن كل تدخّل حيوي في شئون المسلمين، بل هو صيغة شاملة كاملة تجعل من المؤمنين بنيانا مرصوصا رصينا و رزينا في كافة الميادين، فقد يكون المؤمن أتقى فأكرم في بعض الميادين و لا يكون في بعض، كما هو الحال في الأكثرية الساحقة بين المتقين، و أما أن يكون أتقى فيها كلها، فقد لا يكون إلا الرسول المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من يحذو محذاه من أئمة الهدى (ع) فهم أكرم الناس و أتقى: تقوى علمية معرفية و عبودية و سياسية و اقتصادية، يرضون أنفسهم بتقوى اللّه في كل زواياها و مجالاتها، اللهم أحينا محياهم و أمتنا مماتهم آمين.

قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 259

ترى من هم الأعراب هنا، أهم قوم العرب؟ و منهم مؤمنون، و من هم المنطلق الأول للدعوة الإسلامية، بالغين ذروة الايمان، كالسابقين المتسابقين لإجابة الدعوة في طريق شائك بألوان البلاء، ملي‏ء بالأشلاء و سيول الدماء! أم هم كل متكلم باللغة العربية؟ فكذلك الأمر و أحرى، كما التاريخ يشهد بسباق جماعة من العجم في الإيمان، لا حقين أم سابقين! أو هم جماعة من أولاء أو هؤلاء؟ و لام الاستغراق تنفيه، و أدب التعبير القرآني ينافيه! إذا فهم جماعة طبعهم اللّاإيمان و إن آمن بعض منهم بعد طول مدة الدعوة، و هو الصحيح لغويا و قرآنيا: إنهم أهل البوادي، البعيدين عن الثقافات، القريبين إلى الشقاوات و القساوات: «الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى‏ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (9: 97) فالأعراب جمع العرب: الظاهر، الذي يحيى حياة مكشوفة بادية بدائية، تظله السماء و تقله الأرض، فهم- إذا- الظاهرون من الناس، غير المدنيين، عربا أو عجما، كما الإعراب إظهار موقف الكلمة من حركات تدل على موقعها النحوي، و كما القرآن حكم عربي: ظاهر لمن استظهر، لا تعقيد فيه لا تفهما و لا تطبيقا: «وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا» (13: 37) لا أنه خاص بالعرب القومي، أو من يتكلم بالعربية، فإن رسالة القرآن عامة عالمية!: «قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ..» (39: 28) لا عوج في عربيته: وضوحه في كافة المجالات، و سهولته في مختلف المتطلبات، دون تشديد و لا تعقيد!.

هؤلاء الاعراب قالت آمنا: مدلّلين كأنهم آمنوا «و لمّا» .. فهم في البداية أسلموا و قلوبهم فارغة عن الإيمان، و منهم الذين آمنوا بعد كما توحيه «لمّا» الدالة على انتظار مدخولها، و قد آمن من آمن، و إن كانوا قلة، و كفر من كفر أو نافق و هم الكثرة- ف: «الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً» .. «وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 260

وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ‏ ...

وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ، وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ ..»

(9: 97- 101).

ففي الآية سلب لما يدعى: «قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا» و إثبات لإسلام هو قبل الإيمان:

«وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا» و رجاء الإيمان بعد الإسلام للذين لم ينافقوا بإسلامهم:

«وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» و رحمة ثانيه لمن سلك سبيل الايمان، أن يؤتى- بأعماله قبل الايمان- ثواب الأعمال بعد الايمان: «وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»! لفتة حبيبة لمن أسلموا من الأعراب «و لما يؤمنوا» فضلا عن الذين آمنوا فأحرى لهم و أولى!.

ثم الإسلام إسلامان، إسلام أول هو قبل الإيمان فهو دونه كما هنا، و إسلام آخر هو مع الإيمان و بعده، كما في غيرها فهو فوقه، و هو إسلام النبيين و سائر الأصفياء.

فالإسلام الأول أعم من الإيمان، حيث الإيمان:

«معرفة بالقلب و إقرار باللسان و عمل بالأركان» «1»

و هذا الإسلام فارغ عن العقد في القلب‏ «وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» كما و الإسلام الثاني أخص من الايمان، فمن المؤمنين من لم يسلموا بخالص التوحيد لرب العالمين: «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» (12: 106) و منهم من أسلموا: بعد كامل الايمان: «قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ» (6: 14) «وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ ..» (4: 125)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور: اخرج ابن ماجة و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب (ع) قال: قال رسول الله (ص): ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 261

«فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» (37: 103).

فالإيمان يتبع إسلاما قبله باللسان، فعملا بالأركان، و من ثم معرفة بالقلب:

الايمان، ثم قد يتبع إسلاما بعده هو تسليم القلب للّه، فتكميل لإقرار اللسان و عمل الأركان، و إلى أن يصل التسليم إلى القمة، و بعد الايمان القمة.

ثم الذي أسلم إسلامه الأول نظرة الايمان- و لما يدخل الايمان في قلبه- ترى أنه يحرم عن ثواب أعمال الايمان؟ اللهم لا! شرط المواصلة في طاعة اللّه و رسوله، محاولة دخول الايمان في قلبه: «وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً»: لا ينقصكم منها، و لأنكم في صراط الايمان! ثم اللهم نعم! لو أنكم توانيتم في أعمالكم، فلا أعمال صالحة حتى تؤجروا بها كما المؤمنون، أم لم تطيعوا اللّه و رسوله في أعمالكم، فانها آلة ناقصة: إما في إخلاصها، أم في ظواهرها، فلستم هنا و هناك في صراط الايمان حتى تشملكم رحمته تعالى أن تلحقوا بالمؤمنين في ثواب أعمال الايمان: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ» (52: 21) فانما الإلحاق يلحق ذرية الايمان، الذين هم في صراط الإيمان إن وصلوا، و إن لم يصلوا قاصرين، أو وصلوا و لما يلحقوا الأصول المؤمنين في درجات الإيمان، ذلك الفضل من اللّه أن‏ «لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» كما لا يلت من أعمال المتبوعين، فلا ألت في حساب اللّه، و إنما فضل و رحمة ما كان له مجال.

ثم الايمان درجات، كما الإسلام أيا كان، و قبلهما الكفر دركات، فأفضل الإيمان، و كأنه الايمان لا سواه:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ‏.

إيمان بعد إسلام، ثم تركيز للإيمان في القلب فلا يرتابون، ثم مظهر جاد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 262

يدل على ركيزة الايمان اللّاارتياب، فيجاهدون في سبيل اللّه بأموالهم و أنفسهم، فأولئك حقا هم الصادقون أنهم مؤمنون، و من دونهم دون الصادقين حقا و عملا، و إن كانوا صادقين قولا و قلبا لما دونه من درجات الإيمان، فالإيمان درجات، كما الإسلام درجات، و ما دونهما دركات!.

فمنهم من أسلم و لما يدخل الايمان في قلبه، و منهم من آمن و لمّا يثبت في الايمان فلم يتبع الإسلام الناتج عن الايمان، و منهم من ثبت الايمان في قلبه دون ارتياب و لم يصل الى قمة الجهاد بالأموال و الأنفس، و منهم من وصل فهو المؤمن حقا و صدقا.

و قد توحي «ثم» هنا دون «و» باشتراط التهنّأ و التهيّ‏ء للثبات على شريطة الإيمان الحق، دون مجرد اللّاارتياب حينا ثم الانفلات الى شي‏ء من الارتياب.

ف «ثم» تثبت ثبات اللاارتياب بعد الإيمان دوما، ما كان المؤمن في قيد الحياة دون انفلات، مجاهدا بماله و ما له من طاقات و إمكانيات في سبيل اللّه نفسا و نفيسا أم ماذا، فانطلاقة الجهاد انطلاقة ذاتية من قلب المؤمن، تحقق صورة وضيئة في قلبه في سيرة مرضية بقالبه في واقع الحياة، فحياته وحيدة مليئة بالإيمان، لا ازدواجية له بين عقيدة الإيمان و عمل الإيمان، بل هي تؤذيه و تصدمه إذا لا يطيق توحيدها لضغوط خارجية، فالخصومة بين المؤمن و حياة الجاهلية من حوله- كذلك- ناشئة من وحدوية الإيمان.

و ما أهمها هنا «ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا» كما في‏ «الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا»! فالطريق شائك، و صراط الإيمان ملي‏ء بالبلاء، مفروش بالدماء و الأشلاء، بحوادث و هواجس تزلزل و تزعزع، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان، و عند تقلّب الأحوال يعرف جواهر الرجال.

قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 263

فلما ذا الادعاء «آمنا» و أنت بين كاذب لمّا يدخل الإيمان في قلبك، و صادق يعلم اللّه ما في قلبك‏ «أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ»؟ و إذ لا! فلما ذا الادعاء؟ «وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ».

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ‏.

غلطات بعضها فوق بعض من هؤلاء الأعراب و لمّا يؤمنوا، إذ يمنون عليك أن أسلموا، و ليس لك من الأمر شي‏ء! و لا يجدي إسلامهم نفعا إلا لهم أن يحقن دماءهم و يحفظ أعراضهم و أموالهم، و يشركهم و سائر المؤمنين فيما لهم و عليهم، ثم و إسلامهم لا إيمانهم، و إن كان لا منّ و لا في إيمانهم و لمّا، فلا هذا و لا ذاك‏ «بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ» بالإسلام «للإيمان» حيث ان هكذا إسلام ذريعة و صراط للإيمان، و بعد فلا منّ إلا للّه عليهم أن هداهم لما يصلحهم، و دعاهم لما يحييهم، فهم عكسوا أمر المن، و لا منّ حتى في الإيمان، ثم لا عليك و إنما من اللّه عليهم، ثم اللّه إنما يمن عليكم و يهديكم بإسلامكم‏ «إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» في إسلامكم، فمن صدق في إسلامه فهو متنعّم من اللّه بهداه، لا ان يمن على رسول اللّه أم على اللّه، و من لم يصدق فلا هدى للايمان فلا منّ هنا أو هناك، حيث الإسلام الكاذب نفاق، و يا له من و خزة دنيا و عقبى دون منّ «من» أو «على».

إن منّ الإيمان لمن صدق هو أكبر المنن على الإطلاق لو عرف الإنسان قيمة الايمان و قمته، نفخة عليّنية تصل بهذه الذرة الطينية الهزيلة البائسة الى نور العظمة الربانية، الذي يشعره بالوضاءة المنطلقة و الضياء المطلق، فروحه في السماء و قدماه تدبان على الأرض، و قلبه يستحمّ بالنور، متعلقا بمصدر النور، نور على نور يهدي اللّه لنوره من يشاء.

إذا فمن يستحق المنّ؟ و على من؟ إنما المن من اللّه، على من هداه اللّه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 264

و تأييدا من اللّه: «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ الى صراط مستقيم» (28: 56) و دلالة من رسول اللّه: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ» (62: 2).

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ‏.

.. إذا فهو العالم بغيب النفوس، و البصير بمصير الأعمال و منطلقها، فلما ذا المنّ و الادعاء؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 265

سورة ق- مدنية- و آياتها خمس و أربعون‏

[سورة ق (50): الآيات 1 الى 14]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْ‏ءٌ عَجِيبٌ (2) أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ (4)

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5) أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ (6) وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى‏ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8) وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ (9)

وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (10) رِزْقاً لِلْعِبادِ وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ (11) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ (12) وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوانُ لُوطٍ (13) وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 266

ق. وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ان المجد هو سعة الكرم و الجلال، فهو لذي الجلال و الإكرام سعة لا تحد و كرم لا يعد: «ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ» (85: 15) فكذلك قرآنه المبين و تبيانه المتين: «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» (85:) 21) «1» فلا أمجد في الأقوال من قول اللّه، بل و لا مساماة و مساوات، فالبون بين قول اللّه و سواه كالبون بين اللّه و سواه، فلذلك يحق الحلف بقول اللّه كما باللّه:

«وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ»: حلفا بأدل دليل، و انه خالق المدلول و الدليل، لا حلفا عند فقدان الدليل أو نقصانه، فكما القرآن بحكمته دليل لنبوة و رسالة من جاء به: «يس وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.» (36: 2) كذلك و أحرى هو دليل على ما يحمله و يدل عليه من سائر الغيب كالقيامة، و لعل‏ ق‏ هنا توحي لها كما توحي للقرآن نفسه، فليحلف بمجد القرآن: بكرم أدلته و جلال براهينه، على صحة ما يدل عليه من غيوب لا يكشف عنها إلا بالوحي!.

و بما ان اشمل الأسماء لليوم الآخر «القيامة» و ان جواب القسم- و هو طبعا إقرار القيامة- لم يأت بعد، و هو المصبّ الأصل في آي السورة، نستوحي ان «ق» تشير- فيما تشير- إلى القيامة كمدلول، كما و إلى القرآن كدليل، ثم يصرح بالقرآن في صيغة قسم، و من ثم بالقيامة طوال السورة، و كأنه يقول:

قسما بالقرآن المجيد أن القيامة لا ريب فيها، ف «ق» إذا إشارة إلى كلا الدليل و المدلول، و لأن القيامة- كالقرآن- باهرة لحد كأن لا حاجة في التدليل عليه حتى و بالتسمية، فليكتف بحرفها الأول «ق»-: ممدودة تمدنا إلى كامل اسمها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع سورة البروج ج 30 ص 270.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 267

كما هي الأول من القرآن، و تمدنا لاثبات القيامة بمختلف صنوف البراهين.

فلا حاجة إذا إلى الأقاويل المحتارة غير المختارة في: ما هو جواب القسم هنا، فذلك ينافي كون القرآن بيانا، أ ترى البيان بحاجة إلى من يختلقون لتوجيهه وجوها هم فيها مختلفون؟! كما و لا صلة بما يروى في «ق» انه جبل، فما هي المناسبة القريبة أو البعيدة بين جبل قاف و بين ما هو مصب السورة من اثبات القيامة، و التنديد بناكريها، ثم و هذا الجبل جبل من خرافات‏ «1»! فهنا القرآن المجيد برهان لا مرد له لإثبات القيامة الساعة، و كما هو برهان في «يس» لإثبات رسالة نبي الساعة، كما و هو قبل الساعة و نبيها برهان لرب الساعة بما فيه من ذكر: «ص» وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ‏ ..

وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ. أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْ‏ءٌ عُجابٌ» (38: 5)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور: اخرج ابن أبي الدنيا في العقوبات و ابو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال: خلق اللّه جبلا يقال له ق، محيط بالعالم، و عروقه الى الصخرة التي عليها الأرض، فإذا أراد اللّه ان يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها و يحركها فمن ثم تحرك القرية دون القرية!.

و فيه بإسناد عن عبد اللّه بن بريدة قال: جبل من زمرد محيط بالدنيا عليه كنفا السماء!.

و فيه عن ابن عباس قال: خلق اللّه من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له: ق- السماء الدنيا مترفرفة عليه، ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له ق السماء الثانية مترفرفة عليه حتى عد سبع ارضين و سبعة أبحر و سبعة أجبل و سبع سماوات قال:

و ذلك قوله: «وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ»!.

و روى القمي مثل ما مضى عن عبد اللّه بن بريدة: ق- زمرد، و روى ما في معناه: جبل محيط بالدنيا وراء يأجوج و مأجوج! أقول: و يا له من جبل متهافت المكان و المكانة، تتناقله ألسنة الرواة من سنة و شيعة من حيث لا يعلمون انها خرافات إسرائيليات تدخلت في أحاديثنا لتشويه سمعة الإسلام أمام العقل و العلم و الحس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 268

فإذا القرآن المجيد برهان لا مرد له في هذا المثلث المجيد، أ فلا يكون برهانا لما دونه، بلى و ربي على ذلك لشهيد!:

ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْ‏ءٌ عَجِيبٌ‏:- «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ» (27: 66) إعراضا عن الواضح اللائح وضح الشمس و لوح النهار، فلا هم يتدبرون القرآن المجيد، و لا في قيامة القرآن المجيد، فمن ثم‏ «عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ» و ترى لم يعجبون؟ أ لمجي‏ء المنذر؟ و هو رحمة للمنذرين! أو لأنه منهم؟ فكذلك الأمر! فلو جاءهم من غيرهم، من جن أو ملائكة لا يرونهم، فكيف الإنذار؟ أم و لو رأوهم- و ليست إلا بصورة إنسان: «وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ» (6: 9) أم لو رأوهم بأصل الصورة، فما ذا يفيدهم إنذارهم بمن هم من غير جنسهم، و لهم العذر الحجة: اننا- أو- علنا لا نطيق ما يطيقون، فما نحن إذا بهم مقتدين، إذا فقولتهم هذه شي‏ء عجيب، لا أن جاءهم منذر منهم! و علّهم ازدادهم عجبا ان أنذرهم برجع بعيد!:

أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ؟ و ترى ان رجعنا بعد ما كنا ترابا لماذا هو بعيد و عماذا؟ .. عن عدله تعالى؟ و هو قضية عدله و فضله! أو عن قدرته؟

و هو أهون عليه من بدئه! أو عن العقل لأنه مستحيل؟ فما هو الدليل؟ أم عن علمه إذ تنتشر الأجزاء و تضل بعد ما تندثر، ضلالا في واقع الأكل و المأكول، أم في أكناف الأرض: «وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ»؟

(32: 10) و الخالق عليم حفيظ!:

قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ: صحيح ان الأرض تنقص منهم من أجزاءهم: ما تأكله الحيات و الديدان، و ما تمتصه عروق الأشجار من قوّات الأبدان، و ما تتآكله الحيوان، و ما تبدله الأرض ترابا أو أيا كان، و من أشخاصهم أم ماذا؟ و لكنها كلها بعلم اللّه: «قَدْ عَلِمْنا ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 269

تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ»: من أجسادهم- فقط- و الأرواح باقية كما هي! فهم- إذا- لا يذهبون ضياعا في أجسادهم، فالأصيلة من أجزائها- التي عاشتها حياتها أو حياة التكليف- ترجع يوم حشرها، و غيرها التي كانت من غيرها، ترجع إلى أصحابها، و الزائدة الفضولة التي لا دور لها ثوابا أو عقابا قد تنفصل عنها، و كل ما يجب حفظه في ميزان العدل و الفضل للحشر يحفظ: «وَ عِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ»:

كتاب التكوين الحفاظ عن أيّ ضياع، فلا تضل أجزاء الأبدان في بعض، كما و لا تضل في الأرض، و كما لا تفنى عن جواهرها، و إنما تتبدل ترابا و هي محفوظة في علم اللّه أينما حلت و ارتحلت أو تبدلت عناصر اخرى، فسيعيدها اللّه سيرتها الأولى‏ «1»، ثم لا فحسب انها محفوظة في علم اللّه، بل و عند ملك الموت أيضا- لمّا يتوفاهم- بإذن اللّه: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (32: 11) فالإنسان بجسمه و روحه محفوظ في كتاب حفيظ متوفى: مأخوذ بقبضة الموت وافيا دون انفلات، فمهما ضلت أجزاء- كالمسبقة أم ماذا؟ عن علومنا، و لكنها بعين اللّه و في علم اللّه: «ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» فأين البعد بعد، اللهم إلا بعدا في عقولهم: «بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ» (32: 10)! بعدا عن البعيدين عن عقولهم، المتحللين عن ضمائرهم، القريبين إلى شهواتهم و غاياتهم، فلا هنا إنذار بعيد و لا رجع بعيد:

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ‏: تكذيب دون أية حجة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هنا وجه آخر: هو الآخر ان قد علمنا ما تنقص الأرض- في نفسها- منهم: بسببهم- اي ان الاجزاء الارضية التي تصبح إنسانا هي معلومة لدينا، الا انه لا يمت بصلة للجواب عن مشكلة ضلال الأجزاء، اللهم الا تقدمة للوجه الاول: ان اللّه يعلم الاجزاء الناقصة عن الأرض التي تتحول اجزاء للإنسان- و هي محفوظة في كتاب حفيظ على طول الخط- فثم إذا نقصت الأرض من أبدانهم ما نقصت، فالأجزاء المنقوصة ايضا معلومة- و لا بأس بالجمع بين الوجهين و أما خصوص الثاني فلا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 270

أم ريبة، إلا هواجس و هوسات جهنمية! و انه لتكذيب جاهل معاند:

أن يكذب بالحق لما جاء، دون تأمل فيه، أو أية شائبة و ريبة تعتريه، و انما جحودا للحق لأنه يربطهم عن الحريات، و يقيدهم عن الشهوات، و الإيمان قيد الفتك، و ناكر الحق هكذا يعيش في أمر مريج: مختلف خليط رجيج، و قد توحي «في» انهم غائصون غارقون في يمّ متلاطم مائج مارج، إذ ضلوا في صراط الحياة عن الحق، إلا ما يحقق شهواتهم و كله باطل، تتقاذفه الأهواء، و تتأرجح حياته في هباء، إذ لا مستقر له إلا الهوى‏ «فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ»:

مختلط: حيث اختلط أمرهم في عقولهم إذ كذبوا بالحق، فلو أنهم شاكون فيه فليتبينوا و الحق بنفسه بينة، و يملك من صنوف البينات ما تحققه، فإن حققوه فلما ذا التكذيب؟ و إن احتاروا- و لن- فكذلك الأمر، إلا أن يقولوا:

نحن في شك حتى يأتينا البيان، و إن فاجئوا الحق و جابهوه بالتكذيب فأضل و أطغى! و من مريج أمرهم أنهم مختلفون في أنفسهم و مع بعض في تكذيب الحق: أفترى على اللّه كذبا أم به جنة، او هو ساحر أم كاهن أم مزدجر، أو أن كلامه سحر يؤثر أم ماذا؟ من تقوّل مريج في وجه الحق البهيج!.

و من ثم يمرج أمرهم في كافة شئون الحياة، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ، مخبّلين في تصرفاتهم، مارجين في كل حياتهم، لا يعيشون إلا مرجتها دون بهجتها مهما ادعوها: «وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏ ...» (20: 124).

و من هنا تأخذ الآيات دورها في تقريب الحق: إشارات إلى علمه تعالى و قدرته و حكمته، ثم تقريب للبعيد من رجع عندهم: أنه رجع قريب، و كما يشاهدونه حياتهم:

أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ‏؟

إلفات نظر عريق إلى علم اللّه و قدرته و حكمته، التي تسهّل خروج الموتى:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 271

«... كَذلِكَ الْخُرُوجُ»! فإنه بحاجة إلى علم: «ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ» و إلى القدرة على الإخراج كما بدأ.

و ترى التنديد هنا أهو بترك النظر الى السماء شهودا ل «كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها» لماذا لم يشهدوا كيفية خلق السماء و بناءها و تزيينها؟ و «ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ..» (18: 51) إذ خلقوا بعدهما فكيف يشهدون خلقهما! أم يشهدون شهود العلم بعدهما، و خلقهما من فعل اللّه، فلا يعلمه إلا اللّه، أو من ارتضاه من رسول! أم إن النظر هو الماكن لأي ذي بصر أن ينظر إلى السماء فوقه، من بعيد، أو من قريب بالصواريخ و السفن الجوية أم ماذا؟ و لكي يعرفوا- قدر النظر- كيفية بناء السماء و تزيينها و ما لها من فروج، دالة لأي مستدل على حكمة الخلاق العليم؟ و هو الحق الذي تندد فيه آية النظر بالأعمين الذين يبصرون و لا ينظرون، أو ينظرون و لا يعتبرون: «تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى‏ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ»!.

إن في السماء المبنية المزينة فوقهم‏ «وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ» سماء من اللفتات، الى صفحتها التكوينية الواسعة البارعة، في مثلث من بديع الخلق: «كَيْفَ بَنَيْناها- وَ زَيَّنَّاها- وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ»! فأما بناءها فهو السبع الشداد «وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً» (78: 12) «1» و «فوقهم» هنا، ك «فوقكم» هناك، إشارة كتصريحه الى كروية الأرض، فإنها لزام كون السماء فوق سكنة الأرض كلهم، ثم و لبناء السماء «فوقهم» زوايا شاسعة من حكمة التكوين تستحق مؤلفا ضخما فذا علّه يأتي بأطراف منها قليلة، من خلق دخانها و جعلها طباقا، و تزيينها بمصابيح أم ماذا؟ تلفت انظارنا هنا الى الزاوية الأخيرة: «و زيناها» و بقاءها على حالتها الرائعة رغم بليارات القنابل الفضّية التي لزامها فروج: «وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآية في ج 30 ص 25.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 272

فهناك تزيين لمتن السماء بلونها الجلاب و منظرها الغلّاب الخلّاب، و من ثم بمواليدها المصابيح، القناديل الفضية المعلقة فيها دون عمد ترونها: «رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» (13: 2) فثم عمد و لكن لا ترونها! و من البروج:

القصور، أم ماذا: «وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ» (85: 1) «1».

ثم‏ «وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ» و آية الفروج هذه كآية البروج، هي الوحيدة في القرآن التي تلفت انظارنا الى عدم الشقوق التي هي لزام المصابيح و البروج، فكل صفحة منها موتدة بأوتاد المصابيح، مرتفعة بالبروج، فما ترى لها من فروج، اللهم إلا صفحة السماء، و لأن مصابيحها و بروجها معلقة في أعماقها، مدعمة بعمد لا ترونها، ثم المتن الخالي عن مصابيح و بروج، كذلك: ما له من فروج.

و هذا استعراض للسماء في دنياها ان‏ «ما لَها مِنْ فُرُوجٍ» و لكنها في أخراها كلها شقوق و فروج: «وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ» (77: 9) فالسماء غير ذات الفروج تصبح وقتئذ من ذوات الفروج، و لحد كأنها كلها أبواب و فروج:

«وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً» (78: 19) «2». و إن كانت فروجها يوم تدميرها بحكمة، كما هي يوم تعميرها بحكمة، سبحان الخلاق العظيم! وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ‏ و إن لم ينظروا إلى السماء فوقهم فلا يعتبرون، فإلى الأرض التي عليها يعيشون، و النظر إليها لزام حياتهم، مدا لها، و إلقاء للرواسي فيها، و إنبات كل زوج بهيج: مثلث اللفتات الأرضية متوازية للسمائية حذوها:

فللأرض مدّان، مد التعمير كما هنا، و مد التدمير كما في الأخرى: «وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ. وَ أَلْقَتْ ما فِيها وَ تَخَلَّتْ» (84: 3) فبمد التدمير تتبدد، كما هي بمد التعمير تتمدد فتنبت فيها كل زوج بهيج و موزون، من كل الثمرات:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع آية البروج ج 30 ص 256.

(2) راجع سورة الانشقاق ج 30 ص 236 و الانفطار 30: 184 و التكوير 30: 154

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 273

«وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ مَوْزُونٍ. وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ» (15: 20) «وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَ أَنْهاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى‏ بِماءٍ واحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى‏ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ..» (13: 5).

إن مد الأرض فإلقاء الرواسي و إنبات النبات، توحي أنها كانت منقبضة غير ممدودة، بلا رواسي و لا نبات فلا حياة، شموسا لا تذل لراكب، مضطربة الحراك، حيث الرواسي الشامخات تمسكها عن الميدان‏ «وَ أَلْقى‏ فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ..» (16: 15) فهنا رواسي ملقاة، و هناك أخرى مجعولات:

«وَ جَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ» (21: 31) «1» و هما الجبال الموتدة على الأرض من الأعماق، الشاهقة إلى السماء، و علّ الجعل و النصب أعم من الإلقاء «2» حيث يشمل ما خلقت من الأمواج التي برزت على سطح الأرض نتيجة الحركات و الاصطدامات بالجو البارد، و قانون الفرار عن المركز، ثم الإلقاء يخص التي انبثقت من تفجرات البراكين، و التي سقطت من نجوم في السماء، و لعل الإلقاء هنا يخص ما هو نتيجة المد الضغط فتفجرت براكين، فأصبحت من عليها راسيات ملقاة من جوفها، أو ما يعم الملقاة من الأمواج سطح الأرضية، إذ كانت شموسة محترقة، أو يعمها و التي سقطت من نجوم السماء، أم ماذا؟

ثم لإلقاء الرواسي- أيا كانت- دورها الهام في إنبات كل زوج بهيج‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 30 ص 90 و 300.

(2) حيث التعبير في مختلف الآيات يختلف بالجعل و النصب و الإلقاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 274

موزون، فإنها لا تكون إلا ببرودة الأرض، و إلا فلا جبال و لا سواه إلا مذابا مايعا في الأرض الشّموس! و إذ لا جبال رواسي فلا ذلّ للأرض عن الشماس، و من ثم: بعد الذل بالجبال الرواسي يأتي دور تكوّن و ظهور المياه عن الأبخرة و نزولها من السماء، و لو لا الجبال التي تكنّ الثلوج فتذخر في أعراقها المياه، لما سبل السبيل لإنبات النبات، سبحان الخلاق العظيم!.

و علّ‏ «كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» يشمل كافة الأحياء الأرضية من نبات و حيوان و إنسان: «وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً» (71: 17) بل و بهجة نبات الإنسان أبهج من نبات سائر النابتات و الحيوان، و لأنه لا تخصها:

تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى‏ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ‏: بل و إنهما في الآيات الأنفسية أقرب و أحرى من الآفاقية، فكل عبد منيب إلى ربه يتبصر بهذه الآيات و يتذكر، كما المعرض عن ربه المنيب إلى هواه يتعامى عنها فيتعثر.

إنها، لو أبصرت بها بصّرتك، و لو أبصرت إليها أعمتك، و المنيب هو الذي لا يبصر إليها و إنما يبصر بها، يجعلها ذريعة يتذرع بها إلى الحق المرام، دون المناهج (العلمية!) التي لا تنحو في مدها و جذرها إلا الحياة الحيوانية، في معرفة زائفة زائغة عقيمة غير عميقة، لا تتخطى النظر في الكون الى معرفة خالق الكون!.

هذا هو المنهج العلمي، الماكن الساكن في أدمغة جامدة مطموسة رانت عليها أصالة المادة و الحياة الحيوانية، و أما المنهج الايماني الصحيح فهو يزيد الناهج معرفة بارتباطات الكائنات، ثم ربطها كلها بخالق الكائنات، فلا وقفة له عن الحراك، و لا عثرة له في حراك، فإنه دائب الكدح في هذه السبيل، ذاهب إلى ربه فملاقيه: «أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى‏ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ» (84: 6)!.

وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ. وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ. رِزْقاً لِلْعِبادِ وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ‏!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 275

إن مياه الأرض كلها من السماء، استقبلتها حينما ذلت بعد شماس، فاستعدت لقبول الحياة و الأحياء: «وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها» (16: 65) «وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلى‏ ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ» (23: 18) و هذا الماء النازل من السماء مبارك، و طهور:

«وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً» (25: 48) مبارك تنبت به «جنات و حب الحصيد. و النخل باسقات: (إ) لها طلع نضيد: (أول ما يطلع منسقا بعضه على بعض) رزقا للعباد و أحيينا به بلدة ميتا (فإنه حياة كل حي:

«وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْ‏ءٍ حَيٍّ» (21: 30)- كذلك الخروج»! فكما هناك خروج لأرزاقكم الميتة إلى الحياة، كذلك هنا خروج للمرزوقين إلى الحياة ليوفّى لهم ما كتب لهم.

و كما نبات كل شي‏ء ميت هو بالماء، رزقا للعباد في حياتهم الدنيا، كذلك خروج الموتى من أجداثهم أحياء، بنفس القدرة و العلم و الحكمة، و الخلق الثاني مثل الأول، دون عيّ فيه بالخلق الأول، و مشاهد إحياء الميتات النباتية رزقا للعباد تشهد- و أحرى- لإحياء الميتات الإنسانية رزقا لهم أنفسهم بما قدموا جزاء وفاقا، أو عطاء حسابا.

أ فمن يحيي هذه النباتات رزقا للعباد في حياة قصيرة هزيلة دنيا، عاجز أو بخيل أن يحيي هؤلاء العباد ليرزقهم في حياة طويلة عليا، كلا! و إنه أحق و أحرى.

فما الطفه و أعطفه دليلا نعيشه طول الحياة، و ما أغفله من يعيش الدليل و يتغافل عن المدلول، و ليس هؤلاء- فقط- هم المكذبون بالبعث و النشور، بل و:

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ. وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوانُ لُوطٍ. وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 276

.. أقوام ثمان من أنحس المكذبين في التاريخ الرسالي و أشرسهم، فالرسالة واحدة، و الكفر أيضا ملة واحدة، مهما اختلفت شواكله، فلا تغتم بما كذبوك، و لا تهتم بما عذبوك، فالسبيل إلى اللّه شائك ملي‏ء بالدماء، مفروش بالأشلاء، فعليك أن تخوض المعارك بكل صبر و صمود، حتى تخلص إلى المقصود.

و إنها لفتة سريعة دون تفصيل، إيقاعا على القلوب بمصارع الغابرين الغادرين- إذ «كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ» و ترى كل من هؤلاء الثمان كذب كلّ الرسل، و كما توحي به «كل»؟ و لم يكذب إلا رسالة واحدة أو رسالات، دون كل الرسالات!.

أجل- و لأن رسالة واحدة نموذج عن كافة الرسالات، تضرب بجذورها في أعماق الزمن الرسالى، فالرسل إخوة في الدعوة و المدعو له، فمن يكذب برسالة واحدة، فهو مكذب بسائر الرسالات جاهلا أو متجاهلا: «وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ» (25: 37) و ما كذبوا إلا نوحا إذ لم يكن معهم غيره! «وَ تِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ» (11: 59) و إنما هم قوم هود! كما و «كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ» و ما هو إلا صالح! و «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ» و علّه- فقط- لوط- أو و إبراهيم (ع) و «كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ» (26: 123- 176).

و المجهولون هنا منهم هم أصحاب الرس و الأيكة و قوم تبع، و هم معروفون في مواردها من آياتها «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فأصحاب الأيكة و هم قوم شعيب يأتي ذكرهم في سورة الحجر و الشعراء و ص و قوم تبع في الدخان و أصحاب الرس في الفرقان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 277

[سورة ق (50): الآيات 15 الى 38]

أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (17) ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) وَ جاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19)

وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) وَ قالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24)

مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ (26) قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَ لكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (27) قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَ ما أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (29)

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30) وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَ جاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34)

لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ (35) وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36) إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى‏ لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (37) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ (38)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 278

أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ذلك خلق أول، من بناء السماء و تزيينها، و مدّ الأرض و إلقاء الرواسي فيها، و إنزال ماء السماء و إنبات النباتات رزقا للعباد، أ فلا يدل ذلك على امكانية الخلق الثاني يوم المعاد الميعاد؟ بلى و هو أهون عليه: «وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» (30: 27) أهون في منظر قدراتنا لا قدرة اللّه، إذ لا نهاية لها و لا عي فيها، أم تقولون «عيينا» عجزنا «ب» سبب «الخلق الأول» لعظمته و عبأه، فلا نقدر على الخلق الثاني و إن كان أهون علينا؟ و الفصل الشاسع بين الخلقين يزيل العي لو كان! ثم و لا عيّ أيا كان، فلا قصور و لا تقصير من الخلاق العليم‏ «بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ» غارقون «في لبس» و ارتياب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 279

«مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ» هو إعادة القديم مادة، و تلبيسه بلباس جديد صورة، و في نشأة جديدة سيرة، فهو إذا إعادة أكثر مما هو تجديد «يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» إذ يجدد ما يلي من أجزاء البدن المعاد، ثم يعيد فيه الروح للمعاد، «بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ»: «أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» (13: 5) «وَ قالُوا: أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً. قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» (17: 51) انهم عائشون دهرهم في التباس، مائعون تائهون دوما في ارتكاس، ثم و يوم المعاد لات حين مناص، و اللّه يعلم ما تكن صدوركم من وسواس:

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إن مصطنعي الآلات أدرى من سواهم بأسرارها و خباياها، رغم أنهم لم يصنعوا موادها، و إنما اصطنعوا منها صورها، فما ترى إذا لخالقها؟ الذي خلق موادها و صورها: «أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»؟:

«وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ» فيما خلقناه «و» نحن «نعلم» منه كل سر و علانية، و منه‏ «ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ» حيث نفسه من خلقنا، فإذا هو عارف بوسواس نفسه و ليس بخالقها، فما ذا تظن إذا بخالقها؟ إنه أقرب إليه منه نفسه!:

«وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ» قدرة و علما «مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ»: الذي يجري فيه دم الحياة!.

فحبل الوريد هو العرق الذي يسمى حبل العاتق، و ريدان عن يمين العنق و شماله، فاللّه يعلم غيب الإنسان و وسواس إضماره، و نجى أسراره، و أقرب منه و أكثر، فالعالم بخفايا قلب الإنسان أقرب إليه من عروق حياته قرب العلم و الإحاطة، و ليس قرب المسافة و المساحة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 280

فلا أقرب إلى الإنسان من خالقه، قرب القيومية العلمية و في القدرة، مهما بعدت ذاته عن ذاته و صفاته عن صفاته- إذ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ فهو- إذا- قريب إلينا في بعده، و بعيد في قربه، داخل في الأشياء لا بالممازجة، كدخول شيّ في شي‏ء، و خارج عن الأشياء لا بمزايلة و مجانبة، كخروج شيّ عن شي‏ء، بل هو داخل علما و قدرة، خارج ذاتا و صفات، باين الأشياء بينونة ذات و صفة، لا بينونة عزلة! نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ‏: إلى روحه و جسمه، إلى عقله و نفسه، إلى وسواسه و هواجسه بأسبابها، و اليه كله‏ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ:

وريد الحياة، و لكونه أقرب‏ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ (8: 24) فهو أقرب اليه من قلبه، و هو يعلم منه أخفاه، و لا يعلم الإنسان إلا سره لا أخفاه:

فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى‏ (20: 7) فالسر ما يكنه من خابية، و أخفى منه ما لم يكنه بعد، ما سوف يكنه و لا يعلم قبل!.

إن الوسوسة: الخطرة الرديئة- و أصلها صوت الحلي و الهمس الخفي- هي أخفى صنوف العلم: الخطرة النفسانية الخفية، و منها الوسوسة في المعاد، فاللّه الخالق يعلم نشأة الوسواس كلها ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ‏ فالنفس توسوس نفسها و توسوس العقل بأسباب و آلات، قد تجهل هي تلكم الأسباب، و لكن اللّه يعلمها بمواليدها، فلم يقل (و يعلم وسوساتها) و إنما ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ‏ إيحاء بعلمه بكلا السبب و المسبب، فان الباء هنا للآلة او السبب: ما توسوس بسبب نفسه.

و لقد وسوست انفس هؤلاء الناكرين عقولهم المعقولة بالهوى، و قلوبهم المقلوبة عن الهدى، وسوست في أمر المعاد أم ماذا؟ و ترى بماذا؟ بالوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة و الناس، فما لم يكن قبول من النفس، لم تحصل وسوسة، أو لم تؤثر اثرها، فالشيطنات بأنواعها هي آلات يتذرعها النفس لحصول الوسوسات و مفعولاتها، و اللّه يعلمها بأسبابها: «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ»! ان هناك في جسم الإنسان حبالا شتى تنقل الدم إلى شتى أجزاءه و أعضاءه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 281

و هي كلها تتصل بحبل الوريد: الحبل الأم الكائن في الحلقوم، فإذا قطع انقطعت الحياة، إذا فهو أقرب شي‏ء إلى حياة الإنسان، و لكن اللّه الخالق للحبل الوريد و الإنسان، هو أقرب اليه من حبل الوريد، من نفسه، من حياته، من كيانه كله-: اليه‏ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ:

و ترى ان «إذ» هنا ظرف ل «نَحْنُ أَقْرَبُ ..»؟ و المتلقيان هما الملكان الحفيظان على الأعمال بأمر اللّه، فكيف يكون تلقيهما ظرفا لا قريبة اللّه؟ ثم و لا ظرف لها خاصا، فانها لزام ربوبيته و مربوبيتهم، دون اختصاص لها بحال! ام ان تلقيهما يعلل اقربيته ب «إذ» على التعليل؟ و اللّه اجل و أعلى ان يعلل اقربيته إلى خلقه، بمن يؤمّره لتلقي الأعمال من خلقه؛ و ليس التلقي أيضا دليلا على أقربيته! ام إنها ظرف ل «اذكر» و أمثالها، و لزامه ذكر الواو قبل اذكر، و كما في أضرابه! و إن تقديره يخص ما لم يكن هناك مظروف آخر مذكور.

أقول: علّها ظرف لما سيقت لها الآيات من ذكرى الناكرين عن غفلتهم:

«لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا ...»: يقال لهم هذا عند نفخ الصور بعد ما تلقى المتلقيان ام ماذا.

و ترى من هما المتلقيان؟ و ماذا يتلقيان؟ و كيف؟

.. إنهما من الحافظين علينا، الكرام الكاتبين حفظ الأعمال عن الضياع:

«وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ. كِراماً كاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ» (82: 11) و ما حفظهم للأعمال و الأقوال ام ماذا، إلا تلقّيهم إياها أنفسها: أصوات الأقوال و صور الأعمال، شاهدين لها في الدنيا و عليها في الأخرى، و ليست كتابة الأعمال تلقيا لها، و لا ان فيها حجة على عامليها، و انما هي هي أنفسها بحيث انهم سوف يرونها كما ألقوها و تلقاها حفظتها: «يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ» (99: 6).

هذا! و لكننا لسنا في تلك العجالة التي تقصر تلقي الأعمال بأمثال الأشرطة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 282

المسجلة لكل كلمة أو حركة أو نبرة، فانها هزيلة داثرة، و ان كانت هي تقرب لنا تصورا اكثر و تصديقا أوفر بانعكاس الأعمال، فتمثّلها يوم تقوم الإشهاد، فلنكن في يقظة دائبة، و حذرة دائمة عما يسجل علينا الحفظة بأمر اللّه، في سجلات أعضاءنا و الأرض بجوها و مادتها أم ماذا؟ واقعة رهيبة تحذّرنا فتحضرنا ليوم الطامة الواقعة!.

و انهما «الملتقيان. عن اليمين» قعيد «وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ»: كل مرتكن في ركنه، قاعد في مقعده من الإنسان، قعد او مشى او قام، فعلّ القعود هنا ايحاء إلى أنهما لا يقومان عن الإنسان، فهما لزامه أيّا و أينما كان، و كما ان لكلّ طائرا في عنقه لزام: «وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً. اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى‏ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» (17: 14) كما و ان أرضه وجوّها يلزمانه فلا يفلتان، و هما من مسجلي أعماله و أقواله:

«يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‏ لَها» (99: 5) فيا لها من شهود رقباء، هم شهوده هنا و هناك بأمر اللّه لا يقصرون، فأنى تؤفكون و تصرفون؟!.

و ترى اليمين و الشمال هما الجهتان، فلا حفيظ من بين يديه و من خلفه، أو من فوقه و تحته؟ و «لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» (13: 11)! ثم و مجرد حضور الشهود كاف في تلقي الأعمال دون حاجة إلى جهات! إذا فما هما من الجهات و كما هنا، و انما جانب الخير لقعيد اليمين و جانب الشر لقعيد الشمال، كما العقبات تعقبه فيما تعقب من بين يديه: الجانب المستقبل دنيا من الحال- و عقبى، و من خلقه: دنيا الماضي إلى الحال، من خير لقعيد اليمين، و من شر لقعيد الشمال، فهما لديه دون اختصاص بجانب أو حال:

ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ:

«ما يلفظ» اللّافظ «من قول» حسن أو سي‏ء «إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ»: يراقب حافظا و هو «عتيد»: معد للزوم الأمر، فالرقابة هنا هي شهادة تلقي الأعمال،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 283

و العتاد شهادة إلقاءها يوم يقوم الأشهاد.

فليس الرقيب العتيد- فقط- الملكان، أو أن قعيدا منهما رقيب و الآخر عتيد، حيث النص‏ «رَقِيبٌ عَتِيدٌ» لا «رقيب و عتيد» إذا فكل منهما رقيب عتيد: كما هو يتلقى الأعمال في الأولى، كذلك يلقيها في الأخرى، كما اللّه رقيب عتيد كأوّل و آخر و أفضل رقيب عتيد: «إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً» (4: 1) «وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ» (11: 93) كما و أنبياء اللّه رقباء شهداء: «.. وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» (6: 117) كذلك و الأرض بأجواءها، و الإنسان بأعضائه، كل رقب عتيد، رقباء، عتداء أربع، هي‏ «مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ»: صادرين في حفاظهم من أمر اللّه، و هو رقيب الرقباء و عتيد العتداء.

إذا «رَقِيبٌ عَتِيدٌ» يشمل كل شهيد على الأعمال من اللّه و خلقه، رقابة:

شهادة التلقي، و عتادة: شهادة الإلقاء، للأعمال و الأقوال أم ماذا؟ إيحاء إلى كمال العدل في الشهادة: أن المتلقي هو الملقي بعلم و عدل، فالشاهد الذي يلقي الشهادة دون تلق، أو يتلقاها دون إلقاء، ليست شهادته شهادة، و هي مردودة دون هوادة! فمن يفسر «رقيب» بأحد المتلقيين و «عتيد» بالآخر، فقد أتى بتفسير عجيب، خارج عن أدب اللفظ، حيث لا عطف: يثني ك «او»، و عن أدب المعنى، فكهذا تلق لا يغني، ثم و لا معنى أن يتلقى قعيد الخير ثم يلقيه قعيد الشر، أو يتلقى قعيد الشر ثم يلقيه قعيد الخير: مثلث الانحراف عن التفسير الحق! ثم و: «ما يلفظ» هنا كنموذج ساذج عن الأفعال، لا أنه- فقط- المراقب عليه المعاتد، فإذ لا تضل لفظة قول، فكيف تضل أية فعل، فلا لفظة و لا لحظة و لا فعلة بل و لا نية تضل عن رقيب عتيد.

و هكذا يعيش المكلف في رقابة شديدة عتيدة حتى ينقضي عالم التكليف:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 284

وَ جاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ:

إن واقعة الموت راحة للمؤمنين، و سكرة و زعجة للفاسقين، الذين عاشوا حياتهم سكرات: «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» (15: 72) سكرة فردية لفرادى الأموات، و جماعية للجماعات كما في النفح الأول: «وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى‏ وَ ما هُمْ بِسُكارى‏ وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» (22: 2).

و ترى كيف يصبح الموت للغافلين سكرة و هو قفزة إلى حياة أخرى؟ إنه سكرة لانشغال سكراته بنفسه عما سواه، في رجفة مفاجئة فاجعة تدب في الأوصال، تفصله عن حياة انيسة بين شغل و أهل و مال، إلى حياة بئيسة تعيسة في أهوال و أوحال، فهل هناك صيغة أدل من «سكرة» على هذه الحال؟!.

«وَ لَوْ تَرى‏ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ» (6: 93) غمرات في سكرات!:

الكروب التي تتغشى المحتضر عند الموت فيفقد تمييزه، و يفارق معه معقوله و كأنه سكران الخمر! إلا أن هذه منعمة منعشة و تلك مؤلمة موحشة!.

و إنها «جاءت» دون حاجة لأن تجيئها أنت، فإنك في الموت محتار لا مختار، و حتى الموت الذي أنت تختار، فاللّه هو المميت لا أنت، مهما قدمت نفسك لأسبابه، و لست بمقدمها- «ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ»! و إنها «سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ»: بسبب القضاء الحق فإنه من قضاء اللّه، و بارادة الحق، فإنه من فعل اللّه، و هي تصاحب إرادة الحق: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا ..» و من ثم الجزاء الحق في رحاب الحق! «1»! و «ذلك»: البعيد عن رغبتك، الشديد في رحلتك «ما كنت» طول حياتك الميتة «منه»- فقط- لا سواه‏ «2» «تحيد» حيد الفرار.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فالباء في «بالحق» لكلا السببية و المصاحبة- ثم الأولى أعم من العلة الموجدة و العلة الغائية- فان الغاية من الموت ايضا حق: تأمل.

(2) يستفاد الحصر من تقديم الظرف «منه» على فعله «تحيد».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 285

فلا يحيد الحائد عن الحق إلا عن الموت و بواعثه، لأنه ختام شهواته، أو بداية عقوباته، و أما المؤمن، فالموت أنسه، و هذه الحياة وحشته، و على حد قول الإمام علي عليه السلام: «و الله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه» فإنه يأنس بالموت أنسه بالحياة، حيث بعده حياة انيسة رفيقة إذ ينتقل إلى الرفيق الأعلى.

ثم و من سكرة الموت و رحلته، إلى رحلة الحشر و هولته:

وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ علّها هي النفخة الثانية الإحياء، أم هي و الأولى الإماتة، و قد يعبر عن نفخة الإحياء بنقر الناقور: «فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ..» (74: 8) فالصور بوق لا كالأبواق، كما و نفختها لا تشبه النفخات‏ «1» فإنها صيحة الحق و الصيحة بالحق في نداء من مكان قريب، كما و تأتي من قريب:

«وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ. يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ» (5: 42) «ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ»: وعيد العذاب على الكافرين، كما هو وعد الثواب للمؤمنين.

وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ: إنه لا بد لكل نفس هناك من سائق و شهيد، إلا من هو شهيد على كل نفس، سائق يسوقها إلى محشرها، و شاهد يشهد عليها بعملها، فإما إلى جنة أو إلى نار: «وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً ..» (39: 71) «وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى‏ جَهَنَّمَ زُمَراً ..»

(70). و أيا كان‏ «إِلى‏ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ» (75: 30) سوقا إلى جزاءه العدل أو الفضل بربوبيته، إلا أن آية «كُلُّ نَفْسٍ» سيقت لأهل النار.

و ليس الشهيد إلا عند سوقهم فرادى، للشهادة و الحكم‏ «وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ ..» و من ثم السائق و لا شهيد في سوقهم الجماعي زمرا: «و سيق ..

و سيق .. زمرا».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع سورة النبأ ج 30 ص 34.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 286

هنا سائق واحد يسوق للمحاكمة عند الواحد الجبار، فهل الشهيد أيضا واحد و هناك شهود من شاهديه القعيدين، و من نبيّه .. و من أرضه و فضاءها! علّها تعني هنا شاهد الشمال، لأنها تعني أصحاب الشمال، فليس لهم يمين حتى يشهد لهم قعيد اليمين أو شاهد اليمين، فليس لأصحاب اليمين شمال حتى يشهد عليهم قعيد الشمال.

أو أن «شهيد» هنا تعني جنس الشهيد، الشامل لسائر الشهداء، كما يشمل قعيدي المتوسطين بين أصحاب الشمال و أصحاب اليمين، فكل يتلقى ما يلقى من صالح و طالح.

ترى و بعد لقيا الشهادة لأصحاب الشمال، ماذا يرون، و ماذا يسمعون؟

إنها كلمة النبهة القارعة:

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ آية فريدة غرة، تنبه الغافلين الشاردين الذين هم كانوا في غرة، فما هو «هذا» الذي كانوا منه في غفلة، فكشف اللّه عنهم يومذاك غطاء الغفلة؟.

في الحياة الدنيا أغطية تغفل الإنسان عن الآخرة، و عن ملكوت أعماله و حقائقها، و عن شهادات الشهود الذين يتلقون تلك الأعمال، فطوع الهوى، و الإعراض عن الهدى تغطي عنهم و تغطيهم عن الحقائق الغيب، الواقعة يوم الدنيا، الظاهرة لمن ابصر بها، الخفية لمن أبصر إليها: «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7).

ان مثلث الغطاء في الحياة الدنيا، ليس إلا عن الواقع فيها، و إلا فلا غفلة و لا غطاء عن غير الواقع فيها، مهما وقع بعدها، فليكن واقعا فيها حتى تصدق الغطاء، و ترى الواقعة الآخرة واقعة في الدنيا، حتى تصدق فيها الغطاء و الغفلة عنها؟ حقا إنها واقعة بإحياء الموتى فيها فتصبح أحياء ترى كما مضى: «وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ»: واقعة بآياتها الشواهد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 287

و أما شهادات الشهود يوم الدنيا و إلقاءها في الاخرى، فهي من الغيب، و المتقون يؤمنون بالغيب، فيؤمنون بأخبار الغيب، و هناك الشاشات التلفزيونية و سائر المصورات و مسجلات الأصوات، هي شهود صدق تصدق الشهود الإلهية و أحرى.

و هناك حقائق الأعمال كائنة ظاهرة للبصائر، مهما خفيت عن الأبصار، بصائر مشرقة نافذة حديدة بنور اليقين، تدرك ما اخبر به اللّه: «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى‏ ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً» نار لا ترى هنا إلا بنور، ثم يراه هناك من لم يجعل اللّه له من نور.

ان المهم هنا ألا يصبح الإنسان غافلا عن الاخرى و شهودها، و حقيقة الأعمال المشهود بها، فلا يكون في غطاء الغفلة عن «هذا» المثلث؛ لا سيما الزاوية «الاخرى» ك «الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَ كانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً» (18: 101) ذلك! و إن لم يكونوا في غطاء الكفر و التكذيب و النكران، فما فائدة التصديق علما ما لم تعتقد؟ أو العقيدة ما لم تتذكر، و إن كان مصب آية الغطاء غطاء النكران.

و كما الغطاء دركات أسفلها الجحود، كذلك الكشف درجات أعلاها الشهود، و لحد:

«لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا»

كما عن علي أمير المؤمنين (ع)! فهناك في الاخرى تكشف أغطية الكفر، فالكافر يرى الحق كما المؤمن، فتزول عنه اعتراضات الشكوك، و مشبهات الأمور، فيصدق بما كذب، و يقر بما جحد، و يصبح كأنه نفّذ بصره بعد وقوف، و أحدّه بعد كلال، و لكنها له حسرة و نكسة، و للمؤمن جرة و رحمة، كشف يشمل أهل الحشر أجمع إلا من لم تكن له أية غطاء:

و تكشف أغطية حق اليقين و عين اليقين، لمن كان في غطاء عنهما، و علم اليقين لمن كان في شك، فلا تبقى أية غطاء، إلا غطاء ذات اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 288

إن الأبصار البصائر هنا عليه كليله إلا من هدى اللّه فهي لهم نافذة حديدة ترى الحقائق الغيب، و من ثم في الأخرى تصبح الأبصار كلها حديدة نافذة، لا تخفى عنها خافية «فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» و لكنما المؤمن يحشر ببصر حديد فلا جديد! و مهما جدّد له بصر فهو أنفذ و أقوى، رحمة له، إلا أن حديد الكافر في الأخرى له عذاب شديد! إذ كان عنها أعمى، مهما يحشر أعمى: «مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» (20: 124):

أعمى البصر و حديد البصيرة.

فالغطاء المكشوف هنا هي عن البصيرة لا البصر، كيف و هو فيه أعمى؟.

إن هناك غطاء عام، ليس للإنسان في تحصيله سبيل، و لا هو مكلف في كشفه كسائر التكليف، هي غطاء الحياة الدنيوية، مهما كان الإنسان مؤمنا صالحا إلا من أخلصه اللّه، و هي غطاء عن الذكر و المعرفة التامة، و عن رؤية الحقائق كما هي، فهي تكشف بالموت شيئا ما، ثم تكشف في الآخرة تماما، فتصبح الحقائق له مكشوفة الحجب اللهم إلا حجاب الذات الألوهية.

و من ثم أغطية خاصة من كفر و نكران نتيجة التكذيب و العصيان و هي أسفل دركاتها، كما آية الغطاء تعنيها، و من غفلة و نسيان فعصيان على دركاتها، و هي سوى الأسفل، و الكل تكشف يوم يكشف عن ساق فيدعون إلى السجود فلا يستطيعون.

فكشف الغطاء للمؤمن نور و بهاء، و بشرى و جلاء، و لغير المؤمن نذارة و حسرة فابتلاء، فأين كشف على كشف؟ و أين غطاء من غطاء؟.

وَ قالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ: هو قرينه الشهيد القعيد عن شماله إذ لم يكن له يمين، دون سائقه إذ ما هو له قرين، و لا شيطانه إذ هو يلقى معه في النار، فكيف يؤمر أن يلقيه في النار، و هو العتيد: «ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ»: فعقيد الشمال رقيب عتيد كما رقيب اليمين رقيب عتيد،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 289

فقرين الشمال يقول يوم الحشر المحاكمة: «هذا» الذي أشهد به من طالحات‏ «ما لَدَيَّ عَتِيدٌ» حاضر مهيأ، دون حاجة إلى إحضار و اعتاد: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ..» (3: 30).

و من ثم يصدر أمر الجبار بإلقاء المجرمين في النار، جهنم يصلونها و بئس القرار:

أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ. مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ‏: و ترى من هما الملقيان هنا؟ أ هما الشاهدان؟ و لا شغل هنا لشاهد اليمين! أم هما ملكان من زبانية النار؟ و لا شاهد له و لا سابقة ذكر! أم شاهدان من غير الملائكة من نبي و ولي؟ فكذلك الأمر! أم هما قعيد اليسار: السائق و الشهيد،: «وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ» علهما هما، حيث الصيغة اللفظية، و الصياغة المعنوية، تؤيدانه، و قد يكون السائق هو شاهد اليمين و إن لم يكن له يمين، كشاهد عدل لسلب اليمين، ثم يؤمر هو و شاهد اليسار: «ألقيا ...»! أو أن السائق مؤمر للسوق غير شهيد.

و لأن الشهيد- في وجهة عامة- تشمل كل شهيد، فأحرى أن يكون الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شهيدا و من يحذو حذوه، إذا كان الملك الذين دونهم شهداء، فليشمل «شهيد»- هنا- رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من ينحو منحاه، و أما أعضاءه الشهود، و فضاءه الشهيد، فهما له حاضر عتيد، لا حاجة إلى مجيئهما، و الأعضاء بأصحابها تلقى في العذاب الشديد و لا تلقي، فإنما دور الشهادة ثم الإلقاء في النار لشهيد ملائكي و بشري.

«أَلْقِيا .. كُلَّ كَفَّارٍ». كثير الكفر و الكفران «عنيد» كأنما العناد لزامه، فلا حق إلا و هو له عنيد «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ»: معنويا في هدي الناس، و ماديا في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 290

إمدادهم بمال أم ماذا؟ «معتد»: على اللّه، إذ جعل معه إلها آخر، و على خلق اللّه، إذ هو بعد منعهم الخير يوجه لهم كل شر «مريب» بأقواله و أعماله، يجعل الغافلين حيارى فضلّالا، يسلك بهم غيا و ضلالا.

الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ: فأم البلاء و الضلالة لكل كفار عنيد هو الشرك باللّه، الذي يخلف ثالوث: «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ. مُعْتَدٍ. مُرِيبٍ».

قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَ لكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ، قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ و هنا الكفار العنيد يتهم قرينا له أطغاه:

حمله على الطغوى، و منعه عن التقوى، و طبعا ليس هو قرينه الأول القعيد عن يساره الشهيد، فإنه شهيد عدل كريم و من عمال رب العالمين، يؤمر بإلقاء الشهادة، ثم و بمن معه من سائق، بإلقاء المشهود عليه في النار، إذا فقرينه الثاني شيطان يقابل قرينه الأول: «وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ. حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ» (43: 39): من شياطين الجن و الإنس: «قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ. يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ. أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ. قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ. فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ» (37: 55) فهذا القرين يقرنه بعد يوم الدنيا في يوم الدين:

إنه يدافع عن نفسه و يدفع تهمة الإطغاء: «رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَ لكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ» و لقد صدق الكاذب هنا بعض الصدق، أن عملية الإطغاء ليست منه فقط، فلو لم يجد المضلل ظرفا صالحا للتضليل لم يحصل ضلال، فالضلال البعيد عن الهدى ظرف صالح للمزيد، و ليس لأصل الضلال!: «وَ قالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 291

مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (14: 22).

«ما أَطْغَيْتُهُ» تعني: ما حملته على الطغوى إلزاما و تسييرا، و إنما دعوته إليها تزيينا و تخييرا، فهما إذا يختصمان، فيرد أمر الجبار: «لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ» إذ لا يجوز الخصام عند الملك العلام- حال: «وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ»:

للمضلين ألا يضلوا، و للمضلين ألا يستضلوا، فإذ أضل أولاء و ضل هؤلاء فهما في العذاب مشتركان: «وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ. فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ. فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ. فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ» (37: 33).

ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَ ما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ و القول هنا يعني- فيما يعني-:

كلمة العذاب: «وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ».

إن تبدّل قول العذاب من اللّه- أيا كان- هو كثير، فإن العبيد كثير، و اللّه هو العلي العلام الكبير، فاليسير منه كثير، ان ظلما و ليس منه، أو عدلا و فضلا و هما منه، فلا يعني- إذا- نفي الظلم الكثير «وَ ما أَنَا بِظَلَّامٍ» هنا- إثبات اليسير.

فلو لم يقدم اللّه قولا بالوعيد ثم عذب، كان فيه ظلم كثير، فإنه إغراء بالجهل، فأخذ على غرة و جهالة! و لو لم يعذب بعد ما لا يقدم فهو ظلم كثير، بالنسبة للعبيد الذين عاشوا التقوى بحرمان شهوات الهوى، فالتسوية بين الأبرار و الفجار ظلم كثير! و لو قدم قول الوعيد العدل ثم خالفه إلى مزيد فهو ظلم كثير! أم لو عذب الضالين دون المضلين، أو المضلين دون الضالين فهو ظلم كثير! أم لو خالف قول الوعيد العدل إلى الجزاء غير الوفاق- أيا كان- فإنه ظلم كثير: «وَ ما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» لا في تقديم القول بالوعيد، و لا في تحقيق الوعيد، فهو قول عدل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 292

و وعيد عدل، دونما ظلم لا كثير و لا يسير!.

و من القول المقدم بالوعيد: «فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» (38: 85) فما يبدل هذا القول لدى اللّه، فإنه يدخل كثيرا من الجن و الإنس في الجحيم، فما نصيب الجنة إلا قليل: «وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ» (7: 179) فالجحيم تملأ بهذا الكثير ثم تقول:

«هَلْ مِنْ مَزِيدٍ»؟:

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ: حوار تحير العقول، تمثل لنا تحقيق حق الوعيد، لحدّ كأن جهنم تتحدث بما تكدس من أجساد المجرمين فوق بعضهم ركاما، و يا له من مشهد رهيب! فليس ملؤ جهنم أن يجتمع فيها أهلوها ماشين أو جالسين و قائمين أو نائمين، و إنما «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» حتى تكدسهم على بعض و تركمهم مع بعض بما يركم اللّه:

«وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى‏ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ.» (8: 37).

فهم- إذا- ركام في النار، في دركاتها كلها، ليس لهم في سجن الجحيم مجال التجوال، و لا أي مجال، فإنها لا تزال‏ «تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ»؟ و ما مزيد الملي‏ء إلا ركاما هو الملؤ الأكثر، فهنا التجاوب بين آيات الملي‏ء و آية المزيد، إذ تفسرهما آيات الركام!.

و من ثم نرى هناك على الضفة الأخرى جنة مزدلفة لأهلها المزدلفين إليها غير بعيد:

وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ: و قرّبت الجنة للمتقين حال انها غير بعيد، فهي على قربها لهم تزلف لهم تقريب التكريم التعظيم، كيلا يتكلفوا طي مسافة إليها على قربها، إذ تكلفوها يوم الدنيا فاقتربوا إليها بما يقربهم إلى اللّه زلفى.

هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ: وعد حنون لكل إثم الأوبة:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 293

الرجوع الى اللّه، دائب التوبة عن معاصي اللّه، يدأب في الحفاظ على حرمات اللّه فهو يخشى اللّه في غيبه، و يأتيه بقلب أواب منيب:

مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَ جاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ‏: فمن مواصفات الحفيظ خشية الرحمن بالغيب: بغيب الرحمان و هو دائب الغيب- فالمتقون يؤمنون بالغيب- و بغيب عباد الرحمان، فليست خشيتهم منهم حتى يخشوه- فقط- بمحضرهم، و انما يخشونه في غيبهم، ففي حضورهم اولى و أحرى!.

كما «وَ جاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ» من مواصفات الأواب، فلا يتقلب بقلبه إلا في مفازات الانابة إلى اللّه، فحياته- إذا- خشية الرحمن بالغيب بقلب منيب، حتى «جاء» إلى دار كرامة اللّه، للقاء اللّه‏ «بِقَلْبٍ مُنِيبٍ» إلى اللّه، عاقبة حسنى بعد حسنى الاولى!.

ثم و يستقبل هكذا جائين بذلك المجي‏ء قولة كريمة رحيمة من الرحمن الرحيم:

ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ: ادخلوا الجنة «ب» سبب «سلام» قدمتموه لأنفسكم «ب» مصاحبة «سلام» مدخر موعود لكم- «ب»: في «سلام» خالد ليس له انفصام في دار السلام و اللّه هو السلام، ف «ذلك» البعيد المدى، العظيم المدى هو «يَوْمُ الْخُلُودِ»! لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ و ترى ما هو «مزيد» بعد المشيئة غير المحددة التي- طبعا- ليست لها نهاية؟ بل انه فوق اللانهاية، فكل لا محدود عند خلق اللّه، محدود في حساب اللّه، و ان لدى اللّه للمتقين ما يناسب كرامة اللّه، و هو «مزيد» عن‏ «ما يَشاؤُنَ» فاللّه عنده كرامة «مزيد» يؤتيهم رغبة و ادراك «مزيد» عما هم يشاءون.

و ترى ان «مزيد» يختص بأصناف ما يشاءون، فليست العطية على حد المشية؟ و هو تحديد بلا دليل، و اطلاق المزيد يحلله عن هذا التحديد!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 294

ام انه يعمه و ما لا يشاءون مما لا يعرفون، لأنه من كمال او قمة معرفية فوق ما يعرفون، فكيف يهرفون؟ بما لا يعرفون؟ إن المزيد يعم ما لا تتعلق به مشيئتهم، فيؤتيهم مزيدا بعد ما يعرفهم، و هذا هو الحق الذي يصدقه اطلاق «مزيد» و تصدقه كرامة اللّه التي لا تعد و لا تحد «وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ».

فهنا في الجنة للمتقين مزيد، حيث يجدون اللّه في رحمته فوق ما يشاءون و كأنه يقول لهم‏ «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ»؟ .. و هناك في النار «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ»؟ فأين مزاد من مزاد، و اين مزيد من مزيد؟! وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ‏ ذكرى سريعة خاطفة إلى اعماق من تاريخ الغابرين المستكبرين، تهين بطشة الحاضرين، و لقد كانوا أشد منهم بطشا على الحق و اهله، و بطشا على الشعوب الضعيفة و طيشا في الباطل و اهله، فهم لبطشهم و طيشهم‏ «فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ» تقلبا في البلاد «لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ» (3: 196) و تنقبا فيها عن اسباب الحياة، في توسعية ظالمة فاتكة، استضعافا لمن في البلاد، و استهانة لهم فاستعمارا و استثمارا، بفرعونية جبارة، و قارونية غدارة!.

فكم أهلكنا منهم بصنوف الهلاك- «هَلْ مِنْ مَحِيصٍ»؟ لهم او لكم من هلاك في الاخرى، و لا محيص- أحيانا- في الأولى، و «هل محيص» لكم؟

و ليس لهم و هم أشد منكم بطشا، كلا! انه لا حيصة عن عذاب اللّه، و لا هيصة في حكم اللّه، و لا جزع ينجيهم عن قضاء اللّه: «سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ» (14: 21) «أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ لا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً» (4: 121).

إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى‏ لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ انه القلب الحي، قلب الإنسان كإنسان، القلب البصير، او السمع الملقى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 295

الى القلب دنوا من سماعها و ميلا إلى قائلها، العائش كل مسموع فيه الذكرى، الذي يتذكر من «ذلك»: الذكريات، من مصارع الغابرين، و برهنات آفاقية و انفسية ام ماذا، الآيات الذكريات المشهودة «لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ» فالذكرى لا تفعل فعلها في النفوس الا بقلوب حية واعية، او آذان باسماع صاغية، فمن يتركهما او يتغافل عنهما فانه من اصحاب السعير: «وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ» (97: 10).

ان السير النابه الهادف المقصود في آيات اللّه، في الأرض بما فيها من آيات:

تاريخية غابرة و جغرافية حاضرة، إنه لمما يكوّن قلبا عاقلا و اذنا سامعا: «أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (22: 46) و القلوب العميانة المطبوع عليها لا تسمح للآذان بالسمع: «وَ نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ» (7: 100) و لكنما القلوب الضعيفة، غير القادرة على العقل الكافي، هي تتمدد بالسمع الملبّى الى كلمات الحق، و اما القلوب الواعية فقلما تحتاج الى إلقاء السمع الا الى ملقيات الذكر الوحي.

في «سورة الملك» يتقدم السمع، لأنه الأقدم للبسطاء الساذجين، و المتحرين عن الحق الناضجين‏ «1»، و هنا يتقدم القلب- و هو قلب الروح المنتهي اليه لباب العقل- لأنه الأقوم في تلقي الذكرى، و من ثم السمع، و لكن لا كل سمع، انما السمع الملقى بحرية و انطلاق، و لكي يتلقى ما يسمعه بلباق، سمع يلقى الى نبرات الذكريات بإنصات و وعي، كأن صاحبه السمع كله، او انه لا يشغل سمعه بشاغل غيره، ثم يستخلص ما يسمعه بعقله النابه الى قلبه فيحيى بحياة طيبة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 29 ص 30 ففيه تفصيل البحث عن السمع و العقل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 296

فمن كان له قلب و لكنه مقلوب، أو سمع و لكنه لا يلقى الى المسموع، بل يلغى، او يشغل بما يلهيه، إنه هو الميت بعينه، فلا يتذكر باية ذكرى، و لا يكون شهيدا لأية ذكرى، و الدنيا كلها ذكرى، يعيشها كما الأموات، فلا تعيّشه فانه من اصحاب القبور: و «إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ» (35: 22) «فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً» (77: 5)-: ملائكية و بشرية ام كونية- تطلب إلقاء السمع بقلوب واعية، فاما الملقون السمع: الذين‏ «يُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ» (26: 223) او المعزولون عن السمع: «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ» (27: 212) فهم موتى لا يتذكرون! أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (25: 44): و «إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى‏ لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ»: ينبض بحياة الذكرى و العقل «او» و على اقل تقدير، و اعتادا لحياة قلب منير «أَلْقَى السَّمْعَ» الواعي «و هو» بروحه و قلبه «شهيد» حاضر عتيد: لتلقّي ما يسمع، فتحويله الى قلبه ليستزيد هدى و نورا! وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ‏ فترى- إذا- يمسنا من خلقهم الاول من لغوب: تعب و نصب- فنعيى به عن خلقهم الثاني؟ «أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ»؟

و ما خلقهم بجنب السماوات و الأرض الا كقطرة في فلاة في: «لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (40: 57).

كأن ناكري الخلق الثاني المعاد ينكرون الخلق الأول فهم في ريبهم يترددون؟

«وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» (29: 61) او انه لغب من الخلق الأول عاجزا؟ و لم يمسه في خلق السماوات و الأرض و هو اكبر من خلق الناس، فهل يمسه- إذا- من خلق الناس من لغوب، و لكي يعيى لاغيا عن الخلق الثاني؟

و هناك في التورات نجد فرية اللغوب في خلق السماوات و الأرض في ستة ايام، فآية اللغوب، بضمن ما هي تنديد بالمشركين في زعم اللغوب، و ما سمعناهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 297

هكذا زاعمين. انها تندد بالذين حرفوا التورات فاختلقوا فرية اللغوب: «...

ثم استراح في اليوم السابع»

[سورة ق (50): الآيات 39 الى 45]

فَاصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبارَ السُّجُودِ (40) وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (41) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43)

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ (44) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ (45)

فَاصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ. وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبارَ السُّجُودِ:

«فاصبر ..»: بعد تمام الحجاج عليهم، و تمام اللجاج منهم، إذا فلا حياة لمن تنادي! «فَاصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ» و الى متى؟ «يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ ..» إذ تراهم إلى محشرهم يعذبون، «فاصبر» دون جبر عليهم‏ «وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ» و «اصبر» تركا لذكراهم بعد التي ذكرتهم‏ «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 298

و أما ذكرى الذي لا يخاف و هو عنيد، فلا عليك إلا إتماما للحجة إيضاحا للمهجة، ثم لا حجة و لا مهجة .. «فاصبر» و استعن لصبرك بتسبيح الحمد لربك، فمهما جرحوا قلبك المنير، و هرجوا خاطرك الخطير، فطمئن قلبك بذكر اللّه العلي الكبير: «أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ».

و لا راحة عن التعب، و لا ازاحة للنصب إلّا راحة ذكر اللّه، و كما الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان إذا غمه شي‏ء استراح الى الصلاة، و

كان يقول: «و قرة عيني الصلاة»!

هنا تسبيح بالحمد، و ليس الحمد فقط، فإن فيه شائبة التحديد و التشبيه، و لا التسبيح فقط، فعمّا ذا يسبح و ينزه لو لا اثبات صفات؟! فليكن تسبيح بالحمد، ان تحمده كما يليق بذاته، فبحمده تسبحه، كما بتسبيحه تحمده، نفيا مع اثبات، و اثباتا مع نفي، فإذ تحمده بعلمه فلتسبحه عن علم من سواه، عالم لا كسواه، بعلم لا كسواه، كما في قدرته و حياته كصفات ثلاث للذات، كذلك و سائر الأفعال و الصفات.

و لأن الصلاة هي خير موضوع للتسبيح بحمد الرب، و ان لها كفريضة أوقات خصوص، فلتكن الأوقات الثلاثة «قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ وَ مِنَ اللَّيْلِ» هي أوقاتها المفروضة لها و كما في آية اخرى: «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ» (11: 114):

و علّه بداية فرض الصلاة انها كانت ثلاث‏ «1» و من ثم الاشارة الى فرض الظهر في آية اخرى: «فَاصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِها وَ مِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى‏» (20: 130) فأطراف النهار تشمل الطرف الوسط «الظهر» كما تشمل طرفي قبل الطلوع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور: اخرج الطبراني في الأوسط و ابن عساكر عن جرير بن عبد اللّه عن النبي (ص) في قوله «و سبح ..» قبل طلوع الشمس صلاة الصبح و قبل الغروب صلاة العصر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 299

و قبل الغروب، و إلّا فلما ذا «أَطْرافَ النَّهارِ» و هما طرفان؟ كما في آية الطرفين، و هما المذكوران نصا قبل الأطراف، كما و «آناءَ اللَّيْلِ» قد تعني- فيما تعني- العشائين.

و من ثم التصريح بفريضة الظهر و العشاء ايضا: «أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى‏ غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً» (17: 78) فالظهر هنا هي فريضة الدلوك، و العشاء هي فريضة غسق الليل، ثم قرآن الفجر هنا و قبل طلوع الشمس هناك هي فريضة الفجر، و قبل الغروب هي العصر، و «مِنْ آناءِ اللَّيْلِ» تشمل فريضة المغرب: تدرجا في بيان الفرائض اليومية و كما في سائر الفرائض‏ «1».

إن طلوع الشمس و غروبها تحوّل، و ان ظلام الليل بغسقه ثم فجره تحوّل، فلتتحرك أنت بتسبيح الحمد مع تحول الكون، فليشرق قلبك قبل اشراقة الشمس بتسبيح الحمد، و لتجدد فيه اشراقة بعد غروبها، ثم و من الليل الى غسقه أم ماذا؟ تماشيا مع الكون في تسبيح الحمد، و عند مظاهر التحول‏ «وَ أَدْبارَ السُّجُودِ» دبر كل صلاة، و علّه لتكميل ما نقص منها تطوعا، من تعقيبات تحمل التسبيح بحمد ربك، او نوافل ركعات‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تجدد تفصيل البحث عند آية الغسق و اضرابها إنشاء اللّه.

(2)

الدر المنثور 6: اخرج مسدد في مسنده و ابن المنذر و ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: سألت رسول اللّه (ص) عن ادبار النجوم و السجود فقال: ادبار السجود الركعتان بعد المغرب، و ادبار النجوم الركعتان قبل الغداة.

و

في الكافي باسناده عن حريز عن زرارة عن أبي جعفر الباقر (ع) قال: قلت: و ادبار السجود؟ قال: ركعات بعد المغرب. و رواه القمي في تفسيره باسناده عن ابن أبي نصر عن الرضا (ع) قال: اربع ركعات بعد المغرب.

و

في قرب الاسناد للحميري باسناده الى إسماعيل بن عبد الخالق قال سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول‏ ركعتين اللتين بعد المغرب هما أدبار السجود.

أقول: على الجمع بين الركعتين و الأربع، ان الأوليين هما الأفضل، و من ثم الأخريين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 300

و بصيغة جامعة فهنا جو للصبر و التسبيح بالحمد موصولا بصفحة الكون في مختلف مظاهره نظرة الاستماع للمناد من مكان قريب، بعد ما سمعتهم ينكرونها من بعيد و من قريب!:

وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ‏ إنه منادي الصيحة الصارخة، حيث ينفخ في الصور و ينقر في الناقور! نداء «مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ» إلى أهل المحشر أجمع! فللكل منها نصيب على حد سواء، فإنها بمقربة من الكلّ، قد تنفخ في الأحياء لإماتتهم، و مرة أخرى لإحيائهم، و المنادى النافخ في الصور هو اللّه:

«ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ» (30: 25) و إن كانت هناك عامل أو عمال للنداء من ملائكة اللّه أمّن ذا؟ و هي نداء الدعوة للخروج:

يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ‏ فهناك سماع جماعي لصيحة الخروج الإحياء يفزع لها أهل الحشر إلا من شاء اللّه: «وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ» (27: 87) و كما الأولى تشملهم إلا من شاء اللّه في صيحة الاماتة: «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ..» (39: 68)

و ممن شاء اللّه و أحراهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإنه لا يسمع الصيحة المفزعة المصعقة إلا أن يستمع كما و توحي به‏ «وَ اسْتَمِعْ ..» استماع لا فزع فيه، و «يَوْمَ يَسْمَعُونَ» لا «تسمعون» لكي لا تشمل‏ «مَنْ شاءَ اللَّهُ» حيث هم هنا لك آمنون، «لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» (22: 103) «.. وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ» (27: 89).

ثم و هذه الصيحة «بالحق» هي: بإرادة الحق، مصاحبة حق الدعوة، و بهدف الحق من الجزاء الحساب، فلا ظلم هناك و لا فوضى، فصيحته المفزعة المصعقة حق لهم، إلا من شاء اللّه، بفضل اللّه و رحمته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 301

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ: إحياء مرتان و إماتة مرتان:

«قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ» (40: 11): إحياء للحياة الدنيا ثم إماتة عنها، فهو حي في البرزخ، ثم إماتة أخرى هي عن الحياة البرزخية «1» و من ثم إحياء للحياة الثالثة الأخرى، فالبرزخية الوسطي لا تحتاج إلى إحياء، فإنها تجرّد عن الحياة الدنيا فانتقال إلى الوسطى، و علّه هو السر في تقديم الإحياء «نُحْيِي وَ نُمِيتُ» هنا، فلو عنى الإحياء- فقط- في الأخرى لكانت الإماتة هي الأولى كما في اضرابها: «وَ أَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَ أَحْيا» (53: 44).

كما «وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ» هو المرحلة النهائية بعد اثنتين و اثنتين، بعد الإحياء للأخرى، و كما تشهد لها آياتها الاخرى: «وَ الْمَوْتى‏ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» (6: 36).

و ترى متى الإحياء مرة أخرى و من ثم المصير؟:

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ! يوم تتشقق الأرض- الدافنة لهم- عنهم، و تتكشف عن أجسادهم الرفات، و عظامهم الذرات، التي تاهت في سارب الأرض، تتشقق عنهم حشرا لهم كما خلقوا أوّل مرة، سراعا إلى الداع دون بطاء: «يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له و خشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلا همسا» (20: 108) «يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى‏ شَيْ‏ءٍ نُكُرٍ. خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ. مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ» (54: 8) و «ذلك» البعيد البعيد في ميزانكم‏ «حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ»: غير عسير، و كل خلق علينا يسير!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فالإماتة الاولى تزهق الروح عن البدن الدنيوي ثم هي مستمرة في البدن البرزخي، و الاماتة الثانية تزهقها عن البرزخي ايضا و تصعقها في نفسها كذلك، فالإحياء للأخرى إحياء تام عن الصعقة الى الحياة الخالدة الاخرى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 302

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ.

لا أنت- فحسب- تعلم ما يقولون‏ «نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ» «فَاصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ» ثم‏ «وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ» إذا- و أنا الجبار- لا أجبرهم على ترك ما يقولون، «ف» لا عليك إلا أمر واحد أن «ذكر بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ» مواصلا في ذكراه، و أما من لا يخاف، فإنما هي ذكرى الحجاج، ثم تقطعها و تعرض عنهم عند اللجاج!: «إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ» (36: 11).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 303

(سورة الذاريات- مكية- و آياتها ستون)

[سورة الذاريات (51): الآيات 1 الى 23]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

وَ الذَّارِياتِ ذَرْواً (1) فَالْحامِلاتِ وِقْراً (2) فَالْجارِياتِ يُسْراً (3) فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً (4)

إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (5) وَ إِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ (6) وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9)

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ (11) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (15) آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ (17) وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (19)

وَ فِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ (21) وَ فِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَ ما تُوعَدُونَ (22) فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 304

سورة الذاريات تزامل النازعات في آياتها الاولى، إذ تحمل أقساما بقوات ذاريات فحاملات فجاريات فمقسمات امرا، توطئة و توطيدا لصدق مواعيد الرب يوم الدين الواقع، فما هذه القوات الأربع؟ ثم ما هي الصلة الوطيدة بينها و بين صدق الوعد في الدين الواقع؟

وَ الذَّارِياتِ ذَرْواً: إطارة و إثارة، من الرياح الذارية لتراب او هشيمها:

«كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ» (18: 45) او المطيرة المثيرة للسحاب بإذن اللّه: «اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ» (30: 48) «... فَسُقْناهُ إِلى‏ بَلَدٍ مَيِّتٍ» (35: 9) و من الرياح اللواقح، اللاقطة النطف من فحولة النبات، فالمطيرة لها و المثيرة بها بين أنثاها، و لكي تحمل جنينات الثمار، او اللاقحة أجزاء السحاب المنبثة لتحمل ماء: «وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ» (15: 22) «حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالًا سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ» (7: 57) فمن وظائف الرياح الذاريات إزجاء السحاب و قلعها من البحار و الأنهار، و من مختلف أكناف السماء، ثم تاليفها و جعلها ركاما لكي تحبل بالأمطار:

«أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ..»

(24: 43) .. ثم و منها المطيرة للسفن الحاملات الجاريات.

هذه، و من ثم قوات ذاريات أخرى لمختلف الذاريات و العناصر و الجزئيات كامنة في أصولها أو سواها بما كمنها اللّه فيها و أمكنها من مختلف التصرفات، أو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 305

كائنة في سائر كائنات العالم ملائكية و بشرية ام ماذا؟ صادرة عن اللّه و بأمره دون فسق و لا نشوز ... فلا تختص الذاريات- إذا- بالرياح، طالما و رد تفسيرها بها عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عن باب مدينة علمه، تفسيرا بأظهر مصاديقها، دون المفهوم الواسع الذي تسعه اللفظة، مهما لم تسعه افهام الناس الا الخواص، و علّه هو السبب فيما فعله الخليفة عمر من تهديد و تنديد بمن سأله عن تفسيرها «1» و لكن ترى هل يستحق المستفسر عن معاني آي من الذكر الحكيم هكذا إهانة و مهانة؟ بل الترغيب و التبجيل! و كما فعله الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما يرويه عنه عمر نفسه من تفسير الذاريات‏ «2»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن السائب بن يزيد قال: أتي عمر بن الخطاب فقيل يا أمير المؤمنين!: «انا لقينا رجلا يسأل عن تأويل شكل القرآن فقال عمر: اللهم مكني منه، فبينما عمر ذات يوم جالسا يغدي الناس إذ جاء الرجل و عليه ثياب و عمامة صفدي حتى إذا فرغ قال: يا أمير المؤمنين! «وَ الذَّارِياتِ ذَرْواً فَالْحامِلاتِ وِقْراً» فقال عمر: أنت هو؟ فقام إليه و حسر عن ذراعيه فلم يزل يجلده حتى سقطت عمامته فقال: و الذي نفس عمر بيده لو وجدتك محلوقا لضربت رأسك، البسوه ثيابا و احملوه على قتب و أخرجوه حتى تقدموا به بلاده ثم ليقم خطيب ثم يقول: ان صبيغا ابتغى العلم فأخطأه، فلم يزل وضيعا في قومه حتى هلك و كان سيد قومه».

تجده في: سنن الدارمي 1: 54- 55- تاريخ ابن عساكر 6: 384- سيرة عمر لابن الجوزي 109- تفسير ابن كثير 4: 232- إتقان السيوطي 2: 5- كنز العمال 1: 238 نقلا عن الدارمي و نصر المقدسي و الاصبهاني و ابن الانباري و الالكائي و ابن عساكر- فتح الباري 8: 17- الفتوحات الاسلامية 2: 445.

(2)

الدر المنثور 6: 111- اخرج البزاز و الدار قطني في الافراد و ابن مردويه و ابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال: جاء صبيغ التميمي الى عمر بن الخطاب فقال: اخبرني عن‏ «الذَّارِياتِ ذَرْواً» قال: هي الرياح، و لو لا اني سمعت رسول اللّه (ص) يقوله ما قلته، قال:

فاخبرني عن‏ «فَالْحامِلاتِ وِقْراً» قال: هي السحاب و لو لا اني (يكرر روايته عنه ص) قال:

فاخبرني عن الجاريات يسرا قال هي السفن و لو لا اني ... قال عن المقسمات أمرا قال هن الملائكة و لو لا أني .. ثم أمر به فضرب مائة و جعل في بيت فلما برأ دعاه فضرب مائة أخرى و حمله على قتب و كتب الى أبي موسى الأشعري امنع الناس من مجالسته فلم يزالوا كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف له بالأيمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئا فكتب في ذلك إلى عمر فكتب عمر ما إخاله الا قد صدق فخل بينه و بين مجالسة الناس.

(الفرقان- م 20)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 306

و تبعه خليفته علي (ع) «1».

فَالْحامِلاتِ وِقْراً: ثقلا على ظهر أو بطن او صدر، من الرياح الحاملات:

ثقلا على ظهرها من السحاب اللاقحات، الحاملات و قرا من النطف النباتية للتلقيح، و من السحاب الحاملات و قرا من الماء في بطونها، يسوقها اللّه به حيث يشاء، و الملائكة الحاملة و قرا من أوامر اللّه، و رجالات الوحي الحاملين و قرا من شريعة اللّه في صدورهم، و كافة الحاملات و قرا، صادرات من اللّه و منفذات بأمر اللّه.

و في تفريع الحاملات على الذاريات إشارة إلى تفرّع الحمل على الذّر و كما هو الواقع، فالذر و أيا كان هو كبذرة للحمل و كما في النساء الحاملات.

فَالْجارِياتِ يُسْراً: من الأمور و الأوامر الجارية في مجاريها، بما ذرته الذاريات، و حملته الحاملات، و من السفن الجواري كالأعلام في يسر على سطح الماء بارادة اللّه، و بما أودع اللّه الماء و الهواء و الرياح و السفن من خصائص تسمح بهكذا جري يسير: «وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» (55: 25).

فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً: الطاقات المقسمات بين الكائنات أمرا من الأمور او الأوامر، تكوينا و تشريعا، دنيا و عقبى، مقسمات كونية بما أودع اللّه فيها من طاقات، و ملائكية او بشرية ام ماذا؟ التي تقسم امر اللّه كما امر اللّه دون نشوز و لا شذوذ، كما الملائكة «لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ» من تقسيم لأمر الأرواح و الأجساد دنيا و عقبى، و تقييم لها كما تحق كذلك، و من نزول بالوحي على أنبياء اللّه، و بالإلهام على عباد اللّه المخلصين و من .. كما لغير الملائكة فيما حملوا من أمر و تقسيم لأمر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و في الدر أيضا اخرج عبد الرزاق و الفرياني و سعيد بن منصور و الحارث بن أبي أسامة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن الأنبازي في المصاحف و الحاكم و صححه و البيهقي في شعب الايمان من طرق عن علي بن أبي طالب (ع) و ذكر مثل ما رواه الخليفة عمر عن النبي (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 307

فما تعني المقسمات خصوص الملائكة، لمكان التأنيث الحقيقي فيها دون الملائكة الذين هم لا ذكران و لا إناث، فالراجع إليهم بين ضمير مذكر او مؤنث مجازي.

هذا- و لان تقسيم الأمر لا يختص بهم، فلله عمّال منهم الملائكة و منهم غيرهم و كثير ما هم!.

إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ. وَ إِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ‏ ترى ما هي الصلة بين هذه الأربع و بين صدق الوعد و وقوع الدين؟ فهل هي أقسام بدلا عن الدليل إذا لا دليل؟

سبحان الرب الجليل عن هكذا دليل عليل! او هي ادلة لصدق الوعد و وقوع الدين و كيف هي؟

إن مشكلة المعاد فالجزاء بعد العود، هي عائدة أولا و أخيرا إلى استحالة الحياة الجديدة او إمكانيّتها، فثبات إمكانيتها إثبات لوقوعها، فإن الحوار و المشاجرة حول المعاد ليس إلا مع المقرين بوجود اللّه مهما كانوا به مشركين- فإمكانية الحياة بعد الموت- الثابتة بأمثال ما يقسم به هنا و هناك، اضافة الى قدرة اللّه تعالى، ثم علمه الشامل و عدله الكامل، إنها تنتج ضرورة: «إِنَّما تُوعَدُونَ»: من الحياة الأخرى «لصادق» و من ثم‏ «وَ إِنَّ الدِّينَ»: الجزاء «لواقع» فان علم اللّه و حيطته بما يصدر عن الظالمين و ما يلقاه المظلومون، و بما يطيعه المطيعون و يعصيه العاصون، ثم قدرته على الجزاء الوفاق، ثم عدم واقع الجزاء هنا إلا شذرا قليلا، مع قدرته تعالى على إعادة الحياة ليجزي الذين أسئوا بما عملوا و يجزي الذين أحسنوا بالحسنى، إنها تثبت ضرورة صدق الوعد و وقوع الدين، فان نكرانهما نكران لوجود اللّه و هم مصدقوه، او نكران لعلمه و قدرته و عدله و هم عارفوه، او إحالة للحياة بعد الموت و هي تكذيبه أنه يحيى الموتى، و نكران لما يلمسونه ليل نهار من ذاريات حاملات جاريات مقسمات ... و من أضرابها: تلكم البراهين الحسية التي يعيشونها طوال حياتهم.

فكما ان الذاريات ذروا، فالحاملات و قرا، فالجاريات يسرا، فالمدبرات امرا،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 308

تبرز لنا دوما تغييرا و تحويرا، من موت الى حياة و من حياة الى موت: قوات تطير و تثير و تغير، ناقلة مواد الحياة الى الأموات فتحييها يوم الدنيا بإذن اللّه، كذلك هي هي في الأخرى- و بأحرى- تنفذ مشيئة اللّه العليم القدير العدل البصير.

فاللّه يسوق السحاب الى بلد ميت فيحييه بأمطارها الغزيرة لإناقة الحياة الدنيا و هي الأدنى، كذلك اللّه هو السائق لسحاب رحمته الى أراضي الأبدان لتحيي مرة أخرى، فتجزى كل نفس بما تسعى، و هي أهون عليه و أحرى: «وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» (30: 27) أهون بحساب الخلق، و اما في حساب اللّه فالكل له هين على سواء.

و من جهة أخرى، فهذا النظام الدقيق الأنيق المحير للعقول، غير حقيق أن يحصر في دنيا الحياة الدائرة فيصبح عبثا، و إنما هو بصورة أدق و آنق يتجلى يوم الدين‏ «ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ».

«إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ» من وعد الحياة بعد الموت، و الجزاء بما عملتموه قبل الموت، «وَ إِنَّ الدِّينَ»: الطاعة «لواقع» فالدين طاعة في الدنيا، و ظهور للطاعة بحقيقتها يوم الدين، فليس الجزاء إلا نفس العمل صالحا و طالحا، طالما الطاعة يزيدها فضل من اللّه و رحمة.

و هل هذه الأربع المقسم بها واحدة في حالات اربع بتأويل ان الفاء لترتيب الأفعال و الذات واحدة؟ ام اربع، لان الفاء لترتيب الفواعل في مختلف الأفعال؟ ام متداخلات بعضا و مستقلات في بعض؟ إن تفاسيرها المسبقة تشير الى الأخير، و ان كانت الفاء في الثلاثة الأخيرة تفرعها على الأولى، فليس لزامه الوحدة، كما ليس الكثرة، فترتب الأفعال يناسبهما معا و تتبع القرائن للتمييز.

وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ‏: جمع الحبيكة، و هي الطريقة الحسنة «1» المتينة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد جاء في النظم هذا المعنى عن عمرو بن مرة يمدح النبي (ص): لأصبحت خير الناس نفسا و والدا «رسول مليك الناس فوق الحبائك» و في اللغة كل شي‏ء أحكمته و أحسنت عمله فقد احتبكته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 309

الشديدة، يقال: بعير محبوك القرى: محكمه، و الاحتباك شدّ الإزار، كما الحبك هو الشد.

فالسماء هي ذات طرائق سبع: «وَ لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَ ما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ» (23: 17) طرائق حسنة و من حسنها أنها شداد: «وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً» (78: 12) «1»: سماء منسقة محكمة التركيب، حسنة الهيئة، كتنسيق الزرد المتشابك المتداخل الحلقات، المحبوكة المشدودة رغم طباقها السبع، المتفاصلة الأجواء، تحكمها وحدة الحكمة الناصعة الناسقة رغم حبكها العديدة، و لكنها حسنة شديدة متناسقة. «2»

فهنا طرائق محسوسة للأبصار مجردة و مسلحة، و هناك طرائق معقولة للبصائر، حبك قلبية و قالبية، و هي فيها متلائمة متناصرة، فمنتهية إلى توحيد المحبك المطرق الجبار القهار: «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ» (67: 3) مهما رأيت فيه من مختلف الخواص و الآثار و الأشكال!.

و كما أن السماء المادية لها حبك و طرائق، كذلك السماء المعرفية، فانها الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذي يتلقى الوحي كله، ثم له حبك: طرائق و أبواب، يصدرون عنه و يدلون عليه، فهم كثير لا يقولون الا واحدا دون اختلاف، اثنى عشر إماما هم استمرار لرسالة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فاتّباعهم إذا ينتج قولا واحدا، و لكنكم لنكرانكم سماوات المعرفة الرسالية و الرسولية «إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ» و لتخلفكم عن مدرسة السماء الحسية و المعرفية.

فقسما بهذه السماء المحبوكة، ذات الطرائق الحسنة الشداد:

إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ‏ رغم أن هذه الطرائق بمتناو لكم حسيا و عقليا و علميا، فأنتم أنتم الأوغاد، غارقون في قول مختلف، كمن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 1 ص 25 من الفرقان تستوضح السبع الطرائق الشداد.

(2)

نور الثقلين 5: 121 عن تفسير القمي باسناده الى أبي حمزة قلت: سمعت أبا جعفر (ع) يقصر في قول اللّه‏ «وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ»: السماء رسول اللّه (ص) و على ذات الحبك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 310

ينظرون إلى الشمس في رايعة النهار بمنظارات عدة، ثم يختلفون في نورها و ظهورها، و في كيانها!.

«إنكم» أنتم المشركين الناكرين ليوم الدين «لفي قول»: فيه «مختلف»:

عن الواقع، و متناقض متهافت مع بعض، رغم أن السماء ذات الحبك حسيا و معرفيا، و الذاريات الحاملات الجاريات المقسمات أمرا، و الكائنات كل الكائنات، إنها تدلكم بقول واحد على إمكانية الحشر الحساب و ضرورته.

فقولكم: إن اللّه قدير عدل حكيم، يفرض التصديق بصدق الوعد و وقوع الدين، و تقوّلكم: ء إنا لفي خلق جديد؟ يختلف تماما عما تصدقون أولا، فهل إن اللّه عاجز؟ أم جاهل بما تحصل من ظلامات؟ أم ظالم؟ أو إن الإحياء بعد الموت محال! رغم أن الكون كله بتنقلات الموت و الحياة ليل نهار، و بما بدأ اللّه به من حياة، إنه يقول عن المكون الأول: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى‏» «أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ»؟!.

فرغم أن الكائنات تقول في محراب الحس و العقل و العدل‏ «إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ. وَ إِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ» فأنتم أنتم العميان الضمائر، الموتى القلوب، عائشون‏ «لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ» غارقون في أوهام و أحلام، تقولون أقوالا و أقاويل متناقضة، و لكي تتحرروا عن أسر الشريعة الإلهية! «إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ»: مختلف بعضه مع بعض تناقضا، و مختلف بعضكم مع بعض فيه، و مختلف عن الحق الواقع، المؤيد بالآيات الآفاقية و الأنفسية، و بالعقل و الفطرة، و المصدق بوحي السماء على رجالات الوحي، فهم فيه مختلفون لأنه مضطرب، لا قوام له و لا استقرار، و هكذا يكون الباطل دوما مرجرجا مهتزا، لا نور فيه إلا الظلام، فلا يجتمع عليه أهله إلا لغايات و حاجات، فإذا قضيت تفرقوا عنه، و دبّ الخلاف بين أهليه و ظهر، طالما كان خفيا، أو ظاهرا لا يعرفه الجاهلون.

إن القول المختلف المتزعزع الضنين هو من أشر القول و أخسئه، ثم القول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 311

الكذب الذي يثبت عليه صاحبه، ثم أحسن القول هو الصدق الواحد غير المتفاوت مع بعضه و مع واقع العقيدة و واقع الكون.

«إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ» في اللّه، و مختلف في رسالات اللّه، و مختلف في كتابات وحي اللّه و أخيرا في القرآن: إنه سحر أو كهانة أو شعر أو عبارات جنونية أو سحر يؤثر، فإذا كان سحرا فكيف يؤثر؟ و من آثار السحر أنه لا يؤثر و إنما يفنى و يدثر! فقد تراهم- على طول الخط- في أمر مريج: «قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ»:

«يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ»: و الإفك هو الصرف عن وجه الحق، و يقال للرياح العادلة من المهابّ مؤتفكة، إذا فالمؤفك عنه ليس إلّا الحق، و إليه يرجع ضمير الغائب «عنه» لا إلى قول مختلف، فالصرف عن هكذا قول ليس إفكا، و إنما يرجع إلى حق مختلف فيه و مختلف عنه: حق التوحيد و الرسالة و المعاد و القرآن‏ «عَمَّ يَتَساءَلُونَ. عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ. الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ» (78: 3).

و قد يحتمل رجوعه إلى قول مختلف بتجريد الإفك عن الكذب أن يعني مطلق الصرف و إن كان عن الباطل، يصرف عنه من صرف، بتفكيره و بتأييد اللّه، أو يقال أنه يشمل إفك الحق و إفك الباطل و علّه أوجه و إن كان إفك الباطل أظهر و أنسب لغويا.

إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ‏ أنتم فيه و مختلف هو فيكم، و مختلف هو عن الحق: يُؤْفَكُ عَنْهُ‏ عن الحق «من أفك» عنه، فالوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، يأفك النسناس عن سيرة الناس، عن الحق الذي فطرهم عليه إله الناس، و عمّا سن لهم بما شرعه و أنزل على الرسل، حراسا لهم و متراسا عن الإفك و وسواسه، و نبراسا ينير لهم الدرب إلى صراط مستقيم.

إن الوسواس لا يستطيع أن يأفك عن الحق إلّا من أفك في نفسه، دون العباد الصالحين‏ إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ‏ فما لم يكن الإنسان في نفسه شيطانا أو مائلا إلى شيطان، فلا سبيل لسائر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 312

الشياطين أن يأفكوه عن الحق و يصرفوه عن وجهه، و إنما «يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ»:

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ‏ و الخرص أصله من خرص الثمار و هو تقديرها دون وزن و لا عدّ، فهو الحدس و التخمين، دون سناد إلى برهان متين، فلا يعدو الوهم و الظن‏ «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» (10: 66) «ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» (43: 20) و الخرص فاتك و قاتل أيا كان، و إن اتفق وفقه للواقع أحيانا، و العلم هو المسنود إلى برهان حق و إن خالف الواقع أحيانا.

الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ‏: أصل الغمر إزالة أثر الشي‏ء، و منه قيل للماء الكثير الذي يزيل أثر سيله: غمر و غامر، فالغمرة هنا مثل للجهالة و الانحلال عن العقل و الفطرة الإنسانية، إذ زالت آثارها، فأصبح صاحبها مغمورا في السهو، دونما يقين أو تصميم فهو- إذا- كتفسير لنتاج التخريص:

إنهم غارقون في غمرة الأضاليل و الأباطيل، لا يشعرون بشي‏ء مما حولهم و لا يستشعرون، و هي حياة الحيوان المجنون مهما كان في قالب الإنسان، فقد قتلت إنسانيته إذ فقد حكم العقل و الفطرة و هما حياة الإنسان كإنسان.

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ‏ إخبار بحساب اللّه أنهم مقتولون بما قتلوا عقولهم، مهما كان دعاء بحساب الخلق- دون اللّه فإنه لا يدعو- إذ يحق لهم الدعاء عليهم بالقتل، أن يزيدهم اللّه عمى و يذرهم في طغيانهم يعمهون، ثم و يقتلهم في أجسادهم كذلك لإراحة المجتمع الإنساني من خرصهم و غمرتهم في سهوهم، و أما اللّه فممّ يدعو و يلتمس أن يقتل الخراصين؟.

و الخراصون: المبالغون في خرصهم، حياتهم غمرات السهو و الخطأ، لا يصدرون عن مصدر العقل و الشعور، و إنما هم فوضى في حركاتهم و تصرفاتهم و أحكامهم، و إذ يسألون عن حقيقة، فليس للتحري عنها، و إنما للتجري عليها و الاستهزاء منها، كما:

يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ‏ ترى لو أجيبوا عن أيّانه و زمانه هل كانوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 313

يؤمنون به و هم كافرون بأصله؟ كلّا! ثم و لا صلة بمعرفة الزمان لإثبات ما يحصل في الزمان! إذا فسؤالهم هذا تعنّت و استهزاء و هراء.

و لأنهم كانوا على علم من عدم التعيين ليوم الدين، يسألون عن زمنه تعجيزا، و لكي يستدلوا بجهله على بطلانه في أصله، و ترى ما هي الصلة بين الأمرين؟

فلو علمت انني كائن و لم تعلم متى كوّنت، هل لك أن ترتاب في أنني الآن كائن؟.

إذا فكهذا سئوال متعنت هراء جاهل لا جواب عنه إلا الإرجاع إلى العقل و حجج المعاد المسبقة، و إلا- أخيرا- الإخبار بما يحصل لهم يوم الدين من فتنة النار كما هم الآن يفتنون:

يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ‏ و كما كانوا يوم الدنيا على نار الشهوات يفتنون:

و هذا إعراض عن جوابهم، و إخبار للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما يفتنون فيما فتنوا، و أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودتها من رداءتها، و إدخال خليطها إياها لتخلص عن خلطها، و إدخال ما تتظاهر بكونها ذهبا النار لتحرق و تفضح:

فتنة خير و فتنة شر «وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ» (21: 35) ففتنة الأولياء لظهور و ازدياد الولاء بالمحن: «وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَ أَلْقَيْنا عَلى‏ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ» (38: 34) على درجاتهم في فتنتهم الخيرة، و فتنة الكفار لازدياد الشر و البوار و لكي يعرفوا هم أنهم أهل النار، ففتنتهم على النار هي حرقهم عن آخرهم تدليلا على أن ليس في ذواتهم و صفاتهم ذهب، إلا كل عطب و نكب، و إلا حصبا لا يستحق إلا الحرق: «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ» و الكافر كله خبث و حطب فليحرق كله، و إن كانت فتنة الكفار دركات، كما أن فتنة المؤمنين درجات.

و إضافة إلى حرقهم في فتنة النار، يسمعون من الجبار في هذا الموقف العصيب، نارا على نار:

ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ‏ علاجا لتساؤلهم المتعنت الهراء، و هو من قتلهم الذي أخبر اللّه به مسبقا: قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ.. يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 314

يُفْتَنُونَ‏ و كما قتلوا قتلات عدة على طول الخط في الأولى و البرزخ و الأخرى.

و بما يلوح من سؤالكم عن وقت يوم الدين أنكم له مستعجلون، و إن كان تعنتا و استهزاء، فهذا هو الذي كنتم به تستعجلون، و كما كانت أعمالكم تعجل بكم إليه، عجلة سير الشر إلى قراره.

و حتى الآن كانت الآيات تتكدس فتتحدث عن الضفة اليسارية الكافرة، و من الآن تركز على الضفة اليمينية المؤمنة، فريق مستيقن لا يخرص، و ليس في قول مختلف آفك، و إنما مؤتلف سالك، و ليس في غمرة السهو و الارتباك، و إنما تحت رحمة الفطرة و العقل و الإدراك، مستنيرا بوحي السماء، و هؤلاء الطيبون هم المتقون:

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ‏ لا فحسب في يوم الدين، بل و في يوم الدنيا كذلك هم في جنات عقول الوحي، تجهنم عن حرق الشهوات، و عن الوسواس الخناس من الجنة و الناس، و في عيون المعرفة و الحنكة، تعينهم على نزوات الشيطنات، و من ثم فهم في الآخرة- من البرزخ و القيامة- هم في جنات و عيون، بما اتقوا دوافع الهلاك، و ابتغوا رضوان اللّه، و ترى ماذا يأخذون هناك و ماذا يرون و يسمعون؟ و لماذا؟:

آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ‏: هم في عيون في الأخرى، حال أنهم آخذون ما آتاهم ربهم، آتاهم بما وعدهم و استحقوا فضلا من ربك، و أخذوه دون مماسكة أو مماكسة، راضين عن إحسانه، ماضين في رضوانه، غير متهميه بانتقاص، و هذا الإيتاء الإحسان، و الأخذ الرضى، لأنهم كانوا قبل ذلك:- في حياة التكليف- محسنين: فيما يجب فيه الإحسان، و يحسن، و من إحسانهم النفل زائدا على الفرض أنهم:

كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ‏: فقد كان قيام أكثر الليل على النبي فرضا، و على غيره ندبا، فالرعيل الأعلى من المتقين لم يرضوا إلا متابعة الرسول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 315

صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و مشابهته، فداوموا على ما داوم عليه السّلام من قيام الليل، فالهجوع هو النوم ليلا، و هم كانوا ينامون قليلا من الليل، أيقاظا في جنح الليل و الناس نيام قائمين في عبادة ربهم.

و الليل هنا قد يكون جنسه ايضا فالمعني أنهم قليلا ما يتفق نومهم طول الليل، و كثيرا ما يستيقظون بعض الليل في العبادة «1» و قد تنافيه‏ «وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» لمكان الجمع المحلى باللام، الدال على كل الليالي، اللهم إلا جمعا بين المعنيين: كانوا قليلا من الليالي ينامون، او قليلا من كل ليلة ينامون، مهما اختص بكل قلة فريق، فهم كلهم متقون على درجاتهم.

وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ‏ فهل من ذنب و خطيئة يستغفرون؟ و هم قبلها قيام عابدون! ام من قصورهم فيما يحق للّه دون تقصير و لا تقتير؟ و هذا استغفار السابقين و اصحاب اليمين! ام دفعا عما يعتور الإنسان- اي انسان- من خطيئة او نسيان؟ فهذه عصمة إلهية! ام و من ذنوب لا يخلو عنها إلا المخلصون المعصومون؟

فقد تحصل لبعضهم و هم متقون، فان التقوى درجات كما الطغوى دركات.

ثم ترى ماذا في تخصيص الاستغفار بالأسحار، اللهم إلا خيرا ليس في غير الأسحار، و لان اكثرية النفوس الشريرة عندها نائمة و المتقون ساهرون، مما يخلق جوّا روحانيا تتجلى فيه الدعاء اكثر من غيره، و ان أفضل الأعمال أحمزها و أشقها، و هم يحرمون أنفسهم بالأسحار لذة النوم و الاستقرار، مستغفرين الرب الجبار، عله يختصهم برحمة منه و رضوان و هو الرحيم.

وَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ‏: و كما كانت أحوالهم مكرّسة في خدمة اللّه و عبادته، كذلك أموالهم، ففيها حق لأهله، معلوم و غير معلوم:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 122 عن تفسير القمى عن محمد بن مسلم قال‏ سألت أبا عبد اللّه (ع) عن هذه الآية- قال: كانوا أقل الليالي تفوتهم لا يقومون فيها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 316

معلوم كالضرائب المستقيمة المعلومة بما فرض اللّه: «وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ. لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ» (70: 25) و غير معلوم كالضرائب غير المستقيمة من الإنفاقات الهامشية في مجالها المقررة في محالها «1» للسائل و ان لم يكن محروما، و للمحروم و إن لم يكن سائلا، فلكلّ حق سؤالا او حرمانا، فهم متطوعون بفرض هذا الحق، غير المحدود في أموالهم، طالما لا حد للسؤال و الحرمان اللهم إلا حسب المستطاع، فهم يعتبرون أنفسهم في أموالهم كأنفس الباقين.

وَ فِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ. وَ فِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَ ما تُوعَدُونَ‏: لفتة الى آيات كونية: آفاقية كالسماء و الأرض، و أنفسية تتوسطهما، ففي الأرض آيات تدل على وحدانية اللّه و أنه يحي الموتى:

«و من آياته أنك‏ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى‏ وَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» (22: 5) «وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ..» (36: 33).

و هذه الآيات الأرضية حية لمن يسلكون مسالك اليقين، و ميتة للميتين، لذلك ينتقل الى آيات الأنفس قبل آيات السماء، و لان الأنفس الحية الموقنة هي التي تستفيد من هذه و تلك،

«من أبصر بها بصرته و من أبصر إليها أعمته»

- «وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ» ثم و في تتابع الآيات الثلاث ايحاء ان هناك علاقة بين الأرض و أنفسنا و رزقنا السماوي الصادرة منها لنا في الآخرة و الأولى، و في تخصيص آيات الأرض بالذكر بين سائر الآيات في الكائنات ايحاء بأهميتها من جهة، و أنها أقرب الآيات و ألمسها لسكنة الأرض لظهورها لمن على ظهورها، فالسالكون سبيل الإيقان بتوحيد اللّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ص 132 ج 28- الفرقان في ضوء الآية «وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ.

لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 317

لهم مجالات واسعة في فسيحات الآيات الأرضية، مهما عمي عنها الواقفون، المخلدون الى الأرض، التابعون أهواءهم، فهم في فرط من أمرهم.

إن أرضنا هذه معرض لآيات إلهية لم نتعرف حتى الآن إلا الى القليل منها، و على ضوء تقدم العلم نكشف على طول الخط جددا منها، كما و أن أنفسنا معارض لآيات اخرى، مثلا عن الكون أجمع، و على حد

المروي عن امير المؤمنين علي (ع): أ تزعم انك جرم صغير. و فيك انطوى العالم الأكبر، و أنت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضمر

: أسرار خفية تضم أسرار الكون كله، لا أسرار الأرض وحدها!.

إن كتابي التدوين و التكوين الإلهيين يدفعان الإنسان- متضامنين- الى اللانهاية من تقدم المعرفة و البصيرة، فالقرآن التدوين يحرك الإنسان الى التفتيش عن خفيات الآيات الكونية، باستعمال العقل و التدبر، و كل ما يملكه من وسائل الكشف و الاختراع، دون ان تبرز له النتائج بلا سعي و عمل، إلا أمهات من مفاتيح العلوم، و لكي يعيش الإنسان حياته كدحا الى اللّه، و لا يصبح عاطلا باطلا.

هنا في أرضنا آلاف الموافقات، معروفة و مجهولة، تتحكم في صلاحيتها لاستقبال هذه الحياة، لو نقصت او ازدادت او ضعفت او تخلفت واحدة منها اختلت او استحالت هذه الحياة عليها، لكنها تتدفق وفق تدبير العليم الحكيم الذي خلق هذا المحضن لهذا النوع من الحياة، نباتية و حيوانية و إنسانية ام ماذا؟.

لو قضت البشرية أعمارها، و مضت في التأمل او مجرد الإشارة الى ما في الأرض من آيات، ما انتهى لها قولة و لا اشارة، فضلا عن ان تسبح طويلا في بحار القوانين المتحكمة عليها، و أخيرا ينتهي هذا السيح و السبح الى يقين، طالما له درجات حسب مختلف المساعي‏ «وَ فِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ»!: مشاهد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 318

حية لمن يبصر بها فيتبصر، و هي ميتة جوفاء لمن يبصر إليها كحيوان، لا يدرك ما وراءها من تدبير و إبداع، و كثير هؤلاء الذين يمرون بالمعارض الالهية مغمضي الأبصار و البصائر وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ (12: 105) «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7) فهم مهما كانوا علماء، لا يفقهون من آيات الكون لغة إلا ما تدير لهم و تدبر حياة الحيونة بطنا و فرجا، لأن لمسة اليقين لم تحي قلوبهم، و لم تبث الحياة فيما حولهم.

ثم آية اخرى تدب على الأرض هي الآية الأنفسية «وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ»:

إلى آيات الأرض و بها، لتنفذوا منها الى معرفة إله الأنفس و الآفاق، الذي فطركم على معرفته، و بصركم فيها «أَ فَلا تُبْصِرُونَ»؟! و ان كان الإبصار بالأنفس أقرب:

«بَلِ الْإِنْسانُ عَلى‏ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَ لَوْ أَلْقى‏ مَعاذِيرَهُ» إلا إذ حجبت بصيرته بغشاوات الأوهام، فلو تعاونت بصيرة الإنسان و ما يريه الرحمان من الآيات الآفاقية و الأنفسية، لكان في ذلك نبو للإنسان عال: «سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» (41: 53) فالأنفس هي الذوات الإنسانية قلبا و قالبا، لا المقابلة للأجساد فحسب.

لقد أرانا اللّه تعالى آيات هنا و هناك قبل نزول القرآن، و عنده، و به، ثم يعدنا خيرا منذ نزول القرآن الى يوم القيامة انه: سيرينا آيات آفاقية و انفسية اخرى وصالا دون فصال، ما عشنا على هذه البسيطة، حتى يتبين لنا انها الحق، اضافة الى المسبقة من آيات، ما يدل على مواصلة الرحمة الالهية إلينا لو كنا نابهين! ففي تقدم العقل و العلم البشري تقدم ملموس للحصول على آيات جديدة تدلنا الى الحق اكثر مما مضى‏ «أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ»؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 319

إن آية النفس الإنسانية- روحا و جسما، قلبا و قالبا- هي الآية الكبرى إذ لا اكبر منها مهما كانت لها زملاء «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»: «وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى‏ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا»! إذ تتجاوب الآيتان ان للإنسان زملاء في‏ «أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ».

إذا فمعرفة النفس هي من أعظم أبواب المعرفة الإلهية لحد

«من عرف نفسه فقد عرف ربه»

فمن لم يعرف نفسه لم يعرف ربه:- «و في أنفسكم أ فلا تبصرون».

فهنا في النفس الانسانية آيات للموقنين كما في الأرض آيات، و اين آيات من آيات؟!.

آيات متواجدة فيها منذ خليتها الأولى، الى الأجنة، الى الولادة، و الى ميادين الحياة و حتى الموت، ما تتطلب مؤلفات عدة ضخمة معمقة، لكي تشمل طرفا من أطرافها العديدة المديدة.

ان الخلية الأولى الانسانية تحمل كل رصيد الجنس الانساني من خصائص، و كذلك ما ورثته من الجدود، ترى كيف تكمن هذه و تلك؛ و كيف تهتدي الى طريقها الطويل، فتمثلها أدق تمثيل، و تنتهي الى اعادة هذا الكائن الانساني العجيب!.

ثم ترى اعجوبات تحير العقول، و تغرق العلماء في بحور من الاحتيار، تراها في التحورات التي تتبدل فيها هذه الخلية حتى تصبح جنينا كاملا «فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ»! ثم في هذا المتحف الإلهي العظيم الذي يضم بلايين، كل فرد منها نموذج خاص يختلف عن غيره من أفراد في شكله و ملامحه، في روحه و مشاعره، في عقله و مداركه، و في كل جزء من أعضاءه حتى و في بنانه التي تختلف بصماتها مع بعض، و بصمات كل مع الآخرين: بَلى‏ قادِرِينَ عَلى‏ أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ‏! ثم ترى اعجب من الاختلافات الشكلية و العضوية، اختلافات عقلية و فطرية رغم اشتراك الكل في اصل العقل و الفطرة، كما و في اصل البنية الإنسانية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 320

وَ فِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَ ما تُوعَدُونَ‏ رزقكم الحالي ليوم الدنيا، ماديا بالأمطار و الرياح و إشراق الشمس، و معنويا بما ينزل من وحي و الهام، ثم رزقكم المستقبل: وَ ما تُوعَدُونَ‏ من جنة عرضها كعرض السماء و الأرض، و ما فيها من رحمات، و من رضوان من اللّه و هو اكبر: جنة معنوية بعد المادية وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ‏. «1»

فالسماء هنا لا تعني جهة العلو المادية فحسب لكي يختص رزقها بها حالا او استقبالا، بل و المعنوية ايضا و أحرى، فهي- ككل- سماء خزائن اللّه عند اللّه، التي تضم كل الكائنات: وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (15: 25) سواء أ كان نزولا من الفضاء العالي كالأمطار و الأنوار ام نزولا معنويا من سماء الربوبية دون أن تختص بجهة مكانية، سماوية أو أرضية كالوحي و الإلهام.

و مما نوعد هي الجنة التي عند سدرة المنتهى، فوق السماء السابعة، مما يدل على أن السماء المادية تشمل السبع و ما فوقها من الجنة المأوى.

فكما ان الرزق منه مادي و منه معنوي، ثم منهما حالي و استقبالي، كذلك السماء تشملها كلها و تشمل كل ما ينزله اللّه إلينا: من ذوات الجهات و سواها، الماديات و سواها.

لا نقول: إن السماء حيثما تذكر تشملهما، فان الآيات في خلق السماوات تختص بالمادية، و انما استيحاء من عموم الرزق، و ظاهر اختصاصه هنا ككل بالسماء، نقول هنا إنها تشملهما.

و ترى ماذا يعني رفع اليدين بالدعاء إلى السماء و ليس اللّه ساكن السماء و ما كنها؟ ذلك .. لأنها موضع الرزق، إن ماديا فأصله نازل من السماء و إن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

علل الشرايع باسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد اللّه (ع) عن جده امير المؤمنين علي (ع) قال‏ ابن سبا يا امير المؤمنين! أ ليس اللّه عز و جل في كل مكان؟ قال: بلى- قال فلم يرفع يديه الى السماء؟ فقال: او ما تقرأ «وَ فِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَ ما تُوعَدُونَ» فمن اين تطلب الرزق الا من موضع الرزق و ما وعد اللّه عز و جل السماء (نور الثقلين 5: 124).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 321

معنويا فهو ينزل من سموّ الربوبية، من مكانة عاليه و إن لم يكن من مكان عال:

اللهم‏

و اجعل ما صرحت به من عدتك في وحيك، و أتبعته من قسمك في كتابك، قاطعا اهتمامنا بالرزق الذي تكفلت به، و حسما للاشتغال بما ضمنت الكفاية له، فقلت و قولك الحق و وعدك الصدق، و أقسمت و قسمك الأبرّ الأوفى‏ «وَ فِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَ ما تُوعَدُونَ» ثم قلت: «فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ» «1».

ترى إذا كان رزقنا في السماء، أليس علينا ابتغاؤه بالكدح و السعي؟ أن تبقى مكتوفي الأيدي عن كل شغل، او ان نكتفي بالتماس الدعاء؟! كلا! «يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى‏ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ» حياة السعي و الكدح في ابتغاء الأرزاق المادية، و بأحرى المعنوية! اعتبارا أنه من أسباب إدرار الرزق على قدر معلوم‏ «وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ»: معلوم حسب الحكمة البالغة «وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ» (42: 27) فليست سعة الرزق للبغاة المحتكرين، مصّاصي دماء المظلومين، ليست هي من عند اللّه تشريعا أو تقديرا منه من عنده، و إنما بما طغوا و بغوا فامتلكوا أموال الشعوب و استغلوا طاقاتهم و استثمروهم، و إنما اللّه لا يمنعهم تكوينا بعد منعهم تشريعا، إذ

«لا جبر و لا تفويض بل أمر بين أمرين» ..

فالرزق ينزل من عند اللّه بقدر معلوم حسب الحكمة، و معلوم قدر السعي، متكلين على اللّه في ابتغاء ما عنده، دون استقلال للاتكال فنبقى دون سعى، و لا استقلال للسعي فنبقى دون اتكال، و إنما أمر بين مرين: لا اتكالية و لا استقلالية.

ثم و ليس في إلفات النظر الى رزق السماء إهمال الأرض و أسبابها، و انما مزج‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الصحيفة السجادية عن الامام علي بن الحسين السجاد (ع).

(الفرقان- م 21)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 322

أسباب الأرض بأسباب السماء، دون أن يثّاقل الى الأرض أو يخلد إليها منقطعا عن أسباب السماء، و لا أن ينقطع إلى أسباب السماء و يهمل أسباب الأرض، سواء في ذلك سماء الأرزاق المادية، أو المعنوية السامية، متسببا بها الى خالق الأرض و السماء، متطلعا إلى الرزق المقسوم و الحظ المرسوم، فليكدح في الأرض و يعمل متطلعا الى السماء، و بذلك ينطلق قلبه من إسار أسباب الأرض، و يرفّ بأجنحته الى ملكوت السماء، فعيش موصولا قلبه بالسماء، و قالبه على الأرض، و هذا هو الإيقان المنوّه في تلكم الآيات و

«إن اليقين أن لا ترضي أحدا على سخط الله، و لا تحمدن أحدا على ما آتاك الله، و لا تذمن أحدا على ما لم يأتك الله، فإن الرزق لا يجره حرص حريص و لا يصرفه كره كاره» «1»

«اطلبوا الرزق فانه مضمون لطالبه» «2»

فالرزق داخل في القضاء الإلهي دخولا أوليا ذاتيا، لا هامشيا، فإن المخلوق أيا كان لا بد و أنه مرزوق لضرورة بقاء الحياة، و الرزق أيا كان- و هو ما يمد شيئا آخر- لا بد له من رازق و مرزوق، معنويا كان أو ماديا: هواء أو ماء أو غذاء، زوجا أو لباسا أو مكانا، أو أيا كان، مما يمد الحياة و تمتد به الحياة، و إن كانت لها درجات، حسب المساعي و التقديرات.

ثم الربوبية الظاهرة في هذه الثلاث بآياتها، الزاهرة على علّاتها، إنها برهنة بيّنة ملموسة أنها حق مثل ما أنكم تنطقون:

فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ‏: ان ربوبية رب السماء و الأرض، و ربكم أنتم، تبرهن على «إنه»: الوعد و الدين، بما تدل عليهما من آيات الأرض و الأنفس «إنه لحق» لا مرية فيه‏ «مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ».

فكما أن كونكم تنطقون، هو حقيقة، دون مرية و لا جدال، كذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين عن ارشاد المفيد عن علي (ع).

(2) المصدر عن توحيد الصدوق عن علي (ع) عن النبي (ص) انه قال: يا علي! ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 323

أمر الوعد الصادق، و الدين الواقع، إذ يملك من البراهين في الأرض و في أنفسكم و في السماء، ما لا ينكره من يحترم عقله أو حسه، إلا أن يتنزل عن كونه إنسانا، بل و حيوانا!.

[سورة الذاريات (51): الآيات 24 الى 37]

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَراغَ إِلى‏ أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَ لا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (28)

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (33)

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَ تَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ (37)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 324

تسليات و تثبيتات لخاطر النبي الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باستعراض أحاديث عن النبيين مع أقوامهم، و ما لا قوه من أذى و لاقت أقوامهم من لظى، ابتداء بحديث ابراهيم لأنه شيخ المرسلين:

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ‏ ملائكة دخلوا عليه كأناسي فاعتبرهم ضيفا آدميين، فقال عنهم اللّه ضيفا كما حسبهم إبراهيم (ع) أو انهم كانوا ضيفا حقيقيين و ان كانوا ملائكة اعتبارا أن الداخل على الإنسان ضيف و ان لم يأكل أو ليس ممن يأكل، توسيعا في معنى الضيف.

و «هَلْ أَتاكَ» كاستفهام بشأن تفخيم أمر القصة، فإن هذا الحديث يضم من فخائم الأمور عظائم، و الْمُكْرَمِينَ‏: عند اللّه إذ أرسلهم الى خليله:

وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى‏ قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ ... (11: 69)

و مكرمين عند ابراهيم إذ أكرمهم قبل أن يعرفهم، تدليلا على مدى حقوق الضيف و ان كانوا منكورين لا يعرفهم المضيف.

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ‏: يرد عليهم تحيتهم بأحسن منها كما توحي به الجملة الاسمية: قالَ سَلامٌ‏ بخبرها المحذوف، الدالة على الدوام، بعد ما أوحت جملتهم الفعلية «فَقالُوا سَلاماً» بسلام غير دائم.

ثم يضيف الى اضافتهم في هذه التحية الحسنى، إضافة لهم عملية، و هو ينكرهم و لا يعرفهم:

فَراغَ إِلى‏ أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ‏ دون أن ينتظر تعريفهم بأنفسهم أو ينظر في أمرهم: فقد أدى واجبه الأول أن رد تحيتهم بالحسنى، و الثاني تقديم أدب من آداب اللقاء الإيماني: التعارف بين المتلاقين، أن يعرّف كل نفسه و يتعرف إلى الآخر، فضيفه المكرمون كانوا يعرفونه و هو لا يعرفهم، و لكنه عاملهم كمن يعرفهم.

و الثالث المبادرة إلى إحضار الطعام قبل أن يعرفوا أنفسهم، في مثلث‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 325

الإضافة المحترمة أخيرا أن راغ‏ إِلى‏ أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ‏ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (11: 69) عجل- سمين- حنيذ! و هو يروغ للمجي‏ء به الى أهله!.

فالروغ طلب بضرب من الاحتيال و التخفي، مما يوحي كأنه لم يكن لدى أهله إلا عجل واحد، أو إلا سمين واحد لا يرضون بذبحه بسهولة، و لضيف غير معروف! يجي‏ء به حنيذا: مشويا بين حجرين نظيفين، يقربه كله إليهم، و هو طعام عشرات، و هم كانوا ثلاثة فيما يقال، يكفيهم كتف من هذا العجل!.

فإلى هنا لا يظهر منه مخلفات من نكرانه لهم إلا في البداية في قوله: قَوْمٌ مُنْكَرُونَ‏ اللهم إلا كل تجليل و تبجيل يستحقه كل ضيف عزيز معروف جليل، إلى أن:

فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَ لا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً فَلَمَّا رَأى‏ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (11: 70) فالوجس هو الصوت الخفي، و الإيجاس إخفاء الصوت في النفس، مما يدل أنه كان خوفا خفيا أو مشارفا كما تعنيه الوجل، و إنما استشعر منهم الخوف، إما لأن عدم الأكل من طعام المضيف، و لحد لا تصل أيديهم اليه، ينبئ عن نية شر و خيانة، أو يلمح فيهم شيئا غريبا في نوعه، فحتى لو كانوا شبعانين، عليهم أن يمدوا أيديهم ليأكلوا و لو قليلا، أو يسفروا عن عذرهم بعد تقريب الطعام إليهم، فإذ لم تصل أيديهم اليه، و لم يعتذروا، إذا فحق لإبراهيم- و هو يعيش بين أعداء له كثير- أن يخافهم، و لكنه أوجس منهم خيفته، رعاية لهم، إلا أن ملامح الوجه بطبيعة الحال تسفر عن الخيفة الموجسة، مهما حاول الخائف في إيجاسه، فلما عرف انهم عرفوا ما أوجسه، بادر بإظهاره، و لكي لا ينافقهم في واقعه، و ليظهروه على أمرهم، حتى يعرف واجبه تجاههم بعد ما قام به من واجبه، ف قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (15: 52) مصارحة بالحق ما أحلاها، دون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 326

مسايرة بايجاس الخليفة، التي قد تخلف آثارا سيئة، حتى خبروه عن حالهم بما يحمل له بشارتين:

فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ‏:- «قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (15: 52) نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمِ لُوطٍ (11: 70).

هنا و هناك نرى شيخ المرسلين كيف يضيف ضيفه المنكرين قبل أن يعرفهم، لحد يكرمهم كما يرضى الله، إذ يعبر عنهم ب ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ‏.

ثم لما يرى منهم ما يخيفه يخفيه عنهم مغبة تكريمهم، و ألا يتأثروا بما يعرف من عجيب أمرهم، ثم لما عرفوا الخيفة الموجسة في نفسه من ملامحه، أبرزها لهم‏ قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ‏: نستشعر منكم الخوف فإن أمركم مريب، فهذه الخيفة الموجسة لم تكن خوفا ثابتا، و انما استشعارا يعنيه الوجل، و ما أعدل ابراهيم إذ لم يحصل له من أمرهم المريب واقع الخوف، و إنما مشارفته المسائلة، لا عداء لهم و امتهانا، و انما بغية ظهور الحال و علاجها، و قد عولجت بالبشارتين، أن عرفهم رسل ربه المكرمين، فاستبشر بغلام عليم، و القضاء على قوم لوط المجرمين.

وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ‏: بشارة بإسحاق من زوجه العجوز العقيم سارة، بعد أن بشره ربه قبل ذلك بغلام حليم‏ فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (37: 101) من هاجر و هو إسماعيل، قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلى‏ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ. قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ. قالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (15: 56).

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ. قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ‏:- وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 327

وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ. قالَتْ يا وَيْلَتى‏ أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْ‏ءٌ عَجِيبٌ. قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» (11: 73).

ان دور ابراهيم في هذه البشارة كان استبشارا حمله على استفسار بشأنه خاصة عَلى‏ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ دون زوجه العجوز العقيم، و لم يكن سؤاله‏ أَ بَشَّرْتُمُونِي‏ إنكارا لقدرة اللّه، قنوطا من رحمة اللّه، إذ حكم هو بضلال القانطين، و انما استعظاما للبشارة، و هل إنها حقا من اللّه؟ و هؤلاء هم رسل اللّه؟ فلمّا قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ‏ اطمأن قائلا وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ‏.

و اما زوجه فقد استغربت هذه البشارة و تعجبت منها في مثلث الاستبعاد:

(عجوز 1 عقيم 2 .. و هذا 3 بعلي شيخا)؟ قالته لما سمعت البشارة: «فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ»: في صياح شديد «فَصَكَّتْ وَجْهَها»: لطمت وجهها «وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ»؟ فانها بغتت و فوجئت بهذه البشارة و فندّت منها صيحة الدهشة، و صكت وجهها صكة الوحشة، إذ لم تكن تتوقع هكذا بشارة!.

«قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ» بما يحكم «العليم» بما يريد رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ و لقد نفذت رحمة اللّه الخاصة هنا في ثالوث الاستحالة بحساب الإنسان، فلم يمنع عقمها المزدوج: عَجُوزٌ عَقِيمٌ‏ و لا شيخوخة بعلها الخليل عن نفاذ امر الجليل.

هذه البشارة كانت بحق اسحق و في مثلث الاستغراب، و اما التي كانت بحق إسماعيل قبل إسحاق فلم تحمل خارقة للعادة، إذ لم تكن زوجه لا عجوزا و لا عقيما، و لا هو شيخا لحد الإياس، و لذلك نراه يبتدء هو بالطلب: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ .. (37: 101).

قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ‏ توحي هذه المقالة أن ابراهيم لم يعدّ بشارته‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 328

في عداد خطب المرسلين، فانه الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب، ما يوحي بأنهم أكثروا معه الحوار ليهيئوا الجو لبيان أمرهم العظيم: وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ‏ و علّه بداية الحوار، فلتستكن نفس الخليل بما أرسل به المرسلون عن الجليل.

فقد زال عنه روع اوّل، ثم ابتلي بروع ثان أروع هي قصة العذاب على قوم لوط فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى‏ يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ. إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (11: 75) مما يدل أنهم بدؤا بتعريف أنفسهم، ثم البشارة، ثم الحوار مقدمة الخطب، ثم التصريح بالخطب إذ سألهم:

قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ. قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ‏: و هم قوم لوط، ترى ما هو الدافع لاطلاع إبراهيم بهذا الخطب، و رسالة العذاب كانت على قوم لوط؟! لان ابراهيم كان رسولا على لوط و النبيين معه و بعده الى موسى، فحفاظا على كرامة القيادة العليا الرسالية، لا بد و ان يبدأ له بما يراد للقيادات الجزئية، و على الأقدام.

لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ‏:

ترى ما هو دور ابراهيم في هذا الإنذار بعد الاستبشار؟ هل يسكت راضيا عن تعذيبهم مهما كانوا مجرمين، و بعد ان رضي اللّه و أراد؟ ام يغتنم الالتماس، لعلّ اللّه يستجيب له لأنه ليست ارادة حتم؟ .. إنه يجادل ربه فيهم بالحسنى التماس العفو و تأخير العذاب: يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ‏ فحلمه يدفعه الى الجدال، و لكنه بعد ان يعرف حتم الارادة الالهية فأوّاه منيب، حليم عن المجرمين ما دام الأمل، أواب منيب الى اللّه إذا زال الأمل: يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (11: 76) كما و نجد نفس الحلم في لوط: وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِي‏ءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) إلا بعد ما تبين له كما تبين لإبراهيم من قبل، و هكذا يكون دور الرسالات مع الأمم المتخلفة، حنونة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 329

حليمة إلا إذا خاب الأمل و جاء أمر الرب و خسر هنالك المبطلون.

حِجارَةً مِنْ طِينٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ. و هي منضود» إنها حجارة تخلق من تحجر الطين، المعبر عنها بصيغة أخر ب. سجيل: «فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ» (15: 74) «... مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» (11: 82).

و كما أرسلت على أصحاب الفيل‏ «تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ» (105: 4) و هو معرب (سنك كل) الفارسية: حجر الطين، فهل ان حجر الطين أصلب و أقوى من سائر الحجر و كيف؟! و بما أنه متحجر عن طين في ضغوط جوية أو تحت الأرضية، و في حرارة خارقة، إذا فلا بد و أنه أصلب من سائر الحجر، دون الطين الذي يتحجر بمرور الزمن، و بتعامل الموافقات فانه أوهن من الحجر الأصل و لا شك.

و السجيل هذا قد يرسل على المجرمين من الفضاء، من مقاذف الكواكب التي ترمي إلى الشياطين، فالمحترقة منها في الأجواء هي الشهب و النيازك النارية، و الواصلة منها إلى الأرض هي الأحجار السماوية التي قد ترمى إلى المجرمين، فهي باحتراقها في الجو، و تبدّل قسم من سطوحها الخارجية الى الرماد، و مرورها على المياه و الرطوبات، ثم رجعها الى الحالة الصلبة الحجرية تحت عامل الحرارة و السرعة، بعد ذلك تتصلب، و علّها أكثر مما كانت، حين انفصالها عن مقاذفها، و هذه صورة من صور اصطناع حجارة من طين.

و قد يكون مرسلا من باطن الأرض، حجارة بركان ثائر يقذف بالحمم الطيني من جوف الأرض، ترسل من قاذفات البراكين، إلى جماعة من المجرمين.

و قد يكون مصطنعا من غبارات منتشرة بين الأرض و السماء، من الأرض أو السماء، تتحجر تحت ضغوط جوية و موافقات و منها الحركة و الحرارة و الرطوبة و الرياح.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 330

و أيا كان سجيل المجرمين، فليكن أصلب حجر و أقواه و أشده إيقاعا و كما في قصة أبابيل، المرسلة على أصحاب الفيل‏ تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ‏ ترى كأنها قنابل ذرية لا تبقي و لا تذر.

ثم السجيل‏ «مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ» كما هنا، «وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» كما في هود 11: فلتكن محضرة قرب الظالمين، و معلمة للمسرفين، دون فوضى فيها و لا في إرسالها، و لا المرسل بهم، و المرسل إليهم، و زمان الإرسال و مكانه، و قدر الظلم و الإسراف: مسومة: معلمة عند ربك للمسرفين: المجاوزين الفطرة و العقل و الدين، و معلمة للظالمين: المنتقصين، علّ كل طائفة منها لها علامة تخص طائفة من الظالمين المسرفين، أو أن كل واحدة منها تحمل علامة لكلّ منهم، فهي مسومات، كما أن المسرفين دركات، لكلّ ما يستحقه من سجيل و أصل التسويم هو في تسويم الخيل للحرب، أي تعليمها بما تتميز بها من خيل العدو، شبهت بها هذه الحجارة لأنها معلمة بعلامات تدل على مكروه المصابين، فإرسال هذه للهلاك كإرسال تلك للعراك.

و هي كذلك منضودة: ركاما بعضها فوق بعض، إن في السماء أو في باطن الأرض ... جنود ربانية تصدر عن مصدر العزة فتذل المسرفين الظالمين.

و لقد كان أمطار السجّيل تتمة التدمير بعد الصيحة: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ. فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ» (15: 75) و ترى كيف ابتداء العذاب؟:

فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ‏: و هم آل لوط إلا امرأته، فقومه تآمروا في إخراجهم تخلصا منهم: «فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ» (27: 56): إخراج مهانة، و لكن اللّه تكفل لهم إخراج كرامة: «فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ» (27: 58) «.. كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ» (7: 83) أجل- أهله- آله فحسب، كانوا من المؤمنين الذين وجدهم اللّه:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 331

فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ‏: هم آل لوط أنفسهم و كان الخروج ليلا «... فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» (11: 81) «وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ» (15: 65).

وَ تَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ‏ و الآية هي تدميرها التي تضم آيات، و الخائفون العذاب الأليم هم المؤمنون: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ. فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ. وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (15: 77).

فالمتوسمون و هم المتأثرون يستفيقون من آيات سدوم، فالمؤمن يزداد إيمانا، و من غير المؤمنين من هم يؤمنون، و منهم من يتأملون.

[سورة الذاريات (51): الآيات 38 الى 60]

وَ فِي مُوسى‏ إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى‏ فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَ قالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ (40) وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) ما تَذَرُ مِنْ شَيْ‏ءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42)

وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَ ما كانُوا مُنْتَصِرِينَ (45) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (46) وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ (47)

وَ الْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ (48) وَ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَ لا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51) كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52)

أَ تَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (53) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ (54) وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى‏ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55) وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (56) ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57)

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (59) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 332

وَ فِي مُوسى‏ إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى‏ فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ‏:

كما تركنا في قرية لوط آية للمؤمنين، كذلك تركنا في موسى و عاد و ثمود آيات لهم علّهم يتذكرون، و سلطانه المبين هو مجموعة السلطنة الروحية ببرهانه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 333

القاطع القويم، و آياته الخارقة الحسية بعصاه التي تبدلت الثعبان العظيم، و سواهما من آيات، ترى ما كان دور فرعون الطاغية أمام هذا السلطان المبين، الذي ابان الحق بكافة جلواته؟.

فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَ قالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ‏: تولى عن الحجة و السلطان المبين، و الرسول الأمين، ترى بأي سناد؟ بسناد ركنه، و هو جانب الشي‏ء الذي يسكن اليه و يعتمد عليه، من عقله الغارب و عقلاء حزبه! و لم تكن حجتهم إلا فريتهم انه‏ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ‏ اعتذار كل عاجز مرتكس العقل، منتكس القلب، لا حجة لهم إلا الخناء و الفرية، و إلا الضرب بالقوة إذ لا يفهمون لغة الإنسان.

إنه تولى بركنه بنفسه و حزبه الذي يركن إليهم، لا إعراضا عن حجة الحق فحسب، بل و ملاحقة لأصحاب الحجة أيضا قتلا و تدميرا أو تسفيرا، حتى جاء أمر اللّه و خسر هنالك المبطلون: فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ. وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (44: 24):

فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ‏ نفسه: إذ ألام نفسه حين أدركه الغرق: وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْياً وَ عَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ‏ فهذه الامة نفسه، ثم يلومه ربه‏ آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (10: 91) فالمليم هو الآتي بما يلام عليه، فمن قبل لامه ربه بما طغى، و هنا هو يلوم نفسه إذ يتوب، ثم يلومه ربه أنها لا تنفعه عند رؤية البأس، و هذا مثلث اللوم ابتلي به فرعون المليم! ثم نرى الآية الباقية هنا للذين يخافون العذاب الأليم، أنها جسد فرعون الباقي حتى الآن: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 334

(92) «1» و إنها كذلك آية للطاغين، و إن كان لا يتذكر بها من غرب عقله و عزب ضميره.

وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ‏: و آية ثالثة في عاد إذ ...

(ريح عذاب لا تلقح شيئا من الأرحام و لا شيئا من النبات و ما خرجت إلا على قوم عاد) «2»

: عقيم لا تحمل الأمطار، و لا تلقح الأشجار، و لا تعود بخير، و لا تنكشف عن عواقب نفع، فهي كالمرأة التي لا يرجى ولدها، و لا ينمى عددها:

سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى‏ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ (69: 8).

ريح عقيم تعقم عن الحياة، و ترجع بذوي الحياة و كذا الأموات الى الرميم:

ما تَذَرُ مِنْ شَيْ‏ءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ‏: وي كأنها ريح الجحيم! لا تحمل ماء و لا حياة، و إنما مماتا، ترمّ ما تأتي عليه و تحوله فتاة (جند من جنود الله) «3» تمشي و تمضي كما أراد اللّه، الى تنفيد نقمة الموت او رحمة الحياة، و كما أن ريح الرحمة من الآيات كذلك ريح العذاب التي اعتبرت في عاد من الآيات:

«وَ فِي عادٍ ..» آية للمتوسمين، مؤمنين ام فاسقين.

وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ‏: و آية رابعة في ثمود إذ: قال لهم صالح بعد ما عقروا الناقة: «تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ» (11: 65) و من متعهم الممنوحة فيها، محاولة التوبة في هذه الفرصة، و هي من الهداية الإلهية: «وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى‏ عَلَى الْهُدى‏» (41: 17):

فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ‏: إذ أمرهم ربهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و لقد رأيته أنا في متحف الآثار المصرية بقسم الموميا و قرأت هذه الآية بمجمع كبير من السوّاح و احتاروا من هذا التصادق العجيب بمن فيهم من مختلف الطوائف و الأديان.

(2) نور الثقلين 5: 401 عن روضة الكافي عن الامام الباقر (ع) راجع ج 29: 85 الفرقان، و ج 30: 309 تجد تفاصيل عن عاد.

(3)

نور الثقلين 5: 128 عن الامام الباقر (ع): ان للّه عز و جل جنودا من الريح يعذب بها من عصاه ..

و

فيه عن علي (ع): الرياح خمسة منها الريح العقيم فتعوذوا باللّه من شرها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 335

بعد طغواهم بالتقوى في هذه المهلة، توبة الى اللّه ليتوب عليهم، لكنهم عتوا بعد ما طغوا: نشزوا و نبوا، رغم انهم ندموا بعد عقرهم‏ «فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ» (26: 157) و لكنهم لم يتوبوا و يستغفروا رغم ما أمروا و أمهلوا! «لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (27: 46) «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ»- «فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ» (69: 5) «وَ هُمْ يَنْظُرُونَ» الى الصاعقة الطاغية كيف تأخذهم بطغواهم، فيا لهم من طغواهم! فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَ ما كانُوا مُنْتَصِرِينَ‏: من قيام: لا عن مواضعهم من وطأة الواقعة، و لا عن قريتهم فرارا عن الصاعقة، و لا قياما في مكافحة الصاعقة، و لا فيما يردها على اعقابها بتوبة؛ إذ مضى وقتها، «وَ ما كانُوا» في حالتهم الطاغية «منتصرين» من الريح و الصاعقة الطاغية و لا على طغواهم بالتوبة و «ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ‏: و أهلكنا قوم نوح، اذكر قوم نوح، من قبل هؤلاء الأقوام. أهلكناهم لأنهم كانوا قوما فاسقين: خارجين عن طاعة اللّه، فإهلاكهم كذلك آية و كما بقيت على شي‏ء من انقاض السفينة حتى الآن: «فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ» (29: 15) «1».

وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ‏ السماء منصوبا بالمفعولية معطوف على الآيات المسبقة، الآفاقية و الأنفسية «و في الأرض .. و في أنفسكم» ففي بناءها و توسيعها آيتان من آي القدرة و الرحمة الإلهية، تتأيدان بتقدم العلم، و لا سيما الثانية: ان المملكة السماوية في توسع دائم، فاسم الفاعل موسعون و لا سيما بتاكيديه: (نا) (ل) يوحي بدوام التوسيع: (نظرية التوسعة)!.

ترى إن اتساع مملكة السماء يعم طباقها السبع أيضا، كما يعم أجواءها و كراتها، و لتصبح ثماني او اكثر؟ و قد لا تنافيه الآيات المستعرضة لخلقها سبعا لأنها في عرض‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 29: 90 تجد فيها بشارة محمدية باللغة الآرامية على لوحة من سفينة نوح.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 336

بدايتها! إلا أن الحاكية عن كونها سبعا عند نزول القرآن: تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ .. (17: 44) متجاوبة مع المصرحة بمنتهى المعراج و هو الأفق الأعلى‏ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى‏. عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى‏ قد تنافي ازديادها على السبع كنقصانها، اللهم إلا في توسيع جنة المأوى، المحيطة بالسابعة، الواقعة على صرحها، و هي من ضمن السماء.

ثم ترى إن اتساعها هو منذ سبعها؟ ام منذ خلقها؟ إن إفراد السماء هنا يوحي بانه منذ خلق الدخان (الغاز) السماوي، الثائر من تفجر المادة الأم (الماء) فمن توسيعها جعلها سبعا، ثم خلق أنجمها: ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (41: 12).

ثم السبع بجنتها المأوى، و بأجوائها و أنجمها مستمرة في التوسع الى قيامتها، و العلم حتى اليوم لم يكشف النقاب إلا عن شي‏ء من توسعها في أنجمها و اجوائها.

إن آخر ما انتجته التحقيقات الفلكية ان (قطر كل سلسلة سحابية من الجزائر السماوية أربعون الف سنة ضوئية، و القسم المركزي منها كتلة نارية الكترونية ذرية، تدور عليها السلسلة السحابية، و نتيجة للدوران تنفتح و تنتشر القطر السحابي الحلزوني لحد ما، و تصبح كقطع سحابية مضيئة، أو مجموعة كواكب، و بعد آلاف الملايين من السنين ينمحي المحل الأصل للسلاسل الحلزونية، و بدلا عن القطع المضيئة التي هي مراكز الكواكب و أصولها، تظهر في صحنة الفضاء كواكب منفردة، و هكذا يكون دوران المجموعات السحابية مولدة للكواكب و سائر النقط النورانية في الفضاء).

كما و ان بعض الكواكب تقوم قيامتها قبل القيامة الكبرى، إلا أن المواليد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 337

منها أكثر من الأموات، و إلا لم يكن لتوسع المملكة السماوية من معنى!.

ثم الأيدي الإلهية المبنية بها السماء، و الموسعة بها، هي أيدي العلم و القدرة و الرحمة و الحكمة، كما أن (نا) هنا و هناك، توحي بأن اللّه جمع في هذه السماء، كما في الأرض و أنفسكم، جمع كافة أياديه و رحماته، الممكن جمعها في الخلق، فما هو بالخلق و على الخلق بضنين!.

وَ الْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ‏: توحي بأن الأرض لم تكن مفروشة ممهدة لأهليها منذ خلقت و لفترة لا نعلم عنها شيئا، ثم شاءت إرادة الرحمة الإلهية أن تفرشها و تمهّدها للأهلين، و لا سيما لنا كما جعلت كذلك ذلولا: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ (15) «1» أعدها اللّه مهدا ذلولا، و هما يوحيان باليسر و الراحة فَنِعْمَ الْماهِدُونَ‏ بما خلقنا مهدا ناعما و محضنا رفيقا.

وَ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ‏ آية عديمة النظير في كيفية البرهنة على وجود اللّه و توحيده، تحمل أعمق الأدلة الواقعية و العقلية الدالة على اللّه: «ظاهرة التركب في كل شي‏ء»! ما يدل دلالة قاطعة لا محيد عنها على الحاجة الذاتية في كل شي‏ء، في أعماق ذاته، إلى ما وراءه، الذي يباينه في كيانه‏ «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ»؟

هذه الآية تتطلب في إيضاح ما تعنيه دراسة واسعة عميقة فصلناها في (حوار) «2» و نستعرض هنا ما يناسب موسوعتنا، صادرين عن آيات اللّه لبينات.

إنها تحكم على كلّ شي‏ء بكونه زوجين، بغية التذكر: أن الكل فقراء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع الفرقان- ج 29 ص 37 حول آية الذلول.

(2) راجع كتابنا: (حوار بين الإلهيين و الماديين) ص 211- 228.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 338

إلى اللّه، فالفرار عن الكون الفقير اللاشي‏ء، إلى المكوّن الغني الذي خلق كلّ شي‏ء.

«مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ»: ما كنا نعرفه، و ما عرفناه بالجهود العلمية، و ما نحن في سبيل معرفته، و ما لن نعرفه لاختصاص معرفته بمكونه: «سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ» (36: 36): ما لا يعلمونه حالا، أو و لا استقبالا، لاستحالة أن يعلمه إلّا اللّه كالمادة الأمّ: المادة الأولية الفردة التي خلقت لا من شي‏ء، و منها يخلق كلّ شي‏ء، فلا يعلمها إلا الخلاق العليم، مهما علم الخلق عن مواليدها شيئا.

فالشي‏ء- أيا كان- كيانه أنه زوجان، في أقل تقدير، شريكان في كونه و كيانه، لولاهما أو أحدهما، لم يكن هو شيئا قط، أو ليس هو ذلك الشي‏ء.

إن الشي‏ء المادة كسائر المواد، أو المادي كسائر الأرواح، إنه ككلّ و دون استثناء، محكوم بازدواجية الكون و الكيان، كيفما كان و أيا كان، فلا تجد، و محال أن تجد: خلقا هو فرد كائن واقع دون قرين، و إن كان في المادة الأم نفسها، كما و أن الزوجية و التركّب و الأبعاد لزام الكيان المادي ما دامت كائنة، فإذا زالت عن الوجود زالت الزوجية كما تزول المادة نفسها، و كما أنها توجد لأوّل و حلة مركبة الكيان.

ان ازدواجية كيان المادة قد تتبنّى كونها كأصل، و لأوّل ظاهرة من مظاهرها كالمادة الأم، و قد تتبناها كحالات غير أوّلية، كالحالة الشخصية:

موجبة أو سالبة، كأجزاء للذرات، ثم الذرية، ثم الجزئية، ثم العنصرية، ثم العناصرية، و لا بسيط مستحيل التجزؤ فيزيائيا هنا و هناك، اللهم الّا المادة الأمّ بزوجيها، فإن تجزئتها هي إعدامها، كما أن إيجادها هو خلقها زوجين توأمين، ثم و ليس لكل من زوجية زوجان، كما لا يمكن كون كلّ منهما بكيان مستقل عن زميله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 339

لقد كانت البشرية تزعم أن العناصر الأربعة بسائط، إلى أن كشفت النقاب عما دونها من جزئيات، ثم عن ذرات انهتها حتى الآن إلى زهاء 106 ذرة، زاعمة أنها بسيطة: أجزاء لا تتجزى، و أقل تراكيبها هما الشحنتان: الموجبة البروتونية، و السالبة الإلكترونية، ثم ظهرت على أجزاء أخرى لها كالنيوترون و البوزيترون، و استطاعت أن تفتح القلاع الذرية بمدفعيات جبارة علمية، فتجزئها إلى شي‏ء من أجزائها، و تبديل عناصر إلى أخرى بقذف القلاع الذرية في نواتها، و قد سماها العلماء بالكيمياء النواتي.

فالبشرية على ضوء العلم و الجهود الجبارة استطاعت حتى الآن أن تعرف تراكيب و أزواجا فيما لم يكن بحسبان: «مِمَّا لا يَعْلَمُونَ» و لكن هل للإنسان أيا كان، و كيفما تقدم في العلوم، أن يعرف حقيقة المادة الأم فضلا عن زوجيها؟

من المؤكد أنها «مِمَّا لا يَعْلَمُونَ» نهائيا، فإن المادة الأم هي ملكوت المادة، مما يختص علمه بالخلاق العليم.

إن الذي يستحق اسم الشي‏ء، المحكوم عليه بازواجية الكيان، ليس إلّا المادة الأم، و بأحرى مواليدها الذرات بأجزائها، و الجزئيات، و سائر العناصر، و أما الزوجان للمادة الأم، فهما معا شي‏ء و أم الأشياء، و أما كل واحد منهما مستقلا عن الآخر في واقعه فليس شيئا حتى يحمل زوجين أم سواه، اللهم إلّا في تصور مبهم في أعلى صروح العقل، أما في الواقع الخارجي فليس بالإمكان كونه و لا كيانه إلا مع زميله التوأم، كما يخلقان معا هوية و زمنا، و يعدمان كذلك مع بعض.

و إذا سئلنا: ما هي حقيقة كلّ منفصلا عن الآخر؟ فالجواب أن لا حقيقة إلا الخيال! .. و إذا كان عدما، فكيف بالإمكان أن يتحصل من توأمين عادمين كائن مادي يحمل زوجين كائنين؟ فالجواب: أنهما معا خلقا لا من شي‏ء، لا من شي‏ء كان قبلهما، لا من اللاشي‏ء، و إنما: لا من شي‏ء، فكل منهما إذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 340

قبل الانضمام، إنه قبل الوجود، كسائر الأعدام الممكنة الوجود، و هما حال الانضمام موجود واحد، و كل منهما مستقلا عن الآخر مستحيل الوجود، و مع حال الآخر مندغم الكيان معه كالعكس، فالمجموع- إذا- مادة فردة هي أم المواد، و كل منهما مادي، لا مادة و لا لا مادة، ليس مادة لعدم تركبه و المادة مركبة أيا كانت، و لا لا مادة تعني العدم المطلق لأنه موجود ضمن المادة الأم، أم بصيغة أخرى، هما موجودان معا بعد خلقهما كمادة واحدة أمّ، و هما معدومان معا قبل خلقهما، ثم لا برزخ بين حالتي الوجود و العدم، إلا فرض انفصال كل عن توأمه، فرضا غير واقع مع الحفاظ على كيان الأم، و فيما يكون واقعا فليس إلا بإعدامها بإعدام الأم.

و من ناحية أخرى إن القول باللانهاية في أجزاء المادة ممكنة التجزؤ أم مستحيلته، انه قول بجمع الأجزاء المادية اللامحدودة في المواد المحدودة، جمعا بين المتناقضين، و هو يحيل الكيان المادي على أية حال.

و فيما إذا سئلنا: هلا يمكن تجزئة المادة الأم، و إن كانت بالقدرة الإلهية؟

فالجواب: إن التجزئة هنا بمعنى انفصال الزوجين و بقاءهما أو أحدهما منفصلا عن الآخر، إنها مستحيلة و ليس للمحال جواب! و هي بمعنى انفصالهما عن الوجود، و انعدام المادة الأم جذريا، إنها بهذا المعنى ممكن، إذ القادر على الإيجاد قادر على الإعدام، لو صح التعبير عن إعدام المادة الأم بتجزئتها! و لكنه إعدام لها كما أوجدت، أوجدت زوجين مع بعض، و تعدم كذلك زوجين مع بعض، و ليس لأحدهما كيان مستقل عن توأمه واقعا على أية حال.

و فيما إذا سئلنا: ترى كيف بالإمكان أن تكون المادة الأم ذات زوجين فقط، و الكيان المادي لزامه- أيا كان- أبعاد ثلاثة، و كيف يحمل زوجان بسيطان أقل من ثلاثة أبعاد.

فالجواب: أن الثلاثة لزام مواليد الأم، الزائدة في تراكيبها عنها، و أما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 341

هي فيكفيها بعدان، و هما أقل تقدير للكيان المادي، بعدان فيزيائيان، أم هندسيان! و قد يعنيهما الامام علي عليه السلام في‏

قوله: (.. دالة بتفريقها على مفرقها و بتأليفها على مؤلفها و ذلك قوله عز و جل: «وَ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» ففرق بينها و بين قبل و بعد ليعلم أن لا قبل له و لا بعد ..) «1».

و

الإمام الرضا (ع) في قوله: «فرق الله بالأشياء بين قبل و بعد ليعلم أن لا قبل له و لا بعد»،

إذ يفسران الزوجين بقبل و بعد: بعد ان هما لزام المادة في كيانها الذاتي الأولي، سواء أ كانا زمنيين، فلكل كائن قبل- إذ لم يكن- و بعد فسوف لا يكون، و اللّه تعالى قبل القبل أزليا و بعد البعد أبديا، أو كانا ماهويين داخل الذات و هما البعدان فيزيائيا، أم هندسيا، بعدان مكانيان قبل و بعد، و اللّه تعالى خارج عن المكان و عن الأبعاد أيا كان.

و أخيرا ما هي الصلة بين الزوجين هذين و بين تذكر الألوهية وراءهما و الفرار إلى اللّه منهما؟.

أقول: إنه تذكر للغافلين عن الحيطة الربوبية بالأشياء، إن الفقر و الحاجة مندغمان في أصول كيان المادة، و لنأخذ المادة الأم- و هي أغنى المواد و أولادها- مثالا لهذه الذكرى.

هذان الزوجان كما عرفناهما، كل منهما ليس في ذاته إلا (لا) لا يملك كونا و لا كيانا فضلا عن تكوين زميله، و كل منهما متوقف في كونه على الآخر كالعكس، لا توقف المعلول على علته، إذ لا تتصور العلية لما ليس له نصيب من الوجود، و لا المعلولية لما لا يمكن أن يوجد مستقلا عن زوج، إذا فكل منهما بحاجة إلى زميله في إمكانية إفاضة الوجود عليه، فلا تجد هنا و هناك إلا فقرا،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

التوحيد للصدوق باسناده عن الامام الصادق (ع) قال: بينا امير المؤمنين يخطب على منبر الكوفة إذ قام رجل ... فقال: يا امير المؤمنين! هل رأيت ربك؟ فقال ...

و هي خطية توحيدية عظيمة .. (راجع كتابنا «حوار» في شرح الخطبة).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 342

فإمّا أن يحرما عن الوجود، أو يفيض لهما الوجود خلاق الوجود، أ فليست هذه الزوجية في كل شي‏ء، هي التي دلتنا على الحاجة الذاتية في كل شي‏ء؟

الى م؟ هل كل إلى مثيله؟ و الفقر مع الفقر لا يزداد إلا فقرا! أم إلى غير مثيله؟

فهو اللّه تعالى شأنه الذي‏ «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ»! «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ»: فرار العاقل المتذكر، من اللاشي‏ء إلى من خلق كلّ شي‏ء لا من شي‏ء، من الفقر المحض إلى الغنى المطلقة، من الكائنات- كل الكائنات- التي هي أزواج، و لا أقل من زوجين، إلى الواحد الأحد الفرد الصمد ممن لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا و لا موتا و لا حياتا و لا نشورا، إلى من بيده ناصية كل شي‏ء.

ترى هل توجد غنى ذاتية في أيّ شي‏ء، و الزوجية آية الحاجة في كل شي‏ء؟

سواء أ كانت في المادة الأمّ حيث الزوجان هما كيانها كأم في أصل كونها! و إذ لم يكن إفاضة الوجود من كل للآخر لمكان استحالتين فهي بحاجة ماهوية إلى ما وراءها من كائن ليس زوجين و هو اللّه الفرد الأحد.

هنا لك استحالة أولى هي علية اللاشي‏ء، فإن كلا من الزوجين مستقلا عن الآخر ليس شيئا، و استحالة ثانية هي لزوم تقدم الشي‏ء على نفسه لو اعتبرنا كلا منهما شيئا، أن يكون الشي‏ء علة لما هو معلول له، فحال كون أحد الجزئين علة للآخر يجب تقدمه عليه، و حال كونه معلولا له يجب تأخره عنه، و لزامه تقدم و تأخر شي‏ء عن آخر، و النتيجة تقدم الشي‏ء على نفسه و تأخره عنه! هذا هو الفقر الذاتي في المادة الأم، و بأحرى في مواليدها، فالشحنة في كيانها الخاص بحاجة إلى ازدواجية ما، و كذلك الذرة، و الجزئي، و مختلف العناصر.

فأي باب ندق من كائنات العالم نسمع صرخات الفقر و العدم من ذواتها، فإلى من هي مفتقرة إلا إلى الغني المطلق؟ «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ»؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 343

و هنا التعبير بالفرار لطيف جدا، و عجيب حقا، فهو يوحي بالأثقال و الأغلال التي تثقل و تغل النفوس البشرية إلى هذه الكائنات الحقيرة الفقيرة، فتأسرها عن الانطلاق، و نحصرها في عقال الأوهاق، و تنسي أخيرا أن لها ربّا! فلا بد- لكي نتحلل عن أسرها و حصرها- أن نعرفها أولا بالفقر و العدم الذاتي، ثم نفر بكل ما نملك من سرعة و جلادة، إلى اللّه الذي خلقها و يفيض لها دائبا، نفر بأجنحة العقل و اللّب و العلم، مستخدمين كافة الطاقات، و لكي لا نرجع مغلولين لو تباطانا في السير، أو أخطأنا المسير، و اللّه هو الولي القدير، «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ ...»:

ثم الفرار إلى اللّه درجات، كما الفرار عنه دركات، فأولى درجات الفرار إلى اللّه رفض الشركاء و الأنداد عنه، و أشرفها و أولادها الفرار عما سوى اللّه، و عن نفسك أيضا، إلى اللّه، و إلى حد الدنو و التدلي‏ «ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى» أن يصبح كله معرفة للّه، و عبادة للّه، ناسيا نفسه إلا تذرعا بهما إلى ابتغاء مرضاة اللّه، و من صح فراره إلى اللّه صح قراره مع اللّه، فلا تجد فيه حالة مع من سوى اللّه إلا الفرار، و مع اللّه إلا القرار.

وَ لا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ‏: فتعدد الآلهة يزيف مكانة الألوهية، و يجعل كلا من الشركاء قرينا و زوجا للآخر، فيعود الكل محتاجين كالخلق، نتيجة الزوجية و التعدد: «لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا»: الآلهة إلا اللّه، كما فسدتا الأرض و السماء، فكيف يكون التركب و ازدواجية الكيان دليلا على الفقر و الحدوث في غير الآلهة، و ليس فيهم أنفسهم؟!.

كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ‏:

قولة كافرة ساخرة مائرة من مكذبي الرسل طوال التأريخ، كأنهم تواصوا بها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 344

و تواطئوا عليها!: «ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» بحق الرسل و الرسالات الإلهية، و لكي يتخلصوا بهذه الرمية الجنونية عن أسر التشاريع و حصرها إلى حريات الإباحيات اللامحدودة، التي تجعل من الإنسان حيوانا وحشيا و أشرس و أطغى!.

أَ تَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ‏: كأنما تواصوا بهذا الاستقبال لرسل اللّه على مدار الزمن، و لكنهم أينما كانوا مجتمعين؟ و هناك مفرقات الزمن! فلا تواصي واقعيا، و إنما هي طبيعة الطغيان تجمع بينهم في فريتهم هذه، طبيعة النشوز عن الحق، متجاوبة مع العجز عن رد الحجج البالغة، تخلقان على مدى القرون رفض الرسالات بتهمة السحر او الجنون، فالسحر خلو عن أية حقيقة، و الجنون لا يعرف الحقيقة- كيف و العقل أحيانا يشذ عنها فضلا عن الجنون، مما أجمعت البشرية على رفضها، و هكذا يشوّه للطغاة سمعة الحق، فيضللون الجهال «فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه و نجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى».

و حينما يصل أمر الطغيان و التعامي عن الحق الى هذه الدركات و الدمدمات:

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى‏ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ‏ تول عن تذكير هؤلاء الأوغاد الطغاة، الذين لا تزدادهم الذكرى إلا عتوا و نشوزا «فما أنت» إذا «بملوم» حيث اللوم ليس إلا على من قصر فما ذكّر و ما أنذر، و أما أنت فقد بلغت من الذكر الإنذار مبلغه الأخير، فمسموح لك حينئذ أن تتولى عنهم، و تواصل في تذكير من سواهم غربلة لهم علهم يتذكرون‏ «وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى‏ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ»: الذين يؤمنون بالحق إن وجدوه، فلا يدفعك اليأس عن الطاغين، ان تتوانى في تذكير الباقين، و هكذا تكون الذكرى دوما، ان تكون الإيمان الفعلي لمن يتحرى الحق فتذكره، و تزيد في ايمان الماضين في الإيمان، الماشين على صراطه، و تظهر طغوى العاتين المتواصين على الحق، مثلث النفع للمؤمنين: فالذكرى نفاعة للمؤمنين- أيا كانوا- في أنفسهم، و تنفعهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 345

ضد الكافرين إذ تظهر المستور من غيهم العامد، و كل ما ينفع المؤمنين فهو يضر الكافرين.

ان مهمة رسل اللّه هي التذكير و الإنذار و التبشير لتحقيق الغاية القصوى من خلق المرسل إليهم:

وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ‏ إن الحكيم لا يفعل فعلا إلا لحكمة و عائدة، راجعة اليه ان كان مستكملا لنفسه كسائر الخلق، ام الى غيره ان كان مكملا له دون ان يعود اليه، لكماله و غناه كما اللّه و هكذا تكون أفعال اللّه تعالى فانه الغني المفيض، و الخلق فقراء يفاض عليهم.

و عبادة الجن و الإنس للّه تعالى، فائدة عائدة إليهم لا إلى اللّه، و ان كانت غرضا لخلقهم مقصودا، و كما توحي به «ليعبدون»: أن لخلقهم غرضا هو أن يعبدوا، فالخلق منه تعالى، و العبادة منهم، فعائدة إليهم، فلم يقل «لأعبد» كيلا يظن أنه هو المقصود من خلقهم، أن يصبح معبودا لهم كما كان معبودا لسواهم، فليس للّه تعالى نصيب من عبادتهم، و لا يريده: «ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ»: معنوي‏ «وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ» من رزق مادي، و من المعنوي استكماله سبحانه بان يعبد، فهو لا يريد إلا استكمال الخلق بان يعبدوه، لا استكماله بأن يعبد، فقد كان و لا يزال معبود الملائكة المقربين، الذين لا كيان لهم إلا عبادة رب العالمين، فما هي عبادة الجن و الإنس بجنبها إلا هزيلة قليلة، اللهم إلا المعصومين منهم و هم الأقلون.

و عبادة اللّه لخلقه لا تعني إلا اتقاءهم- على ضوئها- عما يضرهم او يصدهم عن الكمال و الاستكمال، فهي لا تقي إلا صاحبها دون سواه: يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (2: 21):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 346

اعبدوه لعلكم تتقون- خلقكم و الذين من قبلكم لعلكم تتقون، و لا ذريعة للتقوى إلا العبادة، ترى أن تقوى العابدين عما هم يحذرون، هي راجعة الى رب العالمين؟! فالعبادة، و التقوى الناتجة عنها، هي الهدف الرئيسي من خلق الجن و الإنس، و هي الرحمة المقصودة من خلقهم: وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ (11: 119) خلقوا للرحمة، لا للعذاب و منه الاختلاف، و ان كان الكثير منهم يميلون للعذاب بما قدمت أيديهم، و كأنهم ذرءوا لجهنم: وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ‏ لا ذرء و خلقا هادفا للعذاب، و انما للرحمة، و لكنهم- لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (7: 179).

انه ليس من اللّه إلا ان يعبدوه و يتقوا فيرحموا و يثابوا، و كما فطرهم على معرفته و عبادته‏ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (30: 30) و كما زادهم هدى مجملة الرسالات و مختلف ألوان الدلالات، و لكن أكثرهم عموا و صموا و استحبوا العمى على الهدى.

فخلقهم للعبادة و التقوى، و دلالتهم لها، عمل إلهي أصيل، و رحمة إلهية اصيلة، ثم ذرئهم لجهنم ليس أصلا في خلقهم، و انما كنتيجة لطغواهم، فلم يخلقهم إلا لتقواهم، لا كالأنعام او أضل، و انما في أحسن تقويم‏ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ‏ كأصل إلهي‏ ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ‏ كجزاء لما قدمت أيديهم، و ان اللّه ليس بظلام للعبيد.

ترى لو أجمع الجن و الإنس على الكفر باللّه هل يضرونه في ذاته او صفاته؟ ام لو أجمعوا على عبادته هل ينفعونه شيئا؟ كلا! وَ قالَ مُوسى‏ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (14: 8) «إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 347

عَنْكُمْ وَ لا يَرْضى‏ لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ..» (39: 7)

فكفركم عليكم لا عليه، و شكركم لكم و ليس له.

إذا فالعبادة و التقوى هي الغاية الوحيدة المعنية من خلقة الجن و الانس، تتمثل في عقائد و أعمال و أقوال و احوال، من قام بها و أداها فقد حقق غاية خلقه، قدر القيام و الأداء، و من قصر فيها او نكل عنها فقد أبطل معنى خلقه و ظلت حياته فارغة مما اراده اللّه، خاوية عما هيأه اللّه.

و لا تحصر العبادة بالعلاقات الفردية: ذكرا و صلاة- بين العابد و المعبود، فانها تشمل سائر جوانب الحياة و زواياها، ان يخضع لأمر اللّه و نهيه في كافة شؤونه، لحد تصبح أعماله و أقواله و حركاته و سكناته كلها عبادة للّه في مختلف المحاريب،: محراب المسجد و محراب الحرب، محراب السياسة و الاقتصاد، محراب الثقافة و الاجتهاد، محراب الأعمال الفردية و الجماعية، المادية و المعنوية، لتصبح كلها محاريب يعبد و يطاع فيها اللّه، و يحارب فيها الشيطان و يعصى، مهما اختلفت اشكال هذه المحاريب و صور العبادة فيها.

إذا فليست عبادة اللّه و تقواه إلا لصالح العابد المتقي، كما لا تعني سبيل اللّه إلا سبيل صالح الإنسان، التي لا يمكن سلوكها سليما إلا على ضوء هداية اللّه و عبادته.

ان عبادة اللّه تتوسط بين معرفته و تقواه، فالعبادة دون اية معرفة- لو أمكنت- فهي غباوة، و العبادة المتخلفة عن نتاج التقوى ليست إلا طغوى في صورة العبادة، فكلما ازدادت المعرفة باللّه ازداد العارف عبادة للّه فتقوى، و كلما ازدادت العبادة فالتقوى، ازدادت المعرفة، لذلك فقد تفسر العبادة هنا بالمعرفة تفسيرا بالمقدمة و النتيجة، و قد تجعل الغاية من الخلقة المعرفة، و كما

يروى عن الحسين بن علي (ع): «ايها الناس ان الله عز و جل ذكره ما خلق العباد إلا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 348

ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه ..».

ثم ترى هل العبادة المقصودة من الخلق هي اللااختيارية التكوينية! و هي لا تخص الجن و الانس! «إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً» (19: 93) أم هي الاختيارية التشريعية؟ و هي قليلة قليلة، بجنب الكثير من العصيان و الطغيان! «وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ» (34: 13) فكيف تعتبر غاية وحيدة للخلقة؟.

نقول: ان التكوينية منها كائنة لا محالة فليست هي الغاية، و التشريعية هي المقصودة تخييرا لا تسييرا، فعلينا العمل إذ يسرنا للّه لما له خلقنا، و كما

يروى عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»

و حصول هذه الغاية المجيدة في الأقلين كالمرسلين و سائر المعصومين، و كالصالحين، يكفي حكمة لخلق الجنة و الناس أجمعين، مهما انفلت الكثيرون من تحقيق هذه الغاية و تذرعوا للجحيم و كأنما ذرءوا لها!.

فالعبادة هي غرض اختيارى للخلق، يحصل ممن يختارها، ثم الفالت عن هذا الغرض لا يجعل خلق نفسه عبثا كفعل اللّه، و انما عبثا كفعله نفسه، ثم و هناك غايات اخرى من خلقه.

فهنا الغرض العبادي من خلق الجن و الإنس حاصل كتشريع و اختيار، و غير حاصل كتكوين و إجبار، فلم تكن العبادة المسيّرة المجبر عليها غرضا لكي يكون الخلق إذا عبثا! حيث المستثنى منه في الآية ليس كل شي‏ء، و إنما «لشي‏ء من الأفعال المختارة» استيحاء من المستثنى: «ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ» لشي‏ء من الأفعال الاختيارية «إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» فالعبادة- و هي عمل تشريعي اختياري- لا تستثنى إلا عن أضرابها من الأمور الاختيارية: طاعة و معصية و سواهما، فقد استثنيت الطاعة عن هذا المثلث، ثم و لا يعني هذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 349

الاستثناء حصر الغاية من الخلقة في العبادة، حتى يخلو خلق غير العابدين عن أية غاية، و إنما هي أشرف الغايات، فالتخلف عنها ينزل بنفسه عن درجات معنية إلى دركات.

ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ‏: فالرزق يعم رزق الروح و الجسم، فما أريد الالتذاذ من عبادتهم فلست بمستكمل، و لا أن يطعمون، فانا مجرد عن الجسم و حاجياته.

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ‏: هو الرزاق لا سواه، و له القوة لا سواه، و هو المتين لا سواه، فإنهم مرزوقون ضعفاء هزلاء.

«اللهم اني أخلصت بانقطاعي إليك، و أقبلت بكلي عليك، و رأيت ان طلب المحتاج إلى المحتاج سفه من رأيه، و ضلة من عقله، فكم قد رأيت يا إلهي من أناس طلبوا العز بغيرك فذلوا، و راموا الثروة من سواك فافتقروا، و حاولوا الارتفاع فاتضعوا .. فأنت يا مولاي دون كل مسئول موضع مسألتي، و دون كل مطلوب إليه ولي حاجتي» «1».

و

في حديث قدسي يرويه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «يا ابن آدم؟ تفرغ لعبادتي املأ صدرك غني و أسد فقرك، و إلا تفعل ملأت صدرك شغلا و لم أسد فقرك» «2».

و ترى ما هي الحكمة في تقدم الجن هنا- و في موقف العبادة- على الإنس، و الإنس أحسن منه تقويما و أفضل تقييما، و قد اختصت الرسالات الأصيلة بهم دونهم و هم فروع؟.

علّ من الحكم في تقدمهم ذكرا تقدم خلقهم: «وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ» (15: 27) و أنهم أكثر من الإنس: «يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من صحيفة الامام علي بن الحسين السجاد عليه السلام.

(2) الدر المنثور 6: 116- اخرج احمد و الترمذي و حسنه و ابن ماجه عن أبي هريرة عنه (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 350

(55: 33) و عصيانهم كذلك أكثر لكثرة التخلف و العدد، فليتقدموا في موضع التأنيب، حيث الآية هي آخر رمية على العاتين هنا، أن في انفلاتهم عن عبادة اللّه انفلات عن الهدف الأصيل من خلقهم، و كما نرى الجن تتقدم في أمثالها: «يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ..» (6: 13) و سوف يتقدمون في النار: «قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِي النَّارِ» (7: 38).

و من ثم يتفرع على هذه الحجج الدامغة أن يتذكر الظالمون و لو شيئا ما فلا يستعجلون:

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ‏.

لقد عرفوا ذنوب أصحابهم المسبقين بذنوبهم: ذنبهم الطويل تبعة لذنوبهم، أن أتاهم العذاب باستعجالهم قبل يومهم الذي يوعدون، و ليعرفوا من هذه الحجج الباهرة أن العذاب الموعود يستقبلهم لأجله، إذا «فَلا يَسْتَعْجِلُونِ» كما استعجل أصحابهم بقولهم‏ «أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ»؟ و لم يستعجلون؟ بعد الذي سمعوه من تبعة الاستعجال للسابقين، و بعد الذي عليهم أن يتأكدوه من العذاب الحتم يوم الدين!. «فَلا يَسْتَعْجِلُونِ» نهي أن يستعجلوا اللّه في العذاب‏ «1».

«فويل» كل تأوه و تحسر مما عملوا «لِلَّذِينَ كَفَرُوا» من قبل و في هذا و من بعد: «مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ» يوم الدين- يوم هم على النار يفتنون.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كسر النون هنا دليل على حذف ياء المتكلم و نون الجمع محذوف بجزم النهي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 351

سورة الطور- مكية- و آياتها تسع و أربعون‏

[سورة الطور (52): الآيات 1 الى 28]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

وَ الطُّورِ (1) وَ كِتابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4)

وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (7) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ (8) يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً (9)

وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً (10) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى‏ نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (14)

أَ فَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَعِيمٍ (17) فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَ وَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19)

مُتَّكِئِينَ عَلى‏ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ (21) وَ أَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ (23) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24)

وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (25) قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ (26) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَ وَقانا عَذابَ السَّمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 352

وَ الطُّورِ قسما بالطور، و حق له أن يقسم به، و كما يذكر في القرآن اثني عشر مرة: «الطور الأيمن .. طور سيناء .. طور سينين» فانه مهبط الوحي و محطه على موسى الرسول عليه السّلام و على حد

المروي عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «الطور من جبال الجنة» «1»

و لا يعني إلا تطوره- كأنه- الى جبال الجنة، لنزول الكتاب المسطور فيه على نبي محبور.

وَ كِتابٍ مَسْطُورٍ. فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ: هو التوراة التي أنزلت على موسى إذ ناداه ربه في الواد المقدس طوى، مسطورا بقلم القدرة و الرحمة الإلهية:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 117- اخرج ابن مردويه عن كثير بن عبد اللّه عن أبيه عن جده عنه (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 353

«وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ ..»

(7: 145) و اللوح هو اللائح الواضح و هو الرق المنشور، ألواح هي رق منشور نزلت على موسى في جبل طور.

فالرق ما يكتب فيه شبه الكاغذ، لكنه يختلف عنه اسما و رسما لأنه إلهي و ذاك بشري، كما المسطور فيه يختلف عن المسطور فيه، و المنشور من الرق ما ليس فيه لف و خباء، و انما نشر بجلاء، فكله نور.

و خير ما يعبر عن الطور ورقه المنشور، بعد القرآن، هو ما يروى عن نبي القرآن:

«الحمد لله الذي خلق النور، و انزل النور على الطور، في كتاب مسطور، في رق منشور، بقدر مقدور، على نبي محبور» «1».

و انما يقسم هنا بالطور و كتابه النور، و قبله كتب نزلت على أنبياء عظام كنوح و إبراهيم عليهما السلام لان التورات هي أول كتاب مفصل سماوي، يحمل من شرائع اللّه ما لم يحمله كتب قبله، اللهم إلا ضوابط عامة.

وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ:

ثم و يقسم ثانيا و أخيرا بالبيت المعمور، عله البيت العتيق المعمور قبل كل بيت‏ «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ» بما في حياله من بيت معمور في السماء السابعة.

و كما نزل وحي القرآن على البيت المعمور على حد المروي عن الإمام الصادق‏ «2» فلا يمنعه ان يكون في السماء ايضا بيت معمور بحيال الكعبة، تعمره الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة «3» فالرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو أول العابدين؟، او هو بفناء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين عن مهج الدعوات لابن طاووس عن فاطمة الزهراء (ع) عن أبيها (ص):

(2)

نور الثقلين 5: 624 عن الكافي عن حفص بن غياث عنه (ع) قال: نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان الى البيت المعمور ..

(3) نور الثقلين 5: 136 عن أمير المؤمنين (ع).

(الفرقان- م 23)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 354

البيت الحرام لو سقط عليه‏ «1» في السماء السابعة «2» او أيا كان، فهو بحذاء الكعبة «3» و إن شرف الكعبة بما في حيالها من بيت السماء و شرف البيت المعمور السماوي انه كله حاصل في بيت الرسالة المحمدية، المعمور فوق كل معمور و قبل كل معمور، فانه نور على نور، و ما البيوت المعمورة الاخرى إلا تقدمات و تهيئات لهذا البيت الطاهر الذي لا يدانيه اي بيت‏ «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»!.

و من ثم بيت الرسالة القدسية المحمدية الذي هو أعمر البيوت في بيوتات الرسالات الإلهية، أرضية و سماوية، بشرية و ملائكية ام ماذا! هذا البيت المعمور الذي يضم في جنبيه كافة بيوتات الوحي و زيادة تجعلها خاتمة الرسالات و أفضلها .. ثم لا يقسم بالوحي الانجيلي بين الطور و البيت المعمور لأنه لا يستقل عن وحي التورات إلا بتوجيهات أخلاقية دون أية تشريعات زائدة عليه أو مختلفة عنه، إلا شذاذا هامشية تحمل رفع عقوبات فرضت على المتخلفين من بني إسرائيل! وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ‏: هو السماء المرفوع فوقنا «وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً» و هو السماء المحمدي ايضا، مرفوعة فوق سماوات الرسالات و أراضيها، الرسل و المرسل إليهم، و لقد انزل الذكر الرسول علينا من على ارفع سماوات الوحي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 117- اخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر رفعه اليه (ص) ان البيت المعمور بحيال الكعبة لو سقط شي‏ء منه لسقط عليها، يصلي فيه كل يوم سبعون الف ملك، و الحرم حرم بحياله الى العرش ..

(2)

الدر: في شعب الايمان عن النبي (ص) «قال: البيت المعمور في السماء السابعة»

أقول: و أحاديث الفريقين مجمعة على كونه في السماء السابعة فوق العرش، الا روآية يتيمة

رواها في المجمع عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال: البيت المعمور في السماء الدنيا ..

و

عن ابن عباس عنه (ص) يقال له الضراح و هو بفناء البيت الحرام.

(3)

الدر المنثور 6: 118- أخرج جماعة من الحفاظ و ارباب المسانيد عن علي (ع) انه السماء و قرء الاية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 355

«قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً. رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ..» (65: 10)

وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ: و التسجير هو تهيج النار و تسعيرها، او إضرامها بتكثيرها على من فيها: «إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ السَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ، فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» (40: 72).

فهل انه بحر واحد كما توحيه «البحر» الواحد! و هو بحر النار في الاخرى؟

ام انه بحار الدنيا إذ تسجر عند قيامتها «وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ» (81: 6) بان تصبح بحرا واحدا بالزلازل و البراكين التي تزيل الحواجز؟ و قد يوحي به ظرف العذاب الواقع: «يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً ..» فانه يوم قيامة التدمير، و فيه بالذات‏ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ‏ عذابا لأهله كبداية، ثم في قيامة التعمير العذاب الأصيل.

على الجمع أجمل، بعد ان كلا محتمل، فالقسم هنا يشمل البحرين المسجورين كعذاب شامل عند القيامة و بعدها.

و مهما كانت لآية الطور و كتاب مسطور .. و البيت المعمور و السماء المرفوع.

مهما كانت لها روعتها بعظمتها معنويا و وقعا في القلوب، فلآية البحر المسجور هيبتها و دلالتها على المقسم لأجله لتاركي الوحي المعمور:

إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ، ما لَهُ مِنْ دافِعٍ‏ أمر داهم قاصم، ماله من دافع و لا عاصم، فانه واقع لا محالة بأمر اللّه على الذين قدموه بأعمالهم، لا مرد له من اللّه فضلا عمن سواه.

يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً:

المور هو التردد في عرض، و التكفؤ، و الموج، و السرعة، و الاضطراب، و الجريان، و الدور، و الحركة «1».

إذا فالسماء يوم قيامة التدمير تصبح مائرة دائرة، متكفئة مترددة، مائجة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لسان العرب لابن منظور الافريقي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 356

جارية مضطربة متحركة سريعة، فانها على اثر انشقاقها ترتخي فتصبح واهية:

وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ (69: 16) لحد وردة كالدهان‏ .. فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ (55: 37) و المهل‏ يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ (70: 8) «1».

و ان مور السماء هو من رجعها إذ كانت دخانا حينما ولدت، ثم تمور مور الدخان: الغاز- بحرق و حرارة زائدة الوصف حال احتضارها، و لأنها غلبت في حربها الأخيرة فرجعت كما كانت، و إنه لمشهد مروع مهيب كيف تضطرب السماء كأمواج البحر و هي سبع شداد!.

وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً: تجعلها كالسراب: وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً (78: 20) و الأرض بارزة: وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً (18: 47) و هذا السير على اثر الزلزال الدكداك: وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً (69: 14) فالنسف: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً. لا تَرى‏ فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً (20: 107).

هكذا (تذل الشم الشوامخ، و الصم الرواسخ، فيصير صلدها سرابا رقراقا، و معهدها قائما سملقا) «2» فكيف بهذا الإنسان الهزيل الضعيف، في هذا الهول المذهل المخيف، و هو يذهل من كل حادث خفيف طفيف!.

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ، الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ‏ إنه لهم ويل و تأوه عظيم، على قدر تكذيبهم، إذ كانوا في خوض لهم يلعبون بآيات اللّه و يتلاعبون، فالخوض هنا هو الغور فيها بقصد التزييف و التشكيك و الإبطال، ثم يتخذونها لعبا و هزوا! إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ (4: 140) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (42: 82).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2). راجع تفسير سور: الحاقة 16 و المعارج 8 و المرسلات 9 و النبأ 19 و التكوير 11 و الانفطار 1 في الجزء 30 من الفرقان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 357

يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى‏ نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا. هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ‏ يدعون إليها كما كانوا يدعونها و يكذبونها بخوضهم و لعبهم، فليخوضوها دعا: دفعا- و لتتلاعب بهم نارها، إذ دفعوا الى ما كذبوا فالدع هو الدفع الشديد:

ان تغل أيديهم الى أعناقهم، و تجمع نواصيهم الى اقدامهم، ثم يدفعون الى جهنم دفعا على وجوههم صما و عميانا، و كما توحيه آيات متجاوبة بهذا الصدد.

و لقد كانوا يتقولون على القرآن أنه سحر، و على رسول القرآن أنه ساحر أو مجنون، فحين إذ يدخلون النار يسألون هزء:

أَ فَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ‏ فقد كنتم تقولون عن القرآن: إنه سحر! فهل هذه النار التي تحرقكم كذلك سحر؟ أم هي حق ملموس منه تصرخون، كما كان القرآن حقا، و لكنكم كنتم لا تبصرون. فقد كنتم تقولون: «إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ» (15: 15) فهل سكرت عن النار المخبر عنها أيضا كما سكرت عن الخبر، فذوقوا فتنتكم، هذه النار التي كنتم بها تكذبون!.

توحي الآية أن حجة القرآن باهرة للبصائر كأنها مبصرة، فإذا نكروها و سخرا منها فلتمسهم النار: «وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ» (46: 34).

و لو أن صبروا على حرها ناظرين إلى رحمة اللّه أن يخفّف عنهم أو يخرجهم فهل ينفعهم صبرهم فيأملون؟ كلا!:

اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ‏ دون ما أنتم تأملون! فالعذاب واقع لا محالة، ما له من دافع بأية حالة، فالصبر و عدمه سواء، فإنه الجزاء العدل‏ «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» ليس من اللّه هناك شي‏ء انتقاما أو سواه، و إنما الجزاء النار صورة حقيقية عما عملته الكفار، فالخوض في آيات اللّه دعّا لها، حقيقته الخوض في النار دعا إليها، فهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 358

بذواتهم الشريرة يوقدون نارا: «اصلوها» فما الصلي إلا الإيقاد، فلا وقود لها إلا أنفسهم: «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ» (21: 98) فالكافر و هو في الدنيا يخلق وقود النار بما يحتمل، و مهما كان غافلا عنه فسوف ينتبه: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (50: 22)!.

إلى هنا سمعنا إلى سيرة أهل النار، و عرفنا مصيرتهم، تقدموا على المتقين، لتقدم الطغوى على التقوى من حيث الدافع فالواقع، ثم نسمع ما للمتقين:

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَعِيمٍ‏ كما كانوا يوم الدنيا في جنات العقائد و الأعمال، فهم كذلك يوم الدين في جنات و نعيم، انما يجزون ما كانوا يعملون عدلا و إحسانا، مهما كان جزاء الفاسقين عدلا و ليس إحسانا.

فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَ وَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ‏: نعمتان اثنتان، ايجابية: «فاكهين» من الفكاهة: حديث ذوي الانس: مستأنسين‏ «بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ» و سلبية: «وَ وَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ» بما اتقوها بتقواهم.

و ينضاف إلى نعمتيهم هاتين كل تبجيل و تجليل، و تهنئة و تكريم:

كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ‏ فالتنعم الناتج عن العمل مهنئ بالذات، و قد أضيف إليه أمر المضيف فازداد رحمة على رحمة.

و فيما إذا سئلنا: ما هو الفرق بين جزاء الكافر و المؤمن- ان جزاء المؤمن‏ «بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» لا نفس العمل، و جزاء الكافر «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

فالجواب: ان المؤمن كذلك يجزي نفس عمله الصالح، و لكنه بزيادة عما عمل و بفضل اللّه و إحسانه، فليس جزائه إذن قد عمله، و لكن الكافر لا يجزى إلا قدر ما عمل: و هذا عدل من اللّه هنا، فضل منه هناك.

مُتَّكِئِينَ عَلى‏ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ هذه النعم الثلاث مزودة برابعة هي اتكاؤهم على سرر مصفوفة: منسّقة هي فمنسّقة جموعا من أهل الجنة، متمتعين بلذة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 359

التجمع باخوان على سرر متقابلين، و مصفوفة كذلك: مرمولة: مزينة بالجواهر و الذهب و الفضة.

و خامسة بعد اكتمال هذه النعم روحية و جسمية، تجعلهم غريقين في بحر النعيم:

وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ‏: كأمتع ما يتمتع به الإنسان جسديا، إضافة إلى أزواجهم المؤمنات، اللاتي يدخلن معهم الجنة أزواجا لهم فيجعلهن اللّه كحور عين كما توحي آية المشية «1» و روايتها «2».

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ‏ آية فريدة في نوعها تضم أهم المباحث في باب الجزاء العدل و الفضل، تتطلب بحثا و تنقيرا فصلا، فانها ضابطة شاملة ترجع إليها فروع عدة و تجاوبها دعاء الملائكة حملة العرش و من حوله‏ «.. وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ. رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (40: 8- 7) فلو أن الآباء و الأزواج و الذريات كانوا على درجات الذين آمنوا و تابوا و اتبعوا سبيل اللّه، لم يكن لفصلهم عنهم و رجاء لحوقهم من معنى.

ثم و آية الذرية تلك تقول: ذراري المؤمنين، التابعون لهم بإيمان، يلحقون بهم دون ألت و نقص من أعمالهم، و النفوس كلها رهينة أعمالها، فمن هم هؤلاء الذراري؟ و ما هو اتباعهم بإيمان؟ و أين الإلحاق؟ و ما هو مداه؟ و لماذا مظنة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ» و من أفضل ما تشائه النساء أن يصبحن كحور عين فأزواجا لأزواجهن.

(2)

روضة الكافي عن أبي حمزة قال سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول‏ لرجل من الشيعة أنتم الطيبون و نسائكم الطيبات كل مؤمنة حوراء عيناء ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 360

الألت: النقص- من أعمالهم و ليس من جزائهم؟ و ما هو دور «كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ» هنا؟.

الذرية في الأصل من الذر: الصغير و منهم صغار الأولاد و الأهل، فهم الأتباع- أيا كانوا، بطبيعة الحال- لمن يعولهم و يربيهم و يدير شؤونهم، فيتبعونه فيها، و كذلك في الإيمان أو الكفر، و إذ نتوسع في معناها نعممها لكافة الأتباع:

من بنين و أهلين و آباء و أمهات و سواهم، أقارب و شعوبا ما هم أتباع، و كما يعبر عنهم الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالرعية:

«ألا كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته».

فالذرية مضمّن فيها معنى الضعف و القصور، و لو أحيانا: «أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ» (7: 173) مهما كانوا كبار في الأعمار، أو لم يكونوا من أولاد رعاتهم، و أخرى تتحلل عن ذلك متمحضة في التنسل فحسب، فقد تفوق الآباء و الجدود، كما النبيون على آبائهم غير النبيين، أو من هم دونهم في النبوة، و كخاتم النبيين على بني الإنسان كافة، إلا أن ذلك بدليل، كما و أن الضعف و القصور في المكانة و الاستعداد يعرف بدليل كما هنا.

فالذرية هنا من القبيل الأخير، بدليل اتباعهم رعاتهم الأصول بإيمان، فهنا مؤمنون متفوقون في الايمان، و آخرون يتبعونهم من ذريتهم بإيمان، فلو كانوا كآبائهم أو فوقهم لم يكن لاتّباعهم لهم من معنى! كما و أن في إلحاقهم بهم في ثواب الايمان، أو حكمه، أو درجاته: مكانا أو مكانة، ان في ذلك دلالة ثانية على قصورهم عنهم، و إلا فلما ذا الإلحاق؟ لو أنهم كآبائهم أصلاء في الإيمان، فليكونوا في ثواب الايمان و درجاته أيضا أصلاء.

ثم اتباعهم بإيمان، إنه- و لا بد- من فعلهم، مهما ساعدته توجيهات من المتبوعين، كما يوحيه الاتّباع، فهنا شروط مثلثة تتجاوب في إيمان الذرية الأتباع: توجيهات من الأصول تهيئ ظروف الإتّباع و أجواءها، و محاولات من الفروع استجابة لأصولها، و توفيقات من اللّه تربط بين الضلعين ليكمل مثلث‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 361

الهداية الايمانية.

و لماذا «بإيمان» منكرا، و ليس «بالايمان» معرفا؟ لأن الايمان في أية درجة كان يبرر ذلك الإلحاق، فالمعرف منه يوحي أنه كإيمان الأصول، إذا فلا معنى للإلحاق لأنهما على سواء، فإيمان مصيره الجنة، مهما خالطه ما يستحق به النار، إنه يلحق صاحبه بالأصول على أية حال، رأى صاحبه النار أم ما رآها.

ثم الاتباع الايماني ينفي ما عداه من الاتباعات و الانطباعات، أية انطباعات و أية اتباعات، اللهم إلا الايمانية فحسب.

إذا فهؤلاء الذرية هم المكلفون المؤمنون، دون القصّر و لا الكافرون، إذ لا اتباع لهؤلاء و لا هؤلاء بإيمان، فالقصّر غير مكلفين، فلا يطلب منهم ايمان، و لا يتأتى منهم اتباع بإيمان، الذي هو فعل اختياري من الذرية: «وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ» و أما الايمان الفطري و التشريعي فهما من فعل الخالق المشرع دون المخلوق المتشرع، فما ذا تكون إذا حال القصّر من أولاد المؤمنين و أولاد الكافرين؟ انتظر الجواب في أخريات البحث.

و أما الإلحاق، فهل يشمل الآخرة و الأولى جزاء في الآخرة و حكما في الاولى؟ علّه يشمل حيث تتحمله الآية، و لا سيما بايحاء الماضية: «الحقنا» و لكنما الاخرى هي الأولى، استيحاء من رهانة النفوس بأعمالها، إذ لا تظهر تماما في الدنيا.

و أما عن مدى ذلك الإلحاق في الآخرة؟ فقد يتحقق بكافة الدرجات في جنات المعرفة و الرضوان بسائر المكانات، فضلا عن الأمكنة و الماديات، و هذا مخصوص بالآباء و الذريات القريبي الدرجات كما بين الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ذريته الأئمة الأوصياء «1» فإنهم قلوب واحدة بقوالب عدة، دون اختلاف في الدرجات،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الكافي عن أبي عبد اللّه (ع) في الآية قال: الذين آمنوا النبي (ص) و امير المؤمنين (ع) و ذريته الأئمة الأوصياء (ع) «الحقن بهم» و لم تنقص ذريتهم الحجة التي جاء بهم محمد (ص) في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 362

اللهم إلا في كرامة الوحي الخاصة به صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دونهم (ع)، و إلا ف «أولنا محمد- آخرنا محمد- أوسطنا محمد: و كلنا محمد» و كما توحيه آية التطهير و اضرابها، و فيما تكون الدرجات بين الآباء و الذريات شاسعة بعيدة، فالمتيقن من هذا الإلحاق، هو الحظوظ المادية، او و معنوية أحيانا حسب متطلبات الآباء، فاللحوق إذا يشمل قسميه، طالما التسوية المطلقة بمفردها لا تناسبه فانها ليست لحوقا، و انما بمناسبة الجمع، الذي تبرره الاكثرية الساحقة من غير المسوين تماما.

و كيف تلحق الذريات بالآباء و هم أتباعهم و دونهم في الايمان، أليس يقتضي ذلك الإلحاق نقصا من اعمال الآباء ليزيد في اعمال الذرية حتى يستحقوا التسوية بالالحاق؟ و هذا ظلم بالآباء! و زيادة للذرية دون عمل! حتى و لو زيد في أعمالهم دون نقص عن الآباء، و مظنة الألت هذا يقتضي سلبا و إيجابا في الجواب: فسلبا «وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ»: نلحق بهم ذريتهم دون ان ننقص من اعمالهم شيئا، و كما

عن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: و ما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين‏ «1»

و إيجابا:

«كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ» فقد تختص رهانة النفوس بطالحات الأعمال دون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

علي (ع) و حجتهم واحدة و طاعتهم واحدة.

البرهان 4: 241 محمد بن العباس مسندا الى علي بن زيد قال عبد اللّه بن عمر كنا نفاضل فنقول عمر و ابو بكر و عثمان، و يقول قائلهم فلان و فلان، فقال رجل يا أبا عبد الرحمان فعلي (ع) فقال: على من أهل بيت لا يقاس بهم احد من الناس على مع النبي في درجته ثم استدل بهذه الآية.

و فيه عنه باسناده المتصل عن ابن عباس في الآية قال: نزلت في النبي (ص) و علي و فاطمة و الحسن و الحسين (ع).

و

فيه الشيخ في اماليه بسند متصل عن محمد بن مسلم قال سمعت أبا جعفر و جعفر بن محمد (ع) يقولان: ان اللّه اعوض الحسين (ع) من قتلته ان جعل الامامة في ذريته و الشفاء في تربته و اجابة الدعاء عند قبره و لا تعد ايام زائريه جائيا و راجعا من عمره، قال قلت لأبي عبد اللّه (ع): هذه الخلال ينال بالحسين فما له في نفسه؟ قال: ان اللّه تعالى الحقه بالنبي (ص) فكان معه في درجته و منزلته ثم تلى (ع) هذه الآية.

(1). الدر المنثور 6: 119- أخرجه البزار و ابن مردويه عن ابن عباس رفعه إلى النبي (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 363

صالحاتها، كما توحيه الرهانة نفسها فانها القيد و الحصر، و كذلك آيتها الأخرى:

«كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ» (74: 38) فإنهم لا يرهنون ان لم تبق لهم سيئات، بين ما لم يقترفوها و ما كفروا عنها، فنفوسهم ليست رهينة طالحات و سجينتها.

و قد تدل رهانة النفوس باعمالها انها باقية معها، و كما تدل عليه‏ «وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ» دون «من ثوابهم» فإمكانية النقص من العمل ليست إلا ببقاء العمل، إذا فالمستفاد من هذه الضابطة: ان السيئات هي الراهنة لأصحابها، تقدر عقوبتها بقدرها، او و يعفى عن بعضها في ظروفها، و اما الحسنات فهي لا ترهن و تقيد أصحابها بقدرها، فان الثواب دوما يزيد على الطاعة، في أصلها إذ لا تحقق جزاء إلا بفضل من اللّه، و في قدرها «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى‏ إِلَّا مِثْلَها» (6: 160) ثم هناك مزيد عند اللّه بغير حساب‏ «وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ» ان اللّه يرزق من يشاء بغير حساب! فآية الرهانة حين ترهن و تأسر السيئات بقدرها في العقوبات عدلا او باقل منها فضلا، فهي تحرر الحسنات عن حدودها في الثواب، كما في كافة المؤمنين، بل و تحرر الثواب كذلك عن قيد الحسنات فيما لم تكن سيئات و لا حسنات كأطفال المؤمنين و الكفار، و كذلك فيما كانت سيئات مكفرة و حسنات لا تستحق إلا قدرها من الثواب الفضل، كدخول الذرية التابعين بإيمان، الجنة، ثم إلحاقهم بآبائهم في درجاتهم او بعضها فإنهم يستحقونها إذ لم يعملوا لها و لكن اللّه يلحقهم بالآباء تقريرا لعيونهم‏ «1»، رغم ان الذرية أنفسهم لا يستحقونها لا عدلا و لا فضلا!، فإذ يلحقهم اللّه بآباءهم، ليس ذلك إلا إكراما للآباء حيث تقر عيونهم، فتقدر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 119- اخرج الطبراني و ابن مردويه عن ابن عباس ان النبي (ص) قال: إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه و ذريته و ولده فيقال: انهم لم يبلغوا درجتك و عملك فيقول: يا رب! قد عملت لي و لهم فيؤمر بالحاقهم و قرء الآية.

و في معناه،

رواه في الكافي عن أبي عبد اللّه (ع) في الاية قال: قصرت الأبناء عن عمل الآباء فالحقوا الأبناء بالآباء لنقر بذلك أعينهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 364

- إذا- درجات الإلحاق هذا بما تقربه عيونهم، دون ان يألتهم و ينقصهم من اعمالهم من شي‏ء، فكما زاد في ثوابهم ان رفعهم درجات فوق اعمالهم، كذلك يزيد لهم ان يقر عيونهم بالحاق ذرياتهم المؤمنين بهم، و هذا لا يتنافى و الجزاء العدل، فانه طرف من تكريم الآباء.

و من وجهة اخرى ان الذريات التي أقرت عيون الآباء، أن اتبعتهم بإيمان، كذلك تقر عيونهم بهذا الإلحاق، فضلا من اللّه و إحسانا، دون فوضى لا في العدل و لا في الفضل، فانه نتيجة عمل ثنائي: منهم إذ بيضوا باتباعهم الآباء عيونهم و بآبائهم إذ انهم من عملهم ولادة و تربية، و أن ذلك مما يشاؤنه و الجنة: «لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ».

صحيح ان الذرية ما عملوا كما عمل الآباء، إلا ان في لحوقهم جزاء على عمل الآباء، فلا ظلم على الآباء في ذلك بل هو فضل، و لا فوضى في الفضل على الذرية إذ ليس إلا مغبة تقرير عيون الآباء، طالما الفوضى و خلاف العدل في إلحاق غير الذرية الى هؤلاء في درجاتهم او بعضها، فإنهم لا يستحقونها و لا فضلا، و هذه التسوية خلاف العدل إذ لا تقرير لعيون المسوى بهم.

لذلك- و في توسع من معنى الذرية او حكمها- بامكاننا أن نتخطى الأولاد و الأهلين الى كل التابعين لرعاتهم بإيمان، ما كان في إلحاقهم بهم تقرير لأعينهم، و إن كانوا آباءهم التابعين لهم بإيمان و أمثالهم من الأقارب غير الأولاد و كما يروى عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1» ام و غير الأقارب كما في كل مأموم لإمامه، هذا، و كما يتضمنهم دعاء الملائكة للمؤمنين الأصول: «رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (40: 8).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 119 و قد سبق‏

قوله (ص) هنا: إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه و ذريته و ولده فيقال: انهم لم يبلغوا درجتك و عملك، فيقول يا رب قد عملت لي و لهم فيؤمر بالحاقهم به و قرء الاية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 365

ثم و في وجه آخر لآية الرهانة: ان يشمل الرهن فيها صالح الأعمال ايضا.

نقول ان الذرية و ان لم تعمل ما يؤهلها لهذا الإلحاق، إلا انهم في اتباع الايمان من مكاسب الآباء و لو في زاوية من مثلث الاهتداء، و ان الآباء عملوا لهم كما عملوا لأنفسهم، و على حد المروي عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1» فكما للإنسان ان يعمل لنفسه، كذلك له ان يعمل لمن هو كنفسه ان ساعدت ظروفه، و اتبعه بإيمان كما تقدم حسنات للأموات مهما كانوا غير مخصوصين بالعاملين، و إن لا يصلهم الا بعض ما يقدم لهم، فكذلك و باحرى للذريات، و إن لا يصلون بذلك درجة الآباء، فهم بحاجة الى الإلحاق، فضلا من اللّه و إحسانا ثم و لا ينقص من اعمال الآباء شي‏ء لأنها باقية معهم دون مزايلة، و هم مرهونون بها دون فكاك، فكيف ينقص منها؟ بل و يزاد عليها حسنات فسواء اختصت الرهانة بالسيئات، او عمت الحسنات، فالتابعون لآبائهم بإيمان يلحقون بهم بإحسان دون نقص من اعمالهم شيئا، و دون منافاة لرهانة الأعمال أيا كانت.

و أخيرا ما هو دور القصر من أولاد المسلمين، صغارا و مجانين، و كذلك هما من الكافرين؟ .. نقول: ان الذراري القصر المسلمين، و ان لا يشملهم صدر آية الذرية، إذ اختصت بالمكلفين، إلا أنهم مشمولون لذيلها: «كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ» في الوجه الاول، كما يشمل القصر من الكافرين و ان كان بينهما فرق بان في إدخال الأولين الجنة تقريرا لعيون آباءهم دون الآخرين، فالعقاب و العقاب فقط لزامه السيئة، و اما الثواب فلا يتطلب حسنة و لا سيما ممن لا تتأتى منه و لا تأتي من راعيه، فأولاد المؤمنين يدخلون الجنة و كما يروى عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمة من آله (ع) «2» و عل مصير أولاد الكفار و مجانينهم خطيرة بين الجنة و النار إذ لا طاعة لهم و لا عصيان و لا رهانة خيرة لآبائهم حتى يدخلوا الجنة تقريرا لعيونهم و لا شريرة لكي تدخلهم النار، و ليس بذلك البعيد من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2).

في المجمع روى زاذان عن علي (ع) قال: قال رسول اللّه (ص): ان المؤمنين و أولادهم في الجنة،

و

روى عن الصادق (ع) قال: أطفال المؤمنين يهدون الى آباءهم يوم القيامة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 366

رحمة اللّه ان يدخلهم ايضا الجنة و لكن أدنى من قصر المسلمين.

و هناك رواية يتيمة تؤجج النار للقصار أيا كانوا امتحانا لهم هل هم مؤمنون فيدخلوا الجنة، ام كافرون فيدخلوا النار امتهانا «1» و لكنها لا مصير لها إلا النار!.

فهنا نتساءل مختلقي هذه اليتيمة المخالفة للكتاب و السنة: أليس من الضروري انقضاء التكليف بالموت؟ فكيف يتكلف الأطفال بعد الموت و هم قصر بهذا التكليف العضال، الذي قلما يكلف به المكلفون الأقوياء: أن يدخلوا النار!.

ثم و ما بال البعض منهم يعصون، و القيامة يوم ظهور الحقائق دون استثناء، و لو للكفار الذين عاشوا حياتهم كفرا و عصيانا، فهم يرجون هناك أن لو نفعهم ايمانهم فيؤمنوا: «فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ» (40: 85)، فكيف يعصى هؤلاء الصغار و هم أعرف بالحقائق هناك من الكفار، لصفائهم و عدم كفرهم؟ أم و إذا خالفوا أمر دخول النار كيف يستحقون به النار؟ أ لأنهم عصوا اللّه مشافهة؟ فهو إلحاد في اللّه انه يشافه و «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ»! ام عصوه إذ أغروا بجهلهم فهم إذا معذورون، و الإغراء بالجهل و استغاله ظلم سبحان العزيز الجبار، او انه من المعاصي الصغار، لو تأتي العصيان من الصغار، فكيف يحكم عليهم بدخول النار؟ او يحكم لمن أطاع منهم هناك و آمن بدخول الجنة خلافا لسنة اللّه التي قد خلت في عباده: ان الايمان عند رؤية البأس لا ينفع! إذا فلا مرد لهذه اليتيمة إلا النار، و لكي نزحزح القصر المبتلين بها من النار،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 139 عن الكافي عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن غير واحد رفعوه‏ انه سئل عن الأطفال! فقال: إذا كان يوم القيامة جمعهم اللّه و أجج لهم نارا و أمرهم أن يطرحوا أنفسهم فيها فمن كان في علم اللّه انه سعيد رمي بنفسه فيها و كانت عليه بردا و سلاما و من كان في علمه انه شقي امتنع فيأمر اللّه بهم الى النار، فيقولون يا ربنا! تأمر بنا الى النار و لم تجر علينا القلم؟ فيقول الجبار: قد أمرتكم مشافهة فلم تطيعون فكيف لو أرسلت رسولي بالغيب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 367

كما هو مرد كل ما يخالف الكتاب و السنة مهما كثرت روايته و كبرت رواته فضلا عن هذه الوحيدة الهزيلة، المرفوعة الشاذة الذليلة، المتناقضة في نفسها، رغم انها رائجة في أسواق تجار الإسلام المفترى عليه.

و مثلها يتيمة اخرى تفصل بين أولاد المؤمنين- فالى الجنة و بين أولاد الكفار- فالى النار! «1».

و هذا التفسير يتصدى لأمثالها من المخلقات الزور الغرور، فانه لها بالمرصاد.

وَ أَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ. يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ. وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ‏ ان المتقين و المؤمنين- بعد هذه المكرمات- يمددهم ربهم بفاكهة و لحم مما يشتهون، و هما من أفخر و ألذ المآكل، مما يتطلب كأسا مثلها، و إذا هم يتعاطونها بما فيها من خمر، لكنها ليست كخمر الدنيا إلا في اسمها إذ «لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ» لا في الجنة ككل، و لا في الكأس، و لا في خمرها، لغو القول و لا لغو الفعل، و كذلك التأثيم، طالما هما في الدنيا و كأسها و خمرها من سكر فعربدة و هذر و هدر و إيذاء و استئذاء و هتك للحرمات و كل لغو و تأثيم، و لكنهم في الجنة يتعاطونها و يتجاذبون متلاعبين متفكهين بلا اي لغو او تأثيم، كمتنازعين و ليسوا متنازعين.

و كما انها فيها ليست خمرا تخمر العقل فتخلف كل لغو و تأثيم، و انما التنازع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير روح البيان ج 9 ص 193 نقلا عن عين المعاني: سألت خديجة (رض) رسول اللّه (ص) عن ولدين لها ماتا في الجاهلية، فقال (ص) هما في النار، فكرهت فقال (ص) لو رأيت مكانهما لأبغضتهما، قالت: فالذي منك؟ قال (ص): في الجنة، ان المؤمنين و أولادهم في الجنة و ان المشركين و أولادهم في النار.

و مثلها ما

في الدر المنثور 6: 119- أخرجها عبد اللّه بن احمد في زوائد المسند عن علي (ع) قال قال رسول اللّه (ص): ان المؤمنين و أولادهم في الجنة و ان المشركين و أولادهم في النار ثم قرء الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 368

هنا تلاعب، زيادة في الإيناس و لذة النعيم‏ «1» ثم و يزيدهم لذة تطواف غلمان لهم، قد يكونون من ذريتهم القصر الملحقين بهم، ام سواهم المختصين لهم في الظرافة و الصفاوة «كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ»: محفوظ، فكما اللؤلؤ المكنون في كنه الصدفي او الذهبي و الفضي ام سواها، باق على نظافته و طراوته، كذلك هؤلاء الغلمان، فهم على ما خلقهم اللّه في أكنان تصونهم عن اي عيب او ظنة، .. ترى إذا كان الغلمان الخدم كاللؤلؤ المكنون فكيف بالمخدوم؟ هنا يجيب‏

الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «و الذي نفسي بيده ان فضل ما بينهما كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم‏ «2».

و لكي يتصارحوا و نسمعهم بوحي القرآن، لماذا ألحقت بهم ذريتهم و غلمان لهم؟ و استكمالا لأنفسهم بأهلهم:

وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ، قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ. فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَ وَقانا عَذابَ السَّمُومِ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ‏ يوحي الجواب ان اتساءل لا يخص اسباب دخولهم الجنة، بل و لحوق ذريتهم بهم و هم يعملوا عملهم، فهؤلاء المؤمنون الأصول كانوا في مثلث من دوافع هكذا رحمة: «.. كنا .. مشفقين» و «في أهلنا» و «كنا ... ندعوه» و هذه هي جذور الايمان.

فالإشفاق من الشفق: اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند الغروب، فهو عناية مختلطة بخوف، طالما المعدى منه بمن اظهر في الخوف، و بفي اظهر في العناية، و بالباء خاص بالشفقة.

إلا أن «مشفقين» هنا لم يعد بشي‏ء فهو يوحي بحالة لهم بين الخوف و الرجاء، خوفا من أعمالهم، و رجاء بآمالهم في رحمة اللّه، إشفاقا من اللّه‏ «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ» (23: 57) من عذاب اللّه: «وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ» (70: 27)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 30 الفرقان ص 226 «بين خمر الدنيا و الآخرة».

(2) الدر المنثور 6: 119- أخرج عبد الرزاق و ابن جرير و ابن المنذر عن قتادة في الآية قال: بلغني انه قيل يا رسول اللّه (ص) هذا الخدم مثل اللؤلؤ فكيف بالمخدوم؟ قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 369

و إشفاقا في رحمة اللّه و إشفاقا باهليهم، إذ كانوا يراعونهم و يحافظون عليهم بشفقة، فقد كانوا غرقى في مثلث الإشفاق: من اللّه، و في اللّه، و باهليهم و هم فيهم!.

و إذا كان هذا الإشفاق في كافة الحالات و كما تقتضيه «كنا» الدالة على دوام كما و يشكرهم اللّه على هذا الدوام:

«و كانوا مني على كل حال مشفقين» «1»

في الخلوات و الجلوات، بين الاغارب و الأهلين، كان- إذا- كاملا للمشفق، و مكملا لمن فيهم يشفق و بهم، إذ عاشوا كذلك و في أهليهم، حيث الأمان الخادع و لكنهم لم ينخدعوا، و حيث المشغلة الملهية، و لكنهم لم يلتهوا و ينشغلوا، و هم بذلك الصمود في صبغة الايمان أحالوا حول أهليهم بهالة مشرقة من الايمان، و حالوا بينهم و بين اللاإيمان، فان حالة الرعاة تؤثر في الرعية على أية حال، و بذلك فذريتهم اتبعتهم بإيمان، فحق لهم ان يلحق بهم ذريتهم دون ان يؤلت من اعمالهم من شي‏ء، «كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ».

و الزاوية الثالثة لمثلث الايمان، انهم لم يكتفوا باشفاقهم في أهلهم «بل و كانوا يدعون الله و يلتمسون من بره و رحمته»: «إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ» و الدعاء مخ العبادة.

فلم يفدهم إلا ما قدموه من قبل- «كنا قبل» «كُنَّا مِنْ قَبْلُ»-، و اما بعد فوات الأوان بوفاة الإنسان فلا موقع لايمان، ولات حين مناص، إذ فات أوان الخلاص.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 142 في كتاب سعد السعود لابن طاووس نقلا عن مختصر كتاب محمد ابن العباس بن مروان باسناده الى جعفر بن محمد (ع) عن أبيه عن آبائه عن امير المؤمنين (ع) عن النبي (ص) في حديث طويل يذكر فيه شيعة علي (ع) و دخولهم في الجنة- الى قوله (ص) عن اللّه- «فمرحبا بعبادي الذين حفظوا وصيتي في اهل بيت نبيي و رعوا حقي و خافوني بالغيب و كانوا مني على كل حال مشفقين».

(الفرقان- م 24)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 370

هنا لك يصف أمير المؤمنين علي (ع) حالهم في اللّه و ابتهالهم الى اللّه:

«اما و الله لقد عهدت أقواما على عهد خليلي رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أنهم ليصبحون و يمسون شعثاء غبراء خمصاء، بين أعينهم كركب المعزاء يبيتون لربهم سجدا و قياما، يراوحون بين اقدامهم و جباههم، يناجون ربهم و يسألونه، و الله لقد رأيتهم مع هذا و هم خائفون مشفقون» «1».

[سورة الطور (52): الآيات 29 الى 49]

فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَ لا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ (33)

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (34) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْ‏ءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38)

أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَ لَكُمُ الْبَنُونَ (39) أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43)

وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ (44) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45) يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (46) وَ إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (47) وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48)

وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبارَ النُّجُومِ (49)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 141 عن اصول الكافي باسناده الى معروف بن خربوذ عن أبي جعفر (ع) قال: صلى امير المؤمنين بالناس الصبح بالعراق فلما انصرف و عظم فبكى و أبكاهم من خوف اللّه عز و جل ثم قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 371

هذه الآيات، سريعة الإيقاعات، تطارد المتطاولين على ام الرسالات في تحديات قوية، و احتجاجات عقلية و واقعية، لا يثبت لها الإنسان أيّا كان، فلا طريق له الا الإيمان أو يسامح عن عقله.

إنها تستعرض ستة عشر أمرا، بين ما يرجع إلى النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تثبيتا له، أو دفاعا عنه، لولاها لانتفت صلاحيته للرسالة «1» و ما يرجع إلى المكذبين أنفسهم‏ «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كتهمة الكهانة و الجنون و الشعر و التقول على اللّه و سؤال الأجر على الرسالة.

(2) ككونهم خالقين أو خلقوا من غير شي‏ء، ام عندهم الغيب، ام ان لهم إلها غير اللّه ام ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 372

فتزيح كافة أعذار العصيان من البين، عن الرسول كمتبوع، و عنهم كأتباع، ليبقى المكذبون به مدحضين.

فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَ لا مَجْنُونٍ‏ عليك التذكير ما نفع، و إن كان كحجة قاطعة العذر على الشاردين، مهما تقولوا عليك بتهمة الكهانة أو الجنون‏ «1» فلا يثنك عن واجب التذكير فريتهم الحمقاء السوء التي ترجع إليهم بكل فضيحة و تبوء.

ترى أن نعمة الوحي الرباني المحمدي، و هي أنعم النعم الروحانية، اللائحة من أقواله و أفعاله، هل إنها تسبب الكهانة أو الجنون، أو تصاحبهما «2»؟ إذا فنقمة الوحي الشيطاني الواضحة في المفترين هي التي تعارضهما و تفاصلهما؟ فما أجن و أكهن هؤلاء الحماقى، فإذ لا يجدون مناصا عن حجته البالغة، يتهمونه بالكهانة و الجنون، اللذين يطاردهما بالوحي الحنون، و ان العجب ليأخذ كل من درس شيئا عن سيرة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من تقولهم هذا، و هم الذين عرفوه برجاحة العقل و الأمانة بينهم حتى لقبوه بمحمد الأمين، ثم إذ بعث بما لا يلائم شهواتهم و حرياتهم اتهموه و بهتوه.

و الفرق بين الكهانة و الجنون، أن الثاني فقدان العقل فلا تنضبط أفكاره و تصرفاته، و الأول الإخبار بالأخبار الخفية الماضية و المستقبلة بضرب من الظن، الصادرة عن الشياطين المسترقين السمع المرجومين و يعرفان بمناقضة كل مع نفسه، و مع الواقع و العقل، فأين المناقضة من هذه و تلك في مقالات الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أفعاله لكي يستحق تهمة الكهانة أو الجنون؟! أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ‏: شاعر لا مخلص منه إلا أن نتربص به اضطراب الموت، فإنما بموته، و بموته فقط، يموت ذكره، و تموت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع سورة القلم ص 59 ج 29 من الفرقان.

(2) الباء هنا محتمل الوجهين: السببية و المصاحبة، بسبب النعمة او مصاحبتها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 373

دعوته، فالمنون من المن: النقص، يعبر به عن المنية: الموت، لأنها تنقص العدد و تقطع المدد.

ترى كيف لا يشعرون- و هم من مواليد الشعر- ان الشعر له وزن خاص، و ليس القرآن مثله، و انه يخلط الغث بالسمين و القرآن كله سمين، و انه في أزواجية التناقض، مع نفسه و الواقع، و لا تناقض في القرآن، و ان لكل شعر دورا و دور القرآن مدار الزمن ما طلعت الشمس و غربت، فآخر كيدهم أن يتربصوا به اضطراب الموت، و لكي يختلقوا لأنفسهم عذرا ردحا من الزمن، و لكن ترى من هو الناجح بموت الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟:

و قد يعني‏ «رَيْبَ الْمَنُونِ» حوادث الدهر، أن يتربصوا به لتأخذه كوارثه القاصمة، و حوادثه الحاسمة، لكي يتخلى عن دعواه، أو تأخذه نكبة دعوته بما تتهافت كل دعوة باطلة، و تتساقط على مدعيه فاضحة إياه، أو يلاحقه من يتربص به الدوائر، بما عندهم من أساليب تسقطه عن مكانته، و تفضحه في ذعرته، أم ماذا؟.

«قُلْ تَرَبَّصُوا» و لكي يفتضحوا هم و هو غالب الحجة «فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ» و لكي تستبين لكم سبيل المجرمين، فلا يزدادكم التربص إلا حسرة، و لا يزداده إلا نموا و كثرة.

قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ‏ فسوف تعلمون أن بموتي لا تموت دعوتي، و لا ينتهي دور شعري! فانما يبقى ما بقي الدهر و كما قال وحيدكم بعد ما فكر و قدر: «إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ»: يبقى و لا يزول، مما يدل أنه لا سحر و لا شعر! ألا فتربصوا، فستعلمون من تكون له عاقبة الأمور، و من ينتهي به التربص إلى النصر و الظهور؟ هذا هو القرآن اللامع، و التبيان الصادع، الذي لا يزداده مرور الدهور إلا زيادة النور و البهور.

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ‏: تبكيت لهم و إزراء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 374

عليهم، ماذا الذي يدفعهم إلى هذه الأقاويل الزور: انه كاهن أو مجنون أو شاعر أم ماذا؟ هل هو أحلامهم؟: عقولهم الحكيمة كما يدّعون؟ و قد علموا بعده عنها و مباينته لها! و أي عاقل يرمي معدن العقل و بحبوحته بالجنون؟ فما هذا أمر الأحلام، و إنما أمر الجنون!.

أم أن الأحلام هنا تعني رؤيا المنام، فأحلام العقل لا تأمرهم بهذا و إنما أضغاث أحلام، التي يحكم ضعفاء عقول الأحلام.

أم لا هذا و لا ذاك‏ «بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ»: على عقولهم لو كانت لهم عقول، و طاغون على اللّه، و على رسالات اللّه، و لكي يتحللوا عما ياسرهم عن البربريات و الحريات في الشهوات، تسامحا عن عقولهم، و سماحا لشهواتهم.

أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ‏:- «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ» (69: 47).

و التقول هو تكلف القول الكذب المختلق، و القرآن بنفسه في مربع حصين يدل على وحيه الصادق الأمين:

1- عدم الاختلاف فيه. لا مع بعض في أي من الجهات، و لا مع العقل أو الواقع‏ «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» (4: 82).

2- و ترى لو كان هذا القرآن من عند غير اللّه، فما هي إذا صفة قول اللّه، التي يفقدها القرآن؟ ما هي إلا قمة الرصانة و المتانة المتواجدة في القرآن!.

3- ثم و لو أمكن التقول فيه، فما للّه لا يأخذ من محمد باليمين، و لا يقطع عنه الوتين، ذودا عن كرامته، و دفعا عن فريته، بل و زوده فيه و في قرآنه بأقوى المعجزات و أخلدها! إذا فما هو تقوّل‏ «بَلْ لا يُؤْمِنُونَ»!.

4- و أخيرا لو كان تقولا من كاهن شاعر مجنون، فأتوا أنتم العقلاء الشعراء النبلاء بمثله:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 375

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ‏-: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» (11: 13) أو «بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» (10: 38) و أقلها ثلاث آيات كالكوثر، فكيف بالقرآن كله: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى‏ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» (17: 88).

«لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ»، لا صدفة أو لعدم المحاولة، و انما الاستحالة «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ» (2: 24).

ان في القرآن سرا إلهيا يدركه كل من يواجه نصوصه بصفاء و رواع، متحللا عن سلطان التعصب، ثم يزيده مهما زاد تعمقه و تأنقه، ميزة في سبك الألفاظ و سكب العبارات و حتى في موسيقاها، فضلا عن معانيها و ملامحها التي تأخذ من القلوب شغافها، و من الألباب أعماقها، و من الحواس ألبابها. و هو يخاطب العقول و الفطر بأسلوب لا يعهد بين البشر «1»:

فلو كان هذا القرآن من مفتر شاعر كاهن مجنون فأتوا أنتم العقلاء و فيكم الشعراء البلغاء، و الكهنة الأذكياء، و الأدباء الأقوياء فأتوا بمثله و لماذا لا تأتون! و إذ أنتم عاجزون صاغرون، فلما ذا لا تؤمنون؟ «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ» (7: 185) «فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ» (68: 44).

و من ثم لم يبق مناص الا الإيمان به، أو تكذيبه ككلام اللّه، فالتكذيب باللّه، أو نكران توحيد اللّه أو وجوده، و إذا كان هذا دائكم فإليكم دوائكم:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع بحث الاعجاز في سورة البقرة تجد فيها قولا فصلا عن اعجاز القرآن، و كذلك سورة الاسراء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 376

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْ‏ءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ‏ قد توحي «أم» هنا بحذف شي‏ء مسبق، هي بديل عنه و دليل عليه ك:

- أ ليسوا هم مخلوقين؟ «أَمْ خُلِقُوا ..» أسئلة تقريع و تبكيت بهؤلاء الناكرين، و قذ حولت الأجوبة إلى عقولهم حتى و لو سامحوا عنها، لأنها من أوضح البديهيات، و في قمتها أنه مخلوق، و لذلك لم يذكر في عداد المحتملات، إذ لا أحد- حتى و لو كان مجنونا، أو أصغر حشرة- ينكر كونه مخلوقا، مهما غبي و طغى!.

فهنا في بساط البحث عن اللّه يكفى الإنسان نفسه دليلا و مصدرا، تتدفق عليه المحتملات المسرودة:

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْ‏ءٍ من لا شي‏ء، مهما تسمى بصدفة عمياء أم ماذا، أم اللاشي‏ء المطلق عن الأسماء، فهل هناك شي‏ء غيرك خلقك؟ فهو الذي نسميه اللّه، أم لا شي‏ء هناك إلا أنت، و سائر الخلق، دون أي خالق؟: مخلوق بلا خالق!.

و فيما إذا سئلنا: إذا كان الخلق من غير شي‏ء محالا، فكيف خلق اللّه الأشياء من غير شي‏ء؟

و الجواب: ان هنا خلطا بين الشي‏ء الخالق- هو شي‏ء الأشياء، و هو الذي شيّا الأشياء، و بين الشي‏ء المخلوق به، ففرق بين الأشياء لو خلقت من غير شي‏ء:

دون خالق، أو من غير شي‏ء: بخالق دون مخلوق به،: من لا شي‏ء، ثم لا نقول، إنه خلق الأشياء من لا شي‏ء، بل لا من شي‏ء، فالمادة الأم خلقت لا من شي‏ء كان قبلها، و إنما بإرادة اللّه الذي خلق كل شي‏ء، ثم و خلق التراكيب التالية للمادة الام، خلقها منها، و هو خلق من شي‏ء.

فقد يكون هنا شي‏ء ليس إلا هو، و هو اللّه قبل أن يخلق أي شي‏ء، و قد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 377

يكون شيئان، فالشي‏ء الأول الإله خلق الثاني لا من شي‏ء، لا من لا شي‏ء، و قد يكون ثالث خلقه اللّه من الشي‏ء الثاني: المادة الأم، كسائر التراكيب المخلوقة منها، فالأشياء كلها مخلوقة من خالق، خلقها لا من شي‏ء، أو من شي‏ء، لا من اللاشي‏ء، فإنه محال كما المخلوق بلا خالق.

فاللّه تعالى شي‏ء لا كالأشياء، خلق المادة الأم لا من شي‏ء، و خلق سائر الخلق من هذا الشي‏ء، و هذه كلها تختلف عن خلق الأشياء من غير شي‏ء، من لا شي‏ء بمعنيه، حيث المخلوق بحاجة ذاتية إلى الخالق، و لا يمكن صدوره من مادة العدم.

أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ‏ بعد ما ثبت ان لك خالقا، فهل أنت الخالق نفسك، فلتكن كائنا قبل كونك حتى تخلقه، و لتكن غير كائن حين تخلق، فأنت إذا كائن و لا كائن في حالة واحدة لكي تكون خالق نفسك! هذه خطوات ثلاث إلى اللّه، إنك مخلوق- إن لك خالقا- إن خالقك غيرك، و من ثم إذ تعترف أن لك خالقا غيرك، فهل هو الخالق للسماوات و الأرض أم أنت؟:

أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ‏:-؟ «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» (29: 61).

ثم يبقى أن الخالق للكون أجمع هل هو حكيم لطيف عليم، أم جاهل غير حكيم؟ و الكون بنظامه البارع الموحد يدل على أن منظمه حكيم عليم: «أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» (67: 14): خطوات خمس من نفسك إلى اللّه تلجئك أن تمشي سويا على صراط مستقيم، صراط اللّه الذي له ما في السماوات و الأرض و إليه ترجعون، فهل انكم بعد ذلك تكذبون؟! بَلْ لا يُوقِنُونَ‏: لا يدقون أبواب الإيقان، و لا يحاولون الوصول إلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 378

الإيمان، رغم توفر أدلة الإيمان و الإيقان، فاليقين من صفة العلم فوق المعرفة و الدراية، و هو سكون الفهم بعد ثبات الحكم، فلقد ثبت الحكم بأدلته القاطعة على وجود اللّه، و لكن لما يسكن الفهم بهذا الحكم، و لما يجتاز العقل إلى القلب و اللب، فإدراك العقل شي‏ء و يقين القلب شي‏ء آخر، هم بعاد عنه بما يستنفرون من حصوله، و يعرقلون الطريق دون وصوله.

و إذ يثبت أن هناك ربا و لا بد له من وحي و خزائن رحمة فهم إذا بين طريقين، ثانيهما:

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ‏:

فخزائن الرب معنوية و مادية، ليست إلا عنده، دون خلقه و حتى المرسلين:

قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ» (6: 50) «وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ» (63: 7) «وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» (15: 21).

فإذ أنتم تتضايقون من الرسالة المحمدية و تضنون بها هل أن خزائن رحمة اللّه عندكم حتى ترزقوا النبوة من تشاؤون، و تحرموها من تشاؤون، و تعزلوا عنها من تشاؤون: «قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ» (17: 100) «أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» (43: 32) فكيف بالرسالة و هي الحياة العليا؟! فمن ذا الذي يدعي أنه فوق النبيين، و وكيل او مثيل لرب العالمين! و لا يشرك في حكمه أحدا، إلا أن يدعوا أنهم الغالبون على اللّه، يحتلون خزائنه بقوة:

أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ‏: فهل من أحد تدعي السيطرة على سلطان اللّه؟!.

أن يصارعه فيصرعه فيأخذ ملكه و يتصرف فيه كما يشاء!.

و من ثم لا يبقى لهم الا دعوى الاستقلال في الوحي باستغلاله دون رسول:

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 379

هذه الآية تدلنا على إمكانية استماع الوحي عبر السلاليم، فضلا عن استماع الأصوات البشرية البعيدة في سلاليم، فما هي الصلة بين السّلم و بين الاستماع فيه؟

و المعروف للسلم هو الصعود به إلى السطوح، أو الاستماع عليه، و أما التحدث به، و أما الاستماع فيه، فلم يك معروفا مسبقا، حتى كشف العلم بعد جهود طائلة عن إمكانية الإذاعة و الاستذاعة عبر سلاليم خاصة، و كما هي الآن في دور الاذاعات الراديوئية و التلفزيونية.

نقول: هذه الآية تحمل ملاحم غيبية كشف العلم عن بعضها اليوم، و هو الإسماع و الاستماع عبر الأثير بواسطة سلاليم خاصة، و عله مما دفع مخترعي الإذاعات للكشف عنها و قد وفقوا لحد ما.

و مهما يتوصل الإنسان إلى اختراع سلاليم يستمع فيها، الآخذة للأصوات، و إلى سلاليم يسمع و يذاع بها، المرسلة للأصوات، فهو لن يتوصل إلى سلاليم الوحي الرسالي، النورانية الروحانية، فإنها بيد اللّه، يختص بها من يشاء، و لا إلى سلاليم الوحي غير الرسالي، و ان كان الجن المؤمنون- و قبل الوحي الأخير- كان لهم مقاعد للسمع، و لكن‏ «فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً» فلو كان استماع الوحي غير الرسالي من الملأ الأعلى، بإمكان الإنسان قبل الآن آن الرسالة المحمدية- فليس هو بالإمكان بعد هذا الآن و إلى انقراض الزمان.

و هذه الآية تصريحة التبكيت بناكري وحي القرآن، و اشارة التأكيد بامكانية اصطناع سلاليم تستمع فيها أصوات بشرية أم ماذا، دون تحميل و لا تأويل، رغم من يفسرون «في» هنا ب «على» علهم يوجهون الآية إلى وجه مقبول، حيث السلم للاستماع يرقى عليه حتى يستمع من عل، لا فيه.

و علهم اصطبروا حتى يأتي تفسير الآية علميا و واقعيا كما أتى بسلاليم الإذاعة و الاستذاعة، فالقرآن بنفسه وجيه لا يحتاج إلى توجيه العقول و العلوم إلى حقائقه الرقائق «و ان للقرآن آيات متشابهات تفسرها الزمن» متشابهات علمية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 380

كهذه أو عقلية كسواها، أم ماذا «1».

فيا لآية السلم- و بعد تطور العلم- من دلالة واضحة: ان القرآن ليس إلا من وحي الرحمان، إذ لم يخطر بخلد أحد، قبل اربعة عشر قرنا، ان من السلاليم ما يسمع فيه و يسمع به، كما ان منها ما يرقى به الى السطوح.

... فإذ ليس عندهم خزائن اللّه، فهم بحاجة الى استماع الوحي، فهل لهم سلم يستذيعوا به و يسمعوا فيه الوحي؟ «فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ» فان سلطان الوحي مبين، يظهر انه من اللّه، فهل عندهم هكذا وحي كوحي القرآن؟ الذي يملك كل سلطان على أنه من عند اللّه!.

و من ثم يناقش البعض من تقوالاتهم التافهة على اللّه، إذ يفضلون عليه أنفسهم فيما يفترون:

أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَ لَكُمُ الْبَنُونَ‏ فرغم انهم كانوا يعتبرون البنات ادنى من البنين، بل و لا اعتبار لهن عندهم في شي‏ء فهم ينسبون الى الملائكة إنهم إناث: «وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً» (43: 19) ثم جعلوهم بنات اللّه:

«أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً» (17: 40) في حين لهم بنون و بنات: «وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ» (16: 57) فهذه اهانة فوق اهانة: ان للّه ولدا- أيا كان- و انه يصفي عباده بالبنين، و يصطفي لنفسه بنات، كما و ان آخرين‏ «خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ» (6: 100) و ان الجن هم البنون‏ «وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً» (37: 158) مهما كان هذا أهون من ذاك، و اقل مهانة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). انني اذكر أول لقاء برئيس الاشراف الديني بالمسجد الحرام وزير القضاء سماحة الشيخ عبد اللّه بن حميد بمكة المكرمة انه سألني عن شغلي، فقلت له انا مشتغل بالقرآن، قال: تعني تفسيره؟ قلت: نعم- قال و عندك جديد من ملاحم غيبه- قلت و كله جديد، و ما اذكر هل هو قرء آية السلم ام أنا، ففسرتها كما في المتن، فطلب مني تكراره و اعجب به قائلا: و اللّه لهى اشرف و أفضل جلسة أجلسها طول حياتي العلمية مستفيدا، أشكرك يا سماحة الشيخ، فقدم لي عددا كثيرا من مختلف الكتب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 381

و من ثم و بعد أن خفت وطأة الاعذار في الربوبية و الرسالة، او زالت، هل هناك ثقل آخر يثقلهم عن تصديق الرسول كسؤال الأجر؟:

أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ‏؟.

الغرم ما ينوب الإنسان في ماله او ماله، من ضرر لغير جناية منه او خيانة، و المغرم مصدر ميمى تعني الغرم نفسه.

فطالما لم يكن هناك غرم فطري و لا فكري و لا عقلي يثقلهم عن تصديقك، فهل هنالك غرم مادي لأنك تسألهم أجر الرسالة، فهو يثقلهم فيثاقلوا عنك؟! كلا: «قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرى‏ لِلْعالَمِينَ» (6: 90) «اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ» (36: 21) إذ لا عائق معنويا كالضلال، و لا ماديا كالأجر، فما لكم لا تؤمنون!.

و لئن سئلنا: كيف لم يسأل أجرا و قد سأل أكبر الأجر: «قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏» (42: 23) و قد يكلف جلب المودة في قربى الإنسان أموالا طائلة؟ فالجواب: إنه ليس في الواقع أجرا يرجع لصالح المأجور و ان أتي بلفظ الأجر، فانه يرجع لصالح المسؤل دون السائل: «قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ» (34: 47) فان المودة في القربى من السبل الى اللّه: «قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى‏ رَبِّهِ سَبِيلًا» (25: 57) فهؤلاء القربى الذين جعلت مودتهم كأنها أجر الرسالة إنهم يقربونهم الى اللّه زلفى، فمودتهم مودة للرسول و مودة للّه، و هم استمرارية للرسالة الإسلامية لأنهم السبل الى اللّه كخلفاء للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فليس الرسول ممن يدخل مودة قرباه في مصالح رسالته لحد الأجر لأنهم قرباه، و انما لأنهم يمثلونه في رسالته، فمن شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا هي استمرارية السبيل المحمدية الى اللّه، فالرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يسأله المودة في قرباه فحسب، لهذه الغاية الراجعة لصالح المسلمين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 382

ان هذا الأجر- بخلاف الأجور المادية المثقلة المغرمة- انه يخفف الوطئة عمن يتخذ الى ربه سبيلا، و يسهل له الوصول الى درب الحقيقة و مدينة العلم، و كما تواتر

عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أنا مدينة العلم و علي بابها»

و من ثم فهل لهم مرجع يرجعون اليه- الى اللّه- من غير الرسول؟:

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ‏؟ و ليس الغيب كله إلا عند اللّه، و لا يظهر على غيبه أحدا: إلا من ارتضاه من رسول: «عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى‏ غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى‏ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً» (72: 27) فمن ذا الذي يدعي أن عنده غيب اللّه كما عند اللّه، أو إنه ممن ارتضاه اللّه فيظهره اللّه على غيبه، فليأت بسلطان مبين؟.

أو ليس هذا و لا ذاك، فلا حق و لا حقيقة لديهم هنا و لا هناك، و انما:

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ‏: «وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» (35: 42) فالذي يمكر اللّه و رسل اللّه و أهل اللّه، إنما يمكر بنفسه‏ «وَ ما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ ما يَشْعُرُونَ» (6: 123) «وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ» (14: 46).

فالكافر مكيد بكيده نفسه، و يكيده اللّه بما كاد «وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ» (8: 30) فمهما كان مكرهم عن عجز و طغيان، فمكر اللّه ليس إلا جزاء وفاقا، فمكره خير و إلى خير، بخلاف مكرهم.

أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ‏ فهم عند ما يعملون هذه الأعمال الماكرة الكافرة، و بعد ما ثبت لهم أن اللّه هو الحق المبين، فعلى م يعتمدون، ام لهم إله غير اللّه يتولونه فيرد عنهم عذاب اللّه؟: «أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا ..» (21: 43)؟ «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ» و كما تسبحه الفطرة و الكون كله يسبحه عن أي ند أو شريك.

و لقد وصلت عمايتهم عن الحق، و غوايتهم لحد يعتبرون كسف العذاب سحابا:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 383

وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ‏ فمثلهم كمثل عاد لما رأوا ريح العذاب: «فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ» (46: 24).

فان يروا هؤلاء كسفا: قطعة- من السماء ساقطا عليهم يقولوا سحاب مركوم:

متراكم بعضه على بعض، مل‏ء من الماء يمطرنا و يسقينا، فهؤلاء لا دواء لدائهم العضال إلا أن تذرهم يخوضوا و يلعبوا:

فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ‏ فإذا انقطع عنهم كل الآمال، فاتركهم في غيهم يعمهون، و قد أديت ما عليك، «فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا» يوم الصعقة في قيامة التدمير و قيامة التعمير، و بعد ذلك ما دامت النار، فانه كل يوم الصعقة: الهدة الكبيرة، مهما اختلفت دركاتها، فعند الموت و هو القيامة الصغرى تكون الصعقة الصغرى، و في القيامتين الصعقة الوسطى و الكبرى.

يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ‏ فكما لم يغن عنهم كيدهم يوم الدنيا، فكذلك يوم الدين، ثم لا نصير لهم و لا عاذر، فالكافرون لا مولى لهم و لا نصير.

وَ إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ‏ و هنا يعمم العذاب للظالمين أجمع، و لكنه دون ذلك العذاب الشديد، لأشداء الكافرين، و هذا العذاب يعم ما في الدنيا تنبيها و تطهيرا، و ما في البرزخ جزاء مؤقتا أو حتميا، و ما تبقى ففي النار على مختلف دركاتها حسب دركات المظالم، ثم يخرج منها قبل انخمادها الظالمون دون ذلك، و يبقى رؤوس الكفر و الضلالة ما بقيت النار و بئس القرار «وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ» الظالمين «لا يعلمون» انهم كذلك يعذبون كالكافرين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 384

و أخيرا يؤمر الرسول بالصبر و يكرم بضمان أعظم تكريم، بما ليس له مثيل.

وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ. وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبارَ النُّجُومِ‏ «و اصبر» عن جدالهم و قتالهم‏ «لِحُكْمِ رَبِّكَ» بقتالهم، و حكمه بعذابهم بعد موتهم.

«فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا». الرقابات الخاصة الإلهية كلها، فإن كان موسى يصنع على عين اللّه: «وَ لِتُصْنَعَ عَلى‏ عَيْنِي» (20: 39) و ان كان نوح يصنع سفينة النجاة بأعين اللّه و وحيه: «أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا» (22: 27) فأنت أنت يا محمد كلك بأعين اللّه، لا صنعك فحسب، و لا بعين واحدة فحسب، و انما أنت ككل: منذ الولادة حتى الممات كمحمد، و منذ ابتعاثك حتى القيامة كرسول، أنت بأعيننا، لا على عيني كموسى! ب «أعين» كافة الرقابات الإلهية «نا» على ضوء كافة الأسماء و الصفات الإلهية- ف «أعيننا» توحي بجمعية الرقابات و الصفات الإلهية للرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا سواه، مما يدل على مدى الرحمات الخاصة الإلهية لمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تلكم العنايات التي لم تتوفر هكذا لأى من القديسين، من الملائكة و الناس أجمعين! .. فيا له من تعبير عبير، و يا له من تصوير فيه كل تقدير، لهذا الرسول البشير النذير، مما يمسح عن قلبه غبار المعرقلين الكافرين، فيستحم هو في بحر من النور، و يأخذه يمّ من السرور!.

ثم و ليزيد في نورانيته و انقطاعه إلى ربه، يأمره فما فرض عليه كنبي خاصة:

وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ. وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبارَ النُّجُومِ‏ تسبيح بالحمد، أن ينزه اللّه في حمده للّه، عما لا يناسب و ساحة الربوبية، و «حين تقوم» لا يحن إلى حين خاص، فما دام قائما للّه نهارا في الدعوة إلى اللّه: «إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا» ليسبح اللّه في سبحه الطويل نهارا في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 385

بحر المجتمع المتلاطم، و كلما هو قائم غير نائم‏ «1»، كذلك‏ «وَ مِنَ اللَّيْلِ» بعض الليل: قبل منتصفه‏ «وَ إِدْبارَ النُّجُومِ» بعد منتصفه، فإن النجوم تأخذ في إدبار النور منذ نصف الليل، فالمجموع من «من الليل» و «إِدْبارَ النُّجُومِ» أكثر من نصف الليل إلى ثلثيه كما قرر له في سورة المزمل، إلا أن «من الليل» يشمل العشائين بنوافلهما، كما و ان‏ «إِدْبارَ النُّجُومِ» يشمل صلاة الفجر بنافلتها، فقد شملتا فروض الليل و الفروض بنوافلهما «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 120- اخرج عبد الرزاق في جامعه عن أبي عثمان الفقير ان جبريل علم النبي (ص) إذا قام من مجلسه ان يقول: «سبحانك اللهم و بحمدك اشهد ان لا اله الا أنت استغفرك و أتوب إليك.

و فيه اخرج جماعة آخرون عنه‏ انما كان يقولها كفارة لما يكون في المجلس.

(2)

القمي عن ابن أبي نصر عن الرضا (ع) «و ادبار النجوم ركعتين قبل صلاة الصبح»، و هو المروي عن الصادقين (ع) ايضا-

أقول و هذا من التفسير ببعض المصاديق المقصود إبرازها و كما

رواه القمي: قال‏ صلاة الليل في‏ «وَ إِدْبارَ النُّجُومِ».

(الفرقان- 25)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 386

سورة النجم- مكية- و آياتها اثنتان و ستون‏

[سورة النجم (53): الآيات 1 الى 30]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

وَ النَّجْمِ إِذا هَوى‏ (1) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى‏ (2) وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏ (3) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى‏ (4)

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى‏ (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى‏ (6) وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى‏ (7) ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى (8) فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏ (9)

فَأَوْحى‏ إِلى‏ عَبْدِهِ ما أَوْحى‏ (10) ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى‏ (11) أَ فَتُمارُونَهُ عَلى‏ ما يَرى‏ (12) وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى‏ (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى‏ (14)

عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى‏ (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى‏ (16) ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغى‏ (17) لَقَدْ رَأى‏ مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى‏ (18) أَ فَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَ الْعُزَّى (19)

وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى‏ (20) أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى‏ (21) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى‏ (22) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى‏ (23) أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى (24)

فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولى‏ (25) وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَرْضى‏ (26) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى‏ (27) وَ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (28) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَياةَ الدُّنْيا (29)

ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى‏ (30)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 387

هذه السورة المكية كيانها الرئيسي كسائر المكيات موضوع العقيدة في أصفى أعماقها، و أهمها موضوع الربوبية و الوحي و الرسالة، و إنها نجم في سماء القرآن في عرضها مهمة المعراج بتفاصيل لم تذكر في سائر القرآن، و هي كمنظومة موسيقية تناسب في نغمتها نغمات الوحي بمعانيها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 388

وَ النَّجْمِ إِذا هَوى‏ أصل النجم هو الكوكب الطالع، و يستعمل اسما، و مصدرا بمعنى الظهور، يقال: نجم لي أمر: ظهر و لاح، فقد يقصد بها كل ظاهر باهر، ماديا كالشهب و النيازك النارية التي تهوي من جانب من السماء إلى آخر، أم إلى الأرض، ناحية منحى شياطين السماء أو الأرض، و كالأجرام النورانية التي قد تهوي إلى الأرض، و كما في أحاديثنا: أن نجما هوى في بيت الإمام علي (ع) تدليلا على خلافته بخبر مسبق‏ «1».

أو معنويا كالقرآن المنجّم: النازل نجوما على قلب الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإنه من أوقع مواقع النجوم، لحدّ لا يقسم اللّه به لمزيد الاحترام: «فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ. وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» (56: 79).

فنجم القرآن إذا هوى من سماء الوحي يصبح ناجما لائحا لأهل الأرض، فقبل الهوي هو كوكب غير طالع، غيب في علم اللّه.

و كالرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذي أنزله اللّه و أهواه إلى أرض البشرية لكي يصاحب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

امالي الصدوق باسناده إلى ابن عباس قال: صلينا العشاء الاخرة ذات ليلة مع رسول اللّه (ص) فلما سلم اقبل علينا بوجهه ثم قال: انه سينقض كوكب من السماء مع طلوع الفجر فيسقط في دار أحدكم، فمن سقط ذلك الكوكب في داره فهو وصيي و خليفتي و الامام بعدي- فلما كان قرب الفجر جلس كل واحد منا في داره ينتظر سقوط الكوكب في داره، و كان أطمع القوم في ذلك أبي العباس بن عبد المطلب، فلما طلع الفجر انقض الكوكب من الهوى فسقط في دار علي ابن أبي طالب (ع) فقال رسول اللّه (ص) لعلي (ع) يا علي! و الذي بعثني بالنبوة لقد وجبت لك الوصية و الخلافة و الامامة بعدي، فقال المنافقون: عبد اللّه بن أبي و أصحابه: لقد ضل محمد في محبة ابن عمه و غوى، و ما ينطق في شأنه الا بالهوى، فأنزل اللّه تبارك و تعالى‏ «وَ النَّجْمِ إِذا هَوى‏ ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ» يعني في محبة علي بن أبي طالب‏ «وَ ما غَوى‏».

أقول: و روى ما في معناه الصدوق باسناده الى الصادق عن أبيه عن آبائه و محمد بن العباس باسناده اليه (ع) قال قال رسول اللّه (ص): و ذكر مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 389

الضالين و يهديهم: «فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً. رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ..» (65: 10) فهو نجم نزل و هوى ليرشد الناس إلى الهدى‏ «1».

و كالرسول ليلة المعراج إذا هوى حاويا و حيا دون واسطة من اللّه‏ «2».

فالنجم الهاوي هنا تتحمل كل هذه المصاديق الناجمة عن كلمة النجم دون هوادة، اللهم إلا الشهب و النيازك النارية التي لا صلة لها بعدم ضلال الرسول أو غوايته، و أما النجم الهاوي في بيت الإمام علي (ع) فقد يكون من ضمن المعني من النجم هنا و كما في أحاديثنا، طالما نجم القرآن و نبي القرآن يحتلان القمة في المعني منه، فيقسم بالقرآن الذي يحمله نبيه، انه ما ضل و ما غوى، و ما ينطق عن الهوى فان كمال الهداية ناجم في هذا النجم الهاوي على قلب الرسول الهادي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى‏،. وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا (ع) قال: النجم رسول اللّه (ص) و قد سماه اللّه في غير موضع فقال: و النجم إذا هوى، و مثله في روضة الكافي عن أبي جعفر (ع) في الآية قال: اقسم اللّه بقبض محمد.

أقول يعني موته، فهم النجم و هويه موته.

(2)

روى‏ ان محمدا (ص) نزل من السماء السابعة ليلة المعراج و لما نزلت السورة اخبر بذلك عتبة بن أبي لهب فجاء الى النبي (ص) و طلق ابنته و تفل في وجهه و قال: كفرت بالنجم و رب النجم فدعا (ص) و قال: اللهم سلط عليه كلبا من كلابك، فخرج عتبة الى الشام فنزل في بعض الطريق و القى اللّه عليه الرعب فقال لأصحابه ليلا: أنيموني بينكم ليلا ففعلوا فجاء اسد و افترسه من بين الناس.

أقول: في الدر المنثور 6: 121- أخرجه عبد الرزاق و ابن جرير عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عنه (ص) و ابو الفرج الأصبهاني في الأغاني عن عكرمة و ابو نعيم في الدلائل و ابن عساكر من طريق عروة عن هبار بن الأسود.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 390

ان النجم المنقض في دار علي (ع) «1» دليل على برائته عن مثلث الفرية:

الضلالة و الغواية و الهواية، في هامة الخلافة، و كما ان نجم ذات الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المقدسة، الهاوي ليلة المعراج عن الأفق الا على بعد صعوده، دليل على صدقه في الأنباء التي هوى بها إليهم بعد هويه، كما و ان نجم قرآنه المبين، و معه و به نجم كيانه المتين، شاهدا صدق على أنه ما ضل في رسالته و ما غوى، و ما ينطق عن الهوى، اضافة الى صحبته لكم أمينا عاقلا طوال سنين: «فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» (10: 16): لقد صحبتكم سنين، بعقل رزين، و حكم رصين، لحد سميتموني محمد الأمين، و لم تأخذوا علي مأخذا من ضلالة او غواية او هواية، ثم بعد إذ جئتكم بما يعجز عن مثله العالمون، تقولون: إنه ضل و غوى، و هو ينطق عن الهوى؟!.

إن الضلالة مقابل الهداية، فيها دركات، كما لهذه درجات، و تلك في دركاتها كلها بعيدة عن الهدى، دون سبيل لها إليها، بجهل أو تجاهل.

و الغواية مقابل الرشد؛ قد تجتمع مع الهداية، و هي غير الرشيدة منها، فالغاوي قد يكون مهديا و لكنه غير رشيد، إذ قد يجد سبيلا الى الحق، إذا فالغاوي أخف ضلالا من الضال.

و الهوى هنا هي الميل عن الحق، فقد تكون ميلا بشهوة تميل بالإنسان الى خلاف الحق، و هو الأكثر استعمالا: «فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى‏ أَنْ تَعْدِلُوا» (4: 135) و قد تكون ميلا بعقل غير معقول بالوحي، فقد تخطأ و قد تصيب، و هو الأقل استعمالا:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي و الكليني باسنادهما الى أبي جعفر (ع) «وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏» ما يتكلم بفضل اهل بيته بهواه‏

و

في امالي الصدوق باسناده الى أبي عبد اللّه (ع) انه قال: «ان رضى الناس لا يملك و ألسنتهم لا تضبط و كيف تسلمون مما لم يسلم منه أنبياء اللّه و رسله و حجج اللّه (ص) الم ينسبوه الى انه ينطق عن الهوى في ابن عمه علي (ع) حتى كذبهم اللّه عز و جل فقال: «وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 391

«وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ» (28: 50) إذ توحي بان اتباعها بهدى من اللّه هدى خالصة.

فالهوى تعم هوى النفس و هوى العقل، المنفيتين عن النبي في وحيه- ف:

ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏:

و انها أهم صيانة و أتمها للرسالة المحمدية، انها بكاملها سماوية، لا تأخذ من الأرض إلا بلاغها كذريعة: «ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏»: هوى النفس، فإنه غلب شيطانه منذ كان فطيما، فكيف به إذ بعث نبيا، و كما

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «شيطاني اسلم بيدي»

: و:

«جزناها و هي خامدة»

فلا تجد في أحواله و أقواله و أفعاله، في حله و ترحاله، في قلبه و قالبه، لا تجد، و لا قيد شعرة من هوى النفس.

و «ما ينطق» كذلك عن هوى عقله، متحللا عن وحيه، طالما هو عقل العقول! فالعقل المتحلل عن الوحي قد يخطئ، و هو جل عن أن يخطئ، كيف و هو رسول ربه الأمين.

كذلك و «ما ينطق» عن هوى عقله المتصل بالوحي، في قرآنه المبين، فإنه وحي في وحي، في ألفاظه و معانيه: «ان هو»: نطقه‏ «إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏».

هذا- و ان كان ينطق في سنته بعقل الوحي، وحيا في معانيها، و عقلا متصلا بالوحي في نضد ألفاظها، و هذا هو الفرق الفارق بين الكتاب و السنة القطعية، إذ يشتركان في وحي المعنى: «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏» و يختلفان في اللفظ: ان القرآن كذلك‏ «وَحْيٌ يُوحى‏»: في لفظه، كما هو «وَحْيٌ يُوحى‏» في معناه، و لكن السنة في لفظها- فقط- ليست وحيا، و انما عقلا من صاحب السنة الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، ثم هي تشارك القرآن في وحي المعني مهما اختلفت درجاتهما.

ان الحصر في آية الوحي‏ «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏» ينفي عن النبي أن ينطق عن أية هوى، لا هوى النفس فقط، فان هوى العقل ايضا ليست وحيا يوحى، فنطقه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 392

محصور في وحي يوحى: وحيا خالصا كما في القرآن، او وحيا مزدوجا كما في السنة، فان ألفاظها ليست إلا منه مهما كانت مقرونة مصونة بالوحي، مسنودة الى الوحي، فالرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كله- كرسول- وحي، و لا أقول انه في مآربه البشرية غير الرسالية، ايضا وحي، و انما في شئونه الرسالية.

و فيما إذا سئلنا: كيف تعم نطقه سنته بعد قرآنه، و الحصر المستفاد من «إن ..» يحصر نطقه بوحي يوحى، و السنة ليست و حيا إلا في معناها؟.

فالجواب: ان آية الوحي تحصر نطقه في وحي يوحى، لا قرآنه فحسب، و بما ان هامة الوحي هي المعنى، فوحي السنة ايضا وحي يوحى، و إن كان- فقط- في معناها، و ان كان القرآن أفضل منها و أعلى، لأنه بلفظه و معناه- وحي يوحى، ليس من النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيه شي‏ء، و ان من عقله المتصل بالوحي، فطالما يكون نطق النبي ككل: «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏» و ان لم يكن في لفظ السنة وحيا، و لكن قرآنه- بين نطقه- «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏» ليس فيه إلا وحي، جملة و تفصيلا، معاني و جملا، نضدا و ترتيبا و في كل شي‏ء.

ترى و ما هي النكتة في «يوحى» و في‏ «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ» كفاية لتأدية المعنى؟ أقول: علها لكي لا يزعم انه وحي ذاتي، وحي الضمير الصافي، وحي منه اليه، و انما: وحي يوحى اليه من خارج الذات، فوحي الضمير لا يوحى الى صاحب الضمير، انما هو وحي يتكون فيه نتيجة صفاته.

و من ثم فمن ميزات هذا الوحي، و لا سيما في قرآنه المبين، ان ليس معلمه إلا اللّه:

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى‏ علّمه الوحي أو علم الوحي إياه شديد القوى: ربه لا جبرئيل.

ترى إذ يراد التعريف بمتعلم الوحي الأخير و جاءه كلّ معارض نكير، هل يؤتى باسم معلمه الأصيل و هو اللّه، أم باسم الوسيط في وحيه جبرئيل؟ لو صحّ انه علّمه! و ليس تعليمه هو موضع بحث بين مثبت و نكير! لا ريب أن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 393

المقام يقتضي ذكر المعلم الأعلم- «شَدِيدُ الْقُوى‏» هو اللّه لا جبرئيل.

ثم جبريل، مهما كان وسيطا في الوحي المفصل أو معلمه فيه، فلم يكن وسيطا في محكمه، و لا سيما وحي المعراج، و قد عرج عنه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وحيدا إلى سدرة المنتهى، و ما فوقها، «وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى‏. فَأَوْحى‏ إِلى‏ عَبْدِهِ ما أَوْحى‏» و هذه الآيات تخص وحي المعراج ضمن ما يعم وحي القرآن كله، مفصله و مجمله، فلم يكن هناك جبرئيل حتى يكون معلمه، إذ تركه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند السدرة و قبل العرش قائلا:

تقدم يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم! ليس لي أن أجوز هذا المكان و لو دنوت أنملة لاحترقت» «1»

فشديد القوى هو اللّه و ليس جبرئيل.

و لئن كان جبرئيل معلمه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و حتى في وحي المعراج، فليس الرسول كمتعلم عبدا لجبرئيل، إذا فما ذا يعنى من: «فَأَوْحى‏ إِلى‏ عَبْدِهِ ما أَوْحى‏» و لا مرجع مسبق لضمير الغائب هنا إلّا شديد القوى، فهل أصبح جبرئيل الوسيط في الوحي معبودا للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و ليس هذا الإيحاء إلّا ذلك التعليم: فمن المستحيل هنا أن يكون شديد القوى هو جبرئيل.

ثم لا نرى تصريحا في القرآن و لا تلويحا أن جبرئيل كان معلم الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و إنما نازلا بالوحي إلى قلبه المنير نجوما طوال البعثة، بعد الوحي المحكم النازل عليه ليلة القدر دون وسيط: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى‏ قَلْبِكَ» (26: 194) و رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه و كما الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان أفقه من جبريل و كما

عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «روح القدس في الجنان الصاغورة قد ذاق من حدائقنا الباكورة»

ثم و لم يكن نزوله بالوحي المفصل لحاجة ذاتية من الرسول الى الوسيط، و هو أفضل من موسى الذي أنزلت عليه التوراة دون وسيط، و إنما ليثبت الذين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير روح البيان ج 9 ص 224 في رواية، و رواها في المناقب ابن عباس قال: فلما بلغ الى سدرة المنتهى و انتهى الى الحجب قال جبرئيل: تقدم يا رسول اللّه (ص)! ليس لي ان اجوز هذا المكان و لو دنوت أنملة لاحترقت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 394

آمنوا: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشْرى‏ لِلْمُسْلِمِينَ» (16: 102) و إنما يحصل بالتنزيل النزول التدريجي: الوحي المفصل، لا لحاجة الرسول إلى الوسيط، كيف و لم يحتج إليه في الوحي المجمل إذ عرج به إلى العرش! و إنما لتثبيت الذين آمنوا على أنه بشر رسول، فلا يقولوا فيه ما قيل المسيح (ع).

ترى أن الوسيط في رسالة إلى رسول- و إن كان يعلم شيئا منها أو يعلمها كلها- هل أنه معلم للرسول؟ أم رسول إلى الرسول، ثم لكل كيانه، فقد يكون الوسيط أدنى من الرسول كجبريل بالنسبة لمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد يكون أعلى، كالرسول بالنسبة للمرسل إليهم أجمع، و قد يكونان على سواء، و كما قد لا يعرف الوسيط شيئا عما أرسل به، فليكن شديد القوى هو اللّه لا جبرئيل.

ثم لو كان جبرئيل كمعلم للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم! شديد القوى، فهلّا يكون اللّه أيضا شديد القوى؟ و هذه تسوية بين اللّه و خلقه في القوى، و الكل بجنبه ضعفاء فقراء أخفّاء، اللهم إلّا «ذو قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» سواء أ فسرته بمحمد الأمين و هو الحق، أم فسّرته بجبريل الأمين و ليس به‏ «1» و لو كان، فكيف هو مرة شديد القوى كما اللّه، و أخرى ذو قوة كعبد اللّه، و بينهما من البون ما ترى!.

7- و نرى في أحاديثنا أن اللّه تعالى يوصف بشديد القوى دون خلقه‏ «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 30 ص 167- الفرقان في تفسير الآيات‏ «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ ..».

(2)

علي بن ابراهيم القمي في تفسيره نقلا عن الامام (ع) «عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى‏» يعني اللّه عز و جل. و في نهج البلاغة مثله،

و

في دعاء الندبة «فأغث يا غياث المستغيثين عبيدك المبتلى واره سيده يا شديد القوى». و في دعاء آخر «يا شديد القوى و يا شديد المحال».

هذا و لم يوجد وصف غير اللّه- جبرئيل أم سواه- بهذا الوصف في اي حديث إطلاقا- اللهم إلا في أقاويل جماعة من المفسرين دون اي برهان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 395

فكيف لخلقه أن يوصف بما وصف به اللّه، و هذا من الإلحاد في أسماء اللّه‏ «وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ».

8- ثم الذي دنى اليه الرسول فتدلى، فكان منه قاب قوسين أو أدنى، ليس هو جبرئيل حتى يكون هو أيضا شديد القوى، إذ لم يكن لجبرئيل في عمق المعراج مجال. و لا أن لدنو الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إليه كمال، كما و أن مقام أو أدنى مع غير اللّه ضلال و مجال، لأنه فناء و لا يجوز أو لا يمكن الفناء في غير اللّه، و إنما هو اللّه، المدنو منه و المتدلى به في مجال المعرفة لا المجاورة.

9- ثم جبرئيل كان الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يراه بعينه و هو في الأرض بصورة دحية الكلبي أم سواه، دون أن يراه بفؤاده فقط و هو بالأفق الأعلى‏ «ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى‏» و لم يماره أحد في دعوى رؤيته جبرئيل، فما كان موضوع النبوة بالرؤية حتى يكذبوه فيها، و إنما في ادعاء رؤية اللّه ببصيرة القلب و نور اليقين‏ «أَ فَتُمارُونَهُ عَلى‏ ما يَرى‏»؟، ثم و ماذا يكسب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من رؤية جبريل ببصره أم بصيرته، و هو (ع) دوما كان يتشرف بحضرته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ينزل بالوحي على قلبه‏ «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى‏ قَلْبِكَ».

10- ثم القسمة الضيزى: الظالمة، ليست في نكران رؤية جبرئيل، في حين أنهم يرون اللات و العزى، و مناة الثالثة الأخرى، و إنما هي بين ربه و أربابهم، انهم يرونهم كما يمكن، و هو لا يرى ربه كما يتمكن، و لم يكن جبرئيل في وقت من الأوقات موضوع الرسالة، و مدار النفي و الإثبات، و لا يثبت له كيان إلّا بعد ثبات الرسالة، فما ذا يفيد الإصرار في أنه علمه الوحي، و أنه رآه! و تلك عشرة كاملة تحيل أن يكون شديد القوى هو جبرئيل.

إذا فلا موقع لجبرئيل في هذه الآيات المعراجية، و لا قيد شعرة، و لا سيما أنها تركز على القرآن المحكم، الذي كان نزوله عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دون وسيط، و لا تلمح هذه الآيات إلى جبرئيل أبدا، إذا فشديد القوى هو اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 396

ثم لا يعنى من القوى ما تعنيه الفلسفة في صلاحاتها، أنها قبال الفعليات، و إنما هي القدرات، و لام الاستغراق الداخلة على الجمع «القوى» تجعلها تستغرق كافة القدرات الإلهية، غير المحدودة، إنها شديدة متينة و ليست ضعيفة و هينة، و من شدتها لا محدوديتها، و منها أزليتها و أبديتها، و منها وحدتها في حين كثرتها، و كثرتها على وحدتها، فاللّه تعالى علّم هذا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وحيه بكل القوى، فما أبقى ما يمكن وحيه إلا أوحى، علّمه ما لم يعلّمه أحدا من العالمين، من الملائكة و الجنة و الناس أجمعين، و ما لن يعلّمه أحدا من العالمين، فإنه خاتمة الوحي، الذي بالإمكان تعليمه لأفضل الخلق أجمعين.

ففي وحي القرآن من الشدة و القوة الربانية ما ليس في غيره من وحي، فالقرآن النازل من شديد القوى، إنه شديد في كافة القوى، مشدود بالقدرات الربانية كلها، متحلل عن كلّ و هم و وهن، عزيز بعزة اللّه، و مجيد بمجد اللّه:

«وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ»- «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ».

فنجم القرآن الهاوي على قلب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الهادي الحاوي ما يمكن هديه من سماء الوحي، إنه فقط، و بطلائعه دليل من أنه كتاب اللّه، و ان حامله النجم المحمدي رسول اللّه. ما ضل صاحبكم و ما غوى و ما ينطق عن الهوى.

إن هو إلا وحي يوحى. علّمه شديد القوى:

ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى‏. وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى‏ المرير و الممرّ: المفتول، و ذو مرة هو محكم الفتل. و صيغته الاخرى «ذو قوة» و لكن المرة مضمّن فيها المرور فهل إنه من أوصاف شديد القوى المعلّم، أو صاحبكم المتعلم؟.

ان شديد القوى، و لو كان جبريلا، لا يصح توصيفه مرة ثانية و دون فصل بمثل وصفه، أو نازلا عن وصفه: «شديد القوى: ذو قوة» و لكنه هو اللّه، لا يوصف بمحكم الفتل، الموحي إلى رخوة المسبق، و لا أن له فتلا، و لا أنه يمر و لا أنه يستوي، لا في ذاته و لا مكانته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 397

فليكن «ذو مرة» هو «صاحبكم» رغم الفصل بين الصفة و الموصوف، حيث الفصل هنا هو بقول فصل يذود عنه و صمات، ثم يزوّده بخالص من نسمات وحيه من معلمه شديد القوى، ثم يبدأ بأوصاف له و حالات تخلق له جوّ وحي المعراج، بعد مقام‏ «قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏»، و أولى صفاته هنا أنه: «ذو مرة»:

ذو قوة، و كما وصف بها في نظيرتها: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ. وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ. وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ. وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ» (81: 24). «1»

إنه لا بد من تدان معرفي بين المعلم و المتعلم حتى يتحقق التعليم كما يرام، فإذ كان اللّه المعلم لمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شديد القوى، فليكن هو أيضا ذا قوة تجعله قريبا إلى شديد القوى علميّا و معرفيا، و لكي يتلقى ما يلقى إليه تماما دون نقصان.

«صاحبكم ... ذو مرة: ذو قوة في عقله و رأيه، ذو قوة في مروره إلى الآفاق، و إلى الأفق المبين الأعلى، فليكن طائر المعراج هنا مزوّدا بجناحين:

قوة الطيران، و قوة العقل و الرأي، و بهاتين القوتين المتينتين:

فَاسْتَوى‏: علمه شديد القوى ... «فاستوى» «ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى‏»:

إذا فاستواء صاحب المعراج يشمل الجانبين: الاستيلاء الروحي العلمي بما علّمه شديد القوى، و الاستيلاء في البنية الجسدانية لأنه ذو مرة: فتلة و استقامة في عقله و جسمه، فمروره الجسداني و الروحاني في عمق الفضاء إلى سدرة المنتهى و ما فوقها من نتائج هذه الثنائية السامية الربانية الموحاة إليه، المفاضة عليه، أنه في رحلته الفضائية، هذه، المنقطعة النظير، كان بين تجاذب: جذبة إلهية، و انجذاب له ذاتي بما علمه اللّه، و بما فتل جسمه كما فتل عقله، لحدّ لم يصطدم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي في تفسيره عن أبيه عن النضر بن سويد عن يحيى الحلبي عن ابن سنان قال قال ابو عبد اللّه (ع): «أول من سبق الى (بلى) رسول الله و ذلك انه كان أقرب الخلق الى الله تعالى و كان بالمكان الذي قال له جبرئيل (ع) لما أسري به الى السماء: تقدم يا محمد لقد وطأت موطئا لم يطأه ملك مقرب و لا نبي مرسل ..»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 398

بتلك السرعة الخارقة التي تخطت سرعة الضوء- علّه- بملايين الأضعاف! و كما سيمر عليك بحثه بعد قليل.

وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى‏: و لأنه ذو مرة فاستوى، و لأنه علمه شديد القوى فاستوى: حال انه بالأفق الأعلى، فهنا استواء أول، قد حصل بما علمه شديد القوى، و انه ذو مرة، و استواء ثان إذ عرج بهذا الاستعداد المطلق الى أعلى الآفاق الممكنة لسائر الكائنات: قلبا و قالبا، ثم ارتقى الى أفق أعلى هو مقام «ثم دنى» ثم الى أعلى منها و هو مقام «او ادنى» و هو الأفق المبين الذي بان له فيه رب العالمين، إذ رآه بنور اليقين: «وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ» فقد

«على فاستعلى فجاز سدرة المنتهى و كان من ربه قاب قوسين او ادنى» «1»

: في مثلث من أعلى الآفاق مختلف السياق، فلم يشاركه في الأعلى الأول أحدا من العالمين، فأنى لهم بالثاني، ثم الثالث و هو الأفق المبين!.

و الأفق هو مد البصر في الدائرة المحيطة بالمبصر، بصر العين او بصيرة اليقين، فالأفق الأعلى هو أعلى الامتدادات للبصائر و الأبصار في أعلى الأماكن او المكانات، فقد خطأ في معراجه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثلاث خطوات، الى الأفق الأعلى قياسا لسائر الممكنات، ثم الى أفق «ثم دنى» و أخيرا الى أفق أعلى منهما: «فتدلى» حيث لم يشاركه في تخطيه احد من الروحانيين، و حتى جبرئيل الأمين.

ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى. فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏:

-

دنوا و اقترابا من العلي الأعلى- «2»،

دنو معرفي الى اللّه، و تدل معرفي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الاحتجاج للطبرسي حديث طويل عن الامام زين العابدين علي بن الحسين (ع) انا ابن من على ... فالعلو الاول هو الأفق الأعلى الاول ثم و استعلاءه هو الثاني في سدرة المنتهى، و جوازه سدرة المنتهى هو الأفق الثالث.

(2) من فقرات دعاء الندبة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 399

باللّه‏

«دنى بالعلم» «1»

و تدلى بالتجاهل عن نفسه‏

«و لو لا ان روحه و نفسه كانت من ذلك المكان لما قدر ان يبلغه» «2»

«لم يزل عن موضع و لم يتدل ببدن» «3»

(ليس بدنو حد، و انما دنو النبي صلى الله عليه و آله و سلم من ربه و قربه منه، ابانة عظيم منزلته، و تشريف رتبته، و اشراق نور معرفته، و مشاهدة اسرار غيبه و قدرته، و من الله له مبرة و تأنيس و بسط و إكرام) «4»

و كما

يروى من صاحب المعراج أيضا «لما عرج بي الى السماء دنوت من ربي حتى كان بيني و بينه قاب قوسين او ادنى» «5»

«قربني ربي حتى كان بيني و بينه كقاب قوسين او ادنى» «6»

و في هذه الحالة التجردية

«رفع له حجاب من حجبه» «7»

و هو الحجاب الأخير الممكن رفعه، و هو حجاب ذاته (ص) المقدسة، و بقي حجاب ذات اللّه سبحانه و تعالى، المستحيل رفعه لمن سوى اللّه.

فهنا لك دنو، ثم تدل، ثم وحي، و أهم من كل ذلك رؤية اللّه: أقرب القرب اليه معرفيا: دعائم اربع تدعم مكانة صاحب المعراج، و تتبنى كيانه الروحي لأعلى الدرجات المعرفية باللّه، حيث لا خبر عنه لا لملك مقرب، و لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر عن آبائه عن الحسين بن علي (ع) في حديث قال‏ «دنى بالعلم».

(2)

تفسير القمي باسناده عن الصادق (ع) أول من سبق الى «بلى» رسول اللّه (ص) و ذلك انه اقرب الخلق الى اللّه و كان بالمكان الذي قال له جبرئيل لما أسرى به الى السماء: تقدم يا محمد! فقد وطئت موطئا لم يطأه ملك مقرب و لا نبي مرسل و لو لا ان روحه ...

(3) الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر (ع) في آية التدلي.

(4) تفسير روح البيان ج 9: 220 رواه عن الامام الصادق (ع).

(5) أمالي الطوسي باسناده الى ابن عباس قال رسول اللّه (ص):

(6) روح البيان ج 9: 219 عنه (ص).

(7)

علل الشرايع عن الامام موسى بن جعفر في حديث طويل: فلما أسري بالنبي و كان من ربه كقاب قوسين أو أدنى رفع له حجاب من حجبه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 400

نبي مرسل، فإنها من خصائص صاحب المعراج!، و كما تتبنى سفرته الفضائية لمنتهاها حيث رأى من آيات ربه الكبرى:

ثُمَّ دَنا ان خرق كافة الحجب الظلمانية و النورانية، بينه و بين ربه، و خرق حجاب الصحبة بما سوى اللّه، إذ عرج عنها بقالبه كما كان عارجا بقلبه، فلم يبق هنالك أي حجاب اللهم الا حجاب نور الأنوار: نفسه المقدسة، متحللا عما سواها واقعيا و باختياره، حيث لا مجال لصحبة غير اللّه، و الانس بما سوى اللّه، و مثاله في دنوه هذا:

فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ‏ فان الحليفين من العرب كانا إذا أرادا عقد الصفاء الخالصة خرجا بقوسيهما فألصقا بينهما، يعنيان بذلك أن لا شي‏ء هنا يفصل بينهما، فهما متحدان في كل مقصد و مرمى.

و كما ان القوسين المتلاصقين يشكلان قابا و ملتقى واحدا، كذلك الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في دنوه هذا الى اللّه لصق قاب قوسه بقاب قوس ربه، فتلاصق القوسان:

قوس الوجوب و قوس الإمكان في قاب واحد، لا يحول بينهما حائل من جانب الإمكان إلا عجزه عن اكتناه ذات الواجب، و لا حائل من جانب الوجوب إلا حجاب ذات الألوهية الذي لن يرتفع ابدا، حجابان في قاب واحد، فهما إذا حجاب واحد، و لم يبق هناك اي حجاب إلا هذا الذي لن يرتفع، اللهم و إلا حجاب ذات النبي عليه السّلام و قد ارتفع ايضا إذ تدلى:

فَتَدَلَّى‏: بيني و بينك إني ينازعني فارفع بلطفك إني من البين إنه بعد أن دنى هكذا الى اللّه، تدلى ايضا باللّه فكان مثاله من القوسين:

أَوْ أَدْنى‏ فقد انمحى قوس الإمكان، و تدلى بقوس الرحمان، فأصبح:

«وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى‏» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

. ان الآية من اللف و النشر المرتب، فكان قاب قوسين إذ دنى، او ادنى إذ تدلى، ف «او» هذه للترتيب، لا الإبهام او التشكيك.(1)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 401

و كما

يروى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «قربني ربي حتى كان بيني و بينه كقاب قوسين أو أدنى» «1».

فالتدلي هو التعلق، فقد يكون مشوبا و قد يكون محضا خالصا، و صاحب المعراج بعد أن دنى الى اللّه خالصا، كذلك تدلى باللّه خالصا، متناسيا ما سوى اللّه و حتى نفسه، متحللا متخليا عن الكائنات الى رب الكائنات، و هذا هو الفناء في اللّه، أن يصبح العبد كأنه لا شي‏ء، او انه لا شي‏ء و يرى ربه انه الشي‏ء و ليس سواه شي‏ء، هذا! لا الذي يدعيه من يتسمون ارباب الكشف و الشهود، ان الفناء في اللّه هو ان يصبح العبد إلها من شدة قربه او خلطه بربه، كما يصبح الفحم نارا إذ تشمل كيانه كله، و هذا إلحاد في اللّه، ترفيعا للعبد الى درجة الالوهية، و تنزيلا للرب الى منزلة العبودية! و إنما الحق شعور العبد في سيره الى اللّه انه لا شي‏ء، ثم التدلي باللّه و هو مقام او أدنى، فكما اللّه أدنى إلينا منا علميا و قيوميا، فلنكن نحن اقرب اليه منا الى أنفسنا، و هذه المرحلة من المعرفة لا تتيسر إلا لصاحب المعراج محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

لقد كان الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- و قبل معراجه- اقرب المقربين الى اللّه، لا يحجب بينه و بينه حجاب و هو في الأرض، إلا أن طبيعة الحال تقتضي في معراج هكذا، و الى الأفق الأعلى، واضعا قدميه على كاهل الكون، تاركا ما سوى اللّه تحت قدميه و بقالبه، بعد أن كان تاركا لها بقلبه، منعزلا و حتى عمن أرسل إليهم، إن هذه الحالة التجردية تقتضي أن يكون هناك من ربه قاب قوسين او ادنى، دون أن يبقى أي حجاب و حتى حجب النور:

من صحبته المرسل إليهم، و من ممارسته حاجيات الأرض، و من نفسه المقدسة، حيث خرقها كلها متناسيا لها، فاتصل بمعدن العظمة فرأى ما رأى، و من آيات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير روح البيان لإسماعيل حقي ج 9: 219.

(الفرقان- م 26)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 402

ربه الكبرى‏ «1» و لو ان بقيت هذه الحالة التجردية في مقام «او ادنى» او و حتى في «دنى» لاشتغل عن الكون و عن رسالته و عن نفسه و قضى نحبه، و هذا باب من المعرفة الإلهية لن يعرفها إلا صاحب المعراج، و هي التي استدعاها موسى (ع) فأجيب‏ «لَنْ تَرانِي وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي» لم يكن في وسعه العروج الى الأفق الأعلى و هو موسى، كما لا يتسع الجبل فوق ما يتحمل.

و في هذه المرحلة النهائية من الزلفى الى اللّه، اوحى اليه اللّه ما اوحى:

فَأَوْحى‏ إِلى‏ عَبْدِهِ ما أَوْحى‏: وحي خاص في وقت خاص و كما

يروى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لي وقت مع اللّه لا يطلع عليه ملك مقرب و لا نبي مرسل» «2»

«أوحى الى عبده ما اوحى بلا واسطة فيما بينه و بينه سرا الى قلبه لا يعلم به أحد سواه» «3».

سر مستسر عمن سوى اللّه و سواه، لم يوح الى احد من المرسلين، و لا الكروبيين، اللهم إلا إلى صاحب المعراج، إلى قلب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من ثمّ الى قلب محمدي، الى قلوب الطاهرين من عترته، الذين رباهم بتربيته، و طهرهم اللّه كطهارته، و أذهب عنهم الرجس اهل البيت كما أذهب عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

ان هناك و حيا نطق به، في قرآنه و سنته، يحمله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

علل الشرايع عن زين العابدين علي بن الحسين (ع) سئل عن اللّه جل جلاله هل يوصف بمكان؟ فقال: تعالى عن ذلك، قيل: فلم أسرى بنبيه (ص) الى السماء؟ قال: ليريه ملكوت السماوات و ما فيها من عجائب صنعه و بدائع خلقه، قيل: فقول اللّه عز و جل: «ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى ..» قال: ذلك رسول اللّه (ص) دنى من حجب النور فرأى من ملكوت السماوات ثم تدلى فنظر من تحته الى ملكوت الأرض حتى ظن انه في القرب من الأرض كقاب قوسين او أدنى.

أقول: ذيل الحديث مردود الى راويه او يؤول الى ما يناسب الدنو الى اللّه و التدلي باللّه، و علّ منه ان ذلك الدنو و التدلي كشف له ملكوت السماوات و الأرض كما كشف له عن المحجوب من غيب معرفة اللّه، الممكن كشفه- تأمل.

(2) تفسير روح البيان ج 9: 220 عن الامام جعفر الصادق (ع).

(3) تفسير روح البيان ج 9: 221 عن الامام جعفر الصادق (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 403

«ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى‏» ثم وحي ثان، عله نطق ببعضه و اعرض عن بعض، يحمله‏ «فَأَوْحى‏ إِلى‏ عَبْدِهِ ما أَوْحى‏» و عل الأول يشمل الثاني في رموزه بغموضه، أسرار تختص بصاحب المعراج، ثم و من نحا منحاه.

«إِلى‏ عَبْدِهِ» كأنه هو فحسب عبده لا سواه، إذ وصل الى أعلى درجات المعرفة بربه و عبوديته، و كما كان أول العابدين: «قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ» (43: 81).

ترى ماذا الذي اوحى الى عبده؟ هل هو القرآن المفصل؟ و لم ينزل كله ليلة المعراج و انما طوال البعثة! او القرآن المجمل؟ و قد نزل ليلة القدر و قبل المعراج! او علّه القرآن المحكم مع رموز غيبية، و برقيات رمزية، و علّ منها مفاتيح كنوز القرآن، تأويل الحروف المقطعة، الذي اختص به محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دون سواه، اللهم إلا من حذى محذاه من عترته المعصومين المحمديين، و لقد كان من ملحقات هذا الوحي انتصاب علي (ع) بإمرة المؤمنين‏ «1» كما و ان منها آيات مفصلات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

امالي الشيخ الطوسي قال قال رسول اللّه (ص): لما أسري بي الى السماء كنت من ربي كقاب قوسين او أدنى فأوحى إلى ربي ما أوحى ثم قال: يا محمد اقرأ: علي بن أبي طالب امير المؤمنين، فما سميت بهذا أحدا قبله و لا أسمي بها أحدا بعده.

أقول: قوله (ص) ثم قال يوحي انه لم يكن من اصل «ما اوحى» و انما من ملحقاته.

و

في اصول الكافي العدة بإسناد متصل عن علي بن أبي حمزة قال: سأل أبو بصير أبا عبد اللّه (ع) و أنا حاضر فقال جعلت فداك كم عرج برسول اللّه (ص)؟ فقال: مرتين فأوقفه جبرئيل (ع) موقفا فقال له مكانك يا محمد! فلقد وقفت موقفا ما وقفه ملك و لا نبي- الى قوله- فنظر في سم الابرة الى ما شاء اللّه من نور العظمة فقال تعالى: يا محمد! قال: لبيك ربي- قال:

من لأمتك بعدك؟ قال: اللّه اعلم، قال: علي بن أبي طالب امير المؤمنين و سيد المسلمين و قائد الغر المحجلين، ثم قال ابو عبد اللّه (ع) لأبي بصير: يا أبا محمد و اللّه ما جاءت ولاية علي من الأرض، و لكن جاءت من السماء مشافهة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 404

من قرآنه المبين‏ «1» ام و ماذا بعد؟ لا يعلمه الا من اوحي اليه، و لا توحي آيته بشي‏ء منه إلا: «فَأَوْحى‏ إِلى‏ عَبْدِهِ ما أَوْحى‏»، و قد تلمح انه اوحى اليه كل ما أوحاه طوال بعثته، من قرآنه و سنته، و لكنه بصورة مجملة فيها كل التفاصيل!.

و من ملحقات هذا الوحي تكشّفه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن اسماء اهل الجنة و النار «2» فهذا و أشباهه من مخلفات انكشاف ملكوت السماوات و الأرض له، حين تصفّى عن كل كدر عارضي و ان كان من حجب النور، فأصبح يرى بعين اللّه، و يسمع بإذن اللّه، منكشفا له كل خلق اللّه اللهم إلا ما اختص بعلمه اللّه.

و لقد كان في معراجه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تشريف له ان يخترق حجب النور الى معدن العظمة، و كما

«أراد ان يشرف ملائكته و سكان سماواته بمشاهدته، و يريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد اللّه (ع) ان قوله تعالى:

«آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ...» مشافهة اللّه لنبيه (ص) لما أسري به الى السماء.

و

في احتجاج الطبرسي عن الحسين بن علي (ع) في الآية: «فكان فيما أوحى اليه» الآية التي في سورة البقرة: «لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» و كانت الآية قد عرضت على الأنبياء من لدن آدم (ع) الى ان بعث اللّه تبارك اسمه محمدا (ص) و عرضت على الأمم فأبوا أن يقبلوها من ثقلها و قبلها رسول اللّه (ص) و عرضها على أمته فقبلوها.

(2)

بصائر الدرجات عن الصادق (ع) في إسراء النبي (ص) حتى انتهى الى سدرة المنتهى، فقال السدرة: ما جازني مخلوق قبل. قال: ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين او ادنى فأوحى الى عبده ما اوحى، قال: فدفع اليه كتاب اصحاب اليمين و اصحاب الشمال، فأخذ كتاب اصحاب اليمين بيمينه و فتحه فنظر اليه فإذا فيه اسماء اهل الجنة و اسماء آبائهم، ثم طوى الصحيفة فأمسكها بيمينه و فتح صحيفة اصحاب الشمال فإذا فيها اسماء اهل النار و اسماء آبائهم و قبائلهم، ثم نزل و معه الصحيفتان فدفعهما الى علي بن أبي طالب (ع).

(3) التوحيد للصدوق عن موسى بن جعفر في علل المعراج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 405

و لأن هذا الدنو و هذا التدلي ثم ذلك الوحي، هذا المثلث النوراني المعرفي كان من عمل الفؤاد، من رؤية البصيرة لا البصر، و قد كان محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حينه في مثلث الرؤية النورانية المعرفية لربه، و هذا ما لا يسع فهمه العالمون فكيف بالجاهلين، لذلك كذبوه فصدقه اللّه تعالى في رؤية الدنو و التدلي و الوحي:

ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى‏. أَ فَتُمارُونَهُ عَلى‏ ما يَرى‏. وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى‏. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى‏. عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى‏. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى‏. ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغى‏. لَقَدْ رَأى‏ مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى‏ فلو لا أن الدنو فالتدلي و الوحي هنا لك، لو لا أنها رؤية الفؤاد و البصيرة، لا رؤية البصر، لم يكن لهذا الاستدراك من معنى‏ «ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى‏» و مهما رأى ببصره أيضا «مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى‏» فلقد زوّد برؤية البصر لآيات اللّه، و برؤية البصيرة للّه.!

فإن ذلك التدلي و وحيه لزامهما الرؤية المعرفية القمة، مهما كانت هناك رؤية أخرى حين النزلة عن الأولى، عنده سدرة المنتهى، أو كان في هذه الأخرى وحي آخر علّه أدنى من الأول، أم ماذا؟ ..

و لماذا الفؤاد هنا في موقف أعلى مدارج المعرفة، لا القلب، أو الصدر، أو الروح، فما هو الفؤاد؟.

الفؤاد هو القلب المتفئد: المتوقد، و هو وسط القلب و لبّه، و لأنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رأى ربه في مقام التدلّي: بقلب متوقد بوقود المعرفة، ملتهب بلهيب الشوق و الايمان، و بلبابه، لذلك يذكر هنا الفؤاد، انه ما كذب ما رآه، فمهما أخطأ البصر في مبصره، أو بصيرة الاحساس و الفهم و العقل و الصدر و القلب في مبصراتها المناسبة لها، و لكنما اللباب من القلب الملتهب المحمدي، الهائم الشغف في الوصال، إنه لا يكذب، فهذه الرؤية لا تقبل المماراة و المحاجة:

أَ فَتُمارُونَهُ عَلى‏ ما يَرى‏ هل لكم أن تحاجوه فيما يرى ببصره؟ فكذلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 406

و أحرى لا تماروه فيما يرى ببصيرته، بلب قلبه الملتهب‏ «1» «وَ لَقَدْ رَآهُ»: ربّه هكذا أو أدنى «نزلة أخرى» ..

و مما نستوحي من «رأى» مرتين و «يرى» أنه حصلت له الرؤية المعراجية مرتان في معراجيه، ثم هو كان يرى ربه طوال رسالته، فان «يرى» توحي بالاستمرار دون «رأى» و الفرق بين الرؤيتين: المعرفيتين، أن المعراجية منهما مزوّدة بزاد التدلي، و ليست الدائمة هكذا، فإن الحياة الرسالية و في الأرض و بين الناس، تتنافى و التدلي، الذي هو تحلّل عن كل شي‏ء، و تغافل حتى عن نفسه فضلا عمن سواه، إلا اللّه و اللّه فقط.

إن صاحب المعراج رأى ربه هناك بنور اليقين، و على‏

حدّ المروي عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لم أره بعيني و رأيته بفؤادي مرتين» جوابا عن سؤال: هل رأيت ربك؟ ثم تلا «ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى» «2»

و

قال: «نوراني أراه» «3»

: أن‏

«خرق له في الحجب مثل سمّ الإبرة فرأى من نور العظمة ما شاء اللّه أن يرى» على حدّ المروي عن الامام الرضا عليه السّلام‏ «4»

و ما نور العظمة بعد خرق الحجب إلا نور المعرفة النهائية، الممكنة لمن سوى اللّه.

وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى‏: و قد توحي أن الرؤية الأولى كانت عند النزلة الأولى، و بعد ما وصل إلى عمق من المعراج: سدرة المنتهى، و أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عرج‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

التوحيد للصدوق باسناده إلى محمد بن الفضيل قال: سألت أبا الحسن (ع) هل رأى رسول اللّه (ص) ربه عز و جل؟ فقال: نعم بقلبه رآه، أما سمعت اللّه عز و جل يقول: ما كذب الفؤاد ما رأى، لم يره بالبصر و لكن رآه بالفؤاد.

(2) الدر المنثور 6: 124- أخرجه جماعة عن كعب القرظي عن بعض الأصحاب عنه (ص) ..

(3) الدر المنثور أخرجه مسلم و الترمذي و ابن مردويه عن أبي ذر قال سألت رسول اللّه (ص) هل رأيت ربك؟ قال: ..

(4) القمى بإسناد متصل عن علي بن موسى الرضا (ع) في حديث.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 407

هكذا مرتين: «1» فلكل نزلة عروج، و علّ الرؤية هنا و هناك كانت بين النزلة و العروج، حينما كانت المعرفة بالغة الذروة، و التدلي إلى النهاية، .. و لماذا عند النزلة؟ إذ هي النهاية في سير المعراج فهي أعلى المعراج، و لأن النزلة قد تعني نزوله عن كافة الإنيات، و خروجه عن جميع الحجابات، و لحد الصفر و اللاشي‏ء، إذ يترك وراءه كل شي‏ء، فلا يرى أي شي‏ء، و إنما يرى خالق كل شي‏ء، و قد أصبح بتمامه عينا و بصيرة، فرآه في هذه النزلة و بين منتهى المعراج و مبتدء النزول، رآه كما يمكن أن يراه.

و ترى أين رآه؟- لو صح هنا- «أين»؟ و هل إن الرؤيتين هما في مقام واحد؟ ... إنه رآه‏ «عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى‏. عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى‏. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى‏».

فهناك أفق أعلى، ثم دنو، ثم تدل، ثم وحي، و بهذا الأخير تتم الرؤية عند سدرة المنتهى و ما فوقها، فما هي السدرة؟ و ما هو منتهاها؟ و ما هي غشاءها؟.

قد توحي‏ «عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى‏» ان سدرة المنتهى فوقها، أو تحيط بها، و إلّا فلما ذا لم يقل «عند الجنة المأوى»؟ .. فهذه العندية توحي تماما بما استوحيناه.

فقد وصل الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو حي لم يمت، وصل إلى أشرف و أعلى من الجنة المأوى، و هنالك ليس إلّا مقام صاحب المعراج، إذ تركه صاحبه جبرئيل عند سدرة المنتهى قائلا: «يا محمد! إن هذا موقفي الذي وضعني اللّه عز و جل فيه، و لن أقدر على أن أتقدمه، و لكن امض أنت أمامك إلى السدرة فقف عندها،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في أحاديث عدة، مثل ما مضى‏

عن الصادق (ع) في جواب أبي بصير عن قوله: كم عرج برسول اللّه (ص)؟ فقال: مرتين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 408

فتقدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تخلف جبرئيل عليه السّلام‏ «1» و

قال: «تقدم يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم! ليس لي أن أجوز هذا المكان و لو دنوت أنملة لاحترقت» «2».

و قد تلمح‏ «رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى‏» ان هناك مقاما فوق السدرة عله العرش، أو حجب النور، أو هما واحد «3» فالرؤية الثانية كانت عند السدرة حين النزلة، فهي إذا منزل هذه الرؤية، فليكن فوقها مقام أعلى حتى ينزل منها إلى السدرة، و لكي تتحقق الرؤية الثانية في النزلة عند السدرة، و كما

يروى عن صاحب السدرة: «فلما جاوزت السدرة انتهيت إلى عرش رب العالمين جل جلاله» «4»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

علل الشرايع باسناده الى حبيب السجستاني قال قال أبو جعفر (ع): يا حبيب‏ «وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى‏. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى‏. عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى‏» يعني عندها وافى به جبرئيل حين صعد الى السماء فلما انتهى الى محل السدرة وقف جبرئيل دونها و قال: يا محمد! ...

و

في بصائر الدرجات عن الصادق (ع) حتى انتهى الى سدرة المنتهى فقالت السدرة: ما جازني مخلوق قبل.

و

في تفسير القمي إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر (ع) قال: فلما انتهى به الى سدرة المنتهى تخلف عنه جبريل (ع) فقال رسول اللّه (ص) في هذا الموضع تخذلني؟ فقال: تقدم أمامك، فو اللّه لقد بلغت مبلغا لم يبلغه خلق من خلق اللّه قبلك فرأيت من نور ربي و حال بيني و بين السبحة، قلت: و ما السبحة جعلت فداك؟ فأومى بوجهه الى الأرض و أومى بيده الى السماء و هو يقول:

جلال ربي ثلاث مرات.

أقول: على السبحة هي تنزهه تعالى عن المكان. فاللامكان حال بينه و بين ربه، أي لم يبق فصل و حجاب إلا حجاب الذات اللامكان.

(2)

المناقب عن ابن عباس في حديث المعراج: فلما بلغ الى سدرة المنتهى و انتهى الى الحجب ...

(3)

نور الثقلين 3: 99 عن توحيد الصدوق عن الامام موسى بن جعفر (ع) سئل: لأي علة عرج اللّه عز و جل نبيه الى السماء و منها الى سدرة المنتهى و منها الى حجب النور و خاطبه و ناجاه هناك»

أقول فالعرش في حديث آخر لغير عرش المعرفة و منتهاها لغير اللّه.

(4)

الخصال للصدوق عن علي (ع) أن الرسول (ص) قال في وصيته له (ع): يا علي: اني رأيت اسمك مقرونا باسمي في أربعة مواطن فأنست بالنظر اليه- الى قوله- فلما انتهيت الى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 409

فقد

«على فاستعلى فجاز سدرة المنتهى و كان من ربه قاب قوسين أو أدنى» «1».

هذا، و لكنما الأعلى هذا قد لا يتطلب وحيا و رؤية أعلى، فإنها معرفية و في المكانة، لا لشرف المكان فقط، أو أن تلقّي الوحي و إدراك الرؤية، إنما كان عند النزلة، إذ إنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قبل النزلة كان في واقع الرؤية و لمّا يدركها، لأنه انمحى عن كونه و كيانه بما تدلى في مقام أو أدنى، ثم عند النزلة رأى الرؤية، و تلقى الوحي أم أوحي إليه فيهما، و كما أوحي في سائر السماوات‏ «2».

ثم ما هي سدرة المنتهى؟ هل هي فقط المكان الأعلى فوق السماء السابعة العليا؟ فبمجرد أنه مكان لماذا لم يسمح لجبرئيل و لا لأحد ممن سوى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يدنو منها! فلا بد أن تكون مكانة عليا، و إن كانت في مكان أعلى فإن عندها جنة المأوى، فلن تصل أهل الجنة إليها مكانا و لا مكانة.

و لأن الرؤية المعرفية لاحت عندها، و ليس لهذه الرؤية مكان، فلتكن مكانة فيها تتكشف الحجب، فيتحقق مقام «دنى فتدلى» لكي يوحي إلى عبده ما أوحى!.

نجد هنا تجاوبا تاما بين ما يتطلب موقف السدرة، و ما تعنيه لغة السدرة.

فالسدرة واحدة السدر، او هيئة خاصة منه، من سدر البصر: لم يكد يبصر، و البعير تحير من شدة الحر، و السادر المتحير، و السدر: اسدرار البصر و تحيره، و كل هذه تجمعها صيغة واحدة: الستر و الظل، سميت بها شجرة السدر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

سدرة المنتهى وجدت مكتوبا عليها: اني انا اللّه لا إله إلا أنا وحدي، محمد صفوتي من خلقي، أيدته بوزيره و نصرته بوزيره، فقلت لجبرئيل: من وزيري؟ فقال: علي بن أبي طالب () فلما جاوزت السدرة انتهيت الى عرش رب العالمين جل جلاله.

(1).

الاحتجاج للطبرسي حديث طويل عن الامام زين العابدين علي بن الحسين (ع): أنا ابن من على ..

(2) كما يدل عليه الحديث رقم (1) «و منها الى حجب النور و خاطبه و ناجاه هناك».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 410

لكثرة غناءها في الاستظلال بسعة أوراقها، فهي من شجر الجنة: «و اصحاب اليمين ما اصحاب اليمين. في سدر مخضود» (56: 28).

و بما ان ورقها تظل ظلا واسعا، و تنظف عن الدرن، عبر عن مقام التدلي بسدرة المنتهى: منتهى السدرة: منتهى السترة و الحجاب عما سوى اللّه، و غاية النزاهة عن أدرانها، و انما سميت المنتهى لذلك، و لأنها منتهى علم الخلائق، ثم ليس لأحد ورائها علم، فانه من الغيب المخصوص باللّه، فلما تستر و تحجب في ذلك المقام عمن سوى اللّه، رأى اللّه ببصيرة صافية دون حجاب، اللهم الا حجاب الذات، و بما ان السدرة- كذلك- هي الحيرة، أصبح الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في منتهى الحيرة لما وصل الى منتهى المعرفة الالهية الممكنة له دون من سواه، فاحتجب عمن سوى اللّه، فاخترق الحجب بينه و بين اللّه: احتجب حتى عن نفسه فتدلى، بعد ما احتجب عن غيره إذ دنى‏ «فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏. فَأَوْحى‏ إِلى‏ عَبْدِهِ ما أَوْحى‏» و على حد

المروي عن صاحب السدرة: «انتهيت الى سدرة المنتهى و إذا الورقة منها تظل امة من الأمم فكنت من ربي كقاب قوسين او ادنى» «1»

إذا فأوراقها تظل و تحجب كافة الأمم من كائنات العالم، و قد استظل صاحب السدرة في ظلها و احتجب عن الكائنات كلها، و أحرى منها ما

في رواية اخرى: «ان الورقة منها تظل الدنيا». «2»

فإذا ورقة منها تظل الدنيا، فأوراقها كلها تظل الآخرة و الدنيا، دون ان تبقي ظلا الا ظل الذات المقدسة:! و «عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى‏» تصريحة على كونها فوق السماء السابعة، محيطة بها، فتجاوب الآيتين الصريحتين ان سعة الجنة سعة السماوات و الأرض: «وَ سارِعُوا إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ» (3: 133) «... كعرض‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). القمي: حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد اللّه (ع) قال قال النبي (ص):

(2) قرب الاسناد للحميري باسناده الى أبي عبد اللّه (ع) عن أبيه عن جده قال قال رسول اللّه (ص): ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 411

«... كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ» (57: 21) فيسقط سؤال: إذا كان عرض الجنة السماوات و الأرض فأين النار؟ و بما ان الجنة الآن موجودة فلتكن السماوات و الأرض الآن كلاهما الجنة؟ فان آية السدرة تجيب عنهما: ان الجنة المأوى هي عند سدرة المنتهى، فوق السماء السابعة و تحت العرش، فلتكن النار تحتها، ثم لا جنة الآن في هذه السماوات و الأرض! الا البرزخية لأهل البرزخ، و ليست هي جنة المأوى.

إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى‏: فهناك السدرة مغشية كما هي غاشية، مغشية بحجاب الذات المقدسة الإلهية، و غاشية كل ما سوى الذات المقدسة و على الكل، فكما السدرة خرقت كل الحجب بينه و بين اللّه، كذلك لم تبق مكشوفة دون حجاب، و انما غشيها ما يغشى: الذات المقدسة الإلهية التي تغشى دوما إلا دون ذاتها، فهناك في مقام التدلي لم يبق أيّ حجاب إلّا خرقتها السدرة، اللهم إلّا حجاب الذات، الدائبة دوما أمام العارفين‏ «إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى‏» «1» و نعم ما ينشد الشاعر الفارسي عن هذه الحالة المعراجية:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| خيمة برون زد ز حدود و جهات‏ |  | پرده أو شد تتق نور ذات‏ |
| تيرگى هستى أز او دور گشت‏ |  | پردگى پرده آن نور گشت‏ |
| كيست كز آن پرده شود پرده ساز |  | زمزمه‏اى گويد از آن پرده باز |

و يقول آخر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| در آن ديدن كه حيرت حاصلش بود |  | دلش در چشم و چشمش در دلش بود |

فلقد أصبح كله بصرا روحيا دون زيغ و لا غواية فيما رأى:

في هذا المقام حصل له من الزلفى ما لم يحصل لأحد من الخلق، و لا لجبرائيل و إسرافيل، إذ

«إن بينهما و بين الله أربعة حجب: حجاب من نور و حجاب من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي في تفسيره قال (ع): لما رفع الحجاب بينه و بين رسول الله (ص) غشي نور السدرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 412

ظلمة و حجاب من الغمامة و حجاب من الماء» «1»

ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغى‏. لَقَدْ رَأى‏ مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى‏ إلى هنا كانت الرؤية المعراجية نصيب البصيرة و الفؤاد، و «ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى‏» ثم نصيب البصر أنه رأى من آيات ربه الكبرى.

فالبصر ما زاغ: لم يمل عن جهة المبصر إلى غيره ميلا يدخل عليه به الاشتباه، حتى يشك فيما رآه، و ما طغى: أن يجاوز المبصر و يرتفع عنه، فيكون مخطئا لإدراكه، و متجاوزا لمحاذاته، فلم يقصر البصر عن المرئي فيقع دونه، و لم يزد عليه فيقع وراءه، و لم يتجاوز الحد المحدود في عمله: أن يبصر الرب أو يحاول في إبصاره، أو أن يتعدى بعض الآيات الكبرى إلى كلها، و إنما «لَقَدْ رَأى‏ مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى‏» ف «من» توحي بالتبعيض، كما و أن «ربه» يلمح بأنها الآيات الكبرى الربانية، فالصيغة الجامعة هنا

«فرأى محمد صلى الله عليه و آله و سلم ببصره من آيات ربه الكبرى» «2»

كما رأى ببصيرته ربه سبحانه و تعالى.

و إذا كانت الآيات الآفاقية الكبرى مشمولة لما رآه صاحب المعراج، فأحرى بالآيات الأنفسية: الكروبيين الكرام، و أنبياء اللّه العظام و أولياءه: أن يكونوا ممن رآهم في المعراج، و كما وردت بذلك كله أحاديثنا «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير القمي بسند عن الصادق (ع) حديث المعراج الطويل، فحجاب النور هو حجاب ذات الألوهية، و حجاب الظلمة ظلمة المحدودية و الإمكان فيهما كما في الكائنات كلها، الا من دنى فتدلى، و حجاب الماء و الغمامة، علهما حاجيات الحياة، التي تناساها صاحب المعراج كما تناسى نفسه.

(2) علل الشرايع للصدوق باسناده الى حبيب السجستاني عن أبي جعفر (ع) في حديث طويل ...

(3)

المصدر باسناده الى حفص بن غياث أو غيره قال‏ سألت أبا عبد اللّه (ع) عن هذه الآية- قال: رأى جبرئيل على ساقه الدر مثل القطر على البقل، له ستمائة جناح قد ملأ ما بين السماء و الأرض، و اخرج مثله أبو الشيخ عن ابن مسعود (الدر المنثور 6: 125).

أقول و هذه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 413

أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى، وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى‏، أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى‏. تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى‏ فما اظلمها قسمة بينهم و بين اللّه، أن أربابهم المزيفة الثلاثة ترى، و لكن اللّه تعالى لا يرى، مهما اختلفت الرؤيتان بصرا و بصيرة، أو أن لهم الذكر و له الأنثى، إذ يجعلون للّه ما يكرهون، و لهم ما يحبون «تلك»: القسمة في الرؤية و في الذكورة و الأنوثة «إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى‏»: ظالمة جائرة، فان ضاز بمعنى جار و ظلم.

فإذ قد ترون أنتم آلهتكم، فلما ذا تمارون الرسول إذ يقول: رأيت ربي بقلبي، و لو ان الرؤية الممارى فيها كانت رؤية جبرئيل، انتفت الصلة بينها و بين رؤيتهم أربابهم، فالمجال هنا و هناك مجال رؤية الأرباب، دون الملائكة و اضرابهم!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

صورته الحقيقة الملكوتية.

و

في التوحيد للصدوق عن علي (ع) في الآية: «رأى جبرئيل في صورته مرتين هذه المرة و مرة أخرى، و ذلك أن خلق جبرئيل عظيم فهو من الروحانيين الذين لا يدرك خلقهم إلا رب العالمين.

و

في أحاديث عدة أنه (ص) أري النبيين (ع) أجمع فصلى بهم و سألهم عن أشياء كما قال اللّه:

«وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ» كما رواه فيمن رواه القمي في تفسيره بسنده عن أبي عبد اللّه (ع).

و

في تفسير القمي باسناده إلى أبي بردة الأسلمي قال: سمعت رسول اللّه (ص) يقول‏ لعلي يا علي! إن اللّه أشهدك معي في سبع مواطن، اما أول ذلك فليلة أسري بي إلى السماء قال لي جبرئيل: اين أخوك؟ فقلت: خلفته ورائي، قال: ادع اللّه فليأتك به، فدعوت اللّه و إذ بمثالك معي، الى قوله: و اما السادس لما أسري بي الى السماء جمع اللّه لي النبيين فصليت بهم و مثالك خلفي،

و

في أصول الكافي بسند متصل عن أبي جعفر (ع) قال: كان أمير المؤمنين (ع) يقول: ما للّه عز و جل آية هي اكبر مني،

أقول: يعني بعد النبي (ص) فحين راى من آيات ربه الكبرى فعلي (ع) من اكبر آيات اللّه، فليكن مثاله الحقيقي مما رآه (ص) مع امثلة سائر النبيين و سائر الكروبيين، و أحاديثنا متظافرة أن عليا (ع) كان ممن رآه النبي ليلة المعراج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 414

و هذه الأرباب: الأصنام الثلاثة، كانت كأن لها الزعامة بين معبوداتهم، و علها- كما يقال- كانت تماثيل عن ملائكة ثلاث، اعتبروهم بنات اللّه و أخذوا يعبدون تماثيلهم، و كما توحي به‏ «أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى‏» إذ لا صلة لها باللات و العزى و مناة الثالثة الاخرى، إلا إذا كانت تماثيل لها يعبدونها، إذا فلها صلة باسطورة انوثة الملائكة، و كما يلمح من انوثة هذه الأصنام ايضا.

ثم الاخرى في مناة الثالثة الأخرى، علها صفة ذم كما في أمثالها، اي: مناة الآلهة: الثالثة الذليلة المتاخرة في المعبودية، إذ كانت الأصنام طبقات كما كانوا هم طبقات طبقية عارمة في العابدين و المعبودين.

إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى‏ إنّ هذه الأسماء، ليس تحتها من معاني الألوهية شي‏ء، لا أصالة: أن تكون آلهة مستقلين، و لا وكالة أن ينزل اللّه بها من سلطان، فتكون آلهة موكّلين، و هم لا يتبعون في هذه التسميات إلا الظن: كل و هم أسطوري لا يملك أي برهان، «وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى‏» و هم يرفضونها إلى الهوى، و إنما تقودهم ظنونهم و ما تهوى الأنفس.

أسئلة مطروحة حول:

الغزوة المعراجية المحمدية و مركبتها العجيبة الرحلة الفضائية في نطاق العلم: في عمق الزمان و المكان:

ترى هل كانت الرحلة بالروح القدسية المحمدية دون جسم؟ كما تقوّلها بعض! أو جسميا دون روح؟ كما تخرصها آخرون! أو بكلا الجسم و الروح كما يقول اللّه:

«سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى‏ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» في الاسراء، و «ما زاغَ الْبَصَرُ» و «صاحبكم .. هو .. فأوحى إلى عبده» كما هنا في النجم، فيا ترى إن الرسول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 415

صلّى اللّه عليه و آله و سلّم صاحبنا ببعضه؟ أم بروحه و جسمه؟ أو أن «عبده» هو روحه فقط او جسمه؟ فلما ذا لم يقل: بروح عبده! او جسمه؟ و انما «بعبده» الشامل كليهما، او ان البصر المنفي عنه الزيغ و الطغيان في السدرة، هو بصر الروح؟

و ليس إلا بصيرة! او بصر الجسم بلا روح؟ و هو ميت لا يبصر! ام كيف راى ربه بنور اليقين عند السدرة التي عندها الجنة، بجسم بلا روح، او روح بلا جسم! و هي دوما في سدرة المعرفة و قد رأى هناك من آيات ربه الكبرى ببصره و هو في جسمه كما رآه هو ببصيرته و هي قلبه، فانما المعراج بكلا الروح و الجسم.

فما يروى عن عائشة: «ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و لكن الله اسرى بروحه» «1» يعارض هذه الآيات من عدة جهات، و انه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بنى بها بعد الهجرة بزمان، و كان الإسراء بمكة قبل الهجرة بزمان من المسجد الحرام، .. كلا لا ذا و لا ذاك، و انما عرج النبي بكله، و كما كان في الأرض، أسري به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، ثم عرج به من الأقصى الى أقصى السماوات و الى سدرة المنتهى و ما فوقها! لو لم تقصد من الأقصى نفسها «2».

و على ما يروى لم يشغل المعراج ذهابا و إيابا و وقفة هناك إلا زهاء ثلث الليل و لنفرضه اربع ساعات، فأين البليارات البليارات من السنين الضوئية لاجتياز قطر السماوات و اين اربع ساعات، فهل إن العلم يتحمل تصوره فضلا عن تصديقه؟!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور: أخرجه ابن إسحاق و ابن جرير عن عائشة قالت: ..

(2)

بحار الأنوار ج 18 الطبعة الحديث ص 339 من الاحتجاج للطبرسي عن علي (ع) قال: «لقد أسري برسول الله من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى في اقل من ثلث ليلة»

أقول:

لا يعني انه وقت المعراج الارضي فحسب، و انما المدة التي شغلته حتى رجع الى مكة، و قد يعنى من المسجد الأقصى- و هو أقصى المساجد و أبعدها الى المسجد الحرام- قد يعنى المسجد الذي هو في سدرة المنتهى، فليس الذي في القدس هو الأقصى و انما مسجد الكوفة، و ان سمي أقصى فعلها لكونه مواجها للأقصى الذي في السدرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 416

أقول: المعراج، حسب المستفاد من آيات الإسراء و النجم في وجه‏ «1»، له رحلتان: الرحلة الأرضية، و الرحلة الفضائية في العمق، فالاولى هي سري النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، و الثانية عروجه من المسجد الأقصى الى أقصى الآفاق، و كما يوحي بهما ايضا «نبوئت هيلد» في النص الانقلوسي: «و أريل كسها» «.. ان محمدا سوف يذهب و يطير» فذهابه سرية، و طيرانه عروجه.

ثم لا ريب ان الرحلة الفضائية المعراجية بمقدماتها و خلفياتها، إنها من المعجزات، و رغم عجز العلم عن تحقيق عملية الإعجاز و عن تفهمها ايضا، فمن الثابت أن المعجزة لا تنافي العلم، فقد يفسرها العلم، و قد يعجز عن تفسيرها، إلا انه لا يحيلها، فان الآية المعجزة ليست لتخرق و تبطل القوانين الكونية- ما وصل العلم إليها و ما لم يصل- و انما تخترق- مطلة عليها- أسبابها الخفية، و مدى تأثيراتها، و زمن الحصول على مفعولاتها، لحد يعجز عنها من سوى اللّه، إلا من يجريها اللّه على يديه او لسانه ام ماذا .. كآية تدل على انه رسول من اللّه.

فالآية المعجزة ليست بلا أسباب، او بما تقصر عن التسبب، و انما بأسباب خفية عن العلم، او ظاهرة له بعيدة عن القدرة غير الإلهية، او انها بارادة مسبب الأسباب، دون اسباب تعودناها، فليس إذا بامكاننا تحليل عواملها، مهما تمكننا من تحليل كيفية وقوعها، او امكانيتها علميا، و قد لا نتمكن من الحصول على الإمكانية العلمية، و لكنه ليس ليدل على عدم الإمكانية الواقعية او العقلية.

لقد كانت الهيئة البطليموسية تحيل المعراج الجسماني لاستلزامه الخرق و الالتيام، إذ كانت تعتبر الأرض مركزا للكون، و الفضاء الخارجي أفلاكا زجاجية مركبة من طبقات تسع، سبعة منها مدارات خاصة للسيارات السبع التي تنزلق داخلها كما تنزلق الكرة على صفحة الزجاج، و اما الفلك الثامن فكان مسرحا للنجوم الثوابت، بينما كان الفلك التاسع خاليا عن النجوم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أن يكون المسجد الأقصى هو الذي في القدس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 417

فبحساب هذه الهيئة، تكون الأفلاك التسعة على الشكلية البصلية كالزجاج:

لا تقبل الخرق و الالتيام.

و لقد نسفت هذه الهيئة بأسطوراتها منذ زمن بعيد، بالناسفات القرآنية و العلمية معا، ثم خلفتها بعض النظريات في غزو الفضاء، إذ ما كانت تعرف سرعة أكثر من مائة ك. م في الساعة، و غزو الفضاء يتطلب- لأقل حدوده- 11 ك. م في الثانية، حتى نسفها اختراع الاغلفة المختلفة التي يحافظ على طائرات و صواريخ تسير بسرعة 21 ك م في الثانية.

ثم بقيت هناك في السرعة المعراجية مشاكل تحول دون تصديقها علميا، كمشكلة السرعة و الحرارة، فالسرعة- و لا سيما الخارقة المعراجية- تخلق حرارة تناسبها، لحد تصبح المركبة كأنها الحرارة نفسها، و في القمة التي لا يبقى اي عنصر كنفسه، و كذلك تصطدم بالشهب و النيازك النارية، و بنيازك الهواء نفسها، فالمركبة المعراجية اضافة الى تبدلها بحرارة فوق التصور، تقصف ببليارات من قاذفات النيازك الشهابية، و الهوائية، مما تقلل عن حركتها و تعرقل دون سرعتها و تفجرها في طريقها، فهذه من ناحية.

و من جهة أخرى، فان النظرية النسبية لأنيشتين تفيد: أن أقصى سرعة ممكنة في الكون هي سرعة الضوء: 300000 ك. م في الثانية «1» و يبرهن هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يقول انيشتين: «ان كتلة تصور مجموعة من الأجسام يمكن ان يعتبر دليلا على مقدار طاقتها، و على ذلك يصبح قانون بقاء كتلة مجموعة ما مطابقا لقانون بقاء الطاقة للمجموعة نفسها» (النظرية النسبية الخاصة و العامة لألبرت انيشتين- ترجمة دكتور رمسيس شحاتة ص 48).

و يقول: «ان طاقة الحركة هو لنقطة مادية تتحرك لم يحددها المقدار المعروف ك ع 7/ 7 بل يعبر عنها بالتعبير ك ح 3/ ع 3/ ح 2 و هذا المقدار يقترب مما لا نهاية له كلما اقتربت السرعة- ع- من سرعة الضوء- ح- و على ذلك يجب ان تظل السرعة دائما أقل من- ح- مهما كبرت العجلة» (المصدر ص 46) و النتيجة ان: اي جسم مادي لا يمكن ان يساوي في سرعته سرعة الضوء.

(الفرقان- م 27)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 418

و غيره على ذلك ببراهين علمية: أن اي جسم لا يستطيع ان يبلغ في سرعته سرعة الضوء، الا ان يتبدل ضوء «1».

فلنفرض ان جسم النبي في السرعة المعراجية أصبح ضوء، إلا أن أربع ساعات: التي قدرت للسفرة المعراجية، لا تكفي إلا لاجتياز- ... .. 732 ك. م التي لا توصله الى آخر الكواكب من المنظومة الأدنى (الشمسية) للمجرة الأدنى، و هو (/ بلوتون) حيث تفصل عن الأرض 5 و 5 ساعات ضوئية، في حين أن قطر البعض من ملايين المجرات في السماء الاولى- فقط- ملايين من السنين الضوئية!، و بعض نجومها تبعد عنا اكثر من مأتي الف مليون سنة ضوئية! فقطر السماء الاولى- سماء الأنجم- بليارات بليارات من السنين الضوئية، فكيف بالسماوات الست الاخرى!.

إلا أن النظرية الضوئية ما لبثت كثيرا إلا و قد نسفت، أولا: بما ياتي من امكانية تحقق هذه السرعة و اكثر دون تبدل بالضوء، على ضوء تقدم الطاقات في المركبات الفضائية، كما يقول بعض العلماء، و أن الفواصل بين النجوم ليس فيها الهواء او يقل، فانها خلأ لا تمانع و تعرقل السير هناك، فلا تخلق حرارة زائدة كذلك.

و ثانيا بأمواج الجاذبية، إذ يعتقد بعض العلماء ان باستطاعة أمواج الجاذبية ان تقطع المسافات من دون ان تستغرق أي وقت من الزمان.

يقول «كيوركيو»: بإمكان أمواج الجاذبية قطع المسافات التي تقاس بآلاف الملايين من السنين الضوئية في لحظة واحدة، فلو ان مجرة في آخر الكون تبدلت الى أمواج، فان الجاذبيات المتعادلة في الكون تغير من مواقفها فورا، و هكذا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يقول لينكلن بارنت «ان اي جسم يبدو انه يفقد طوله كلما اقتربت سرعته من سرعة الضوء فانه يفقد طوله بمقدار 90% ثم يزداد النقص بشكل أسرع حتى إذا وصل الجسم الى سرعة الضوء فانه لن يبق له جسم طولى بتاتا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 419

يكون رد الفعل للجاذبية بلا زمان، و لو أن رد الفعل الجاذبي كان يحتاج في قطع المسافات الى الزمان، لكانت نتيجة تبدل المجرة- السابقة الذكر- الى أمواج يؤدي إلى تفجر كافة المجرات ايضا، و التبدل الى أمواج، و ذلك بفعل المصادمات العنيفة التي تقع في الكون بين المجرات‏ «1».

فهذه السرعة- إذا- تنسف السرعة القصوى الضوئية، و إذا كانت أمواج الجاذبية تتحمل هذه السرعة دون زمان، فهل الجاذبية المحمدية- و في معجزة إلهية- لا تتحمل سرعة أقل منها، أن يتم معراجه مرجّعا في أربع ساعات؟!.

و مع الغض عن ذلك أيضا، لنفرض أن سير المعراج يتطلب أشهرا، أن يتباطأ النبي في سيره أقل من الجاذبية بكثير، حتى يتطلب زمانا طويلا، إلّا أن الثابت قرآنيا، و من ثم علميّا لحد ما: ان الزمان خارج منظومتنا يختلف تماما عن زماننا، فقد يكون شهر من الزمان نقضيه خارج المنظومة، لا يساوي إلا ثانية بالنسبة لتوقيت أرضنا، و ذلك لاختلاف الأوضاع و القوانين في مختلف المنظومات و المجرات، كما و أن لكلّ من كرات منظومتنا أيضا قوانين خاصة.

إذا فمشكلة السرعة و الزمان، و هما أمّ المشاكل في هذه الرحلة الفضائية، إنهما نسفتا بأيدي العلم، فضلا عن مشاكل أخرى هي دونها فأكثر نسفا!.

مشكلة الحرارة:

اختلاف درجات الحرارة في مختلف طبقات الجوّ، إضافة إلى حرارة فوق التصور، تخلّفها السرعة المعراجية «2» بين الضوء و الجاذبية، إنها تشكل خطرا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). محمد نبي يجب معرفته من جديد) و يعتقد العلماء ان سرعة الابتعاد تتناسب طرديا مع مقدار بعدها عنا، فكلما كانت المجرة أبعد كانت سرعة ابتعادها أكثر.

(2) فإن السرعة من أهم العوامل لإيجاد الحرارة، لحد تجعل من الجسم أبسط الذرات (ئيدروجين) لكي تتحمل الحرارة الزائدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 420

على حياة صاحب المعراج، لا فحسب، بل فليتحول طاقة بين النور و الجاذبية حتى يتمكن من هذه السفرة الفضائية.

و أوّل ما يخمد هذه الحرارة الخارقة هو القدرة الإلهية التي تجعل النار بردا و سلاما على إبراهيم، إضافة إلى أن محمدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ركب مركبة مغلفة فيها كل المعدات لتلك السفرة العجيبة- علّه: البراق، على حدّ ما سماها، و قد تدل أوصافها المروية على هذه الإعدادات، التي لا تتيسر لمن سوى اللّه، و لأنها معجزة اللّه و كما أشرنا مسبقا: أن أهم ما يزيد في درجة حرارة المركبة هو الاصطدام بالفضاء، فوجود الخلأ في مسيرها بإرادة اللّه، يزيل مشكلة الحرارة، و كما يزيل مشكلة السرعة الخارقة التي تتطلبها الرحلة المعراجية، فعلى فرض الخلأ في مسيرها، و انها تنجذب بجذبة القدرة الإلهية، و معدّة بجهازات مكافحة، تنسف كافة العراقيل العشر، المتصورة، دون الرحلة المعراجية.

إن المسير الخلأ يساعد بآلاف الأضعاف على سرعة المركبة، و الحفاظ على موقعها الحراري، و هذا الخلأ موجود فعلا بين الكواكب، و كما يقول بعض العلماء «بأن المركبات الجوية و صواريخها سوف تتمكن أن تسرع زهاء سرعة النور و ما فوقها، لحد نتمكن أن نجول عمق الفضاء الشاسعة» .. «1».

فإذ يتمكن الإنسان الضعيف الضعيف أن يصنع مركبات هكذا، فما ذا تظن بخالق الإنسان القوي القوي!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ماذا أعلم- تأليف‏INIDNALEPNAEJ ص 131: يقول: و ان المفكر الاخصائي الشهير الالماني (دكتور اوجن سانكر) هكذا يتنبأ، ان مكانيك الطيران لصواريخ (يوني) او (فوتوني) مما يشهد لتغيير مفهوم المسافة و الزمان و الفضاء و السرعة.

ثم يستمر المؤلف قائلا: ان نظرية النسبية بالنسبة للصواريخ التي سوف تخرق الجو بسرعة الضوء او ما فوق الضوء، انها تجعلنا نفكر في تسخير عوالم جدد، فبموجب هذه النظرية نتأكد اننا سوف نجتاز مسافات بعيدة هي بالقياس الى أرضنا لا نهاية: بأن نعد الصاروخ بقدر خاص من المواد المحترقة المحركة، المناسبة للصاروخ، فنصل الى حدود الكون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 421

و لا بأس هنا باستعراض بقية المشاكل العشر بصورة وجيزة كالتالي:

مشكلة الجاذبية:

هذه المشكلة إنما هي بالنسبة لما يسرع أقل من ثمانية ك. م في الثانية: سرعة دوران الأرض حول محورها، و إذ تتخطا المركبات البشرية هذه المشكلة، بما تسرع أكثر من 8 ك، م- فما ذا على المركبة الإلهية التي تسرع كأمواج الجاذبية أو دونها؟ إضافة إلى تجاذب آخر بين صاحب المعراج و ربه سبحانه و تعالى.

كما و أن مشاكل: انعدام الوزن‏ «1» و تخطي الغلاف الجوي‏ «2» و التخلص من الشهب‏ «3» و انعدام الأوكسيجين‏ «4» و الأشعة فوق البنفسجية و الأشعة السينية «5» و الأشعة الكونية «6»- هذه المشاكل كلها تندحر و تنسف، بعد ما عرفنا المركبة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حيث الوزن هنا ليس الا نتيجة الجاذبية الأرضية، فالبعد الكثير عنها يفقد الوزن، و لكن المركبة المعراجية تحل هذه المشكلة و أحرى مما حلتها (ابولو) و غيرها.

(2) يتشكل الغلاف الجوي من خليط من الغازات المحيطة بالأرض، و يحدث فيه خلط مستمر للهواء نتيجة التيارات الصاعدة و الهابطة، و يمتد غلاف الأرض فيما وراءه 5 و 96 ك. م، و يعتبر هذا الغلاف الجوي للأرض المركب من عدة عناصر، بمنزلة مظلة واقية للأرض من الشهب و النيازك النارية و سواهما، كما انه من موانع الرحلات الفضائية، لأنه يؤدي الى الاحتراق لو لم تكن سرعة المركبة متوازية مكافحة، و لكن مركبة المعراج، فيها كافة المعدات و المكافحات!.

(3) و كما تكافح هذه المركبة بصلابة غلافها الشهب و ما فوقها.

(4) و الاوكسيجين الضروري لصاحب المركبة موفرة في داخلها، و حينما يخرج صاحب المعراج فليس من الصعب ان يختصه اللّه بما يبقي حياته خارجا عن المركبة، كما و ان المركبة ليست ضرورية لهذه و تلك كما قدمناه.

(5) و أما الاشعة فوق البنفسجية و هي الاجزاء غير المرئية من أشعة الشمس، البالغة الخطورة، و كذلك الاشعة السينية (x( النابعة من الشمس أيضا، هاتان الاشعتان مهما كانت أخطارهما، فليستا شيئا بجنب المركبة المعراجية، بعد أن تكافحهما المراكب الفضائية البشرية.

(6) و هي لم تعرف مصدرها، و تكافح في أخطارها بما كافحتها المركبة المعراجية، فكل هذه المشاكل الست تنحل بعد ما عرفنا مركبة المعراج و راكبها و جاذبها و مدى سيرها- و اللّه أعلم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 422

المعراجية و راكبها، و جاذبها، و حركتها، و فوق كل ذلك القدرة اللانهائية الإلهية.

و من ثم ننظر هل إن المركبة المعراجية هي الجذبة الإلهية، دون أية وسائط؟

كما قد توحي بها آية الإسراء: «أَسْرى‏ بِعَبْدِهِ» و آيات النجم خلو عن التلميح بأيّة مركبة تحمله، و إن لم تعارض ما يدل على مركبة أخرى.

أو أنه جبرئيل أو ميكائيل و إسرافيل‏ «1» لحد ما، إلى سدرة المنتهى، ثم منها إلى ما فوقها لم تكن إلّا جذبة واصبة إلهية، كما لم يكن بينه و بين اللّه أحد حتى نفسه في مقام التدلي؟.

أو أنه أمواج الجاذبية بما قدر اللّه كما قد يشير إليها الحديثان:

«فأتى بالمعراج ... فعرج به إلى السماوات سماء سماء» «2»

«فوضع له مرقاة من ذهب و مرقاة من فضة و هو المعراج حتى عرج جبرئيل و النبي صلى الله عليه و آله و سلم إلى السماء» «3»

فلعل المرقاة الذهبية و الفضية هي أمواج الجاذبية أو باب المعراج السماوي: «وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ» (15: 15): الباب التي عرج فيها الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالجاذبية التي عرج بها و معه جبرئيل، فهي مرقاة جبرئيل و أمثاله من عارجي السماء دوما، لا تفتح لغيرهم من العارجين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 3: 98- ح 6- احتجاج الطبرسي عن ابن عباس عنه (ص): و حملت على جناح جبرئيل ..

و

فيه عن الصادق (ع) ان جبرئيل احتمل رسول اللّه (ص) حتى أتى به الى مكان من السماء ..

و

في تفسير العياشي عن أبي عبد اللّه (ع) لما أسري بالنبي (ص) أتي بالبراق و معه جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل ...

و

في تفسير القمي عنه (ع) جاء جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل بالبراق الى رسول اللّه (ص) ...

أقول: و الأحاديث في حمل جبرائيل إياه أكثر.

(2) الدر المنثور 4: 156- أخرجه ابن سعد و ابن عساكر عن الواقدي عن أبي بكر بن عبد اللّه بن أبي سبرة و غيره من رجاله عن رسول اللّه (ص) ..

(3) الدر المنثور 4: 157- أخرج الواسطي في فضائل بيت المقدس عن كعب عن النبي (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 423

أو أنه «البراق» في الرحلة الأولى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم بغيرها إلى السماوات‏ «1» أو أنه الحامل في رحلتيه‏ «2» الى موقف جبرئيل في السماء، ثم عرج الرسول وحده بما عرج.

ثم ترى ما هي مواصفات البراق، الذي تحمله عشرات الأحاديث؟ و لكي ننسف بها مشاكل المعراج نسفة أخرى:

(براق) اسم لم نعهده لأي حيوان أو أية مركبة من صنع الإنسان؟ مما يلمح أنه مركبة سماوية و من صنع السماء، و «قد أتى بها جبرئيل من السماء» «3»

«خلقت لأجله صلى الله عليه و آله و سلم و لها في جنة عدن ألف سنة» «4».

كما و يشير أنه من البرق، تدليلا على كونه في لمعانه و سرعته كالرعد و البرق.

و من مواصفاتها التي تقربها إلى أمواج الجاذبية أنه:

«أضاء له صلى الله عليه و آله و سلم كما تضي‏ء الشمس» «5»

فكان‏

«لها شعاع كشعاع الشمس» «6»

و

«لو أن الله تعالى أذن لجالت الدنيا و الآخرة في جرية واحدة» «7»

أو «كَلَمْحِ الْبَصَرِ» «8» كإمكانية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كالجاذبة الإلهية و المحمدية بما هيأه اللّه لها أم ماذا؟.

(2)

الدر المنثور 4: 140 عنه (ص) «ثم أوتيت بدابة .. فحملت عليه فانطلق بي حتى أتى بي السماء ..»

و

في تفسير البرهان 2: 402 عن الصادق (ع) عنه (ص) فلما صرت عليه (البراق) صعدت الى السماء .. و روءيت الجنة.

(3)

الدر المنثور 4: 140 عنه (ص): «فأتاني جبرئيل بدابة بيضاء ...».

(4) تفسير البرهان ج 4: 405 عنه (ص).

(5) الدر المنثور 4: 157 عنه (ص) ...

(6) تفسير البرهان 4: 404- ابن الفارسي عنه (ص) ...

(7) تفسير البرهان 2: 404 في صحيفة الرضا (ع) قال رسول اللّه (ص) ..

(8)

في 405 البرسي عن ابن عباس عنه (ص) سأل جبرئيل ما سير هذه الدابة فقال: إن شئت أن تجوز بها السماوات السبع و الأرضين السبع فتقطع سبعين الف عام و سبعين الف مدة كلمح البصر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 424

السرعة القصوى لهذه المركبة المعراجية، و إن‏

«كانت خطاه بمد بصره» «1»

فإذا كان مد بصر الإنسان بالعيون العادية و هو الأنجم التي ترى في السماء الدنيا، آلافا من السنين الضوئية، فما هو إذا مد بصر هذه المركبة العجيبة، التي كان‏

«له عينان في أسفلها» «2»

«يمكن رؤية الأرض منهما واضحة جلية» «3».

كما و أنها كانت مزودة بآليات موجية وضوئية مختلفة الألوان و الكيان:

إذ

«كان فيها أربعون نوعا من النور» «4»

«و كانت مزمومة بسبعين ألف زمام» «5»

: علّها الأزمّة الموجية و الضوئية أم ماذا! دون الأزمة الأخرى التي تزم بها الحيوان! فإن «حجمها كان بين حجم البغل و الحمار» فلو أن براق كان حيوانا، فليكن سبعين ألف ضعف حيوان، و يحتاج إلى زمام واحد؟.

ثم هو

«محمل له ألف ألف لون من نور» «6»

و

«عليه ألف ألف محفة من نور» «7».

و

«كانت له مثل و كر الطير» «8»

مما يشير إلى أن النبي دخل فيها و لم يركب عليها، ف «ركبها» في جملة من أحاديثنا، تفسر بالدخول فيها، و هكذا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

روضة الكافي عن الباقر (ع) خطاه مد بصره-

و في ذلك روايات كثيرة.

(2) تفسير البرهان 2: 400 عن العياشي عن الباقر (ع).

(3) البحار ج 18 ص 357 نقلا عن علل الشرائع.

(4) البحار ج 18 ص 355.

(5) البحار ج 18 ص 378 نقلا عن كتاب الخرائج و عن روضة الكافي عن الباقر (ع).

(6)

العياشي عن عبد الصمد بن شيبة قال‏ ذكر عند أبي عبد اللّه (ع) بدو الأذان- الى أن قال في قصة المعراج-: ثم وضع في محمل له الف الف لون من نور ثم صعد به حتى انتهى الى أبواب السماء ...

(7)

العياشي عن عبد الصمد .. سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول‏ جاء جبرئيل رسول اللّه بالبراق ..

عليه الف الف محفة من نور ..

(8) سعد السعود ص 100- 101 و بحار الأنوار ج 18 ص 317.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 425

يجب أن تكون المركبة المعراجية، محفظة تحافظ على صاحبها من عرقلات و اصطدامات هذه السرعة الخارقة الجوية، و مع مليون محفة من نور!.

و قد تكون المحفات النورية في هذا المحمل هي المعدات الموجية أو الضوئية أم ماذا؟ التي تحافظ على غلافه الخارجي، و تسرع المركبة- علّها- ملايين أضعاف سرعة الضوء أم ماذا؟ ففي ساعة واحدة أرضية تسير هذه المركبة 000، 000، 000، 000، 080، 1 كيلومترا و إذا كانت الساعة السماوية آلاف أضعاف الساعة الأرضية، فلتكن المسافة التي اجتازتها المركبة لساعة واحدة أرضية آلاف أضعاف هذا العدد الهائل أم ماذا؟

و طالما يكون سيرها بين سرعة الضوء و أمواج الجاذبية ليس علينا أن نقدر أي تقدير لهذا المسير، فالعلم عند اللّه العلي القدير.

و مما يساعد على سرعتها أنها «كانت لها جناحان يحفزانها من خلفها» «1» «و أذنان مضطربتان» «2» فالجناحان للطيران، و الأذنان للحفاظ على توازنها في السير، أم ماذا؟ «و فيها حلق و سلاسل كلما ارتفعت زادت» «3» و علّهما المعدات المناسبة لمختلف الارتفاعات و الأجواء.

و لقد كان فيها إذ دخلها النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ملكان سلما عليه و رحّبا به فأجاب و دعيا له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و دعا لهما» «4» علهما سائقاها أم ماذا؟.

فيا لها من مركبة منقطعة النظير، عرجت بالرسول البشير النذير صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إن كان من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أو كان إلى السماوات للحدّ الأقصى في أقصى الاحتمالات، إذ إن بإمكانها طي السماوات دنيا و عقبى في جرية واحدة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البحار ج 18 ص 387 نقلا عن الخرائج.

(2)

روضة الكافي عن أبي جعفر (ع) في وصف البراق: مضطرب الأذنين.

(3) البحار ج 18 ص 355.

(4) اليقين في امرة أمير المؤمنين ص 83- 87.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 426

طالما كانت الرحلة المعراجية مدّ بصرها.

و إننا لنقضي عجبا من معداتها و آلياتها الموجية و الضوئية! ترى أن شعاعا كشعاع الشمس، و أربعون نوعا من النور، و مليون لون و محفة من نور، و سبعون ألف زماما، هذه المعدات العجيبة التي نجهلها، أليس بالإمكان أن يعرج بمركبتها صاحب المعراج؟ و هو يملك أقوى من هذه الأنوار! و هو يعرج بارادة اللّه! أليس هذا بالحق؟ و هذا الإنسان الضعيف الهزيل يعد لنفسه سرعة أقوى من سرعة الضوء!.

ثم لو أغمضنا النظر عن هذه المركبة و مواصفاتها، فهذه الرحلة الفضائية، لو أغمضت على العلم تحليلا، فالقدرة اللانهائية الإلهية تحلّلها، ما دامت خارجة عن الاستحالة الذاتية، و كما أن القرآن يذكر طرفا من السرعات الخارقة للعادة و غيرها من الآيات المعجزات، التي قد يعجز العلم عن تحليلها، دون أن يحيلها، فقد يحللها و قد لا يحيلها إذا لا يحللها:

من ذلك عرش بلقيس، إذ أحضره الذي عنده علم من الكتاب: «قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين .. قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي» (27: 40) و بما أن ارتداد الطرف يتحقق بأقل من ثانية، فقبل ارتداده قد يكون أقل منها بكثير.

فإذا كان بإمكان الذي عنده علم من الكتاب أن يسرع هكذا، فكيف للذي عنده علم الكتاب كله!.

ثم و أهم من سير العرش، سير اليوم الربوبي في المعارج، كما شرحناه فيها، فواحد الزمان عند اللّه يحمل مسيرة خمسين ألف سنة، و هذا الواحد حسب الأرض هو المناسب للحركة الأولى للمادة الأم، و لعلّها أقل من ثانية بمئات المئات، ثم الملايين الملايين من هذه الوحدات في بعض العوالم الأخرى، قد تكون بمقدار

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 427

الواحد الأرضي، أن تمضي أنت في سفرتك عمق الفضاء أشهرا، و لا يكون حسب الأرض إلا ثانية أو أقل، فالرحلة المعراجية التي كانت زهاء أربع ساعات حسب الأرض و هي 14400 ثانية إنها قد تكون 14400 شهرا أو يزيد حسب السماوات، فإذ تسير المركبة المعراجية في كل آن من هذه الأشهر قدر خمسين ألف سنة، يصبح المعراج أبطأ من سرعة أمواج الجاذبية، بملايين أضعاف ما تتطلبه هذه المسافة.

فالاختلاف بين الزمن الأرضي و بين سواها من العوالم السماوية شي‏ء ثابت، قدر اختلاف موازين الحركات و الأوضاع و القوانين المتحكمة فيها.

و كما أن هناك بين الزمن الأرضي، أو الدنيوي عامة، اختلافا عكسيا مع الزمن البرزخي، فقد يساوي عمر الحياة الإنسانية هنا ساعة من نهار أو بعض يوم أو يوما أو عشرة أيام، حسب الزمن البرزخي، كما نستوحيه من آيات عدة «1».

و بعد كل ذلك، إذا كانت المركبات الفضائية و الصواريخ، تهتدي بقيادات بشرية، من دواخلها أو مركبات أخرى، أو من الأرض‏ «2»، فالمركبة تستمر في رحلتها الجوية كما يهديها قائدها في الأرض، و هي مصيبة في أهدافها المخططة المرسومة لها في القيادات الأرضية، إذا فما ظنك بالمركبة المعراجية التي تقودها قدرة اللّه، خالق السماوات و الأرض، التي تقود البلايين البلايين من المركبات الكوكبية، بمجراتها السماوية و بسرعات تفوق الزمان و المكان، كما في أمواج الجاذبية، ترى أن جاذبية الخالق، و جاذبية و انجذاب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أقل من الجاذبية التي تحلّق على الزمان و المكان؟!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 30 ص 103 «زمن لبث البرزخ».

(2) كالصاروخ الانكليزي الحربي «جينديويك»kcividnij فانها طائرة دون قائد، و هي سرعتها 800 ك. م. في الساعة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 428

خلاصة عن الرحلة المعراجية:

هذه المركبة المعراجية مزدودة بما يكافح عراقيل السرعة و الحرارة و الزمان و سواها، إضافة إلى أن مسيرها بإرادة اللّه، و بالطبع في البعض من أجزائه- هذا المسير خلو من الأجزاء الهوائية، فالمصادمة الهوائية التي تقلل من حركة المركبة و تزيد في حرارتها، هي عديمة في مسير هذه المركبة، و قد يكون سيرها بسرعة زهاء سرعة أمواج الجاذبية، إضافة إلى اختلاف مقاييس الزمان بين الأرض و العوالم الأخرى، التي قد تجعل شهرا من الزمان السماوي ثانية أرضية أو أقل.

فهذه هي مركبة المعراج، و علّ مسيره كذلك يختلف عن سائر المسير بقدرة الخبير البصير، فقد يكون بابا من السماء تخص هكذا عروج فلا تفتح لغير صاحب المعراج، و قد توحي له: «وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ» (15: 15) فإنها الباب التي يفتحها اللّه «فتحنا» دون الإنسان مهما بلغ من العلم! فالعروج فيه يحير عقول الناكرين فيلجئون إلى خرافة السحر إن اجتازوا واقعة.

إذا فلم تبق مشكلة علمية أم سواها، تعرقل الرحلة المعراجية، فتشكك دون تصديقها، أو تكون حجة لغيره في تكذيبها.

القرآن و تسخير الفضاء.

عشرات من آيات اللّه البينات توحي بإمكانية الرحلات الجوية و واقعها، بين آمرة بها بغية الاستطاع على المملكة السماوية لازدياد المعرفة باللّه، و بين مبشرة بأنها سوف تتحقق او مضت، بحثنا عنها في طيات آياتها التي تتحدث عنها، مما أضاءت للبشرية بريقات الآمال في تسخير الفضاء، فأصبحت تجاهد للتوصل إلى هذه البغية منذ مآت من السنين فأخذت تستوحي منها، و من مختلف انواع الطير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 429

دروسا، تتابع على أضواءها في محاولة بعيدة المدى، للرحلات المختلفة الى أعماق الفضاء، و قد وفقت حتى الآن لشي‏ء ما، عبر الطائرات، فالصواريخ، و المركبات و الأقمار الصناعية التي نزلت على سطح القمر، و تحاول الوصول الى الكرات الأبعد فالأبعد، واحدة تلو الأخرى.

فغزو الفضاء بشارة سماوية قبل أن تكون فكرة او محاولة أرضية او واقعا منها، و كما نستبشرها من الآيات التالية:

«وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى‏ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ» (31: 10) يعني جمع الدواب المنبثة في الأرض و السماوات، إذا يشاء اللّه، و «هم» توحي على اقل تقدير بان مجموعة من هذه الدواب عقلاء من هنا و هناك، فسوف يتحقق الجمع بين انسان الأرض و انسان السماء، و طبعا بالغزو المتقابل.

و كما نؤمر في آيات بغزو الفضاء: «قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ». (10: 101).

و ليس مجال النظر المأمور به هو السماوات من بعد فقط، حيث النظر إليها من قربها هو البالغ الاهمية في مجال المعرفة و استحكام الايمان، مهما كان للنظر من بعيد علميا كذلك نصيبه.

و قد تدل آية المرور، على غزو الفضاء في أعماقها: «وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ» (12: 105)، فالمرور- و لا سيما بصيغة المضارعة: «يمرون» ما يوحي تماما ان البشرية تستقبل المرور على الأجواء البعيدة، و آيات عظيمة في السماوات، كما في الأرض، مهما كان واقع المرور حين نزول الآية هو المرور البصري و النظري من بعد، و لكننا- حسب تنبّإ الآية- وصلنا لحدّ المرور على القمر، ثم سوف نمر على سائر الآيات و الكرات السماوية.

و قد مرت و تمرّ عليكم آيات غرو الفضاء في مجالاتها الأنسب و الأحرى تفصيلا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 430

أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى. فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولى‏. وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَرْضى‏.

تمنيات مسبقة في آيات من المشركين، من فرية الهوى على رسول الهدى و تكذيبه أنه رأى ما رأى، و اوحى اليه ربه ما أوحى، في حين انهم يرون اللات و العزى و منات الثالثة الاخرى، و ان لهم الذكر و له الأنثى أم ماذا، تجرفها كلها بعد انجرافها بما مضى:

أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى‏: هل للإنسان ما تمنى؟ إن للإنسان امنيات صادقة قد يتوصل إليها بما يتوسل بوسائلها إن أرادها اللّه و قد لا يتوصل، و اخرى كاذبة، فإذا كانت تلك حالة الصادقة، فما ذا تظن بالكاذبة، فليس الإنسان هو المحور الرئيسي للكون حتى يكون له ما تمنى، مهما يصل في حمقه لعمقه إلى حد يتمنى ما للّه لنفسه، و ما لنفسه للّه! ملحدا في اللّه محادا له كأنه اللّه.

ثم مهما ملك الإنسان من تمنياته الصادقة بحجة أو سعي، فهو لا يملك أي تمن بمجرد التمني دون حجة أو سعي، و التمنيات المسبقة و نظائرها للمشركين لا تملك أية حجة أو إمكانية سعي، أسعيا للتغلب على الألوهية، أو فرض أمر او حالة على اللّه، أو فرض تحويل او تحوير في رسالة اللّه، التي تجمعها صيغة واحدة:

تمني المحال أو ما لا يجوز على اللّه! هذا- و إن تمنيات رسل اللّه التي كلها حقة و بوحي من اللّه، إنها لا تتحقق ككلّ رغم انهم على الحق و الحجج البالغة التي يملكونها، و المساعي التي يبذلونها، إلا بتوفيق من اللّه: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (22:) 52) و الآيات التي يحكمها اللّه هنا هي تمنيات الرسل التي قد تعرقل بإلقاءات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 431

الشيطان- و طبعا لا في قلوبهم- و إنما في قلوب غيرهم: «لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ. وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (53: 54).

و إذا كانت هذه حالة تمنيات المرسلين- الحقة- فكيف بمن دونهم، ثم كيف للكافرين؟! ..

«إذا تمنى أحدكم فلينظر ما تمنى فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته» «1»

فإن هوى النفس و مناها لا تحوّلان الواقع، و لا تخلقان غير الواقع، فلتحصر أمنيات الإنسان في الحقائق و بتوفيق اللّه، فإن الأمر كله للّه:

فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولى‏: مهما كنا مخيرين في الأولى بعض الشي‏ء، فإن هذا الاختيار لا يملّكنا كلّ ما نتمنى، و في تقديم الآخرة على الأولى هنا رعاية لموسيقى اللفظ على هامش المعنى، حيث السيطرة الإلهية ظاهرة واقعة في الآخرة تماما، مهما خفيت في الأولى أو خفّت بارادة اللّه، و لواقع الاختيار فيها دونها.

و هذا شي‏ء ملموس من الأسلوب القرآني: انه يجمع بين تنعيم اللفظ و تنعيم المعنى، دون إخلال بأحدهما على حساب الآخر، إذ لا تضيق الألفاظ و المعاني على اللّه، فليس تجريد التجميلات اللفظية عن جمال المعاني- أحيانا- إلّا من هرطقات القاصرين، كأن القرآن في أنظارهم كتاب شعر أو موسيقى قبل أن يكون كتاب حقيقة أو معنى!.

و نسفا لأهم تمنيات المشركين في الآخرة- عن معبوديهم: بنات اللّه الملائكة:

أنهم شفعائهم عند اللّه، تمنّ عاطل فوق تمنيات باطلة- تأتي التصريحة:

وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَرْضى‏ .. فكيف بتماثيل ملائكة في الأرض؟!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 127- اخرج احمد و البخاري و البيهقي عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (ص):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 432

فلنفرض ان الملائكة بنات اللّه! و انهم معبودون من دون اللّه! و لكنهم- لو صدقت تمنياتهم فيهم- ليسوا بشفعاء عند اللّه، إلّا لمن ارتضاه اللّه، دون فوضى رغم تقولهم‏ «هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ» (10: 18) فإنما الشفاعة كلها للّه، و بإذن اللّه‏ «لِمَنْ يَشاءُ وَ يَرْضى‏» من الشافعين و المشفّع لهم سواء، دون فوضى هنا أو هناك.

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى‏. وَ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً:

كلام في العلم و الظن‏

: مما لا بد منه أن تكون كل حالة نفسية أمام الواقع، مسنودة الى برهان مبين، سواء أ كانت قطعا أو علما أو ظنا أو شكا أو وهما «1» و إن كان البرهان هو عدم وجود الدليل أو عدم وجدانه، فالظن غير المسنود إلى دليل وثيق مرفوض، فإنه ظن الهوى و ليس ظن الهدى.

و هنا يندد بظن الهوى مرة أخرى بعد ما مضى: «ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى‏».

فالظن ظنان: ظن من هوى و هو مرذول، و ظن عن هدى و إليها و هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من الملاحظ ان القرآن قد يصف الشك بانه مريب، مما يدل على أن من الشك ما لا يريب، فالشك المريب هو المسنود إلى برهان متين يسببه، و غير المريب ليس الا شك الهوى، و كما ان من العلم و اليقين ما هو نابع عن الهوى، و مهما لم يمكن ردع هذا القاطع عن قطعه ما دام قاطعا، الا ان بالإمكان تنبيهه على خطأ الطريق، و بذلك يزول قطعه، و هكذا قطع ليس بحجة لأن مقدماته الخاطئة اختيارية، مهما لم تكن ازالة القطع دون نظر ثانوي ثاقب الى المقدمات خارجة عن الإختيار.

و قد يسمى القطع و العلم الحاصل عن الهوى ظنا و يراد به الوهم، كما يراد من الظن في الآيات الرادعة عن الظن و العمل به.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 433

مقبول، فهما تحرضنا الآيات على التمسك بالعلم، و لكنه ليس ليحصل دوما و في كل شي‏ء، فليكتف بالظن المسنود إلى العلم، و النابع عنه، فانه اتباع للعلم، كالأدلة و الأصول، غير المفيدة للعلم، المستفادة من العلم: عقلا و نقلا: كتابا و سنة، فهي داخلة في اتباع العلم، خارجة عن الظن المرفوض.

ففي ساحات الحجاج لإبرام أمر أو نقضه: «قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ» (6: 148) تنديدا باتباع ظن الهوى، و ان كان اعتقادا راجحا، فضلا عن الشك و الوهم، بل و كذلك العلم الحاصل عن الهوى دون أصل وثيق أو هدى أو كتاب منير: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ» (31: 20). «ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» (46: 4). «أن تطئوهم فتصيبكم معرة بغير علم» (48: 25). «قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا» (6: 148). «نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» (6: 43) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ» (24: 15).

فإنما المغني من الحق هو علم أو أثارة منه، أو هدى أو كتاب منير- ليس إلّا.

فالعلم هنا، لكونه قرن كتاب منير أو هدى، هو الحاصل عن غير وحي، علم وجداني أو عقلي أو حسّي، و من ثم ف «هدى» هذه، هي وحي يوحى إلى صاحبه، «كِتابٍ مُنِيرٍ» كتاب يحمل وحي اللّه، فالأخير علم رواية صادقة قاطعة، و الأولان علم دراية ذاتية، أو من وحي و هو أعلى منهما، و أثارة من علم هي رواية تحمل أثرا من العلم، مهما حصل منها علم أو دونه، و هو ظنّ مسنود إلى علم أو كتاب منير.

فإنما الظن المرفوض، الذي لا يغني عن الحق شيئا، هو ظن الهوى كما مضى، و ظن الجاهلية: «يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ» (3: 154) ظن (الفرقان- م 28)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 434

لا يستند إلى علم أو أثارة منه و لا هدى و لا كتاب منير، و إنما إلى هوى جاهلية، مهما كانت دركاته و دركاتها، فقد يكون علما كما يخيل، أو اعتقادا راجحا أو شكا أو وهما، و تشملها كلها صيغة الظن، تعني الوهم، إذ لا سناد لها كلها إلّا هوى جاهلية، مهما زينتها بما يخيل إلى صاحبها أنها علم! و لكنها بدركاتها لا تغني من الحق شيئا «1».

كما و ان للأربعة المسبقة من منابع العلم و الظن الحق، درجات، فمنها ما تغني من الحق كلّ شي‏ء، كالعلم الخالص المصيب، و هدى الوحي، ثم نصوص الكتاب المنير، الحامل للوحي، و ظواهرها المناهضة للنص، فإنها تصيب و لا تخطأ، فهي تغني من الحق كل شي‏ء.

و منها ما تغني من الحق بعض الشي‏ء، كالظن الحاصل من أثارة من علم، من رواية تحمل الوحي و عليها أثره، و هو موافقتها له و عدم مخالفتها إياه، كأخبار الآحاد، التي لا تنافي الكتاب و السنة القطعية، و توافقهما اجمالا.

و كظواهر الكتاب، و السنة القطعية، فيما تختلف فيها الأنظار، و بعد تثبّت شامل، و اجتهاد كامل، فإنها قد تفيد العلم، و قد لا تفيد إلّا الظن، و من هنا يأتي اختلاف الفتاوى، مهما كانت الأنظار ثاقبة، و الأفكار صائبة، فإنها ليست وحي مباشرة، أو نصا قاطعا.

فهذه الظنون النابعة عن ظاهر علم، أو أثارة من علم، إنها ليست مرفوضة، لأنها تنبع عن هدى، دون جهل أو هوى، و الآيات المنددة باتباع الظن، الآمرة باقتفاء العلم، الناهية عن اقتفاء غير العلم، لا تعني إلّا التحرز عما يحصل عن جهل أو هوى، فالظن الحاصل عن علم أو هدى، هو علم و في حساب العلم:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كمن يتقولون‏ «ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ»- فيرد عليهم‏ «ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» (45: 24) حيث اعتبر علمهم المدعى ظنا و وهما- مهما كان علما عندهم- إذ لا يستند الا الى الوهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 435

«وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا» (17: 36).

ثم الظن قد يكون ظن القلب، النابع عن علم من العقل، المتجاوب مع العمل، فهذا الظن أفضل من العلم غير المتجاوب مع العمل، غير الواصل الى القلب: «وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ» (2: 46)، فترى كثيرا من العالمين بعقولهم غير خاشعين، فالخشوع حالة قلبية لا تحصل إلّا بعلم عقلي ممارس عمليّا، و لكي يتجاوبا في اعتقاد راجح قلبي.

و منه: «إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ» (69: 20) «وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً» (72: 12) «قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ» (2: 249)، فإنها علم كلّها.

و أما الظن، بمعنى الاعتقاد الراجح العقلي- كما مضى- فهو ممدوح إذا لم يكن عن جهل أو هوى، مهما لم يغن عن الحق كل شي‏ء في أصول الدين و ما ضاهاها، إلّا أنه في طريق الحق، فممدوح في هذه السبيل حتى يتحقق العلم فيغني من الحق كل شي‏ء، حيث الحق لا يحصل، أو قليلا ما يحصل، دون تدرج من اعتقاد راجح إلى أرجح و إلى جزم.

و أما الأحكام، فلا سبيل للجزم بها إلّا قليلا من سبيل علم أو اثارة من علم أو كتاب منير، و كثيرا ما يحصل الظن كما في معظم الأدلة و الأمارات، من رواية أو ظاهر أم ماذا، و كثيرا ما لا يحصل حتى الظن كالأصول، المضاهية للأمارات و سواها «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كالاستصحاب و قاعدة الاشتغال و الفراغ، فانها لا تفيد الظن الا قليلا و ان كانت تشبه الأمارات، و كقاعدة الطهارة و أمثالها التي وضعت للخروج من موارد الشك بحجة و ضابطة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 436

فلو انحصرت السبيل إلى تحصيل الأحكام بالعلم، حصرت الأحكام في قليل من الضروريات الثابتة قطعيا، و رفضت الأكثرية الساحقة منها عن ميادين العمل، و بطلت الشريعة في قسم كبير من فروعها، و ليس في سماح العمل بهذه الظنون تخصيص في عمومات الآيات الناهية عن العمل بالظنون، فإنها آبية عن التخصيص، و آئبة إلى ظنون الجهل و الهوى فلا حاجة إلى تخصيص.

و من و صمات الظنون المرفوضة انها لمن تولى عن ذكر اللّه و لم يرد إلّا الحياة الدنيا، فهم يرفضون الهدى إلى الردى، و العلم إلى الظن، و قد جاءهم من ربهم الهدى:

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا. ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى‏.

«ذلك»:- الظن البعيد البعيد- «مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ»، يحسبونه علما، و ليس إلّا و هما لا يملك برهانا، فلا يغني من الحق شيئا، فإذا أصبحت الدنيا مبلغ العلم، و أكبر الهمّ، أصبح طالبها كالأنعام و أضل سبيلا، اللّهم‏

«لا تجعل الدنيا أكبر همنا و مبلغ علمنا» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فإنها لا تفيد الظن إطلاقا، فإذا كنت على ظن من نجاسة شي‏ء من دون حالة مسبقة، تجري هنا قاعدة الطهارة و تحكم بها، و في اعتقادك الراجح انه غير طاهر، و قد تمر عليك تفاصيل عن الحجج الشرعية في مجالاتها الأنسب و الأوسع.

و أما الآراء الناتجة عن القياسات و الاستحسانات و سواها مما لا أثر له في الدين، فكلها باطلة، و من لطيف ما يروى ممن رأى آراء في الدين من هذا القبيل ما أخرجه ابن أبي حاكم عن عمر بن الخطاب قال: احذروا هذا الرأي على الدين فانما كان الرأي من رسول اللّه (ص) مصيبا لأن اللّه كان يريه و انما هو ها هنا تكلف و ظن، وَ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً» () لدر المنثور 6: 127).

(1).

الدر المنثور 6: 127- اخرج الترمذي و حسنه عن ابن عمر قال: قلما كان رسول اللّه (ص) يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «اللهم اقسم من خشيتك ما يحول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 437

فأهل الدنيا، الراكنون إليها، المطمئنون بها، المريدون لها، الواقفون عندها، ليس لهم بالنسبة للأخرى و حقائقها، و للحق عامة، إلّا ظنونا جاهلة هاوية، مهما كانوا علماء في علوم الدنيا، بشهواتها و لهواتها، فلا يليق لك منهم، إلّا الإعراض عنهم، بعد ما تولّوا عن ذكر اللّه، عن كتاب اللّه و سائر حجج اللّه، التي تذكرهم اللّه.

إن أصحاب المذاهب المادية، و المآرب الحيوانية، لا سبيل فيهم إلّا الإعراض عنهم، حيث لا يفهمون لغة الإنسان‏ «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ».

و الإعراض هنا على سبيل صيانة الاهتمام أن يبذل في غير محلّه، و على سبيل التهوين و الاحتقار لمن هذا مبلغ علمه و منتهى عقله‏ «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى‏».

[سورة النجم (53): الآيات 31 الى 62]

وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (31) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى‏ (32) أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَ أَعْطى‏ قَلِيلاً وَ أَكْدى‏ (34) أَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى‏ (35)

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى‏ (36) وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلاَّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏ (38) وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاَّ ما سَعى‏ (39) وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏ (40)

ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏ (41) وَ أَنَّ إِلى‏ رَبِّكَ الْمُنْتَهى‏ (42) وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبْكى‏ (43) وَ أَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَ أَحْيا (44) وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى‏ (45)

مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى‏ (46) وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى‏ (47) وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنى‏ وَ أَقْنى‏ (48) وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى‏ (49) وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى‏ (50)

وَ ثَمُودَ فَما أَبْقى‏ (51) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغى‏ (52) وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى‏ (53) فَغَشَّاها ما غَشَّى (54) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى‏ (55)

هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى‏ (56) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57) لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ (58) أَ فَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَ تَضْحَكُونَ وَ لا تَبْكُونَ (60)

وَ أَنْتُمْ سامِدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا (62)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بيننا و بين معاصيك، و من طاعتك ما تبلغنا به جنتك، و من اليقين ما تهون علينا مصيبات الدنيا، و متعنا بأسماعنا و أبصارنا، و قونا ما أحييتنا، و اجعله الوارث منا، و اجعل ثارنا على من ظلمنا و انصرنا على من عادانا، و لا تجعل مصيبتنا في ديننا، و لا تجعل الدنيا أكبر همنا و لا مبلغ علمنا، و لا تسلط علينا من لا يرحمنا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 439

وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى‏:

توحي «ليجزي» هنا، المفرّعة- كغاية- على‏ «لِلَّهِ ما فِي ..» أن الجزاء على السيئة و الحسنة في العقبى من غايات و نتاجات الملكية المطلقة الإلهية لما في السماوات و الأرض، ترى ان الذي يملك الأولى، ألا يملك الأخرى؟ نعم و بأحرى، كما و ان الجزاء من غايات و نتاجات علمه تعالى بالغيوب كلها: «.. عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ وَ لا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ. لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ. وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ» (34: 50).

و من ناحية أخرى إن من الأهداف الرئيسية في خلق السماوات و الأرض و من فيهما ان يعبد اللّه: «ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» و من ثم الجزاء: السيئة بمثلها و الحسنة بالحسنى، فملكية السماوات و الأرض في الأولى، دليل على الملك في الأخرى على الجزاء، و علمه بالأعمال كلها و خلق الخلق، و لكي يعبد اللّه، دليل على لزوم تحقيق الجزاء: عدلا للذين أساءوا إذ يجزون بما عملوا، و فضلا للذين أحسنوا إذ يجزون بالحسنى: و هي الأحسن مما عملوا و أقلها عشر: «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها» (6: 16)، و إذا كانت الحسنة كبيرة سلبا أو إيجابا «1» فهي تكفر السيئات اللّمم، إضافة إلى جزاءها بالحسنى، ثم و هناك زيادة على الحسنى المرسومة: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى‏ وَ زِيادَةٌ وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). سلبا يعني ترك كبائر السيئات و إيجابا: فعل كبائر الحسنات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 440

(10: 26) زيادة على الحسنى التي وعدها كل المحسنين: «وَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى‏ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» (57: 10) و ترى من هم المحسنون؟:

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى‏ فمن لا يجتنب كبائر الإثم و الفواحش، و ان أتى بصغائر الحسنات، او ترك صغائر من السيئات، و ان ترك بعض الكبائر من الإثم و بعض الفواحش، إنه لا يعد من المحسنين هنا، فليس جزاءه الحسنى، اللّهم إلّا الأضعاف العشر، و أما أن تعفى عنه اللمم، او يكفر عن سيئاته، او يبدّل سيئاته بحسنات، فلا، فانها من الحسنى الخاصة بمن يجتنبون كبائر الإثم و الفواحش إلا اللمم‏ «فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ» (25: 70) بعد «إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ» (11: 114).

ترى ما هي كبائر الإثم، و الفواحش، و ما هي اللمم المكفر عنها بتركهما؟.

ان الإثم هو الفعل المبطئ عن الثواب، فمنه صغير، و منه كبير كالخمر و الميسر: «قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ» (2: 219) و الشرك باللّه و هو اكبر الكبائر «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ» (4: 48) وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى‏ إِثْماً عَظِيماً» (4: 48) و الافتراء على اللّه‏ «انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ كَفى‏ بِهِ إِثْماً مُبِيناً» (4: 50) و رمي البري‏ء بما فعل الرامي من خطيئة او إثم و ان كان صغيرا» «وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً» (4: 112) و بما لم يفعله الرامي ايضا «وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً» (33: 58) و القتال في الشهر الحرام عند المسجد الحرام إلّا دفاعا «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ قُلْ قِتالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ إِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ..» (2: 217) فالصد عن سبيل اللّه، و الفتنة بين المؤمنين و عليهم، و إخراج اهل المسجد الحرام، انها كذلك من كبائر الإثم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 441

و بصيغة شاملة

«كل شي‏ء وعد الله عليه النار» «1»

كالشرك باللّه و اليأس من روح اللّه، و الأمن من مكر اللّه، و عقوق الوالدين، و قتل النفس المحترمة، و قذف المحصنات، و أكل مال اليتيم ظلما، و الفرار من الزحف، و أكل الربا، و السحر، و الزنا، و اليمين الغموس، و منع الزكاة المفروضة، و شهادة الزور، و كتمان الشهادة، و شرب الخمر، و ترك الصلاة متعمدا، و نقض العهد، و قطيعة الرحم، و الركون الى الظالمين و معونتهم، و السرقة، و أكل الميتة و الدم و لحم الخنزير، و ما أهل لغير اللّه به، و البخس في المكيال و الميزان و حبس الحقوق من غير عسر، و الكذب و الكبر و الإسراف و التبذير و الخيانة و الاستخفاف بالحج، و المحاربة لأولياء اللّه، و الإصرار على الذنوب و كتمان ما انزل اللّه، و إيذاء رسول اللّه، و أمثال ذلك مما عده اللّه كبيرا كالمسبقة، او شدّد عليه النكير و ندد بفاعله كثيرا «2» فانها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين (5: 164) عن ثواب الأعمال للصدوق باسناده الى عباد بن كثير قال‏ سألت أبا جعفر (ع) عن الكبائر فقال: كل شي‏ء وعد اللّه عليه النار.

(2)

من لا يحضره الفقيه روى عبد العظيم بن عبد اللّه الحسني عن أبي جعفر (ع) محمد بن علي الرضا (ع) عن أبيه قال سمعت أبي موسى بن جعفر (ع) يقول: دخل عمرو بن عبيد البصري على أبي عبد اللّه (ع) فلما سلم و جلس تلا هذه الآية: «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ» ثم أمسك، فقال أبو عبد اللّه (ع): ما أمسكك؟ فقال: أحب ان أعرف الكبائر من كتاب اللّه عز و جل، فقال: يا عمرو! اكبر الكبائر الشرك باللّه يقول اللّه تبارك و تعالى‏ «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» و يقول‏ «إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ» و بعده اليأس من روح اللّه لأن اللّه عز و جل يقول «و لا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون، ثم الأمن من مكر الله لان الله عز و جل يقول: و لا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون، و منها عقوق الوالدين لان الله عز و جل جعل العاق جبارا شقيا، في قوله تعالى: «وَ بَرًّا بِوالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا»، و قتل النفس التي حرم اللّه الا بالحق لأن اللّه عز و جل يقول: و من يقتل مؤمنا متعمدا فجزاءه جهنم خالدا فيها، و قذف المحصنات لأن اللّه عز و جل يقول: ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا و الآخرة و لهم عذاب عظيم. و أكل مال اليتيم ظلما لقول اللّه عز و جل: ان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 442

من كبائر الإثم و الفواحش، طالما تختلف هذه الكبائر و الفواحش في دركاتها و عقوباتها دنيوية و أخروية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا و سيصلون سعيرا. و الفرار من الزحف لأن اللّه عز و جل يقول: و من يولّهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من اللّه و مأواه جهنم و بئس المصير، و أكل الربا لأن اللّه يقول: ان الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، و يقول: يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه و ذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من اللّه و رسوله، و السحر لأن اللّه عز و جل يقول: و لقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق. و الزنا لأن اللّه عز و جل يقول: و من يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة و يخلد فيه مهانا إلا من تاب. و اليمين الغموس (و هي الكاذبة الفاجرة) لأن اللّه عز و جل يقول: ان الذين يشترون بعهد اللّه و ايمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة. و الغلول (السرقة و الخيانة) قال اللّه: و من يغلل يأت بما غل يوم القيامة. و منع الزكاة المفروضة لأن اللّه عز و جل يقول: يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم و جنوبهم و ظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون. و شهادة الزور و كتمان الشهادة لأن اللّه عز و جل يقول: و من يكتمها فانه آثم قلبه. و شرب الخمر لأن اللّه عز و جل عدل بها عبادة الأوثان: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ .. و ترك الصلاة متعمدا لأن رسول اللّه (ص) قال: من ترك الصلاة متعمدا فقد برى‏ء من ذمة اللّه و ذمة رسوله. و نقض العهد و قطيعة الرحم، لأن اللّه عز و جل يقول:

أولئك لهم اللعنة و لهم سوء الدار. قال: فخرج عمرو بن عبيد و له صراخ من بكائه و هو يقول:

هل من قال برأيه و نازعكم في الفضل و العلم.

و

في عيون أخبار الرضا في باب ما كتبه الرضا (ع) من محض الإسلام و شرايع الدين قال (ع): (في عد الكبائر) ... و زاد «و أكل الميتة و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير الله به».

و الميسر و هو القمار، و البخس في المكيال، و اللواط، و معونة الظالمين و الركون إليهم، و حبس الحقوق من غير عسر، و الكذب و الكبر و الإسراف و التبذير و الخيانة و الاستخفاف بالحج و المحاربة لأولياء اللّه و الاشتغال بالمناهي و الإصرار على الذنوب.

أقول: و من الكبائر كتمان ما انزل اللّه‏ «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدى‏ مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» (2: 152) و إيذاء الرسول: «وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (9: 61).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 443

و اما الفواحش بصورة خاصة فهي المتجاوزة من المعاصي، تجاوزا الى غير العاصي، او تجاوزا حد العبودية كأنه خارج عنها، و يجمعهما: ما عظم قبحه من الأفعال و الأحوال و الأقوال، ظاهرة و باطنة: «قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ ...» (7: 33)

و الفاحشة المتجاوزة الى الغير أفحش من غيرها: «وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ» (3: 135) فقرن ظلم النفس بفعل الفاحشة يوحي أنها هنا ظلم الغير، فرديا او جماعيا: كالزنا و اللواط اللذين يدنسان المجتمع، و يعملان الفوضى في الأنساب فالزنا: «وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى‏ إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَ ساءَ سَبِيلًا» (4: 22) و اللواط: «وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» (27: 54).

و في «يجتنبون» ايحاء الى طبيعة الاجتناب، ان المحسنين يعيشونها كأصل في القمة من أصول الحياة فلا ينافيه الانفلات أحيانا الى شي‏ء من كبائر الإثم و الفواحش، ما لم يصبح طبيعة ثانية لهم، فالمؤمن قد تأخذه نازلة الفاحشة و الكبيرة و جنونهما «1» و لكنه ما يلبث إلا أن يستغفر اللّه و كما يقول اللّه في أوصاف المحسنين‏ «وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى‏ ما فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (3: 135) ففعل الفاحشة للمؤمن من اللمم، و من معانيها النازلة و الجنون الغفلة، اللتان قد تنزلان به.

كما و أن قضية الاستثناء هنا «إلّا اللمم» الظاهر في الاتصال، أن اللمم،- او ان منها- كبائر الإثم و الفواحش، النازلة به أحيانا بجنون الغفلة و فنون الغفوة، و قد أتته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم امرأة فشكت اليه لمما بابنتها- و هي طرف من الجنون، و على حد

المروي عن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «اللمم هو الذي يلم بالخطرة من الزنا ثم لا يعود و يلم بالخطرة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اللمم النزول، و الملمة النازلة الشديدة، و اللمم الطائف من الجن و الجنون مسا، فمقارفة الكبيرة للمؤمن حالة من الجنون و اللاوعي التي قد تعتريه ثم تزول.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 444

من شرب الخمر ثم لا يعود و يلم بالسرقة ثم لا يعود» «1»

فاللمم «هو الإلمام بالذنب أحيانا دون ان يكون من سليقته و طبعه‏ «2» لان المؤمن مطبوع بترك الكبائر و الفواحش.

و إذا كان اقتراف الكبائر دون تكرار من اللمم، فأحرى ان يكون منها اقتراف الصغائر دون إصرار، و أحرى منهما اقتراب اي منهما دون عمل و إقرار، فمن معاني اللمم الاقتراب و المشارفة «3» و الجمع الإصلاح، فمن يجمع: يعزم- على ذنب، ثم ينصرف، مقاربا له مقارفا إياه، فقد أخذته اللمم، و مقاربة الذنب هي الدخول في معداته و مقدماته و كما عن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «4».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 128- اخرج ابن مردويه عن الحسن قال قال رسول اللّه (ص): أ تدرون ما اللمم قالوا اللّه و رسوله اعلم قال: هو الذي ...

و

عن أئمة اهل البيت مستفيضا ان اللمم الرجل يلم بالذنب فيستغفر اللّه منه‏ كما في الكافي عن أبي عبد اللّه (ع) بأسانيد عدة.

(2)

رواه القمي في تفسيره عن أبي عبد اللّه (ع) قال: ما من ذنب الا و قد طبع عليه عبد مؤمن يهجره الزمان ثم يلم به و قول اللّه عز و جل‏ «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ» قال اللمام العبد الذي يلم بالذنب بعد الذنب ليس من سليقته اي من طبعه.

(3) تقول العرب: ما تزورنا الا لماما اي أحيانا و ضربته ما لمم القتل اي قاربه، و الم يفعل كذا: قارب، و منذ شهرين او لممها- مذ شهر او لممه اي قراب شهر، و

في حديثه (ص) و ان مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا او يلم: يقارب و في صفة الجنة: فلو لا انه شي‏ء قضاه اللّه لا لم ان يذهب بصره،

و

في حديث الافك: و ان كنت ألممت بذنب فاستغفري اللّه اللمم،

و نخلة ملمة: قاربت الارطاب، و غلام ملم قارب البلوغ و الاحتلام (لسان العرب).

(4) الدر المنثور 6: 127 عن ابن عباس قال ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما

قال ابو هريرة عن النبي (ص) قال (ص): ان اللّه كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان النطق و النفس تمنى و تشتهي و الفرج يصدق ذلك أو يكذبه.

و يقربه ما

أخرجه عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه و البيهقي في شعب الايمان عن ابن مسعود في قوله الا اللمم قال: زنا العينين النظر و زنا الشفتين التقبيل و زنا اليدين البطش و زنا الرجلين المشي و يصدق ذلك الفرج أو يكذبه فان تقدم بفرجه كان زانيا و الا فهو اللمم،

أقول نصدق ذلك الا حصر اللمم في المقدمات، فان الزنا أحيانا أيضا من اللمم كما سبق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 445

إذا فمقاربة الكبيرة و ان كانت بتكرار، او مقارفتها دون تكرار، او الصغيرة دون إصرار، هذه كلها مما تعنيه اللمم المستثناة، معاني تتجاوب مع بعض، كما و تتجاوبه الادلة: كتابا و سنة و لغة و اعتبارا، فالمسي‏ء هنا هو المدمن للفاحشة و الكبيرة، إذا أصبحتا من طبعه و سليقته، و ما سوى الإدمان، لمم فمنها اقتراف صغائرها المعدة لها، و قد لا يخلو منها اي عبد و كما

يروى عن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «ان تغفر اللهم تغفر جما\* و أي عبد لك لا ألما «1».

و أخيرا في‏ «إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ ..» ايحاء واضح بكون اللمم ذنبا- لا اهتمامه فحسب- و إلّا فمم المغفرة؟ فلتكن من اقتراف كبيرة، أو اقترابها بصغيرة، فالذين أحسنوا هم الذين يجتنبون كبائر الإثم و الفواحش كطبيعة لهم إيمانية، إلّا ان يقعوا في شي‏ء منها أو دونها، ثم يعودوا سراعا دون إصرار و لا تكرار، «إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ» «وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى‏ ما فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ»: يعلمون أنه فاحشة، و يعلمون: أن يكونوا في حالة عادية ذاكرين عامدين، و أما التكرار و الإصرار دون علم بالفاحشة، أو في غفلة و جنون الغفوة فلا يخرجهم عن الايمان.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قاله امية و تمثل بها النبي (ص) فانه ما كان ينشد اشعارا «وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ» و في الدر المنثور 6: 127 أخرجه سعيد بن منصور و الترمذي و صححه و البزار و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله الا اللمم قال هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب منها

قال قال رسول اللّه (ص) ان تغفر اللهم تغفر جما و اي عبد لك لا ألما،

أقول و قوله (ص) هذا لا يدل على انه من إنشاده لما دل عليه القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 446

هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ ..

«هو» اللّه‏ «أَعْلَمُ بِكُمْ» منكم و من سواكم من العالمين في ملأ العالمين، «أَعْلَمُ بِكُمْ»: بذواتكم و صفاتكم و أفعالكم و طوياتكم و كلّ كيانكم إسرارا و إعلانا.

«أَعْلَمُ بِكُمْ» إذ لم تكونوا شيئا مذكورا: «إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ» كما أنشأ آدم الأوّل من طين لازب، ثم أنشأ ذريته- كذلك- من أجزاء الأرض إذ خلق منها نطفته، و رباها في الأرحام و قواها بمواد الأرض، و «أَعْلَمُ بِكُمْ» كذلك إذ كنتم شيئا مذكورا: «إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ» إذ لم تكونوا لتعلموا شيئا، و إلى ان أخرجكم: «وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً» (16: 78).

ترى كيف تصح صفة التفضيل في العلم: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ» حين إذ لا علم للمفضل عليه: «إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ»؟!.

علّه لأن «أعلم» لا تختص بالحالتين الجاهلتين، فإنها شاملة للحالات كلها، و إلى أعلى درجات العلم، كما تشمل أدنى دركات الجهل، و قد توحي به «كم» فأحرى أن تشمل حالة الشعور العلم، لكي يصلح للخطاب، و إنما ذكر حالتا الجهل اللّاشعور: «أَنْشَأَكُمْ‏ .. أَجِنَّةٌ» ذكرتا دون حالة العلم؟ إذ لا مماراة في جهلها المطلق: حين الإنشاء و الأجنة، اضافة إلى أنهما تحملان حجة للأفضلية:

«هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ» فان المنشئ للشي‏ء لا يعزب عن علمه منه شي‏ء، و الجنين المستور عن كل فاعل و محاول، العاجز عن تدبير أمره، لا يعلم من نفسه و سواه شيئا، كما لا يعلمون عنه شيئا، و اللّه المنشئ البارئ للجنين هو الذي يعلم منه كل شي‏ء، فهما إذا حجتان للأعلمية الشاملة الإلهية بنا «1»، و فيما نعلم الكثير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ف «إذ» هنا و هناك تحمل معنى الزمان و التعليل، هو أعلم بكم حين أنشأكم و .. و لأنه أنشأكم- فان المنشئ أعلم من المنشأ و ان كان هو أيضا عالما، أفضلية الخالق من المخلوق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 447

الكثير في زعمنا! و لكن أين علم من علم! علم سابق شامل، و علم لاحق جاهل، فمهما علمنا أشياء، نجهل آلاف الأضعاف أشياء! علم ذاتي جوهري، و علم عارضي، علم لا يخالطه جهل، و علم أكثره جهل، علم حادث يزول، و علم أزلي لا يزول؛ ما يحق أن يقال: علم مطلق و جاه جهل مطلق! و لكن اللّه يمن علينا إذ يصفنا بصفة العلم، ثم يفضل نفسه علينا فيه كما في سواه، رغم التباين الكلي بين صفاته و صفاتنا، كما و بين ذاته و ذواتنا! فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى‏ «هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى‏» توحي أن التقوى هي السبب الوحيد للتزكية الحقيقية، و الإنسان المنشأ من الأرض بطبعه يميل و يثّاقل إليها إلّا من هداه اللّه و اهتدى و سلك سبيل التقوى، و جانب و بيل الطغوي فلأنه‏ «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ» بكونكم و كيانكم كما أنتم‏ «فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ»: ادعاء أنني بري‏ء من و صمات الطغوى، و ملي‏ء بسمات التقوى.

و التزكية، و هي التحرّي عما فيه التطهير عن الأدناس الخلقية و العقائدية و العملية، إنها كما تنسب إلى العبد، كذلك إلى اللّه و إلى رسل اللّه الحاملين رسالات اللّه ببلاغات التزكية للمرسل إليهم، و سواء في ذلك القول أو العمل و السعي، إن كان في الدنيا أم في الآخرة.

فالتزكية العملية في نطاق التأييد و التوفيق دنيا، و في التكفير عن السيئات دنيا و عقبى، إنها خاصة باللّه تعالى شأنه، و كما أن القولية منها شهادة على النزاهة الصادقة، و لا تعتبر الّا منه أو بوحي منه، فإن المكلف قد يجهل أخطاءه العامدة منها أو الساهية، فلا يحق له اعتبار نفسه مزكيّ إلّا بشهادة اللّه:

«أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا» (4: 49).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 448

و التزكية البلاغية بالوحي قوليا و عمليا خاصة برسل اللّه: «يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَ يُزَكِّيكُمْ» (2: 151): وساطة في بلاغ الوحي دون أن تملك هداية المهتدين: «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» (28: 56).

و تزكية السعي في التزكي خاصة بالمكلفين، و هي لا تكفي في الحصول على النتيجة إلّا بفضل من اللّه و رحمته تأييدا و توفيقا: «وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ ما زَكى‏ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَ لكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (24: 21).

فعلى المكلف السعي الكادح في تزكية نفسه متوكّلا على اللّه، بدلالات رسل اللّه: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها» (91: 9) «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى» (87: 14).

و ليعرف أن تزكية التوفيق في الدنيا انما هي بيد اللّه، كما و هي في تكفير السيئات دنيا و عقبى بيد اللّه: «وَ لكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ» (24: 21) و لا يزكي هنا و هناك إلّا من يتزكى هنا، و أما من لا يتزكى فلا: «وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (2: 172) «وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ» (3: 77).

فتزكياتنا العملية بتوفيق اللّه و دلالات رسل اللّه، إنها واجبات محتومات، و القولية منها تنزيها لأنفسنا قد تجوز فيما إذا كانت حقا، و قد تجب إذا كانت في مقام دفع فرية أو تهمة، أو إثبات عدالة أو فضيلة و جاه الناكرين أو الغاصبين حقوق العدل و الفضل أو أية ضرورة «1» كما كان يفعله النبيون و سائر المعصومين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير العياشي‏ قال سفيان لابي عبد اللّه (ع): ما يجوز ان يزكي المرء نفسه؟ قال:

نعم إذا اضطر اليه اما سمعت قول يوسف، اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم،

و

قول العبد الصالح: و اني لكم ناصح أمين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 449

و العلماء الربانيون‏ «1».

و من التزكيات القولية ما تحرم كالمدّعاة في غير حق، من فضيلة منفية تدعّى، أو متواجدة يدعي واجدها أنها من سعيه متحللا عن توفيق اللّه، أو دلالة رسل اللّه‏ «فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى‏» تنحو نحو الأولى، و «وَ لكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ» (24: 21) نحو الثانية، كما أن‏ «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا» (4: 49) تشمل الآخرة و الأولى، تزكية التقوى في الأولى، و تزكية عن الطغوى في الأخرى.

و مهما يكن من شي‏ء في التزكية الحقة منا لأنفسنا، فإنها مرجوحة الّا عند الضرورة، و بسناد الوحي أو شبهه، متنبها منبّها أن تزكية المرء لنفسه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الاحتجاج للطبرسي عن معمر بن راشد قال سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول: أتى يهودي الى رسول اللّه (ص) فقام بين يديه يحد النظر اليه فقال، يا يهودي، ما حاجتك؟ فقال: أنت أفضل ام موسى بن عمران النبي الذي كلمه اللّه عز و جل و انزل عليه التوراة و العصا و فلق له البحر و اظله بالغمام؟ فقال له النبي (ص) انه يكره العبد ان يزكي نفسه و لكني أقول: ان آدم لما أصاب الخطيئة كانت توبته انه قال: اللهم اني اسألك بحق محمد و آل محمد لما غفرت لي فغفر اللّه له، و ان نوحا لما ركب السفينة و خاف الغرق قال: اللهم اني اسألك بحق محمد و آل محمد لما انجيتني من الغرق فنجاه اللّه عز و جل، و ان ابراهيم (ع) لما القي في النار قال: اللهم انى اسألك بحق محمد و آل محمد لما انجيتني منها فجعلها اللّه عليه بردا و سلاما، و ان موسى (ع) لما القى عصاه و أوجس في نفسه خيفة قال: اللهم اني اسألك بحق محمد و آل محمد لما آمنتني قال اللّه عز و جل: «لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى‏» يا يهودي! ان موسى لو أدركني ثم لم يؤمن بي و بنبوتي، ما نفعه ايمانه شيئا و لا نفعه النبوة، يا يهودي! و من ذريتي المهدي إذا خرج نزل عيسى بن مريم (ع) لنصرته فيقدمه و يصلي خلفه.

(الفرقان- م 29)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 450

قبيحة «1» و كما «يخشى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم على أمته أن تزكي أنفسها» «2» «و لا يزكى على الله أحد» «3» إلّا من يزكيه اللّه، أو يعرف زكاته عند اللّه، فيما يرضاه اللّه.

أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى. وَ أَعْطى‏ قَلِيلًا وَ أَكْدى‏. أَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى‏. أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى‏. وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى. أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏. وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏. ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏. وَ أَنَّ إِلى‏ رَبِّكَ الْمُنْتَهى‏.

توحي هذه الآيات أن هذا الذي تولى و أعطى قليلا و أكدى، هو الذي ألقى وزره على وازرة أخرى، كأنها تتحملها عنه، فلذلك «تولى» عما يتوجب عليه فعله أو تركه‏ «وَ أَعْطى‏ قَلِيلًا»: فيما أعطى، قبل أن يتولى، إذ كان ينفق كفارة لسيئاته رجاء أن تعفى، و بعد ما تولى، أعطى لمن يزعمه أنه يزر وزره بعد هذا «و أكدى»: قطع ما كان ينفقه من ذي قبل.

فالآيات الست الأخيرة تنديدات بهذا المتولى المكدي، و بكلّ من حذى حذوه، من الذين لا يعملون صالحات، ثم يأملون الثواب من أعمال غيرهم، أو من ادعائاتهم أنهم يتحملون أوزارهم: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ‏ (29: 13)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في معاني الاخبار للصدوق باسناده الى جميل بن دراج قال‏ سالت أبا عبد اللّه (ع) عن قول اللّه عز و جل‏ «فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى‏» قال: قول الناس: صليت البارحة و صمت أمس و نحو هذا، ثم قال: ان قوما كانوا يصبحون فيقولون: صلينا البارحة و صمنا أمس فقال علي (ع) لكني أنام الليل و النهار و لو أجد بينهما شيئا لنمته.

و

في احتجاج الطبرسي عن علي (ع) و لو لا ما نهي اللّه عن من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمة تعرفها قلوب المؤمنين و لا تمحها آذان السامعين.

(2) حم 4: 171

(3) خ ادب 54

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 451

«لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ» (16: 25).

يروى أن المتولي المكدي هنا «هو عثمان بن عفان كان يتصدق و ينفق فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح: ما هذا الذي تصنع؟ يوشك أن لا يبقى لك شي‏ء، فقال عثمان: إن لي ذنوبا و إني أطلب ما أصنع رضى الله و أرجو عفوه، فقال له عبد الله أعطني ناقتك برحلها و أنا أتحمل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه و أشهد عليه و أمسك عن النفقة فنزلت الآيات» «1».

و كما يروى ذلك في غيره أيضا و علّها من أشخاص عدّة تنزيل الآيات تنديدا بهم و أمثالهم أيا كانوا.

فهنا الآيات تندد بمن يزعم هكذا، أولا: أن لا سناد له من علم الغيب، و حمل أوزار الآخرين لو صح، فهو من غيب اللّه‏ «أَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى‏» و الغيب الوحي خاص برسل اللّه، و هؤلاء المناكيد هم رسل الشيطان و أولياؤه.

و أخيرا هنالك إثباتات من كتاب الوحي: «أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏. وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏. ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏».

ففي كتاب موسى (سفر التثنية 24: 16): «لا يقتل الآباء عن الأولاد و لا يقتل الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يقتل» كما و في فرع من فروعه:

(حزقيال 18: 5- 22): «النفس التي تخطئ هي تموت 5- و الذي سلك في فرائضي و حفظ أحكامي ليعمل بالحق فهو بار حياة يحيا 9- و ان ولد ابنا رأى جميع خطايا أبيه ... و لم يفعل مثلها 14- و سلك في فرائضي فإنه لا يموت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما حدده الزمخشري في الكشاف، و رواه ابن عباس و السدي و الكلبي و جماعة من المفسرين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 452

بإثم أبيه- 17 و أما أبوه فهو ذا يموت بإثمه 18 و أنتم تقولون- ... لماذا لا يحمل الابن من اثم الأب 19- و أما الابن فقد فعل حقا و عدلا حفظ جميع فرائضي و عمل بها فحياتا يحيا 20- النفس التي تخطئ هي تموت 21- الابن لا يحمل من اثم الأب و الأب لا يحمل من اثم الابن 22- بر البار يكون عليه و شر الشرير عليه يكون 23-».

و إنها حقيقة جارفة أوهام الضالين، تحملها فيما تحمل، هذه الآيات التوراتية و آيات عدة قرآنية «1» تجاوبا مع نداء الفطرة العادلة، منددة بما اختلقته الكنائس: «ان المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا» و «ان بني آدم كلهم عصاة في ذواتهم إذ عصى آدم ربه فغوى، فلا بد من فاد يفدي بنفسه ليخلصهم من وزر العصيان و هو المسيح الفادي إذ لعن بصلبه لأجلنا»! «2» و من أشمل الآيات الناكرة لها، المنددة بها آية الإسراء: «مَنِ اهْتَدى‏ فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏» (17:) 15): أن الهداية و الضلالة لا تتعديان بنتائجها إلى غير الساعي لهما و لو كان ذا قربى: «وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏ وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى‏ حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْ‏ءٌ وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى‏» (35: 18) بل الضالون المدعون هكذا حمل:

«لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ» (16:) 25) و دون ان ينقص من أوزار المضللين شي‏ء.

فهذه بالنسبة للأوزار من أي كانت و لأيّ، كما و أن مساعي الخير لا تتعدى أصحابها: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» ضابطة عامة لا تستثنى، شاملة لكل المساعي في الدنيا و لها و للآخرة، طالما المؤمن لا يراها في الأولى إلا قليلا،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في السور 6: 164 و 17: 15 و 35: 18 و 39: 7.

(2) راجع (عقائدنا) ص 160- 219.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 453

و لكنه: «وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏» في البرزخ و القيامة، رؤية تبهجه و تبشره‏ «ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏»: فسعيه يوم الدنيا هو هو جزاءه يوم الآخرة، إذ تظهر حقيقته بعدل اللّه و فضله.

فهنا في الحياة الدنيا يرى بعض الجزاء لما سعى، ثم في الوسطى: البرزخ، يرى وفيا من الجزاء، و ثم في الأخرى يرى جزاءه الأوفى، و هو ظهور ما سعى بكامل حقيقته كما وعد اللّه الساعين الصالحين، و أوعد الساعين الطالحين:

«يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً» (3: 30).

حوار حول آيتي الوزر و السعي:

آية الوزر تنفي ان تزر نفس وازرة وزر نفس وازرة اخرى، و لا تنفي ذلك من نفس غير وازرة كالمعصومين الطاهرين عن الأوزار، فلا تنفي إذا أن تزر نفس المسيح (ع) أوزار أمته. أو سواه من المعصومين عن سواهم من الوازرين.

الجواب: أن الوازرة هنا ليست هي الحاملة لوزرها، بل هي المتحملة ادعاء لوزر وازرة اخرى حاملة لها، و «لا تزر» تضرب هدفين بسهم واحد: أنها لا تحمل ما تحملته، يوم الحساب- و لو استطاع- «وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» (29: 12) إذ هي مثقلة بأوزارها نفسها، فكيف تحمل أوزار غيرها، و هي ترجو ان تحمل أوزارها لتخف هي عنها، و هي نفس كافرة أو فاسقة لا تستقيم على وعدها يوم الدنيا، فكيف بالأخرى!.

و انها لا يؤذن لها أن تتحمل وزر غيرها و لو صدقت، طالما تتحمل من أوزار من أضلتها دون أن ينقص عن المضلل شي‏ء.

ثم إذا لا يؤذن لنفس خاطئة إن تزر وزر أخرى، رغم استحقاقها العذاب فكيف بأنفس معصومة طاهرة مستحقة لكل تكريم، أن يؤذن لها لتحمل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 454

أوزار غيرها فتعذب هي عنها، و ترحم صاحبة الوزر، إن هي إلا قسمة ضيزى و فرية على السيد المسيح: أن تحمل بصلبه جميع لعنات الناموس، وازرة معصومة طاهرة، تحمل أوزار أنفس عاصية قذرة! فسلام لك ايها المظلوم المهتوك ممن يذود عنك تلك الوصمات، و اللعن على المفترين عليك.

و ما شفاعة الشافعين الطاهرين لبعض العاصين حملا لأوزارهم، إنما هي غض عنها كأن لم تكن شيئا.

و هكذا نرى في آيات الجزاء- كلمة حتم لا تستثنى-: «وَ لا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏» (6: 164) «وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏» (17: 15) أنما الخطيئة على أصحابها، دون أن تتخطاها إلى غيرها، مؤمنة أو فاسقة، حكم عادل عاقل لا تخلف فيها و لا استثناء عنها.

و حول آية السعي، كيف يكون للميت عائدة و فائدة عما يسعاه الحي، و ما هو بساع لنفسه، و لا ينفعه لو سعى بعد ما قضى نحبه؟ و كذلك حي عن حي أو شفعاء عمن لهم يشفعون فيشفّعون؟

الجواب: أن العائد إلى الميت ليس الا قليلا و في إطارات خاصة، و ما عوده الى الميت إلا عودا الى الساعي، فانه يسعى للميت، فلو لم يعد من سعيه شي‏ء الى الميت لم يفده سعيه في بغيته، فكما أن للإنسان ما يسعاه لنفسه، كذلك له ما يسعاه لغيره، فما يبغيه لغيره يعتبر بغية له لنفسه، كسائر القربات المهداة الى المؤمنين أحياء و أمواتا، سواء أ كانت بأجور ام قربة دون مقابل، على أن ذلك ليس فوضى كما يبغيه الساعي، و إنما فيما يؤهل له و من يؤهل، فهذان سعيان ينتجان عائدة للمهدى إليه و كما يأذن اللّه، و في الغائبة من واجبات جزئية قصورا او تقصيرا أم ماذا «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

اصول الكافي باسناده عن إسحاق بن عمار عن أبي ابراهيم (ع) قال: سألته عن الرجل يحج فيجعل حجته و عمرته او بعض طوافه لبعض اهله و هو عنه غائب في بلد آخر، قال: قلت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 455

و اما شفاعة الشفعاء، فهي ايضا من سعي المشفع لهم بفضل اللّه، من توبة، و اجتناب لكبائر المنهيات، و من رجاحة للحسنات، و من أهلية للشفاعات، فكل ذلك مما سعاه المشفع له، و هو من سعي الشافع ايضا لأهليته لها، كما و ان غيرهما- غير- الآهلين للشفاعة لا يشفّعون او يشفع لهم.

و من هؤلاء من سن سنة حسنة او سيئة فان له مثل أجر او وزر من عمل بها الى يوم القيامة و لا ينقص أولئك من أجورهم او أوزارهم شي‏ء، كما في مستفيض الأحاديث، فان ذلك كله من سعيه الصالح او الطالح و لو انقطع عمله، فان له سعيا في أعمالهم، فله او عليه ما سعاه كما سعى.

و لقد سبقت آية الإلحاق: «أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ» و ان الإلحاق فيها من مساعي الطرفين، اتباع الملحقين بهم، بإيمان، و ايمان الأصول المتبوعين الراجين ذلك الإلحاق، كما فصلناه مسبقا.

جولة اخرى في آيتي الوزر و السعى‏

«أ فرأيت» رؤية البصيرة و التبصرة و الادكار «الَّذِي تَوَلَّى» عن منهج الإيمان، و التعرض لمواضع الغفران‏ «وَ أَعْطى‏ قَلِيلًا»: كما و كيفا، قدرا و زمنا «و أكدى»:

بلغ كدي العطاء و انقطاعه، فترك القليل ايضا و ضنّى به‏ «أَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ» وحيا كما عند الموحى إليهم «فهو يرى» الغيب: سماعا له بإذن القلب، و منه ما ادعى؟! و الغيب للّه، ثم من يوحي إليه كما يشاء، و هذا المكدي المتولي من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فينتقص ذلك من اجر، قال: هي له و لصاحبه و له اجر سوى ذلك بما وصل، قلت: و هو ميت هل يدخل ذلك عليه؟ قال: نعم، حتى يكون مسخوطا عليه فيغفر له او يكون مضيقا عليه قلت: فيعلم و هو في مكانه انه عمل ذلك لحقه؟ قال: نعم، قلت: و ان كان ناصبا ينفعه ذلك؟

قال: نعم يخفف عنه.

أقول: و اما بالنسبة للمشركين فلا نفع و لا تخفيف حيث النهي عن الاستغفار لهم، و في نيابة العبادات روايات كثيرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 456

رسل الشيطان يوحي إليه ما يشاء «ام» إذ ليس عنده الغيب، فهل‏ «لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى‏ وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى»: فان دين اللّه في أصوله قديم، موصولة أوائله بأواخره، يصدق بعضه بعضا عبر الرسالات، دون ان يفصل بعضه عن بعض فواصل الزمان و المكان، و منه كأصول الكتابات الوحي المفصل‏ «صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏» فالإنجيل ليس إلا فرعا لهما، إضافة الى تحرفه عن هذا الأصل كالكثير من الأصول، و صحف نوح غير متواجدة، و لو كانت فهي بدائية إجمالية دون تفاصيل، ثم القرآن و هو الصحيفة الأصيلة المهيمنة على سائر صحف الوحي يكرر هذا الأصل مرات: «أَلَّا تَزِرُ» نفس‏ «وازِرَةٌ وِزْرَ» نفس «أخرى» لا تخفيفا عنها تثقيلا لنفسها، و لا لنفس أخرى، و لا تخفيفا دون أي تثقيل‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ» كما ليس لسواه من الساعين‏ «إِلَّا ما سَعى‏» لا أقل منه إلا ما أحبطه و أفسده، لا- إلا قدره او زيادة بفضل اللّه و منّه، فليس له في شريعة اللّه دنيا، و في جزاءه عقبى‏ «إِلَّا ما سَعى‏» فلا يحق استثمار مساعي الناس و استغلالها لمن لم يسع او لم يشارك الساعي، اللهم إلا قدر سعيه فكريا او عمليا ام ماذا؟

و بقسطاس الحق و العدل.

و مهما يكن من ظلم و انتقاص في المساعي دنيا، ففي الاخرى: «وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏» يراه الساعي و سواه في البرزخ و القيامة رؤية تناسبه و يناسبها، لمسا او ذوقا او سماعا او إبصارا ام ماذا؟ و كما سعى! يراه و يجزاه كجزاء موقت في البرزخ «ثم» في القيامة الكبرى «يجزاه»: سعيه‏ «الْجَزاءَ الْأَوْفى‏» فانه هو السعي الظاهر بحقيقته في الأخرى.

و الأوفى هنا توحي بان السعي هنا في الصالحات، فغيرها بين مكفرة، او ناقصة عنها، او قدرها و هو الوفي، و الأوفى تشير الى زيادة أقلها عشر أمثالها:

«مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها» فالأوفى في هكذا اطلاق يعنى أوفى من سعيه و من كل جزاء يتصور كضابطة عامة في جزاء الحسنات، بخلاف السيآت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 457

التي يجزاها صاحبها- فيما يجزى- الجزاء الوفي او دونه، فان الأوفى فيها ظلم، بخلافه في الحسنات فانه فضل.

و «ثم» علها اشارة الى التراخي بين الجزاء في الأخرى، عن البرزخ و الاولى، طالما رؤية السعى كذلك من جزاءه.

«وَ أَنَّ إِلى‏ رَبِّكَ الْمُنْتَهى‏» و كما أن منه المبتدء، فهو المنتهى في المهمات و الملمات، و اليه الرجعى في كل القضيات، لا يملك معه أحد شيئا إلا باذنه.

كما «وَ أَنَّ إِلى‏ رَبِّكَ الْمُنْتَهى‏» في التفكير و الاكتناه، فكل شي‏ء يجوز فيه التفكير علك تعرفه بكنهه، او قدر ما تحاول، إلا اللّه، فلا تنفعك عميقات التفكير في ذاته و صفاته‏ «1» إلا حيرة و ضلالة و بهوة، و كما

يروى عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «تفكروا في الخلق و لا تتفكروا في الخالق فانكم لن تقدروه» «2»

«... فتهلكوا» «3».

وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبْكى‏:

ان هذا النبأ و ما قبله و بعده- و هي إحدى عشر نبأ- كلها مما نبئ بها في صحف ابراهيم و موسى، ذات صلة قريبة ام بعيدة بدحض الوهم المسبق ممن يزكي نفسه و يلقي وزره على غيره، و يتولى عما يتوجب عليه.

فالإضحاك و الإبكاء هما- مبدئيا- من اللّه، فقد خلق ما منه يضحك او

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

التوحيد للصدوق عن زرارة قال‏ قلت لابي جعفر (ع): ان الناس قبلنا قد أكثروا في الصنعة فما تقول؟ فقال: مكروه، اما تسمع اللّه عز و جل يقول: «وَ أَنَّ إِلى‏ رَبِّكَ الْمُنْتَهى‏»،

(2)

الدر المنثور 6: 130 أخرجه ابو الشيخ عن ابن عباس قال: مر النبي (ص) على قوم يتفكرون في اللّه فقال: ...

(3)

«أخرجه ابو الشيخ عن أبي ذر قال قال رسول الله (ص) تفكروا في خلق الله و لا تفكروا في الله فتهلكوا»

أقول: و فيه أحاديث كثيرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 458

يبكي و حالة الضحك و حالة البكاء، مهما كان للإنسان صنع فيهما، فإنهما و إن كانا من سائر الأفعال الاختيارية، لا ينقطعان عن ارادة اللّه، الذي هو و إليه المنتهى، و أما غير الاختياري منهما فالأمر فيهما واضح.

فاللّه أنشأ للإنسان دواعي الضحك و البكاء في تركيبات نفسية و عضوية، و ظروف خارجية او داخلية يضحك منها او يبكي، فهما من أسرار التكوين البشري، كالألوف من أضرابهما.

وَ أَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَ أَحْيا: فإنه خلق الموت و الحياة كسائر الخلق، مهما كان للإنسان حيلة أو محاولة للموت، فلن تكون للحياة!: «خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» و أنى للإنسان أن ينشئهما، و هو حتى الآن حائر في حقيقتهما و بواعثهما و أسرارهما، ترى بعد انه خالق لهما و لا يدري ما هما؟

و من أين؟ و كيف؟ و متى؟ و لماذا؟!.

وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى‏. مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى‏ عدم ذكر الخنثى التي لا هي ذكر و لا أنثى أو يجمعهما، إنه يدلنا هنا في مقام استعراض الخلق، أن الصنفين هما الحاضران لا ثالث لهما، و لا برزخ بينهما، و كما في سائر الآيات المستعرضة لهما، و موقع الزوجين هنا و في غيرها، دون ازواج ثلاث، يؤكد ذلك الحصر، فالخنثى هي في الواقع إما ذكر أو أنثى و قد تظهر حقيقتها بعملية الجراحة.

ثم النطفة إذا تمنى: تقدر بالقدرة الإلهية، ضمن تقدير المني:

«أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى‏» (75: 37) فالمني هو التقدير، و هو هنا تقدير المني في ذاته و صفاته و أفعاله و انفعالاته، و منها انبثاقه الى قعر الرحم، ثم تقدير نطفة من المني لكي يبدأ منها الجنين دون زملائها، فغير المقدّر من مني او نطفة لا يصبح جنينا، و يا لهذه الخلية الميكروسكوبية السابحة هي و ملايين أمثالها في نقطة واحدة من مني يمنى، يا لها من أعجوبة في ملايين من عجائب التكوين، أين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 459

كانت كامنة بما تملكها من ميزات؟ و اين خصائص الذكورة او الأنوثة، و الوراثة ام ماذا؟! «1».

وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى‏:

النشأة الأخرى هي الإحياء مرة أخرى في الأخرى، و كما أحيا في الأولى ..

«ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» و هي النشأة الأولى، فتلك النشأة كهذه، ليست إلا عليه تعالى لا سواه، فإليه الإياب و عليه الحساب، و هو المالك يوم الدين لا سواه.

فتلكم النشأة عليه واقعا و فرضا، واقعا لأنه الخالق المنشئ للمنشئات، لا خالق سواه، و فرضا بما وعد «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى‏» و بما فرض و كتب هو على نفسه من الرحمة عدلا و فضلا لا سواه: «كَتَبَ عَلى‏ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ» (6: 12) «ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ» (29: 20) كما و عليها من النشأة الأولى دليل على إمكانيتها و فرضها «وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى‏ فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ» (56: 62). تذكرا بواقعها، لا علما بحقيقتها:

«عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ» (56: 61) فان الإنشاء و لا سيما في الأخرى، هو من ملكوت علم اللّه.

و ترى إذا انحصرت النشأة- و هي مرة منها- في الآخرة و الأولى، فأين إذا النشأة الوسطى: الحياة البرزخية؟

أقول: إنها استمرارية للحياة الدنيا، فليس الموت إلّا انفصال الروح ببدنها البرزخي عن هذا البدن، دون أن تنشأ هناك روح او يخلق بدن، ثم في الأخرى يخلق البدن مرة أخرى و تنشئ فيه الروح نفخا، بعد أن أصبح البدن رفاتا، و أصبحت الروح في القيامة الأولى في صعقة كالموت، إلا من شاء اللّه:

«وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ» (39: 68)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ص 364 من الفرقان الجزء الثلاثين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 460

وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنى‏ وَ أَقْنى‏ و الإقناء هو الإرضاء بالقنية الكفاف، فهو الذي أغنى الأغنياء و أقنى الأقناء غنى المال و الحال، حالا في الاولى او مآلا في الأخرى، كذلك و قناهما فيهما او أحدهما، مهما كان للإنسان محاولة فيهما، فهما لا تحصلان إلا بارادة اللّه فكم من غني لا يحاول إلا قليلا و كم من فقير هو في محاولة دائبة إلا قليلا، و لكي نعلم ان:

ازمة الأمور كل بيده و الكل مستمدة من مدده، و لا يعني ذلك ابطال المساعي، و انما بطلان استقلال الساعي.

و لا تعني الآية انه تعالى أغنى كل فقير، او اقناهما «و إنما الغني الذي استغنى باللّه، بمال او منال او حال، أو هو و الفقير الذي رضي بما آتاه اللّه، من قليل او كثير، فغير الراضي منهما عما أوتي، أو الغني بمكاسب السوء، لم يغنه اللّه رغم غناه، و لم يقنه لأنه ما قنى.

أو يقال: إن الغنى كلها من اللّه، و ان كانت من غير حل، إذ لم يمنع عن واقعها، مهما لم يرض بها، فلو أراد اللّه تعالى تكوينا تحقيق ما أراده تشريعا لا فقر من يبغي الغنى من غير حله.

و كما أن القنى كلها من اللّه، سواء الحقيقة منها كما في المخلصين من عباد اللّه او النسبية كما في كثير من الناس فقراء او أغنياء، إذ يقنون بما أوتوا، رغم آمالهم و محاولاتهم في الاستزادة، و ان حالة القنى: الرضا بما عندنا، من مال او حال او منال، انها لمن أعظم النعم، كما و ان فقدان القنى، سخطا خالصا و يأسا بائسا لا رجاء فيه و لا أمل، انه من اكبر النقم، اللهم أغننا بغناك و أقننا بقناك، في الحال و المال بحق محمد و الآل صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى‏ ترى لماذا اختصت الربوبية هنا بالشعرى؟ أ لأنها نجم أثقل من شمسنا بعشرين مرة، و نورها خمسون ضعف نور الشمس، و هي أبعد عنا بمليون ضعف؟!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 461

و هناك أنجم أثقل و أضوء و ابعد منها عنا بملايين الأضعاف!.

الجواب: ان الآية لا توحي باختصاص، و إنما لأن الشعرى كانت معروفة منذ القرون الأولى دون غيرها، و انها كانت معبودة لأقوام، كخزاعة و حمير، و كانت ترصد كنجم ذي شأن، و ان السورة بدأت بالنجم إذا هوى، لذلك يقول هنا «وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى‏» تنديدا بمن يعبدها و يرصدها، انتهاء للجولة بما ابتدئ فيها، رغم اختلافهما، ان ذلك نجم الرسالة و القرآن، و هذا نجم عبدت من دون اللّه، فالنجم الأول رسول من اللّه ليزيف مكانه الثاني، تثبيتا للربوبية المطلقة الإلهية، و الشعرى هذه هي اليمانية المضيئة المعبودة، لا الشامية.

وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى‏. وَ ثَمُودَ فَما أَبْقى‏. وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغى‏. وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى‏. فَغَشَّاها ما غَشَّى. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى‏.

جولة في مصارع أربعة من الغابرين، لتكون ذكرى للحاضرين و من يتلوهم، فيكفوا عن مظالمهم، فكل غابر ذكرى لكل حاضر تبشيرا و إنذارا.

فعاد الاولى هم قوم هود (ع) و ثمود هم قوم صالح، فما أبقى منهم باقية:

«فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ» (69: 8) اللهم إلّا المؤمنة: «وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ» (41: 18). «وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ» عاد و ثمود «إنهم» قوم نوح‏ «كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغى‏» من عاد و ثمود و من سواهم منذ وجد الإنسان إلى زمن نزول القرآن. إذ لا يعرف تاريخ الرسالات قوما يدعوهم نبيهم الف سنة إلّا خمسين عاما و هم بعد صامدون في كفرهم، عامدون في ظلمهم، إلّا قليلا نجاهم اللّه مع نوح (ع) بما نجى. «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ص 309 من الجزء الثلاثين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 462

وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى‏: الأقوام الفاعلة الإفك: الصارفة الحق عن وجهه، الجاعلة إياه في هوّات جارفة لكي يخيل إلى الجهال أنه باطل، الرافعة أعلام الباطل بمظاهر الحق تمويها أنه الحق، فهم- إذا- سائر الأقوام المكذبة بآيات اللّه، التي أهواها اللّه يوم الدنيا، إذ أسقطها في مهاوي و مساقط بمختلف العذاب، فلا تختص إذا بقوم لوط، المؤتفكة المنقلبة قراهم، لأنها مفعولة الإفك «المؤتفكة» و ذلك فاعلته «المؤتفكة» فأولاء هم الذين ائتفكوا لو قلبوا الحق باطلا، أيا كانوا من كفار التاريخ من الذين أهواهم اللّه بعذابه يوم الدنيا قبل الآخرة: «وَ قَوْمِ إِبْراهِيمَ وَ أَصْحابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكاتِ» (9: 70) «وَ جاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ الْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ» (69: 9) فان القرى المؤتفكة ليست بخاطئة!.

و علّ المؤتفكة الفاعلة هنا تشمل المنفعلة أيضا، من ديار الأفاكين الطاغين:

و لأنه انفعال يجب كونه فعلا، بما ان الإفك هو القلب و الصرف، إن من الآفكين باطلا، أو من اللّه حقا جزاء لهم وفاقا، إذ أفك و قلب ديارهم فأتفكت، و أهواها اللّه تعالى فانجرفت، كما في ديار قوم لوط و عاد و ثمود و اضرابهم من السابقين و اللاحقين، مثل البصرة على حدّ تعبير

أمير المؤمنين (ع): «يا أهل البصرة يا أهل المؤتفكة ..» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ...

يا جند المرأه و اتباع البهيمة، دعا فأجبتم و عقر فانهزمتم، فانكم زعاق و أديانكم رقاق، و فيكم النفاق، لعنتم على لسان سبعين نبيا، ان رسول اللّه (ص) اخبرني ان جبرئيل أخبره انه طوى له الأرض فرأى البصرة اقرب الأرضين من الماء، و أبعدها من السماء، و فيها تسعة أعشار الشر و الداء العضال، المقيم فيها بذنب، و الخارج منها برحمة. و قد ائتفكت باهلها مرتين و على اللّه الثالثة و تمام الثالثة في الرجعة (نهج البلاغة).

و

في الكافي عن علي بن ابراهيم باسناده الى أبي عبد اللّه (ع) في‏ «وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى‏» قال: هم اهل البصرة، و هم المؤتفكة، و المؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات، قال: أولئك قوم لوط ائتفكت عليهم اي انقلبت عليهم،

أقول و هذا من تفسير المصداق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 463

فَغَشَّاها ما غَشَّى‏: «غشى» اللّه إياها «ما غشى» من عذاب الهاوية، فكما غشوا هم الحق فاهدوه، كذلك اللّه غشاهم بما غشوا جزاء وفاقا، و ذلك من آلاء اللّه للمؤمنين على الكافرين:

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى‏؟ فان كلا من هذه الأنباء المذكورة هنا، و في صحف ابراهيم و موسى، إنها من آلاء ربك: نعم الربوبية البالغة الشاملة، فمن ذا الذي يتمارى فيها تشككا و ارتيابا.

و الخطاب في «تتمارى» عله لكل من يصح خطابه، تنديدا بمن يتمارى منهم، و تسديدا لمن لا يتمارى، او أنه خطاب للنبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ب «إياك أعني و اسمعي يا جارة» أو استفهام تقرير له إذ يقر بآلاء اللّه كلها، و لكي يقرر لمن سواه، فانه نذير لمن مضى:

هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى‏: هناك طوال تاريخ الرسالات نذر، من الأولى و الوسطى و الأخرى، كتبا و رسلا، و ترى هذا النذير هل هو القرآن، او نبي القرآن، او هما على البدل؟ مع العلم أن النذر غير الأولى أولى من الأولى فيمن عليهم دارت الوحى، اولي العزم من الأنبياء.

علّ الأولى هنا لا يعني الأولى زمنا، و انما الاولى مكانة، فكما أن محمدا هو أول العابدين: «قل إن كان للرحمان ولد فانا أول العابدين» (43: 81) كذلك هو من أولى النذر و أولاهم: أولي العزم الخمسة الذين هم مدار الرسالات كلها، كما القرآن النذير «لَإِحْدَى الْكُبَرِ. نَذِيراً لِلْبَشَرِ» (74: 36).

فهذا النبي الكريم، و بقرآنه العظيم‏ «نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى‏» و هم الأولى تبشيرا و إنذارا: الخمسة العظماء، إنه منهم في أصالة الإنذار، و الرسالة الأصيلة العالمية، و الشريعة المستقلة، فليس بدعا من الرسل: «قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ» (46: 9) إذ نبئ كما نبئوا، و أرسل كما أرسلوا، و دعى إلى اللّه و الصالحات كما دعوا، اللهم إلّا أن فيه و في قرآنه المبين، و تبيانه المتين، فيها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 464

زيادات خالدات، و ميزات بارزات، تستحكم فيها عرى النبوات و قواعد البشارات و النذارات، كأنه البشير النذير لا سواه: «وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ» (15: 89) «تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى‏ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً» (25: 1).

و قد تعني الأولى فيما تعني هنا كل من سوى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الرسل، فهو رسول آخر الزمن و هم لأول الزمن الممتد من أوّل النبيين الى المسيح (ع) ف «هذا» محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى‏» من حيث أصل النذارة لا درجة الرسالة و النذارة، فليس بدعا من الرسل و النذر.

و قد تعني الأولى- النذارة- في الذر الأوّل‏ «1»، إذ أخذ اللّه فيه ميثاق عباده على الايمان به‏ «2» و إذ أخذ الميثاق من أنبيائه‏ «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ ..»

فمحمد في الميثاق الأوّل كان من النذر، دون أن يكون بدعا من الرسل، و في الميثاق الثاني كان نذيرا و رسولا للرسل‏ «3».

فهو أولى النذر و أولاهم زمنا- أم ماذا- في الذر، و مكانة طوال الزمن، فهو رسول الزمن، و في آخر الزمن، تمتد رسالته و نذارته إلى أن:

أَزِفَتِ الْآزِفَةُ. لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ:

- «وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ» (40: 18).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير القمي باسناده إلى أبي عبد اللّه (ع) في الاية قال: ان اللّه تبارك و تعالى لما ذرأ الخلق في الذر الاول أقامهم صفوفا قدامه، و بعث اللّه محمدا (ص) حيث دعاهم، فآمن به قوم و أنكره قوم، فقال اللّه عز و جل: «هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى‏» يعني به محمدا (ص) حيث دعاهم الى اللّه عز و جل في الذر الاول، و روى ذيله في بصائر الدرجات عنه (ع).

(2) ستجد تفصيل البحث حول الذر في آية الذر العام‏ «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى‏ ...».

(3) كما تدل عليه الآية: «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ: أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى‏ ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 465

و بما أن الأزف هو الدنوّ القريب، فالقيامة الكبرى الموصوفة بالآزفة قريبة إلينا لوقت ضيق، قربا نسبيا للخلائق منذ نزول القرآن، فليكن الزمن ماضيا أكثره الكثير، و باقيا أقله القليل، و كما برزت أشراط من الساعة، و منها البعثة المحمدية صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما و منها انشقاق القمر في زمنه، و كمعجزة له: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ. وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» (54: 2).

و في أزف الآزفة إيحاء إلى قرب لها مضاعف، فإنها: قرب القريبة، كانت قريبة فزادها اللّه قربا، أو أن وصفها ب «الآزفة» إيحاء بأنها «آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها»- و كل آت قريب- و علّهما معا معنيان و هو جمع قريب.

ثم و هذا القرب لا يعني سنة أو عشرا أو ألفا و آلاف، لكي يستغرب:

كيف أزفت قبل أربعة عشر قرنا و لمّا!!، و إنما قرب نسبي قياسا إلى مجموعة الزمن، منذ خلق العالم إلى قيام القيامة، أو منذ خلق الإنسان أيا كان، أو هذا الإنسان، فحين نزول القرآن أزفت الآزفة قربا، و اقتربت كاسحة جارفة مكشوفة:

لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ نفس كاشفة «1»، على انوثة التاء، و مبالغ في الكشف على مبالغتها كالعلّامة، لا كاشفة كشف الظهور و الجلاء، ف:

لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ (7: 187) و لا كشف الغطاء عما قدمت أيدينا:

«لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (50: 22) و لا كشف البلاء: «رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ» (44: 12).

فكشف الجلاء و الغطاء و البلاء ليست هناك إلّا للّه، فيكشف السوء هناك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و يجوز اطلاق النفس على اللّه: «تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ» و اين نفس من نفس، و لا يقصد منها هنا الا الذات.

(الفرقان- م 30)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 466

كما هنا عمن يشاء: «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ» (27: 62) و يدعه على من يشاء و هم لا يظلمون.

أَ فَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ. وَ تَضْحَكُونَ وَ لا تَبْكُونَ. وَ أَنْتُمْ سامِدُونَ‏.

توحي آية العجاب أن هناك من كان يعجب من حديث الوحي، و يضحك منه هازئا، فهل إن أنباء قارعة العذاب، و ما ينتظر الناس من حساب، إنها يضحك منها و تثير العجاب؟ بدل البكاء و الاضطراب، فمم تعجبون؟ و على م تضحكون‏ «1» «وَ أَنْتُمْ سامِدُونَ»: لاهون رافعون رؤوسكم كالبعير السامد، فبم تتكبرون، و مم تفتخرون؟ و ما أنتم إلّا فقراء صاغرون:

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا.

من آيات السجدة الواجبة «2»، و قد خوطب فيها من خوطب: المشركون الضاحكون السامدون، و تقول الروايات إنهم كذلك سجدوا كما المسلمون‏ «3»، علّها طاعة للّه في تلك اللحظة الحاسمة طوعا، أو كرها إذ لم يتمالكوا أنفسهم، سجدوا تحت وطأة المطارق الهائلة الواقعة على قلوبهم، من أنباء الواقعة الطامة، فلم يملكوا مقاومة وقع القرآن، مهما قاوموا واقعة الوحي، فلم تجاوب مساجدهم قلوبهم المقلوبة، فسجدوا و هم كارهون ناكرون!. و ليس هذا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تقول روايات هنا: لما نزلت الآية ما ضحك النبي (ص) بعد ذلك إلا أن يتبسم حتى ذهب من الدنيا، و عل مختلقيها قد يستندون أيضا الى الآية: «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً» و لكنما الآيتان موجهتان الى المشركين بما لهم من اعمال مبكية، دون الرسول الطاهر الأمين، فما عليه إذا ضحك مستبشرا رحمات اللّه دنيا و عقبى، و من صفات المؤمن: بشره في وجهه و حزنه في قلبه.

(2) راجع ج 2 من الجزء الثلاثين ص 369- 370، و الآيات الباقية الواجبة فيها السجدة هي آيات العلق و فصلت و السجدة.

(3)

الدر المنثور 6: 132- اخرج البخاري و الترمذي و ابن مردويه عن ابن عباس قال: سجد النبي (ص) في النجم و سجد معه المسلمون و المشركون و الجن و الانس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 467

فريدا في نوعه، فكم له من نظير، من أثر القرآن على من لا يصدقه و هو له نكير، كما اقشعرت جلود الوحيد الوليد و قامت كل شعرة على جسده إذ سمع آيات بينات يتلوها الرسول البشير النذير، ثم و ما ملك نفسه إلّا أن يعترف في حقه انه يؤثر بجنب ما ادعاه من باطل «إنه سحر» و ما الأثر و البقاء إلّا من ميزات المعجزات فإن السحر يفنى فلا يؤثر.

و آية السجدة هذه علّها آكد الأربع الآمرة بها، و لأنها تثنّيها بعبادة اللّه عامة بعد الأمر بأبرزها خاصة: السجدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 468

سورة القمر- مكية- و آياتها خمس و خمسون‏

[سورة القمر (54): الآيات 1 الى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3) وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4)

حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ (5) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى‏ شَيْ‏ءٍ نُكُرٍ (6) خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ (7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ (8)

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ.

بما أن الاقتراب هو زيادة القرب، و الساعة- حين ما تطلق- هي القيامة الكبرى، إذا فاقتراب الساعة هو زيادة قربها كما تعنيه: «أَزِفَتِ الْآزِفَةُ» و لا صلة بين انشقاق القمر و اقتراب الساعة، إلّا كونه من أشراط و علائم قربها، كما و أن فرية السحر هنا: «وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» لا تناسب إلّا كون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 469

الانشقاق آية لنبي الساعة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا فهو آية في وحدتها تعني آيتين، آية لاقتراب الساعة و آية لنبيّ الساعة، و قد توحي هذه الآية أنهم طلبوا منه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آية تثبت لهم دعواه: أنه نبي الساعة، فانشق القمر بإشارة منه ثم التحق، كخارقة عظيمة إلهية، يحملها هذا المطلع الباهر المنير، نسبة إلى الرسول البشير النذير، آية ماضية قرب الساعة، متهمة بالسحر.

إذا فليست هي اشتقاق القمر من الأرض، تدليلا على نظرية أخيرة متأخرة، فإنها لو صحت هناك علميا لم تصح هنا قرآنيا، فالانشقاق هو تقطع الشي‏ء في نفسه، و الاشتقاق هو انفصال شي‏ء عن آخر، فأين اشتقاق من انشقاق؟.

ثم الاشتقاق لو كان، فهو من آيات القدرة الإلهية المطلقة منذ الخلقة فلا تحمل فرية السحر!، و الإنشقاق هذا من آيات النبوة الختمية و أشراط الساعة و قد اتهم بالسحر فأين آية من آية، إضافة إلى عدم ثبوت فرضية الولادة: «الاشتقاق» و قد تنافيها آيات الخلقة كما ندرسها في طياتها.

كما و ليست هي من حوادث الساعة، فإن هذه ماضية: «وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ» و تلك مستقبلة «تنشق القمر» و أن حوادث القيامة لا تنسب إلى سحر، أبعد القيامة؟ و المؤمن و الكافر يؤمنون بها سواء!- و إن لم ينفع الكافر إيمانه- ام قبل القيامة؟ و الإخبار عن المستقبل لا ينسب إلى السحر، اللّهم إلا الكذب، و إنما هو عمل حاضر يخرق العادة: ف: اقتربت ساعة القيامة و انشق القمر آية للساعة و آية لنبي الساعة، مهما ينسبونها إلى السحر، رغم ان السحر لا يستمر و كما لا يؤثر.

فآية انشقاق القمر هنا آيتان، و كل لزام بعض، تلتقيان في التدليل على أن رسالة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هي خاتمة الرسالات، لا تتلوها إلّا الساعة كما قال: «أنا و الساعة كهاتين»: السبابة و الوسطى، و «أنا نبي الساعة»: إن زمن رسالته هو منذ نبّئ حتى الساعة، و قد استجابه اللّه تعالى في هذه الآية عن اقتراح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 470

المشركين‏ «1» لحكمة تثبت الخاتمية، لا اتباعا لاهوائهم، اللّهم إلّا فيما تلتقي الحكمة الإلهية بتحقيق آية، مع اقتراح الناكرين. إذا فتحقيق هذه الآية المقترحة لا يتنافى و الآيات التي تنافيها: «وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَ آتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَ ما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً» (17: 59): «و قالوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ... قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا» (17: 93)، فإنها لا تنفي إلّا الآيات المقترحة التي لا تنفع فلا تثبت شيئا، دون شق القمر الذي هو آية ختم الرسالة، و أنه نبي الساعة.

و كما لا يتنافى كفاية القرآن آية خالدة تفوق الآيات كلها في التدليل على حق الرسالة، و لأنه الآية الواقعية العينية على أنها خاتمة الرسالات- لا أصلها فقط- تجاوبا مع الآيات القرآنية الدالة عليها: «ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ» (33: 40).

ذلك، إضافة إلى آيات عينية اخرى كالمعراج و أضرابه، كآيات عابرة صغرى، تؤيده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في آيته الكبرى «القرآن» لمن غرب عقله و أصبح كالحيوان لا يصد إلّا المحسوس، و لا ينحو إلّا منحى الملموس، فقد جمعت له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى آيته الخالدة الكبرى، آيات تشابه آي النبيين، مؤيدات لآيته- لا أصيلات- في التدليل على رسالته.

و أخيرا لا تلمح آية الإنشقاق بكونها مقترحة، بل انها اصيلة مقصودة، قد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 133- اخرج ابو نعيم في الحلية من طريق عطاء و الضحاك عن ابن عباس في الآية قال: «اجتمع المشركون على عهد رسول الله (ص) منهم الوليد بن المغيرة و أبو جهل بن هشام و العاصي بن وائل و العاصي بن هشام و الأسود بن عبد يغوث و الأسود بن المطلب و زمعة بن الأسود و النضر بن الحارث فقالوا للنبي (ص) ان كنت صادقا فشق لنا القمر ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 471

كانت لها ساعة مقررة هي اقتراب الساعة، و التدليل على خاتمية نبي الساعة، مهما صادفها اقتراح المشركين، و الآيات النافية لتحقيق الآيات المقترحة تعني نفي لعبة الافتراح، و تؤصّل أصول الحكمة في تحقيق الآيات المعجزات، و من أبرزها في صنوف الآيات المحسوسات آية انشقاق القمر.

و هذه الآية لاقتراب الساعة، آية اقترابها واقعيا، لأن انشقاق القمر من بوادر انسحاقه يوم الساعة، و عقليا، لأنه يدل على إمكانية خراب العالم، فقد اقتربت الساعة عقليا و واقعيا حين انشق القمر، و ما حديث امتناع الخرق و الالتيام إلّا خرافة اللئام، تكذبه فيما تكذب خرق المعراج و انشقاق القمر، و كما العلم يسفّه أحلام السابقين المانعين عن خرق الأفلاك و التيامها، و يثبت خرقه للقواعد العلمية، متجاوبا آيات الخرق و الالتيام؟.

وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ.

لا صلة لهذه الآية بالمسبقة إلا أن تكون شق القمر آية للرسالة، تتهاجم عليها فرية السحر و أضرابها، فقد رأوا آية الإنشقاق بأم أعينهم فأعرضوا عن حجتها إلى إبطالها بمقالة كافرة جاهلة تعودوها في آيات الرسالات كلها: «سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ»: مستمر طيلة الدعوة المحمدية، و مستمر عبر سائر الرسالات الإلهية، مستمر زمنا، مستمر قوة و شدة، يملك قوة زمنية و ذاتية، فإن السحر كيفما كان لا يؤثر في السماء!.

هذا! و كما قال وليدهم الوحيد عن آية القرآن‏ «إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ» فهم يقولون هنا و هناك: «سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» و ترى إذا كان سحرا فكيف يؤثر و كيف يستمر؟. و من ميزات السحر أن يندثر و لا يستمر، و لا سيما إذا أتي به في مقام الإعجاز فإن اللّه سيبطله: «ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ» (10: 81) فلا يملك هكذا سحر إلّا ازدواجية البطلان:

ذاتيا و بإذن اللّه!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 472

وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ.

كذبوا بآية الإنشقاق و سواها، و اتبعوا في نكيرهم المتواصل أهواءهم، إذ سامحوا عن عقولهم و ضمائرهم، و لكنهم مهما كذّبوا لا يستطيعون إمحاء الحق عن مقره، و إزالته عن مستقره، فإن للحق دولة و للباطل جولة «وَ كُلُّ أَمْرٍ» من اللّه «مستقرّ» فيما أقره اللّه، دون تزعزع و اضطراب، و ليس على أهوائهم الهاوية، و محاولاتهم الخاوية، فالحق لا تتجاذبه الأهواء، و ناكروه إلى هواء و هباء.

و قد يشمل «كل أمر» كلّ أمر من الأمور: أشياء و أفعالا، و من الأوامر، و من حق أو باطل، فكلّ أمر من هذه الثلاث يستقر في مستقره، فيتبين حقه من باطله، إن في يوم الدنيا او في يوم الدين، فالأمور و الأوامر الإلهية تستقر في مستقرات الحق بما تملك من حق و من براهين الحق، ثم الأوامر و الأمور غير الإلهية المتحللة عن الوحي و العقل، إنها تستقر في مستقرات الباطل و ثغراتها و سقراتها دنيا و عقبى، فالحق يبقى حقا كما بدء «حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً» (25: 76).

و الباطل يزول زاهقا كما بدء: «إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً» (25: 66) «وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ» (54: 38).

و من الأمور المستقرة هنا أمر التصديق و التكذيب بالآيات الإلهية- كسائر الأفعال و الأقوال- فإعراضهم، و قولهم: «سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» و تكذيبهم و اتّباعهم أهواءهم، كل ذلك أمر مستقر، و كما الحق يستقرّ، و «لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏»: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً» (3: 30).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 473

ثم إن آية الإنشقاق مما تناقلته الألسن الصادقة، و الأحاديث المتواترة «1» ما يحيل تأويل الآية إلى غير ظاهرها، و كما تحيل الآية ذاتها كلّ تأويل لا يجاوبها، فكل تأويل عليل ما لم يجاوبه حق الدليل.

و مما يريب الناس هنا، أن الانشقاق هذا- كآية سماوية باهرة- لو كانت واقعة، لرآها الناس جميعا، في مشارق الأرض و مغاربها، و تناقله المنجمون الراصدون، و الباحثون عن الأوضاع السماوية، و المؤرخون، كما تناقلته الرواة المسلمون، فإنها حادثة كونية عظيمة، فكيف انحصرت برواة المسلمين؟!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد روى حديث الانشقاق جماعة كثيرة من الصحابة كعلي (ع) و انس و ابن مسعود و ابن عباس و حذيفة و جبير بن مطعم و ابن عمر و غيرهم، ممن حضر الانشقاق او لم يحضروه أخرجه عنهم أرباب الجوامع و المسانيد و الحفاظ، فمن أخرجه: البخاري و مسلم و ابن مردويه و ابو نعيم البيهقي في الدلائل و ابن جرير و الطبراني عن ابن عباس و اخرج عبد بن حميد و الحاكم و صححه و ابن مردويه و ابو نعيم و البيهقي في الدلائل من طريق مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود و البخاري و مسلم و الترمذي و ابن جرير عن أبي معمر عنه و اخرج احمد و عبد بن حميد و الترمذي و ابن جرير و الحاكم و ابو نعيم و البيهقي عن جبير بن مطعم و عبد الرزاق و احمد و عبد ابن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الترمذي و ابن مردوية و البيهقي في الدلائل و البخاري و مسلم عن انس و اخرج مسلم و الترمذي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و الحاكم و البيهقي و أبو نعيم من طريق مجاهد عن ابن عمر و أخرج ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و عبد اللّه بن احمد في زوائد الزهد و ابن جرير و ابن مردويه و أبو نعيم عن أبي عبد الرحمن السلمي و ابن المنذر عن حذيفة بن اليمان (الدر المنثور 6: 132- 134).

و في تفسير روح البيان ج 9: 263- قال الطيبي أسند أبو إسحاق الزجاج عشرين حديثا الا واحدا في تفسيره الى رسول اللّه (ص) في انشقاق القمر، و في شرح الشريف للمواقف: هذا متواتر رواه جمع كثير من الصحابة.

هذا و قد روى أكثر من هذا بكثير محدثو الشيعة عن أئمة أهل البيت (ع) مثل،

في امالي الشيخ باسناده عن عبيد اللّه بن علي عن الرضا (ع) عن علي (ع) قال: انشق القمر بمكة فلقتين فقال رسول اللّه (ص) اشهدوا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 474

و غير مقبول و لا معقول أن غير المسلمين كافة، أجمعوا على تجاهلها، أ لكيلا تثبت معجزة إسلاميا! فلم يكن لهم خبر مسبق عن هذه المعجزة، لكي يلحقها التجاهل و النكران! و إنما ظهرت لأهل الأرض كسائر المظاهر السماوية، اللهم إلا لمن طالبوا بها الرسول كآية من آيات الرسالة، و هم قلة قليلة ممن كانوا بمكة.

هذا- إلّا أن زمن الإنشقاق- كما يروى- لم يكن إلّا يسيرا، لا يراه الكثير، إلّا قليل ممن يفحص عن أحوال الكواكب، في الآفاق التي توافق أفق مكة المكرمة «1» ضرورة اختلاف مطالع القمر باختلاف الآفاق، و الاعتناء بأمر الإرصاد لم يكن بمثابة اليوم، و بلاد الغرب المعتنية بهذه الشئون نائية عن مكة المكرمة، و قد كان القمر- حين انشق- بدرا، طالعا بعد غروب الشمس- ليلة البدر- و التأم بعد قليل، ما يقرّب طلوعه- فيما يطلع- بسائر الآفاق بعد التئامه، اللّهم إلّا بعضا منها في غير المغرب، فالذي رآه منهم قد يخطّئ بصره، إذ يراه خلاف السنة الدائبة الكونية، أو يقول:

لعل فصلا ناعما من السحاب الأسود فصل بين القمر، أو انه كسف في نصفه‏ «2» على أن هؤلاء أيضا هم القلة القليلة، فضلا عن الذي لم يره، فإن هكذا رؤية نجومية تتطلب أوضاعا و أوقات خاصة، لم يكن منها الوقت الذي انشق فيه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 123- اخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقي كلاهما في الدلائل من طريق مسروق عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد النبي (ص) فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، فقالوا: انتظروا ما يأتيكم به السفار فان محمدا لا يستطيع ان يسحر الناس كلهم فجاء السفار فسألوهم فقالوا: نعم قد رأيناه، فأنزل اللّه‏ «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ».

(2) و يؤيده، أخرجه الطبراني و ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: كسف القمر على عهد رسول اللّه (ص) فقالوا: سحر القمر- أقول تعبير الكسوف عن الإنشقاق مما يقرب احتمال الكسوف عن واقع الانشقاق، فلعل الذي رآه من غير المنتظرين ظن انه كسف فما نقله لان الكسوف مهما كان هو أمر متكرر غير غريب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 475

القمر، إضافة إلى أن من رآه- إن رآه- من غير المسلمين و المشركين المنتظرين، لم يكن بحسبانه أنه حادثة هامة، فالنجدي يراه من غير سبب حسب تقديره، فلا يحسب له حسابا حتى ينقله، و غيره لا يعرف له موقعا، فالفريقان يتجاوبان في عدم الدافع لنقله، أو إذا نقله ناقل لا يصبح متواترا تاريخيا، أم ماذا؟ مما يحول دون ما يحيل آية انشقاق القمر و كفى!.

و القول إن انشقاقه يبطل سيره و تجاذبه، فتنصدم النجوم وقته، و تختل الكائنات قدره، إنه ليس إلّا تقولا بعيدا عن العلم و الإيمان، ترى إن محرك القمر قبل انشقاقه، يعيى عن تحريكه بعده، أو أن خالق الجاذبية الذاتية و الخارجية فيه يعجز عن إدمانها حالة الإنشقاق، و لذلك التأم، فمم- إذا- الانصدام، و لماذا الاختلال، اللّهم إلّا اختلال أدمغة الشاكين المرتابين.

كما أن الروايات التي تجعله شقين داخلين في كمي رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أو على جبلين من جبال مكة، هي خرافات جارفة، لا تقصر عن المسبقة من تشكيكات، فنحن كمسلمين لسنا بمصدقين إلّا تصريحة الوحي: «وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ» أو ما يشرحه ملائما له، و أما نزول الشقين على جبلين، او في كمين، أم ماذا؟ فهي من زيادات الطائشين المتطاولين، و لأن في سقوط القمر على الأرض قضاء عليهما، و على الكون أجمع، مهما تحمل العلم سرعة النزول، و تصغير حجم القمر مع بقاء ثقله، و لكي يدخل شقاه في كمي الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم! «1».

و قد يكون انشقاق القمر آية للساعة و نبي الساعة، مما بشر به في البعض من كتابات الوحي، و كما نراه في «نبوءت هيلد» «2»: في النص الأنقلوسي:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و ذلك بازالة الفواصل بين اجزاء و جزيئات و ذرات و أجزائها في القمر، فيصبح قدر ليمونة متوسطة الحجم، الا ان هذه التكلفات المعلمية مهما صحت، فانها لا تصحح الخراب الناتج عن سقوط القمر!.

(2) لقد شرحنا هذه النبوة المبشورة عن النبي «لحمان حطوفاه» في «رسول الإسلام في الكتب السماوية» و هي تحمل بشارات عدة بحق الرسول محمد (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 476

صيهراء شاها و سباه و عرق بها و هاشاطا و شامعا: «انتظر القمر و انشق و أطاع محمدا ثم التأم» و قد يعني الانتظار النظرة التكوينية له مطاوعة لإشارة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بإذن اللّه.

و يا لانشقاق القمر من آية باهرة تختلف عن آيات النبيين أجمعين، في صنوف معجزاتهم الحسية، كما اختلفت معجزته المعنوية الخالدة: القرآن، عن سائر كتابات الوحي، و بينه و بينها بون السماء و الأرض، كما بين آية الإنشقاق السماوية عن آياتهم و كلها أرضية!.

وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ:

لقد جاء هؤلاء الناكرين من الأنباء: الأخبار ذات الفوائد العظيمة، ما فيه مزدجر: الازدجار الاتعاظ، او: محلّ الازدجار، أنباء تحمل كل إنذار و تبشير، أنباء التكوين و التشريع، أنباء من مضى و يأتي ممن خالف شريعة اللّه او طبقها، أنباء تلائم الفطرة و العقول فتصدقانها، من الآخرة و الأولى، هذه التي فيها مزدجر، لمن كان له عقل و بصر، ففي بلاغ الأنباء، و في ترتيبها «حِكْمَةٌ بالِغَةٌ»: فإنها تبتدئ بالمبتدء و تنتهي الى المعاد، كلّ حسب ما تتطلبه ظروف الدعوة، و تتقبله العقول، و كما هنا و في كافة مجالات الدعوة.

فإنها كلها حكمة، و كلها بالغة.

و رغم أن هذه الأنباء كلها «حِكْمَةٌ بالِغَةٌ»: تبلغ العقول و القلوب‏ «فَما تُغْنِ النُّذُرُ» العقول المدخولة و القلوب المقلوبة، فلا تنفتح لرؤية الآيات البينات، فالادّكار و الازدجار لزامه بلوغ الجانبين، لكي يتولد منهما، بلوغ الحكمة و هي حاصلة، و بلوغ المبلّغ إليهم، فرغم حصوله مبدئيا بما خلق اللّه و دبّر «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» إنهم ارتجعوا به الى أسفل سافلين، إذا «فَما تُغْنِ النُّذُرُ» هؤلاء، رغم كونها «حِكْمَةٌ بالِغَةٌ» «فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ» (6: 149).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 477

هذا، و كما ليس في النذر إغناء، حتى فيما يستجيب المنذرون، فإنما هو توفيق اللّه، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، لولاه لم تكف النذر و لم يستجب المنذرون: «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» (28: 56) إلى صراط مستقيم.

فعلى اللّه الحجة البالغة، و على رسول اللّه قول بليغ بآيات بليغة، فإذ لم تنفع هذه و تلك، إذا فالإعراض:

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى‏ شَيْ‏ءٍ نُكُرٍ.

تول عنهم في ذلك اليوم العسيب، لا يوم الدنيا إلّا عند الإياس القاطع عن خيرهم: «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً» (4: 63).

إعراضا توليا عن أذاهم و مقابلتهم بالمثل، و توليا إياهم في عظتهم و قولك في أنفسهم قولا بليغا، فإذا يئست عنهم فاتركهم في طغيانهم يعمهون‏ «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى‏ شَيْ‏ءٍ نُكُرٍ».

أو «تول عنهم» الى «يوم ..» فما عليك بعد إعراضهم بلاغ بعد الذي عانيت في بلاغك، و علّه أقرب من توليه يوم يدع الداع، فإنه حاصل يومه دون أمر أو محاولة، اللّهم إلّا توليا عن شفاعتهم، فإذ لم يسمعوا الى الدعوة يوم الدنيا، لم تنفعهم الشفاعة يوم الدين.

أو «تولّ عنهم» دنيا و عقبى، إذ انقطعت الصلة بينك و بينهم: صلة الدعوة الواجبة هنا إذ أعرضوا، و صلة الشفاعة هناك إذ لا تنفعهم، و الجمع هذا أجمل لأنه أشمل، و فصل «يوم يدع» عن «تولّ» لا يحتمل، فإنه غير فصيح و لا صحيح.

ثم ترى من هو الداع يومه و ما هو الشي‏ء النكر؟ .. الداعي هنا لعلّه اللّه، أو و من يدعو بإذنه، داع متّبع في دعواه: «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً» (20: 108) «مُهْطِعِينَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 478

إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ». «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا» (17: 52) فهو الرحمان المستجاب بحمده، المتّبع من غير عوج في دعوته، الذي تخشع له الأصوات إذ يهطعون إليه:

تصويبا لأعناقهم: «مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ» (14: 43).

و بما أن الدعوة هنا و هناك للكافرين، فهي تجمع دعوة البعث، المكروهة المنكورة لديهم: «يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا» «فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ» (22: 44).

إلى دعوة الحساب فالعذاب النكر، «فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَ عَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً» (65: 18) «ثُمَّ يُرَدُّ إِلى‏ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً» (18: 87) مثلث النكر لمن عاش حياته النكر، نكر بنكر، و أين نكر من نكر؟ نكر ظالم ممن أنكر الحق، و نكر عادل عليه من الحق.

ثم النكر هو الأمر الصعب الدهاء الذي لا يعرف فينكر، فالشي‏ء النّكر الذي يدعوهم اللّه إليه، هو الحياة الحساب العقاب، التي عاشوا نكرانها حياتهم تكذيبا لها، فهم في قيامة الإحياء ينكرونها نكرا و كرها لواقعها الذي لم يكونوا يتوقعونها، و نكرا و جهلا بقدرها و كيفيتها، إذا فهم مدعوون الى مثلثي النّكر من الآخرة و الاولى.

خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ. مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ «1» فهم يدعون الى شي‏ء نكر فيضطرون للإجابة سراعا، حالكونهم‏ «خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ» خشوع الذل: «خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ» (70: 44)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رغم ما فسر به و قيل: «فنقول عنهم» و اذكروا إذ «يخرجون من الأجداث .. يوم يدع الداع» لكي تنذرهم به ... و هذا عجيب في نوعه!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 479

فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا» (21: 97) خشوعا و شخوصا للأبصار و للقلوب سواء: «يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ» (24: 37).

و حال أنهم‏ «يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ»: القبور، المحافظ التي حوتهم و حفظهم من تراب الأرض او ماءها او هواءها، جمّعا فيها او هباء، فهم يخرجون منها بدعوة الرحمن، ضعفاء هزلاء، حائرين مائرين‏ «كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ»:

«يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى‏ نُصُبٍ يُوفِضُونَ» (70: 44) ينتشرون في عرصات المحشر كالفراش المبثوث‏ «يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ».

و حال كونهم‏ «مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ» مصوبين أعناقهم إليه: «وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ» (43: 14).

فالهطوع على الشي‏ء: هو الشخوص بالبصر في ذل و خشوع مع تصويب العنق، و إلى الشي‏ء: هو الإقبال اليه مسرعا خائفا كذلك، و الكفار مهطعون الى الداع بالمعنيين إلا النظر الى اللّه، اللهم إلا نظر الشخوص من بهت و احتيار، الى الهول الواقع و المنتظر.

يَقُولُ الْكافِرُ الخاشع‏ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ عسر خالص دون يسر خلاف ما كنا نزعم، و لم نكن نحسب له حسابا! «1» يَوْمٌ عَسِيرٌ. عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (75: 10) مهما كان للمؤمنين يسيرا فيما هو عسير، إذ يزول عسره للمؤمن، و يزداد للكافر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في روضة الكافي باسناده الى ثوير بن أبي فاختة قال: سمعت علي بن الحسين (ع) يحدث في مسجد رسول اللّه (ص) فقال: حدثني أبي انه سمع أباه على بن أبي طالب (ع) يحدث الناس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 480

[سورة القمر (54): الآيات 9 الى 55]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ (9) فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى‏ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَ حَمَلْناهُ عَلى‏ ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ (13)

تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ (14) وَ لَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (15) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (16) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17) كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (18)

إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (21) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23)

فَقالُوا أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ (24) أَ أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25) سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ (27) وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28)

فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى‏ فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (30) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33)

إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ (34) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35) وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ (36) وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ (37) وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ (38)

فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ (39) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (40) وَ لَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42) أَ كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43)

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَدْهى‏ وَ أَمَرُّ (46) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ (47) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى‏ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48)

إِنَّا كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ (49) وَ ما أَمْرُنا إِلاَّ واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51) وَ كُلُّ شَيْ‏ءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52) وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال: إذا كان يوم القيامة بعث اللّه تبارك و تعالى من حفرهم عزلا بهما جردا مردا في صعيد واحد يسوقهم النور و تجمعهم الظلمة حتى يقفوا على عقبة المحشر فيركب بعضهم بعضا و يزدحمون دونها فيمنعون من المضي فتشتد أنفاسهم و يكثر عرقهم و تضيق بهم أمورهم و يشتد ضجيجهم و ترفع أصواتهم و هو أول هول من أهوال القيامة- الى قوله- فيأمر (الله) ملكا من الملائكة فينادي فيهم يا معشر الخلايق انصتوا و اسمعوا منادي الجبار، قال: فيسمع آخرهم كما يسمع أولهم، قال: فتنكسر أصواتهم عند ذلك و تخشع أبصارهم و تضطرب فرائصهم و تفزع قلوبهم و يرفعون رؤوسهم الى ناحية الصوت مهطعين الى الداع، قال: فعند ذلك يقول الكافر: هذا يوم عسر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 481

. (الفرقان- م 31)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 482

عرض سريع عريض للأمم الكافرة الغابرة، بما فعلوا و افتعلوا و جاه الرسالات الالهية، و ما لا قوه او ذاقوه من كوارث، من قوم نوح و صالح و هود و آل فرعون، الخمسة الكارثة، الواصمة جبين الإنسانية، الماردة عن مثلها، الشاردة عن صراطها، يستعرضهم اللّه تعالى هنا، تسلية لخاطر الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لكي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 483

لا يستصعب ما يلقاه من كفرة قومه، و ليصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، و أولى له أن يصطبر.

يبتدء في هذا العرض بقوم نوح، لأنهم‏ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغى‏ و ينتهي إلى قوم فرعون، ثم يجمعهم و أضرابهم في ضلال و سعر: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ «1».

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ‏: قبل هؤلاء المكذبين بك‏ قَوْمُ نُوحٍ‏: بالمرسلين‏ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (36: 105) فَكَذَّبُوا عَبْدَنا الواصب في العبودية، الصامد في الدعوة، تكذيبا بعد ما كذبوا المرسلين قبله، و متفرعا عليه إذ اعتادوا تكذيب الرسالات الالهية: فَكَذَّبُوا و لكن من؟ عَبْدَنا كأنه العبد لا سواه في مجموع المكلفين، فلم يقل‏ عَبْداً مِنْ عِبادِنا و انما عَبْدَنا فقد كان تكذيبه تكذيبا للّه، واضحا وضح النهار، كذبوه الف سنة إلا خمسين عاما، وَ قالُوا مَجْنُونٌ‏ فيما فعلوا و قالوا، قولة الفعل و القول، و لكنها تختص هنا بالذكر تدليلا على جمعها مجامع التكذيب قوليا و عمليا، فانها أشر و أخطر ما تواجه به الرسالات من الدعايات المضادة الجارفة، إذ تسقط المرسلين عن عيون البسطاء، و دون ان تحمل حجة او شاهدا.

وَ ازْدُجِرَ: علها من قولتهم: ان الجن زجرته: صاحت به عن جموع العقلاء و طردته، او و بلغ به الجنون الى حد زجرته مجننوه ايضا عن جموعهم، فأصبح أجن من سائر المجانين، و كأنهم عقلاء بجنبه، إذ يعمل و يقول مالا يعمله و لا يقوله المجانين ايضا، فقد بلغ من الجنون قمته، و من الزجرة ذروته!.

او ان‏ ازْدُجِرَ استعراض لأهم مخلفات فرية الجنون: أنه إثر هذه الفرية- و بعد ما كررت و ركزت و أخذت مأخذها من نوح طوال الدعوة- انه‏ ازْدُجِرَ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع سورة نوح في ج 29 ص 145 ستجد تفاصيل من دعوته و تكذيب قومه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 484

بما زجره قومه، أن صاحوا عليه و طردوه، و كأنه ارتكب جريمة نكراء، ..

زجروه فازدجر، بدل ان يزدجروا- هم- وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ!.

و علهما معا معنيان إذ تتحملها الصيغة وَ ازْدُجِرَ ازدجارا فعليا من قبل قومه، بعد ازدجاره قوليا: ان الجن زجرته بالمعنيين المسبقين، فأصبح مغلوبا في ثالوث الازدجار فطلب من ربه الإنتصار:

فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فليس من الهيّن أن يتهم رسول كنوح (ع) بهذه التهمة الوقحة، و هو من الكرامة عند اللّه لدرجة كأنه عبده لا سواه «عبدنا» بين عامة المكلفين زمنه.

فينزله قومه الى درك الجنون و أجنه، فيطردونه عن دعوته، و يقصرون لسانه عن تبليغ رسالته، فيصبح مغلوبا على أمره و كأنه لا يحمل رسالة! .. فحق له إذا أن يدعو ربه‏ «أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ»!، و بعد دعائه لهم الطويل الطويل، و حججه عليهم، اللذين تحملها سورتا نوح و هود (ع).

فمهمة الرسالة لا تنتهي إلا بعد بلاغها الأسماع إن نفعت، و بلوغها القلوب كما أريد منها: او بعد إياس الرسول عن تأثيرها في المرسل إليهم: «فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً» فقد انتهى الأمران لنوح، بلاغا في المؤمنين القلة «وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» و فرارا في الباقين الكثرة، إذا فهو مغلوب في مهمته، و عليه ان ينتصر من ربه‏ «فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ»:

يا رب انتصر: انتقم نصرة لرسالتك، لرسولك، لشريعتك، لحقك، فالأمر أمرك، و العبد عبدك، و الرسول رسولك، ثم و لا رجاء في هؤلاء، و لماذا؟

لأنهم كذبوه رغم طول الدعوة، و المصابرة المثابرة على أذاهم، صامدا لاستهزائهم، يرصد فيهم بريق الأمل، و يشيم منهم بارق الايمان، و لكنهم ما زادوا على الأيام إلا عتوا و نفورا، ففزع الى اللّه شاكيا ملتجيا، مستعينا مستهديا، في هؤلاء الذين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 485

عجزت حيلته فيهم، فتجاوب الوحيان، من نوح: «إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً» (71: 27) و قوله تعالى: أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (11: 36) فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ:

و ما أن تم دعاء الإنتصار، ارجاعا لأمر المرسل إليهم إلى المرسل العزيز القهار إذا بأمر الجبار الى الكون ان يعجل بالانتصار، اشارة عاجلة الى عجلته ان تعجل و تخرق عادتها فتغرق هؤلاء الكفار:

فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ. وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى‏ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ترى إن في السماء أبوابا أغلقت على مياهها؟ أقول: نعم و كما لها أبواب لغير الماء، مهما اختلفت أبواب عن أبواب، اختلاف ما خلفها من رحمة او عذاب، فلكل باب حسبه، و لكل فتح حسبه، و عل من أبواب ماء السماء أبواب الجاذبية، و الضغوط الجوية، و الظروف الحرارية: أن سهل سبل بخارها و امطارها حتى لا يحبسها حابس، و لا يكبسها كابس، إزالة للعوائق عن مجاري مياهها فأصبحت كحبيس فتح عنه بابه، او معقول اطلق عنه عقاله.

«ففتحنا» بجمعية الصفات القهارة «أَبْوابَ السَّماءِ» سماء الماء «بِماءٍ مُنْهَمِرٍ»:

غزير متوال جارف غير مجازف، فانهمر بما همرناه و صببناه، ماء ليس من نصيب الأرض رحمة لها، و انما إصابة و دمارا عليها و غرقا لأهلها إلا الصالحين:

إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ.

هذه مياه السماء المنهمرة، ثم تجاوبا بها- بأمر هامرها و آمرها في ذلك الطوفان- مياه الأرض المختزنة فيها، اضافة الى عيونها الظاهرة:

«وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ» كل الأرض «عيونا» و يا لها من عيون! حيث استجابت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 486

كلها دون استعصاء. «1» فاستحالت في هذه التفجرة كلها عيونا: فأصبحت عيونا بتمامها فَالْتَقَى الْماءُ: اختلط ماء السماء المنهمر، بماء الأرض المنفجر، التقيا فوق الأرض‏ عَلى‏ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ: التقاء عال، مسيطر على المغرقين‏ عَلى‏ أَمْرٍ من اللّه‏ قَدْ قُدِرَ على قدره دون فوضى، و انما بحسبان، دون زيادة و لا نقصان، تقدير إلهي محسوب و مقصود، و ليس بسبب اجتماع الكواكب السبعة حول برج مائي، حسب السنة المعتادة، فصادف غرقهم، و انما قدر إلهي أن يلتقي الماء آن، و قد خلف طوفانا عم الأرض و طمّ، فعنده تم أمر اللّه‏ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11: 44) فلو كان ذلك الالتقاء فوضى لما أبقى أحدا، و لانجرفت الأرض الى المحو الكامل، و لكنه‏ «عَلى‏ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ» و منه نجاة نوح بجنب غرق الكافرين:

وَ حَمَلْناهُ عَلى‏ ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ ترى ما الذي ينجي نوحا و المؤمنين معه من هذه الورطة الغامرة؟ هذه التي أغرقت الأرض بجبالها و ما عليها و حتى أعلى الجبال، التي علّها تعصم من أمر اللّه!:

«قالَ سَآوِي إِلى‏ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ» (11: 43) فهل المنجي من هذه المهلكة هي سفينة مما تصنعها أيدي إنسانها، ثم و يصبح و هو الربان؟ كلّا! إنها سفينة مصنوعة بيد رسول اللّه و بأعين اللّه و وحيه: «وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا» (11: 37) ثم و ربانها هو رب العالمين‏ «تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ»: أعين القدرة و الرعاية الإلهية «وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ» (11: 42) و إلّا فما قيمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رغم ما تروى من روآيات في استعصاء ماء المر و الكبريت و الملح- انها كانت حلوة فاستعصت فجعلها الله مالحة او مرة ام ما ذا؟ فهذه الروآيات خلاف الواقع من وجود هذه المياه قبل الطوفان، و خلاف عموم القدرة الالهية النافذة في كل شي‏ء و خلاف الآيات الدالات على خضوع كل شي‏ء له، فتأول او تطرح- راجع نور الثقلين 5: 178

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 487

«ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ»: حاملة ذات أخشاب كبيرة و أوتاد تربطها! اللهم إلّا بأعين اللّه، فهي إذا تحمل رسول اللّه و من معه من المؤمنين باللّه: «تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ»: طوال الف سنة إلّا خمسين عاما، فقد كفروا به طوال الدعوة، و ستروه عنها و ما يحق له، فكفرهم اللّه في الغامرات، كفرا بكفر و سترا بستر، و سوف يجزون يوم القيامة جزاءهم الأوفى بما كانوا يكفرون. فقد تتحمل‏ «جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ» أن تعني- إضافة إلى هذا الحمل و الجري العظيم- التقاء الماء على أمر قد قدر من غرق الكافرين، ففي غرقهم له جزاء كما في حمله و نجاته له جزاء، فليس غرقهم جزاء عليهم بكامله، اللهم إلّا نذرا، و إلّا له جزاء هنا.

و من ثم نرى لهذا الجزاء ذي زاويتين بقاء كآية للمؤمنين و الكافرين:

وَ لَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ:

«إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ. لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ» (69: 12) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (29: 15) «وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» و آية من هذه الآية، لوحة من هذه السفينة تحمل بشارة محمدية، برزت قبل ربع قرن في وادي قاف السوفيت‏ «1» آرارات، المسماة في القرآن بالجودي، بشارة بأسماء الخمسة الطاهرة: محمد و على و فاطمة و الحسن و الحسين (ع).

فلقد ترك اللّه هذه السفينة الآية، و ما على لوحتها من آية، تركها آية العالمين، و تذكرة للمدّكرين: «فَكَيْفَ كانَ عَذابِي» على الكافرين «و نذر» ي؟ إنه كان عذابا بعد الإنذار و الاستكبار، و بعد الإياس عن اثر الإنذار!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الجزء 29 ص 90- 94- ففيه شرح و صورة فوتوغرافية عن اللوحة. التي وجدت في بعض قلل جبل آراراط و هو الجودي كما يصرح به في القرآن‏ «وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 488

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ يسرناه عبر القصص و الأمثال، و عبر الحجج البالغة و البراهين الدامغة، عبر صنوف العبر، و عبر كل ما تتقلبه الفطر و العقول و الفكر.

هذا و كما نرى القرآن يسر التناول و الإدراك، و لحدّ الاعجاز كما في سائر جوانبه اللفظية و المعنوية، و ما عسر اكتناه معانيه، و اقتصاء مغازيه إلّا لأن فيه مجامع العلوم الربانية، الممكن نزولها إلى الخليقة مدى القرون و الأجيال، رغم يسره في تعبيره و نضده في عبيره، فمهما كان التعبير يسرا لم يكن إلّا تيسيرا لادراك المعاني الغامضة، و الأضواء الوامضة، دون أن يجعلها سطحية سوقية ساذجة.

انه تيسير للذكر، لمن بامكانه الذكر، لمن لم يغرب عقله، و لم يعزب ضميره و ان كان لدا: فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (19: 98) لعلهم يتذكرون (44: 88) فإنه يأخذ بمسامع الآذان، و من ثم بأزمة القلوب حيث يتلوه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في الأنفس: وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً (4: 63): يبلغ أعماق القلب‏ لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ.

فلا سبيل لمن له مراس بلغة القرآن أن يعتذر بغموضه في أعماقه و رموزه، ان لم يتذكره، فكل من يفهم هذه اللغة يتذكر من القرآن قدر مجهوده، و لا اقل تذكّر العظة، و إن لم يبلغ مبالغ الأغوار في علومه و حقوقه، طالما السبيل إليها مسلوكة لمن يواصل السير مجهوده، فإنه معلم لمن يتعلم، و واعظ لمن يتعظ، و قاصد لمن يقصده، و حصد لمن يحصده، و راصد لمن يرصده، و فيه ما يتطلبه أي طالب إلّا الباطل.

كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ؟

انهم عاد الأولى و هم قوم هود (ع) كذبوه شر تكذيب، رغم ما أنذرهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 489

اللّه بخير نذر، فلاقوا مسّا من عذابهم‏ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ ي؟:

إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ. تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ «1»:

أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ‏ لا- إليهم، بما يوحي بإرسالها عذابا لا رحمة، و من تصريحة العذاب (صرصرا): و هي البالغة في الصر و القرّ: برد قارص لا قبل له، فقد كانت غالبة عاتية على هؤلاء العتاة: وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ (69: 7) و كما عتت على خزانها.

سخر اللّه عليهم هذه الصرصر العاتية فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ: يوم عذاب نحس، فليس اليوم نحسا إلّا بما فيه‏ «2» نحس مستمر استمرارا زمنيا جعله أياما:

فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ (41: 16) و هي: «سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً» (69: 7) أيام نحسات حاسمات أزالت كافة آثار النحس و الطغيان، فقد أصبحوا تحت رحمة هذه الصرصر العاتية كالنخل الخاوية الاعجاز، المنعقرة المصرومة، المقتلعة عن قعرها فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ؟

(69: 8).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ص 309 ج 30 و ص 86 ج 29، و قد ذكرت عاد في اربع و عشرين موضعا من القرآن تنديدا بهم و تذكيرا لمن بعدهم.

(2) فنحس هنا صفة لمضاف اليه محذوف، كعذاب او مثله: يوم عذاب نحس- و ليس صفة ليوم فانه مضاف و ليس موصوفا.

و هذا هو الواقع الملموس ان لا خير فيه و لا نحس الا بما يجري فيه من خير او شر، فطبيعة الزمان المقدارية متشابهة الاجزاء، و الزمان بوجه عام لزام، و بوجه خاص لنا محسوس ملموس، يظهر من طلوع الشمس و غروبها فمن اين النحوسة او الخيرية، اللهم الا مما يحدث فيه. فلا عبرة بالأحاديث الواردة ان يوم الأربعاء ام ماذا يوم نحس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 490

و قد يوحي هذا التشبيه أنهم كانوا جساما أقوياء كالنخل، إلا أن عذاب اللّه أقوى فلا يعرف قوة لهؤلاء الهزلاء الضعفاء.

ثم و هذه الصرصر كان لها حرّها إضافة إلى قرّها، نموذجا من النار الزمهرير في الجحيم: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ» (41: 13) ازدواجية عذاب الحرّ و القرّ من هذه الريح العقيم الصرصر: «وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ» (51: 41) و علها كانت في أولها صرا، ثم أصبحت حرا، أم هما المستمران طول الأيام الثمانية!.

فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ؟ و الجواب هو واقع المشهد لصرعى الزمجرة، و من ثم نقله في هذا الذكر الحكيم يسرا للمدّكرين:

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ .. تتكرر هذه الذكرى في هذه المصارع أربع مرات، و لكي يتذكر من أراد أن يذّكرا و أراد نشورا.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ. فَقالُوا أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ. أَ أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ.

و ثمود هم قوم صالح، كذبوا بالنذر قبل صالح و معه و إياه، و هو يختص بالذكر من بينهم لأنه أعظمهم و آيته الناقة من أعظم الآيات، فظلمهم بها من أقبح الظلم: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها. إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها. فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْياها. فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها. وَ لا يَخافُ عُقْباها «1».

انهم كذبوا بالنذر قوليا و عمليا، فما أبقوا فيما طغوا شيئا إلّا فعلوه‏ فَقالُوا أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ‏ مثلث التأنيب ذريعة للتكذيب: أَ بَشَراً و كيف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ج 3 ص 335 من الفرقان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 491

يبعث اللّه بشرا: إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى‏ بَشَرٍ مِنْ شَيْ‏ءٍ (6: 91) بَشَراً مِنَّا فلو كان بشرا من غيرنا لا مثلنا، فعلّه كان أهلا للإتباع: قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا (14: 10) بَشَراً مِنَّا واحِداً: واحدا عن الأنصار، و عن العشيرة و المال، و عن طاقات بشرية و سواها قد تؤهله للاتباع: وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى‏ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (43: 31).

فهؤلاء الأوغاد المناكيد يتذرعون بثالوثهم المنحوس هذا، إلى تكذيب بشر رسول، و ترى ماذا يمنع عن كون بشر رسولا إلى بشر؟ و فيه الحجة، و به قطع الأعذار و إكمال المهجة، فحتى و لو بعث ملكا لجعل بشرا لهذه الغاية و اضرابها وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ‏ (6: 9).

و ترى بعد أن في إتباع الرسول البشر ضلال و سعر كما تقولوا: «إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ»: ضلال في أرواحنا، و سعر: نيران متسعرة عاتيا في حياتنا كلها، و لماذا نتبعه فنسجر لأنفسنا حياة جهنمية ضالة؟!.

و إذا كان هنا ضلال و سعر، فهل في تكذيب الرسل هداية و جنة، و يا لها من معاكسة ضالة جهنمية يتذرعون بها إلى تكذيبهم رسل اللّه!. و يا لهؤلاء المكذبين من قدسية احتياطية يتحرزون لها عن إتّباع رسل اللّه، احترازا عن ضلال و سعر، هما من مخلفات تكذيب رسل اللّه!.

ثم نراهم يضيفون إلى ثالوثهم رابعا يدعمون به صرح الطغيان، ظلمات بعضها فوق بعض، و شبهات مكررة تحيك في صدور المكذبين طوال تاريخ الرسالات:

أَ أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ؟:

كأنهم هنا أغمضوا النظر عن ثالوثهم المسبق: فليكن بشرا منا واحدا!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 492

فلما ذا يكون هو هذا الواحد؟ فليكن كل واحد منا رسولا لنفسه، أو و إلى غيره أيضا: بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى‏ صُحُفاً مُنَشَّرَةً (73: 52) أم إذا لا يبعث إلّا واحد، فكيف يلقى عليه الذكر من بيننا، و هو لا يملك عدة و لا عدة، و نحن العدة و لنا العدة؟: وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى‏ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ. أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا (43: 32)؟ و هم يريدون أن يقسموا المعايش الروحية في الحياة العليا! و أين حياة من حياة، و رزق من رزق؟!.

و من هذه الشبهات الواهية يتخطون تركهم لاتباع الرسل إلى تكذيبهم الأشر: بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ!: مبالغ في الكذب و البطر: الفرح و الفخر و المرح، فالفرح المذموم شديده البطر و أشده الأشر، فقد وجه إلى هذا النبي العظيم أشد التهم، و لكي يسقطوه عن أعين الناس، و يتذرعوا به إلى التخلف الشرعي عنه! و لكن:

سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ: فإن الغد سوف يكشف عن من هو الكذاب الأشر كشف الواقع، طالما هو المكشوف اليوم عند من لم يغرب عقله، و من الغد:

إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ. وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ. فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى‏ فَعَقَرَ.

و الناقة هذه آية إلهية أرسلت فتنة لهم: حجة و اختبارا، و كما اقترحوها «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

روضة الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (ع). في حديث‏ حول الآية: فبعث اللّه إليهم صالحا فدعاهم فلم يجيبوه و عتوا عليه عتوا و قالوا: لن نؤمن لك حتى تخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء و كانت الصخرة يعظمونها و يعبدونها و يذبحون عندها في رأس كل سنة و يجتمعون عندها فقالوا له: ان كنت كما تزعم نبيا رسولا فادع لنا إلهك حتى يخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء فأخرجها اللّه كما طلبوا منه الحديث.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 493

فتبين لهم منها من هو الكذاب الأشر، قبل أن يعلموا يوم القيامة، فالغد هنا يشملهما، و لا سيما أن في غد الأولى حجة حاضرة حاذرة، و ليس في الأخرى إلّا تخويفا قد لا يخوفهم لأنهم ناكروه و كما في‏ «إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ ..» إيحاء ظاهر ان لإرسالها رباطا باهرا بالكشف عن الكذاب الأشر.

إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ:- و لقد حمل صالح هذه الرسالة الآية:

«قالَ‏ ... قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (7: 73) «وَ آتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها» (17: 59) «فارتقبهم» فيما يفعلون و يفتعلون رقابة الرسالة فتبشيرا و إنذارا «و اصطبر» على أذاهم، و لكي يعلموا من الكذاب الأشر.

وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ‏:- «هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ» (26: 155) فقد كانت آية في ولادتها دون و الدين و عن الجبل، و في شربها الماء قدر شرب القوم، آية حجة و ابتلاء.

... قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ: قسمة إلهية بينهم و بين الناقة، كل يشرب: نصيب الشرب محتضر: حاضر دون انتقاص، قسمة عادلة حاضرة.

فهل انتبهوا بهذه الآية و خرجوا عن غيّهم؟ كلّا! إنهم ارتكبوا جريمة نكراء، لقد فتكوا بالآية المعجزة و قتلوها:

فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى‏ فَعَقَرَ: و ذلك رغم ما حذروا عن مسها بسوء:

«هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ‏ ... فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» (7: 73) و 77).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 494

عقروا الناقة بما نادوا صاحبهم لعقرها، و ساعدوه و هو «أشقى الأولين أحيمر ثمود، رجل عارم عزيز في رهطه» «1» «فتعاطى»: تناول منهم ما به يعقر «فعقر» الناقة، و التناول هنا يشمل كل التناولات المشجعة للعقر: من خمر تجننه، و من مال و سيف و من مكاسب معنوية عندهم، و العقر هو إصابة الأصل و القعر، فهي بالنسبة للناقة استئصالها و نحرها.

«كانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ» (27: 48) فتصالحوا في إفساد عظيم على أحيمرهم فنادوه فتعاطى فعقر، فتمت الفتنة و وقعت المصيبة.

فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ. إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ. وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

و إنها لصيحة خلفت رجفة مدمرة جاثمة هاشمة تحقيقا لوعد سابق مطلق و آخر لاحق غير مكذوب: «فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ، فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ... وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ. كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها ..» (11: 68).

و يا لها من صيحة مرجفة جاثمة هاشمة: جثمتهم في ديارهم: لاطئين بها، لازقين عليها كأن لم يغنوا فيها، و هشمتهم: كاسرة لهم كالنبات الرخو «هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ» «فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ» و يا له من تنظير عديم النظير، إذ شبههم بهشيم: الحشيش الذي يخرج من الحظائر بتفتّت، هذا الذي يحتضره المحتظر: صاحب الحظيرة، للبيع أكلا للحيوان أو إحراقا للتدفئة و الطبخ.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 357 عن النبي (ص) قال لعلي (ع) من أشقى الأولين؟ قال: عاقر الناقة- فمن أشقى الآخرين! قال: قلت: لا اعلم يا رسول اللّه (ص)! قال: الذي يضربك على هذه و أشار الى نافوخة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 495

فهم هشيم لكونهم يابسين كالحشيش كمن ماتوا قبل زمن بعيد، و هشيم حيث انضمت أجزاءهم بعضها ببعض كحطب الحاطب الموضوع بعضها فوق بعض كالحظيرة. و هشيم محتضر لوقود المحتظر، و لقد كانوا هشيما كهذا الثالوث من وقعة الصيحة المرجفة. احتضروا كوقود النار: «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ» (21: 98) و اللّه تعالى هو المحتظر لهذا الهشيم من حظيرة الكون الواسع.

و يا لها من مصارع لكفار التاريخ، فهنا هشيم المحتظر، و هناك أصحاب الفيل كعصف مأكول، و هنا لك سائر المعذبين‏ «فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ» ي؟.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ، إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ. نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ.

.. و من جرّاء تكذيبهم- و أشده و أنكره- بلوط عليه السّلام يرسل اللّه عليهم حاصبا: ريحا سماوية تحمل حجارة: «فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» (11: 83).

«إِلَّا آلَ لُوطٍ». «... إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ» (15: 60). «نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ»: «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ» (65) «إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ» (81).

فهذا القطع من الليل هو من سحره، حيث العيون نائمة، و عيون أهل اللّه ساهرة، و هذه النجاة من نعم اللّه: «نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ»:

أحيانا في الدنيا و تماما في الأخرى.

و فيما إذا سألنا: فما ذا ذنب الأطفال، غير مكلفين في أي دين، إذ لم يستثنوا مع آل لوط الناجين؟

فالجواب: إن هلاكهم مع آبائهم الكافرين ليس لهم عذابا، و إنما مزيد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 496

ابتلاء لآبائهم إذ يرونهم هلكى كأمثالهم، ثم هم يجزون جزاء القاصرين غير المقصرين و لا يظلمون نقيرا، و كما يرون آباءهم المقصرين معذبين فيجبر بلاءهم، و ما اللّه بظلّام للعبيد!.

و مما يوحي بهذا التحليل الآيات المحتجة عليهم، المنددة بهم، المحذرة إياهم عن العذاب، و القصّر خارجون عنها كلها:

وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ:

علّها مثلث البطشة: من طمس أعينهم، إذ راودوا لوطا عن ضيفه، و من إرسال الحاصب عليهم بحجارة من سجيل، ثم البطشة الكبرى في الأخرى‏ «يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى‏ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ» (44: 16).

فالبطشة المنذر بها تشملها كلها، و كما أنذر: «وَ قَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ» (15: 66) كما و أنذر- مثل سائر المنذرين- البطشة الكبرى، و لكنهم‏ «فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ»: ترددا في أمرهم، تداولا للمرية فيما بينهم ليجسموها كأنها الحق، متحاجين على النذر، مهددين إياهم، مستهزئين بهم، لاغين معهم، و إلى كل صنوف المماراة.

وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ.

المراودة هي التفاعل و التعامل في الرّود و التردد في طلب الشي‏ء برفق أو أي ضرب من ضروب المحاولات، و لقد كانت مراودتهم إياه عن ضيفه- إذ حسبوهم غلمانا صباحا. فهاج سعارهم- كانت شرسة نحسة للغاية: «وَ جاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ. قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ. قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى‏ رُكْنٍ شَدِيدٍ. قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ..»

(11: 81) «لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ» إيحاء لطيف انهم على جموعهم المحتشدة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 497

و إصرارهم لن يصلوا إلى بغيتهم، إذ إن هؤلاء ملائكة اللّه، و ان اللّه يطمس أعين القوم دونهم: «فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ» .. و هل إنه طمس بذهاب أعينهم إلى العمى‏ «1» كما هو ظاهر الطمس، و ليس الستر أو السدّ حتى يكون مؤقتا، و كما قد توحي له‏ «فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ» فليس الحجاب المؤقت عن الرؤية عذابا في هذا الحساب! ثم و هذا من ذوق العذاب فما هو ذوق النذر؟.

إنه ذوق لنذارات النذر بالعذاب المنذر به، و تحقيق وعدهم، و تكريمهم فيه رغم مهانة المنذرين، و قد أنذرهم لوط هذه البطشة الطامسة الحاصبة:

وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ.

فطالما الطمس و ذهاب الأعين آني لا يستقر عذابه، مهما استقر حرمانهم عن الرؤية، و لكنهم بطمسهم عن الحياة بالحاصب استقروا في العذاب دون فتور، لاتصاله بعذابي البرزخ و القيامة.

فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ. وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ:

نذير فوق نذير، و تذكير فوق تذكير، و عذاب فوق عذاب بما قدموا من نكير! وَ لَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ. كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

و من أكبر النذر موسى عليه السّلام آية إلهية عظمى يحمل آيات معجزات، و آل فرعون كذبوا بهذه الآيات كلها، لا بكل الآيات الإلهية طوال الرسالات، فإن منها ما حصلت زمن موسى و نذر معه، أو قبله و بعده، و منها ما اختصت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الكافي عن أبي عبد اللّه (ع) في حديث قصته لوط .. فكابروه- يعني لوطا- حتى دخلوا البيت فصاح به جبرئيل فقال يا لوط دعهم فلما دخلوا أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم و هو قول اللّه عز و جل‏ «فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ».

و

في علل الشرايع عن أحدهما (ع) فأشار إليهم جبرئيل بيده فرجعوا عميانا يلتمسون الجدار بأيديهم يعاهدون اللّه عز و جل: لئن أصبحنا لا نستبقي أحدا من آل لوط.

(الفرقان- م 32)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 498

بخاتمة الرسالات و هي أكبرها و أخلدها، و منها، ف «كلها» هنا تعني كل الآيات التي أرسل بها نذرهم.

فَأَخَذْناهُمْ‏: «فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ» (51: 40) «أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ» فالآخذ عزيز مقتدر، و المأخوذ عزيز مقتدر! ف «أخذ» هنا تتحمل كونها مفعولا لأجله للآخذ و المأخوذ كليهما، و لكن أين عزيز مقتدر من عزيز مقتدر! و قد يلقي هذا الأخذ ظلال الشدة و العنف على عذابه، تعريضا بعزة فرعون و اقتداره المزعومين، فبحسب ظلمه و بغيه على عزه و قدرته، كان أخذه قويا.

فأولئكم من أحمق حماقى التاريخ طغيانا و كفرا، ذاقوا و بال أمرهم على عزتهم و قوتهم، فما يأمنكم أن يأتيكم عذاب كما أتاهم:

أَ كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ؟

ترى من هم المخاطبون ب «كم» الأولى و الثالثة؟ هل هم الكفار المهددون بالعذاب؟ فكيف يضاف الشي‏ء إلى نفسه: «كفاركم» و الصحيح- إذا- أ أنتم! أم هم جموع المنذرين، الكافرين منهم المقصرين، و الناكرين القاصرين الذين مصيرهم الإيمان أو اللاتكذيب و اللاإيمان؟ قد يكون ذلك، ف «كفاركم» هم المكذبون الذين سواء عليهم أ أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، و «كم» أعم منهم و كذلك «كم» الثالثة هم جموع المنذرين، هؤلاء و هؤلاء، ففي توجيه الخطاب إلى العموم، المبتدء بالقاصرين غير المعاندين، تشريف لهم مع الإنذار، يشاركه و يجاوبه الخطاب الثالث «لكم»: «أكفاركم» أنتم غير المسلمين‏ «خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ» جميعا مكذبين و غير مكذبين‏ «بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ»؟:

و إنها نهاية المطاف في إسقاط كل شبهة عن وحي السماء، و سد كل ثغرة و كل مطمع في الهرب عنه.

و ترى هل في الكافر خير حتى يفضل به على سواه من الكافرين؟ «أَ كُفَّارُكُمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 499

خَيْرٌ» .. علّ الخير هنا خفة الكفر- أ أنتم أقل كفرا منهم لكي تأمنوا عذابهم؟ كلا- فأنتم سواء، أو و لو كنتم خيرا فالكفر دركات، لا ينجو أي درك لخفته عما يستحقه، أو علّ الخير هو المزعوم من عزة و قدرة و مال و بنين، يستمد بها لدفع المضر أَ كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ: أملك مما كانوا يملكون من خير عاجل واه؟

كلّا! فإنهم كانوا خيرا، فلم يك ينفعهم خيرهم عما أصابهم من شر و عذاب:

«كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» (9: 69).

او لا خيرية هنا و هناك- بل: «أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ»:

فما هي هذه الزبر: الكتب؟ هل هي سماوية؟ فأين هي! و إذا كانت هي فتلك إذا قسمة ضيزى: ظالمة جاهلة و تمييز خاطئ، فالزبر منه براء، اللهم إلا ما كتبته ايدي الدس و التحريف، فالوحي منه براء .. و إذا كانت غير سماوية فلا حجة فيها! و العقل منه براء.

و إذ لا خيرية لهم و لا براءة لكم- كما العقل يدل و الواقع يشهد- فهل تسندون في باطلكم إلى جمعكم؟:

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ «نَحْنُ جَمِيعٌ»: جمع متكاثف متكاتف كأننا واحد، حيث الفعيل يبالغ في مادته، فالجمع المبالغ في الجمعية هو المتكاتف الرصين كبنيان مرصوص واحد، و لذلك يخبر عنهم ثانيا ب «منتصر» رغم جمعية «نحن» فقد تحولت إلى واحد فهو منتصر: خبر بعد خبر عن «نحن».

و هكذا جمع هو القوة الحاسمة الصارمة و ينتج الإنتصار و الغلبة على المناوئين، و إذا كانوا جميعا هكذا كما يدعون فلا انتصار لهم إلا على اضرابهم الكافرين غير الجميع، و اما على المؤمنين الجميع فلا، فجمع أولئك هو يبور، لأنه جمع على الباطل البائر، و جمع هؤلاء لا يبور، لأنه على الحق غير البائر، «فَأَمَّا الزَّبَدُ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 500

فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ» (13: 17) و ان مكث الباطل زمنا، ف:

سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ: و بما ان الهزم هو غمز الشي‏ء اليابس حتى ينحطم كهزم الشن، فهو ايحاء الى يبسهم في جمعهم إذ لا بلازق عريق، و لا تلاصق عميق، فهم- إذا- على جمعهم يكسرون و جاه الجمع المتلازق المتلاصق من المؤمنين.

و تصديقا لهذه الملحمة القرآنية، الحاملة نبأ الغيب، لقد هزمت- بعدها بزمن- جموع من المشركين في حروبهم مع المسلمين أولاها حرب بدر، هذه البادرة المعجزة التي بيضت وجوه المسلمين- إذ غلبوا و هم 363 شخصا- على المشركين و هم عشرة آلاف.

تنزل هذه الآية بمكة المكرمة إذ لا عدة لهم و لا عدة فلا جرأة على حربهم، ثم تتحقق ببشارتها بالمدينة يوم بدر، و كان يرددها الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مبتهجا ان حقق اللّه له وعده‏ «1» و نصر عبده إذ هزم جمعهم الجميع فولوا الدبر، و وحدة الدبر كوحدة الجمع إشارة الى وحدتهم في جمعهم.

و مهما كانت هذه الهزيمة- بما قبلها و بعدها من هزائم عظيمة فهي هزيلة بجنب الساعة:

بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَدْهى‏ وَ أَمَرُّ إنها أدهى: و ابلى لا خلاص عنها، و امر من كل ما مر: من هزيمة و صاعقة و صرصر و طوفان و حاصب و أخذ عزيز مقتدر، فانها يوم البطشة الكبرى التي لا قبل لها و لا قبل فيما مرّ، فانها أدهى و امرّ.

فالمرارة و إن كانت لا يوصف بها إلا المذوقات و المتطعمات، و لكن الساعة لما كانت مكروهة عند مستحقي العقاب، و مكروهة بعقابها، حسن وصفها بما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 136- 137- أخرجه جماعة عنه (ص) انه كان يثب في الدرع يوم بدر و يقول: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ ..» فلما انتصر قال: هزم الجمع و ولوا الدبر- و انزل اللّه: و ما رميت إذ رميت و لكن اللّه رمى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن ج‏27 501 [سورة القمر(54): الآيات 9 الى 55] ..... ص : 480

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 501

يوصف به الشي‏ء المكروه المذاق، و من عادة من يلاقي مكروهه أن يتهيج وجهه، بما يدل على نفور جأشه و شدة استيحاشه، فكذلك المجرمون إذا شاهدوا أما رأت العذاب و نوازل العقاب، ظهر في وجوههم المنكر، ما يستدل به على فظاعة حالهم، فكانوا كلائك المضغة المقرة، و ذائق الكأس الصبرة في فرط التقطيب- «السَّاعَةُ أَدْهى‏ وَ أَمَرُّ».

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ، يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى‏ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ .. انهم في ضلال مستمر و سعر متسعر يوم الدنيا و يوم الدين، عكس ما كانوا يتقولون‏ «أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ» فهذه القولة الضالة المتسعرة هي من ضلالهم، الذي هو عذاب للعقول- لو كانت- و للنفوس، و من جرائها و ورائها سعر الحياة الجهنمية البائسة، و في آخر المطاف: «يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى‏ وُجُوهِهِمْ» كما يسحب الحمر المستنفرة، و ليعرفوا و يذوقوا واقع ضلال و سعر «ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ»؟ فبقدر ما أجرموا يذوقون مس سقر، و بقدر ما قدروا الهدى ضلالا و سعرا، سوف يكونون في ضلال و سعر- ف:

إِنَّا كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ:

خلق بقدر، و تقدير بقدر تكوين بقدر و تشريع بقدر، ثواب بقدر و عقاب بقدر «1» في كل شي: «وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً» (25: 1) «وَ كُلُّ شَيْ‏ءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ» (13: 8) فخزائن كل شي‏ء عنده كخلق كل شي‏ء منه: «وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» (15: 21) ان كان امرا من الأمور

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في كتاب كمال الدين و تمام النعمة عن الحسن بن علي (ع) عن علي (ع) انه سئل عن قول اللّه عز و جل‏ «إِنَّا كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ» فقال: يقول عز و جل: انا كل شي‏ء خلقناه لأهل النار بقدر اعمالهم،

أقول: و هذا من التفسير بالمصداق المذكور قبل الاية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 502

او الأوامر: «وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً» (33: 38) حتى و لو كان ماء من السماء: «وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلى‏ ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ» (23: 18) «إِنَّا كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ»:

قدر في كل شي‏ء بحساب اللّه في خلقه و أمره دون فوضى و لا جهالة، قدر لا يقدر عليه إلا اللّه، مهما قدره خلق من اللّه بما أقدره اللّه علما و عرفانا، و كما في تقدم العلوم البشرية ظهور قدر من قدر اللّه حسب القدرة البشرية، يزيدها علما و إيقانا ان الكون بعجلته صنع يد قديرة عليمة واحدة: «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ»؟.

ثم و قدر الشي‏ء هو الحد الذي لا يتجاوزه أو ينقصه، من هندسة الكون، و من القضاء و القدر، اللذين لا يتنافيان و اختيار الإنسان فيما يثاب به أو يعاقب عليه، فلقد قدر اللّه للإنسان فما قدر، أن يكون شي‏ء من أفعاله باختياره، كما قدر له أن يكون شي‏ء آخر من أفعاله دون اختياره، و الاختيارية من أفعال الإنسان و إن كانت- في وجه- من أفعال اللّه أيضا، و لكنه لا يسيره إليها دون اختياره-

«لا جبر و لا تفويض بل أمر بين أمرين»

لا هو مفوض في أفعاله بمعزل عن الإرادة الإلهية، و لا هو مجبور فيها بمعزل عن اختياره نفسه، و إنما له اختيار في هذه الأفعال قليلا أو كثيرا، ما يجعله مختارا، و لو بجزء من مئات الأجزاء، أو مقدمة من مئات المقدمات، فالاختيار بين درجات و دركات، و التفويض و الإجبار كل على سواء دون درجات أو دركات، و ليعرف هؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون، ان فعل اللّه ليس فوضى عشوائية عمياء، و إنما بقدر و حكمة، و بعلم و مصلحة ترجع لصالح الخلق و الخلق فقط، فليس اللّه هو المستفيد، و إنما هو المفيد في كل فعل و بكل قدر: قدر يحدّد حقيقته و صفته، زمانه و مكانه، و من ثم رباط بسائر الكون و تأثيره فيه و تأثره به، و لو أردنا تفصيل القدر حسب ما وصل إليه علم البشر و هو نقطة من البحر، لكلّفنا موسوعة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 503

شاسعة واسعة و إليكم نموذجا من عين لك واحدة: إن لها سبع طبقات و ثلاث رطوبات، فواحدة من السبع هي الشبكة، و هي لا تزيد في سمكها على ورقة، و فيها وحدها ثلاثة ملايين مخروط و ثلاثون مليون اسطوانة، و بهذه كلها يكون النظر فلتنظر بهذه العين و البصر الى الكون الواسع لتعرف القدر و كما تقدر.

وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ: فما هو أمر اللّه هنا و ما هو لمح البصر؟ هل هو أمر التشريع؟ و ليس واحدا بل هو أوامر في تشاريع: «ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى‏ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ ..» (45: 18) ثم و لا صلة له بلمح البصر! أم هو أمر التكوين و التقدير؟ فكذلك الأمر!: «تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» من الأمور و الأوامر «بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً» (13: 31) و ليس الواحد جميعا! أو هو أمر الساعة: «وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» (16: 77)؟ قد يكون، كما و تجاوبه «واحدة» إذ ليست صفة لأمر، و إنما لموصوف ك: إرادة- أو كلمة تعنيها: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (36: 82) فهي كلمة كن- التكوينية.

أو أن «أمرنا» هنا تشمل الإرادات الإلهية كلها على سبيل البدل و هو أجمع: و ما أمرنا في التكوين و التقدير إلّا واحدة كلمح بالبصر، واحدة حقيقية غير مركبة من معدات مقدمات، و لا في حالة التكوين، و دون حاجة إلى زمان أو مكان أو أعوان و لا أمر آخر أيّا كان، و إنما كلمة «كن» و ليست لفظية، و إنما تكوينية يعبر عنها بها تقريبا لأذهاننا.

كما و أن لمح البصر لا يعني زمنا قدره، و إن كان قصيرا، و إنما يلمح بأقصر القصر كما كان يعرفه البشر، و كما تدلّ عليه‏ «أَوْ هُوَ أَقْرَبُ»: بل هو أقرب، قربا لا يعرفه البشر، لأنه مجرد عن الزمان، فاللّه هو خالق الزمان و المكان، فكيف يحتاج في أمره الى مكان أو زمان، و إنما لمح البصر أو أقرب منه لمح إلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 504

سرعة النفاذ لأمره فيما يريد دون تربص و لا تريث.

فبواحدة من هذه الوحدات تكون الساعة، كما تكون كل كائنة من الكائنات صغيرة أو كبيرة. بل لا صغيرة في أمر اللّه و لا كبيرة، و لا قليلة و لا كثيرة، و إنما واحدة كلمح بالبصر أو هو أقرب!.

وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ:

الأشياع هم الأتباع في العقيدة و العمل، أو الأحزاب فيها بتجريدها عن التبعية كما هنا، فكيف بإمكان الغابر اتباع الحاضر و لما يأت، اللهم إلا مشاكلة في السيرة، و من ثم فقد يكون الأشياع و المشيع بهم على سواء، أو أقوى منهم- في خير: «وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ» (37: 83) فإنه أعظم من نوح، أو في شر كما هنا، فإن قوم نوح كانوا اظلم و أطغى و قد حشروا بسائر الطغاة في «أشياعكم» و كما علّه في‏ «وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ» (34: 54) فلا يشترط في الأشياع التبعية في السيرة، و لا لحوق الزمن أو حضوره.

ثم و لا يعنى هلاكهم استهلاك أقوالهم و أفعالهم لكي يخلصوا من عذاب الساعة التي هي أدهى و أمر، فانها مزبرة مستطرة:

«وَ كُلُّ شَيْ‏ءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ. وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ» كل فعل لهم بجانحة أو جارحة، بلسان أو سائر الأعضاء العاملة، كل ذلك ثابتة مسجلة في الزبر: زبر الجوارح نفسها، و زبر الأرض بفضائها، و زبر الكرام الكاتبين، في مسجلات صوتية و صورية و كما يصلح أن تكون شاهدة عليهم بما عملوا دون أن يقدروا على نكران.

لا فحسب الكبيرة من الأفعال، فكل صغير و كبير مستطر بما سطره اللّه استنساخا عما عملتم‏ «.. إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (45: 29).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 505

فهاتان الآيتان من آيات انعكاس الأعمال المنتشرة في سور القرآن بعشرات، فصلناها في طياتها فراجع‏ «1».

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ. فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ انهم في جنات حسية و نهر، و أخرى روحية و هي أكبر: «وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» .. و لقد عرفنا «جنات»: أشجار و بنايات تجنهم عن الشمس و ما يؤذي، فما هي (نهر)؟ هل إنها نهر الماء؟ و في الجنات أنهار كما في سائر الآيات لا (نهر): جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ «2»! و انهم ليسوا هناك في نهر، و إنما على نهر أو أنهار، يتنضّرون بها و يستقون منها و يغوصون فيها! علّ (نهر) هنا- هي السعة من فيض اللّه الفائض على أهل الجنة، و على حد

المروي عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: (النهر الفضاء و السعة و ليس بنهر جار) «3»

كما و تجاوبه اللغة «4» فهم- إذا- في جنات، و في سعة من كافة الحاجيات المتطلبات و منها أنهارا، فهي أيضا من نهر، إذ لا حياة فائضة بلا أنهار، فما الطفه- دون تكلف- أن يراد ب (نهر) ما يشمل الأنهار و في مثلث التجاوب كتابا و سنة و لغة!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). منها سورة الزلزال و القارعة في ج 30 و سوف نوافيكم بالباقية في سائر الآيات.

(2) قد جاءت «الأنهار» مع الجنات في 47 موضعا من القرآن، و لم يأت «نهر» لجنات القيامة إلا هنا، و لما في الدنيا إلا مرتين‏ «وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً» (18: 33) «إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ» (2: 249) يعني بهما نهر واحد، و ليس نهر الجنات الاخروية واحدا إلا في آيتنا هذه، فهل أن هذه اليتيمة قبال 47 الأنهار- تعني الأنهار رغم وحدة الصيغة؟.

(3) الدر المنثور 6: 139- أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (ص):

(4) في لسان العرب: النهر و النهر واحد الأنهار و الجمع أنهار و نهر و نهور و النهر كل كثير الجري و انهرت الدم أسلته، و نهر في قوله تعالى: ان المتقين في جنات و نهر قد يجوز ان يعني به السعة و الضياء، و في غريب القرآن: و النهر السعة تشبيها بنهر الماء، و في الشعر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ملكت بها فانهرت فتقها |  | يرى قائم من دونها ما وراءها |

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 506

ثم ترى ما هو مقعد صدق و من هو مليك مقتدر؟ .. إنه قعود صدق، و قاعدة صدق، مكان صدق و مكانة صدق، و (مقعد) توحي بالدوام و اللبث، و من لطيف ما فيها ان (ق ع د) بكل تقاليبها تدل على الدوام و البقاء «1»، دون (مجلس) ثم و لا تعني القعود قبال القيام و الحراك، و إنما المقام و المسكن المريح.

ثم إذا كان‏ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ هو اللّه و هو اللّه، فالمقعد هو المكانة الصادقة الدائبة، ف (عند) لا تعني قرب المكان إذ ليس له مكان، و إنما المكانة و الزلفى، و كما للأخصين من الصالحين: لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ (6: 127) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ .. (7: 206).

و إذا كان المليك هو أقرب عباد اللّه محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- كما عليه يراد ضمن المراد- فالمقعد هو المكان‏ «2» و لا غرو في الجمع بين المليك الإلهي و البشري إذ تتحملها مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ و ان كان اين مليك من مليك! و في هذا الجمع الجميل فالمتقون في مقعد صدق: مكانا و مكانة، عند مليك مقتدر-

(التقوى جماع كل عبادة صالحة، و به وصل من وصل إلى الدرجات العلى، و به عاش من عاش بالحياة الطيبة و الانس الدائم) «3»

فليعش أطيب الحياة و أدومها عند مليك مقتدر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ف: قعد- قدع بمعنى، و: عقد و عدق بمعنى المكث، و دقع و دعق كذلك- «مَقْعَدِ صِدْقٍ» توحي بكل تقاليبها بدوام المكوث!.

(2)

الدر المنثور 6: 139- اخرج أبو نعيم عن جابر قال: بينما رسول اللّه (ص) يوما في مسجد المدينة فذكر بعض أصحابه الجنة فقال النبي (ص) يا أبا دجانة أما علمت ان من أحبنا و ابتلى بمحبتنا أسكنه اللّه تعالى معنا ثم تلا: في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

أقول هذا الحديث ذو وجهين، فقد يعني ب «معنا» نفس‏ «مَقْعَدِ صِدْقٍ» لأنه الصادق الاول في هذا المقعد- و قد يعني‏ «مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ».

(3) مصباح الشريعة عن الامام الصادق (ع) في تفسير المتقين في هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏27، ص: 507

و لكي نعرف أن التقوى تقوى أن توصل بالإنسان إلى حفرة القرب، حيث يعاشر المتقي (الذين عند ربك) فعنده مقامه و هو انسهم و كما عاشوه مدى الحياة، تاركين الرغبات دون حبه و تقواه، معرضين عن طغواه إلى تقواه.

أجل- و أن أفضل المتقين من إذا طالبه الخلق في الدنيا و لها لم يجدوه، و لو طالبه مالك في النار لم يجده، و لو طالبه رضوان في الجنة ملتهيا بها لم يجده، و إنما يجده اللّه عنده و يجد اللّه عنده: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ. فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ فكونهم في جنات و نهر لا يلهيهم عن كونهم عند مليك مقتدر.